العميد الركن الدكتور محمد عبد الحفيظ فرشوخ

مملكة قبرص اللاتينية
بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي
(تكملة الحروب الصليبية)

٥٨٨ - ٨٩٥ هـ / ١١٩٢ - ١٤٨٩ م

بيروت
٢٠١٢ م

شعار عائلة دولوزنيان المالكة

رسم المؤسس جي دو لوزينيان "ت ١١٩٤ م"

لوحة تمثل الملك جي دو لوزينيان وقادة الفرنج في الأسر بين يدي السلطان صلاح الدين بعد معركة حطين. "أكتوبر/تشرين الأول ١١٨٧م"

دينار فضي قبرصي من عهد الملك هنري الأول دو لوزينيان (١٢١٨-١٢٥٣م)

العميد الركن الدكتور محمد عبد الحفيظ فرشوخ

مملكة قبرص اللاتينية
بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي
(تكملة الحروب الصليبية)

٥٨٨ - ٨٩٥ هـ / ١١٩٢ - ١٤٨٩ م

بيروت
٢٠١٢ م

حقوق الطبع

" جميع الحقوق محفوظة للمؤلف بما فيها

حقوق الاقتباس أو النشر الجزئي أو الكلي أو المغفل "

خطوط: الأستاذ صلاح الشامي

تنفيذ الرسوم والخرائط: هادي محمد فرشوخ

الطبعة الأولى بيروت 1433 هـ/ 2012 م

ص.ب. 5328-13

بيروت- لبنان

الإهداء

إلى روح
أبي رحمه الله
وإلى
أمي حفظها الله

بعد شكر الله تعالى

الشكر والتقدير

لمعلمي
ولزوجتي ولأولادي وأهلي
ولأسرتي الكبيرة من الأصدقاء والأحباء
ولكل من عمل معي وبذل من أجلي وآزرني
وما أكثرهم
أشاركهم جميعاً لأنهم شركائي
ومحصلة عمري وأنا بهم أعتز وأفخر

تقديم الكتاب
للأستاذ الدكتور أحمد حطيط

ليس الدافع إلى وضع هذا المؤلف هو الرغبة، فقط، في سد النقص الذي تعانيه المكتبة العربية حول تاريخ جزيرة قبرص في أواخر القرون الوسطى، وما تشكله من نقطة وصل، وربما قطع، أيضا، بين العالم العربي– الاسلامي وأوروبا، بالنظر الى ما بين سكان هذه الجزيرة والعرب والمسلمين من أواصر التاريخ والجغرافية والحضارة والثقافة، بل الرغبة في الاسهام بخدمة علمية في فحص مزاعم الغرب الذي دأب على تشويه صورة الشرق الاسلامي لمصلحة أهدافه التوسعية.

وثمة حقيقة مفادها أن الصراع على جزيرة قبرص لم يكن وليد ظروف فترة الدراسة التي أعدها الصديق الدكتور محمد فرشوخ، فقد تطلعت أنظار الغرب والشرق الى الجزيرة منذ أمد بعيد، وتعود جذور الصراع بينهما عليها الى عصور موغلة في القدم، ليتبلور هذا الصراع في العصر البيزنطي، حينما أقدم العرب المسلمون، إبان حركة الفتوح، على خوض غمار البحر واستولوا على قبرص، ولو الى حين، في اطار النشاط العسكري للأسطول العربي– الاسلامي في حوض المتوسط، مخترقا السيادة البيزنطية التقليدية على هذا البحر، ثم استقرت الجزيرة، بعد هذه الواقعة، ولأمد طويل بيد البيزنطيين، الى أن انتقلت الى اللاتين، عام 1191م، حين انتزعها ريتشارد قلب الأسد، ملك انكلترا، من

إسحاق كومنين المتمرد على البيزنطيين، وباعها للداوية، إحدى المنظمات العسكرية التي شاركت، بفعالية، في حروب الفرنج في الشرق، لتنتقل الجزيرة، بالشراء، بعد أقل من سنة واحدة، الى أسرة لوزينيان اللاتينية، فأقامت فيها مملكة استمرت نحو ثلاثة قرون من الزمن.

ومع ذلك، فإن السيطرة الأوروبية على جزيرة قبرص لم تقِم حواجز بينها وبين الجوار الاسلامي، فالعلاقات التجارية وكتب الرحالة، وكذلك المصادر المعاصرة اللاتينية والاسلامية، تشي بالكثير من أخبار التواصل الانساني بين الطرفين المتجاورين.

لقد واجهت الباحث عند شروعه باعداد كتابه الموسوم بـ " مملكة قبرص اللاتينية بين الشرق الاسلامي والغرب الأوروبي" – وهو موضوع ينفر منه الكثير من الباحثين – مصاعب جمة، منها: ندرة المعلومات المتعلقة بأحوال جزيرة قبرص في الفترة الزمنية للدراسة، الممتدة ما بين عامي 1192 و1489، وخصوصا المصادر العربية والاسلامية؛ فما كتب عن تاريخ قبرص، آنذاك، انما وضع، بمعظمه، باللغة اللاتينية، ما يعني أن ما كتب في هذا الموضوع قد تم من وجهة نظر غربية، عموما، الأمر الذي يعطي لكتاب الدكتور فرشوخ مبرراته العلمية، مع الملاحظة أن تاريخ قبرص ارتبط في معظم أطواره بتاريخ الأقطار المجاورة لها في حوض المتوسط، ما يستلزم دراسة كاملة لتاريخ المنطقة المذكورة، وهذا ما تنبه له الباحث، فوضع جزيرة قبرص في نصابها الجيوسياسي، بلباقة ومهارة نادرتين، وأوفى الموضوع حقه من دون أن يثقل كاهل البحث بمتاهات التشعب والاستطراد.

توزع كتاب الدكتور محمد فرشوخ في مقدمة وبابين اثنين، احتوى كل من البابين على أربعة فصول، بالاضافة الى خاتمة وستة ملاحق، فضلا عن فهرسيين علميين أحدهما للأعلام والآخر للأماكن.

تناول الباحث في الباب الأول التاريخ السياسي لمملكة قبرص اللاتينية، منطلقا من خصوصية جغرافية جزيرة قبرص ومكانتها الاستراتيجية في حوض المتوسط، ودرس ظروف قيام مملكة للاتين فيها، وتوقف عند علاقاتها بالغرب الأوروبي وبدولة المماليك في أواخر القرون الوسطى، متتبعا تطورها الى حين استيلاء العثمانيين عليها عام 1571م، وأفرد الباب الثاني للجوانب الحضارية لمملكة قبرص، فدرس نظمها السياسية والعسكرية والادارية والاقتصادية والاجتماعية، وفاقا لما هو معمول به في النظام الفيودالي الأوروبي.

تجنب الباحث الأفقية السردية، وتكرار الاشارة الى الأحداث والوقائع المعروفة لدى الباحثين في تاريخ قبرص اللاتينية، ولم يقرأ التاريخ رواية، كما فعل جيل كبير من المؤرخين العرب والمسلمين، وإن فرض عليه السياق التاريخي ذلك، في غير موضع من الكتاب، وخصوصا في فصول الباب الأول، وكذلك عند حديثه عن تطور جزيرة قبرص من الفتح العربي الى العهد الأيوبي، وعلاقات قبرص مع بيزنطية الى حين انتقالها الى السيادة اللاتينية، ليكون العرض التأريخي ممهدا لقراءة فاحصة ومدققة لهذه الوقائع التي استقاها من المصادر الموثوقة والمراجع المعتمدة، فقارب الحقائق، في ما يتصل بحروب الفرنج في الشرق، وانعكاساتها على العلاقات بين جزيرة قبرص وجوارها العربي – الاسلامي، بعقل هادئ، وروية تتسم بسعة الاطلاع، معتصماً بالموضوعية الواجبة في البحث العلمي.

وقد تميز كتاب الدكتور فرشوخ بمنهج علمي قوامه العرض والدراسة والتحليل والوزن والتعليل والربط والاستنتاج، يذوّقه أسلوب يتصف بالرصانة والانسياب، دونما تكلف أو صنعة، ما يجعل القراء يأنسون اليه، ويقبلون عليه، مهما اختلفت حظوظهم من الثقافة، وأياً كانت ألوانهم من المعرفة.

وبعد،

ما الذي يمكن أن نخرج به من قراءة هذا الكتاب؟

فلئن كنت أميل الى عدم مصادرة استباقية لحق القارئ في مقاربة ممتعة ومثيرة للمسائل التي عالجها الصديق الدكتور محمد فرشوخ، والاستنتاجات التي توصل اليها، وهي كثيرة، فاني أود أن أشير الى أن ثمة اهتمامات في الكتاب كثيرة ومتنوعة، تجعل منه دراسة تأريخية وحضارية لقضايا شائكة تتصل بالعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، لمّا تنل ما تستحقه من عناية الدارسين، عالجها الباحث بروح علمية، ونظرة شمولية، معولا، في ما توصل اليه، على قراءة معاصرة للأحداث التي درسها، لصلتها بأحداث كبيرة نعيشها اليوم، تتحكم في العلاقة بين العرب والمسلمين من جهة والغرب من جهة ثانية، ما يجعل الكتاب جديرا بالاهتمام.

بيروت في 19 آب (أغسطس) 2011

أحمد حطيط

فهرس المحتويات

مقدّمـــــة.	**19**
الباب الأول: مملكة قبرص اللاتينية –التاريخ السياسي.	**27**
الفصل الأول: جزيرة قبرص، موقعها الجغرافي ومكانتها في العلاقات بين الشرق والغرب.	**29**
أولاً–موقع قبرص الجغرافي وتاريخها السياسي القديم.	**31**
1 -الموقع الجغرافي	**31**
2- قبرص قبل الميلاد	**32**
3 -قبرص السباقة إلى اعتناق المسيحية	**34**
ثانياً- قبرص والفتح العربي.	**36**
ثالثاً- قبرص بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية.	**41**
رابعاً–صورة قبرص في كتب الرحالة في العصور الوسطى.	**47**
1- في كتب الرحالة العرب والمسلمين.	**47**
2- في كتب الرحالة الأوروبيين.	**57**
خامساً- قبرص في العلاقات بين الشرق والغرب من بداية الحروب الصليبية وحتى العهد الأيوبي.	**66**
1 - قبرص البيزنطية خلال الحروب الصليبية.	**66**
2- قبرص من السيادة البيزنطية إلى السيادة اللاتينية.	**72**
3- قبرص اللاتينية خلال العهد الأيوبي.	**78**
الفصل الثاني: مملكة قبرص اللاتينية وعلاقاتها مع الغرب الأوروبي.	**89**
أولاً- قبرص اللاتينية والبابوية.	**91**

ثانياً- دور قبرص اللاتينية في دعم مملكة بيت المقدس.	98
ثالثاً- العلاقات القبرصية مع دول الغرب الأوروبي.	110
رابعاً- مملكة قبرص اللاتينية والامبراطورية البيزنطية.	120
خامساً- مملكة قبرص وأرمينية الصغرى.	127
سادساً- قبرص اللاتينية على عتبة التحولات الكبرى في المنطقة.	139
الفصل الثالث: مملكة قبرص اللاتينية وعلاقاتها السياسية مع المماليك.	143
أولاً- مرحلة البدايات- قبرص خلال عهدي بيبرس وقلاوون	145
1- العلاقات بين الظاهر بيبرس وبين ملوك قبرص.	145
2-بيبرس وقبرص في المواجهة المباشرة – إتفاقية قيسارية.	151
3- تجديد الهدنة-قبرص وقلاوون.	160
4- سقوط مملكة بيت المقدس اللاتينية.	171
ثانياً- مرحلة الصراع المركّز.	175
1- قبرص اللاتينية وريثة بيت المقدس.	175
أ- حلف الاتحاد المقدس.	176
ب- حملات الاتحاد المقدس على سواحل آسية الصغرى.	182
2-حملة الاسكندرية.	193
أ- دوافع الحملة.	193
ب- الظروف الداخلية لطرفي الصراع.	197
ج- تجهيز الاسطول الفرنجي.	202
د- وقائع الحملة وصورتها في المصادر التاريخية.	206

هـ- نتائج الحملة.	212
الفصل الرابع: سقوط مملكة قبرص اللاتينية.	223
أولاً- العوامل الداخلية.	225
ثانياً- العوامل الخارجية الأوروبية والمملوكية.	231
ثالثاً- أفول مملكة قبرص اللاتينية.	241
1- حملة السلطان برسباي.	241
2- زوال مملكة قبرص اللاتينية.	256
إستنتاجات أولية.	280
الباب الثاني: مملكة قبرص اللاتينية –الحضارة.	283
الفصل الأول: التنظيم السياسي والعسكري لمملكة قبرص اللاتينية.	285
أولاً- ملوك أسرة دو لوزينيان ودورهم في تنظيم المملكة.	287
ثانياً- الاقطاع العسكري.	291
1- ماهيته.	291
2- مقوماته.	292
أ – السيدية الملكية	292
ب –الدومين أو السنيورية أو البارونية	293
ج- الفياف	294
د- التبعية الفيودالية	295
هـ العلاقات الفيودالية	297
3- الإقطاع العسكري في مملكة قبرص بين الفيودالية والإقطاع العسكري المملوكي.	299

أ- أوجه الشبه بين الأنظمة الإقطاعية	299
ب- أوجه الخلاف بين النظام الإقطاعي المملوكي والنظام الفيودالي	300
ج- أوجه الخلاف بين النظامين الفيوداليين في مملكتي بيت المقدس وقبرص	302
ثالثاً- الجيش.	304
1- القيادات والفرق العسكرية البرية.	304
أ - الملك	306
ب-قائد الجيش	306
ج- الأمير	307
د- الكونت	308
هـ البارون	308
و- الفرسان	310
ز- المشاة	311
ح- المرتزقة	311
ط- التركوبول	312
2-الأسطول.	315
رابعاً- منظمات الفرسان.	323
1- أهم المنظمات.	324
2- منظمة القديس عازار.	325
3- منظمة فرسان الهيكل (الداوية).	326
أ-محاكمة فرسان الداوية	333

ب–نهاية الداوية في قبرص	337
4– منظمة فرسان القديس يوحنا.	338
أ –الأسبتارية بعد سقوط بيت المقدس	343
ب –الأسبتارية في قبرص	345
ج– الأسبتارية في رودس	348
5– منظمة فرسان التيوتون.	351
6– منظمة القديس توما.	356
الفصل الثاني: التنظيم الإداري لمملكة قبرص اللاتينية.	359
أولاً– المناطق الإدارية.	361
ثانياً– الموظفون.	362
1– الوظائف العسكرية.	362
2– الوظائف الإدارية.	366
ثالثاً– القضاء.	373
1–تطور القوانين	374
أ –رسائل الضريح	375
ب –قوانين حنا دو إيبلان	377
ج– قوانين بيت المقدس قبرص 1368م	379
د– قوانين بيت المقدس البندقية 1489م	381
هـ– النسخ التي نشرت من قوانين بيت المقدس	382
2– المستشارون.	384

3- المحكمة العليا.	385
4- محاكم العامة.	388
5- محكمة السوريين.	389
6- محاكم أخرى	390
الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية في مملكة قبرص اللاتينية.	393
أولاً- الوضع الاقتصادي في قبرص بعد سقوط بيت المقدس.	395
ثانياً- إنتعاش الدور التجاري لقبرص إثر سقوط عكا.	398
1 -طرق التجارة القبرصية ومحطاتها.	398
2- إسهامات المشرقيين في المرافق الاقتصادية لقبرص.	403
ثالثاً- إزدهار التجارة القبرصية.	406
1- إزدهار تجارة جزيرة قبرص عموماً.	406
2- إزدهار الموانيء القبرصية ومنافستها التجارية للإسكندرية والقسطنطينية.	408
3- الرسوم والضرائب.	412
4- القنصليات والجاليات التجارية الأوروبية في قبرص.	415
أ-العلاقات مع المدن التجارية الأوروبية عموماً	415
ب-العلاقات مع المدن البروفانسالية	416
ج-العلاقات مع مملكة أراغون	417
د-العلاقات القبرصية الجنوية	418
هـ علاقات قبرص اللاتينية بجمهورية البندقية	422
رابعاً- العلاقات التجارية بين قبرص والبلاد الإسلامية.	426

1- النشاط التجاري بين قبرص وبلاد المماليك.	426
2- النشاط التجاري بين قبرص وآسية الصغرى.	431
خامساً- تراكم ثروات التجار القبارصة.	434
الفصل الرابع: مجتمع مملكة قبرص اللاتينية.	439
أولاً-السكان وتوزعهم في الجزيرة.	441
1- السكان الأصليون.	441
2- اللاتين.	444
3- المسيحيون المشرقيون.	449
4- الطبقات الاجتماعية.	455
أ -طبقة النبلاء.	455
ب- طبقة العامة.	457
ج- العمال والفلاحون.	458
د- العبيد والأسرى.	460
هـ- الجاليات الأجنبية.	463
ثانياً- المذاهب الدينية.	465
1- الملكية.	465
2- اللاتين.	467
3- المسيحيون المشرقيون.	470
أ- الموارنة.	470
ب- الأرمن.	474

ج- النساطرة.	475
د- اليعاقبة.	476
ثالثاً- النزاع المذهبي في مملكة قبرص اللاتينية.	477
رابعاً- الحياة الفكرية في مملكة قبرص اللاتينية.	492
خامساً- إشكالية الاندماج الاجتماعي.	499
سادساً- المرأة في المجتمع القبرصي.	505
إستنتاجات إضافية.	514
خاتمة.	517
لائحة المصادر والمراجع	523
ملحق رقم واحد : رسم خارطة قبرص خلال الحكم اللاتيني.	545
ملحق رقم اثنين : رسم الخارطة السياسية لقبرص اللاتينية والشرق الإسلامي أواخر القرن الرابع عشر	547
ملحق رقم ثلاثة: رسم مخطط حملة الملك بطرس الأول دو لوزينيان على الإسكندرية 767هـ/1365م	549
ملحق رقم أربعة: جدول تزامن سلاطين المسلمين مع ملوك القبارصة.	551
ملحق رقم خمسة: جدول بعهود الباباوات في زمن مملكة قبرص اللاتينية.	555
ملحق رقم ستة: تسلسل انتقال الملك في أسرة دو لوزينيان.	559
فهرس الأعلام	561
فهرس الأماكن	573
آراء في الكتاب	579
نبذة عن المؤلف	581

مقدمـة

فـي أواخـر القرن الخـامس الهجري/الحـادي عشـر مـيلادي، انطلقت الحمـلات الصليبية من الغرب الأوروبي المستيقظ حديثاً، إلـى الشرق الإسـلامي المترهل بـالترف والاتسـاع والتناحر والدويلات المتعددة.

خرج الغرب عن طور القرية والجهل والفقر والخصومات والنزاعات الصـغيرة، وخطـا النظـام الإقطـاعي الفيـودالي خطواتـه الأولـى واسـتيقظ لتخرج من صـفوته طبقـة الفرسـان تـؤازرهم طبقـة الكهـان، ممـا ألهـب الجمـاهير حماسـةً، رفعـت شـعار الـدين وحملت في طياتها أحلام الكثيرين.

أخبـار ألـف ليلـة وليلـة تثير حماسـة الغرب وتفتح أمـام المغامرين أبـواب المجد والثروة والسلطة. كانـت الخلافـة العباسـية تحتضـر فـي ذلـك الوقت، لـم يبـق منهـا إلا إسمها ولا تسيطر على الرغم من اتساع رقعتها إلا على بغداد العاصمة ومساحة قليلة من جوارها.

الخليفة أسير القادة النافذين، وعندما يقف ليمارس حقه يطـاح بـه ويخلفه خليفة صـغير ويقرأ الحاضرون آية: "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشاء"، إنها سياسة " مات الملك عاش الملك" السائدة أبدا.

وفـي الوقت ذاتـه وفـي آسـية الصـغرى، يعتري الأمبراطوريـة البيزنطيـة، الخصـم التـاريخي للدولـة العباسـية، مـرض الشـيخوخة ذاتـه، والأسـرة الأمبراطوريـة لا تعـي مـا يحاك لها ولا تصدق أن نهايتها قد اقتربت وعلى يد من يفترض أنهم قدموا من الغرب لمؤازرتها فـي حـروب إنقاذ الـديار المقدسـة فـي فلسطين، ولإعـادة سوريا إلـى أحضـان جدهم هرقل من جديد.

في تلك الظروف الدقيقة، نشأت مملكة قبرص اللاتينية، ظروف استثنائية وعصر غير عادي اعترته المتغيرات والتحولات شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوبا.

نشأت مملكة قبرص اللاتينية في وقت كان الشرق الأقصى يشهد هو الآخر تحولات جذرية ليقذف بعد أقل من مئة سنة حممه وجحافله باتجاه العالم القديم، فيدمر الممالك ويجتاح الحضارات، يطفئ جذوة مشاريع ويفتح الطريق أمام مشاريع أخرى.

الأيام تمر، عروش تسقط وعروش تنهض لتشهد لابن خلدون بصدق ما قاله حول الحضارات التي تولد وتشب وتشيخ وقد تموت. العبد المملوك الشجاع يصبح فارساً فأميراً فقائداً وربما سنحت له من الزمان فرصة ومن الحظ التفاتة، فإذا به يتربع على كرسي مولاه، ومن كانت أهدافه الثروة والسلطة نالها بسرعة وصارت نهايته أسرع. وإذا كانت أهدافه أسمى فلربما قاده القدر إلى التربع على عرش السلطنة ليكون له الفعل وللخليفة العباسي الاسم والرسم.

ما كان لمثل هذا السلطان أن يصل إلى ما وصل إليه لولا أن أبواب الدولة العباسية قد تحطمت، ومدنها اجتيحت، ونساؤها ترملت. كثيراً ما يكون الخصم الألد مَثله كمَثل المبرد يحد النصل الذي يحتك به.

الحروب الصليبية حملة تلو الحملة، تفعل فعلها في الشرق، أصحاب جدد للأرض وحكام غاية في الصلابة، فتحت أمامهم أبواب كل شيء، من البلاد إلى العباد. الثروة والمجد والسلطة، مهورها القتال حتى ولو أدى إلى الموت. وإذا بعنوان جديد يسري بين قادة الإفرنج أسرع من الجياد المرسلة، إما الحياة بشرف أو الموت ببسالة. يمرون بظروف أقل ما فيها القهر والعذاب، ثم تأتي النجدة من الغرب وفي طليعتها التيجان، يرفدهم الفرسان، فيسجلون متعاضدين نصراً مرحلياً تليه هدنة مؤقتة وهكذا إلى أن تأتي النجدة التالية.

في هذه الأثناء، كانت قوافل المهجرين والمنكوبين المسلمين تخرج من الرها وأنطاكية وطرابلس وفلسطين، وأخبارهم ومآسيهم تملأ أسماع الأمة في كل مكان، ينشأ جيل بعد جيل، من أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حتى منتصف القرن

الثاني عشر، بعضه يعتريه اليأس فيغرق في اللهو والترف وبعضه الآخر يعد العدة للجهاد.

الدعاة يملأون المساجد والمدارس ويلهبون نفوس الشبان بالإيمان وحب الشهادة، والمبشرون في أوروبا يقومون بالدور ذاته، لكن بطقوس أخرى ولغات عدة وأساليب مغايرة.

تشهد أواسط القرن الثاني عشر، الذروة بين المدرستين والنهجين والعالمَيْن، تسقط إمارة الرها الفرنجية، ويتراجع الإفرنج من عمق البر الإسلامي المترامي إلى السواحل الشرقية للمتوسط وإلى الجبال الداخلية التي تشرف عليها، ويتم صلاح الدين ما بدأه نور الدين من فتوحات، ويتقرر مصير بيت المقدس في معركة حطين عام583هـ/ 1187م.

يشتعل الغرب حماسة من جديد، وتنطلق منه جيوش ثلاثة، واحد براً واثنان بحراً لاسترداد بيت المقدس، جيش ألماني جرار بمئة ألف أو يزيد، يرجف منه البر وتخفق من خشيته القلوب على رأسه الامبراطور فردريك بربا روسا، يبلغ أنطاكية، فإذا بالأرض تأكله قبل أن يبلغ هدفه ولا يصل منه إلى فلسطين إلا المئات.

وجيشان متحالفان لدودان إنكليزي وفرنسي، يستردان عكا والشريط الساحلي من المسلمين ويعيدان المستعمرات إلى شيء من سابق عهدها. ويعود الملك فيليب أوغست إلى فرنسا ويعجز ريتشارد قلب الأسد عن استرداد بيت المقدس، وتستعجله ظروف إنكلترة للعودة إلى بلاده فيعقد مع صلاح الدين صلح الرملة سنة 588هـ/1192م، ليدخل الشرق الأدنى إلى المرحلة الثانية من الحروب الصليبية، مرحلة توازن القوى والحروب الصغيرة.

في هذه اللحظة، تولد في الشرق دولة لاتينية جديدة هي موضوع هذا البحث، ولدت من رحم الأحداث الجسام وفي جزيرة لم تعرف الأمن والسلام، نشأت مملكة قبرص اللاتينية على يد بارون فرنسي، ملك القدس بسرعة وخسرها بسرعة، قاد جيش الإفرنج في حطين، وخسر ملكه في بيت المقدس وكل فلسطين، أسره صلاح الدين ثم

أعتقه، أملاً في أن يستفيد منه بعد ذلك لوضع حد لمآسي الشعوب وإيقاف الحروب.

اشترى البارون جي دو لوزينان جزيرة قبرص من الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد سنة 588هـ/ 1192م، وانطلقت مملكة قبرص اللاتينية بعده وعلى يد أخيه عموري، واستمرت تحت حكم أسرتهما حتى سنة 895هـ/ 1489م حين ضمتها جمهورية البندقية إلى مستعمراتها.

من الأهداف البعيدة لهذا البحث: إطلاع شريحة واسعة من القراء على بحث متكامل عن قبرص اللاتينية، وليس على بضعة كتب قد تترجم لمؤرخين غربيين. ولفت الانتباه إلى أهمية جزيرة قبرص الأرثوذكسية الانتماء، الغربية التوجه، وهي بقعة استراتيجية في قلب العالمين العربي والإسلامي. وتصويب حقائق تاريخية وتدقيقها بحيث تتجرد من تعصب بعض المؤرخين ومعاداتهم لكل ما هو شرقي أو عربي أو مسلم. والإثبات بالبراهين، أن أعداء قبرص اللاتينية لم يكونوا دوماً من العرب أو المسلمين بل حتى من الفرنج والأوروبيين.

وأما الأهداف الأكاديمية المتوخاة من هذا البحث فهي:

هل كانت هذه المملكة صدفة تاريخية؟ أم كانت سياسةً ونهجا؟ وهل دامت ثلاثة قرون إلا قليلاً عبثاً ودون أن تترك أثراً ؟ أم أن آثارها وعبرها لا تزال ماثلة إلى الآن في الأذهان؟ ماذا كان دورها الذي رسم لها؟ وهل أدت هذا الدور بنجاح؟ هل كانت عدواً دائماً ولماذا ؟ هل تخلل تاريخها فترات من التعاون والتفهم؟ ما هي العوامل التي أدت إلى استمرارها ردحاً من الزمن؟ وما هي الأسباب التي جعلتها تغيب وكأن ماء شرقي البحر المتوسط غسلت كل شيء وأعادت الجزيرة إلى أهلها الإغريق؟ إشكاليات تحتاج إلى إجابات شافية، وقضايا يجب أن نرفع ظروفها مجدداً من عمق التاريخ إلى سطح الحاضر حتى نفهم أسباب بعض القرارات المصيرية التي اتخذت في حينه فأدت إلى زوال ملوك وممالك. أسئلة من ضمن استفهامات عديدة سنحاول التقصي عنها وبحث دوافعها وظروفها علنا نميط اللثام عن حقائق، بعضها معروف، وكثير منها يحتاج إلى سبر وتحقيق وتدقيق، والله الموفق.

وقع الإختيار على هذا البحث، على صعوبته وإتساعه، لأهميته التاريخية أولاً، ولأن موضوع قبرص اللاتينية في العلاقات، وخاصة مع الشرق، لم يتطرق إليه أحد من الباحثين العرب أو الأجانب بصورة متكاملة.

وقد سبق لعدد من المؤرخين المحدثين ، في سياق كتاباتهم في التاريخ الإسلامي العام أو في تاريخ المرحلة المملوكية تحديداً، أن تعرضوا لجوانب من العلاقات بين قبرص من جهة وبين جيرانها العرب أو البيزنطيين أو الترك، بالإضافة إلى علاقاتها مع الغرب الأوروبي، ومن هؤلاء المؤرخين:
عزيز سوريال عطية ونقولا زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور وأحمد حطيط وإبراهيم الطرخان، ومحمود سعيد عمران، ... وكذلك حال الذين كتبوا في هذا الموضوع من غير العرب ومنهم:
J.F. Michaud, J. Hackett, Jeffery George, W. Heyd, Charles Mills, Steven Runciman, J.Prawer, Peter Edbury, Jonathan Riley – Smith, J.Richard, K.Setton, Nicholas Coureas ...
إهتم بعضهم بنواحٍ محددة من تاريخ قبرص اللاتينية إما عرضاً، خلال بحث النشاطات السياسية عموماً أو التجارية أحياناً. أو بدراسة متخصصة في سياق بحوث تاريخية تخدم هدفاً علمياً محدداً، لكن جلّ دراساتهم لم تتعرض مباشرة لدور مملكة قبرص اللاتينية وعلاقاتها بين الشرق والغرب، بصورة شاملة وافية، مع ما يلزمها من العرض والتحليل الدقيقين.

وقد برع الكونت "لويس دو ماس لاتري" (C. L. De Mas Latrie) في القرن التاسع عشر، في جمع وثائق أصلية لتاريخ المملكة في ثلاثة مجلدات. وكذلك "جورج هيل" (Sir George Hill)، الذي أنجز في الأربعينات من القرن العشرين، أربعة أجزاء حول تاريخ قبرص منذ أقدم العصور وحتى الإحتلال البريطاني، لكن شمول بحوثهما حال دون التطرق بعمق إلى موضوع العلاقات والنظم الإدارية والسياسية.

وعليه فإن أياً من الباحثين آنفي الذكر لم يقم حسب ما وصل إليه إطلاعي بدراسة تاريخية مركزة ووافية لمملكة قبرص اللاتينية منذ نشوئها وحتى زوالها

ولعلاقاتها مع الشرق والغرب. إذ بقيت نقاط عديدة لا تزال بحاجة للبحث والتدقيق، ستظهر في سياق البحث ونذكر خطوطها العريضة:

-أن الموضوع برمته لا يزال في بداياته لدى الباحثين والقراء العرب على السواء، على الرغم من قرب الجزيرة القبرصية من الوطن العربي والشرق الإسلامي. والضرورة تقضي ببحث تفاصيله بعمق وموضوعية، ومن يدري، فقد تطفو قضية عربية قبرصية على سطح الأحداث من جديد وفي أية لحظة، ومن لم يتعظ من التاريخ قد يسقط في وحل جهله.

-أن بعض المؤرخين الغربيين على الرغم من دراساته المستفيضة، لم يتمكن من مقاربة موضوع مملكة قبرص اللاتينية من زاوية مجردة وغير منحازة، ما يدفع إلى توضيح بعض الملابسات والمواقف بموضوعية وليس بمقابلة الانحياز بانحياز مضاد. بل بإزاحة الغبار التعصبي والعصبي والدعائي الديماغوجي عن مفاصل تلك المرحلة وكشف الحقائق السياسية والاقتصادية والطموحات الشخصية التي كانت الأساس في اتخاذ القرارات المصيرية والتي حددت مسار الأحداث وحمّلت سكان المنطقة وشعوبها آثاراً دامية لا يزال بعض شرّها وشررها يتفاعل إلى يومنا هذا.

-مهما بلغت دقة المؤرخين الغربيين في تأريخ المرحلة موضوع بحثنا، فإن للباحث العربي درجة متقدمة على الأجنبي، لأنه يتقن لغة الخصم الأهم للملكة اللاتينية، ويمكنه أن يغوص أكثر في المصادر العربية التي تناولت موضوع قبرص اللاتينية، كما أن الأرض أرضه وبإمكانه أن يتقصى من المعالم المندثرة والآثار الباقية ما يعجز عنه القادمون من بلاد أجنبية ولو أتقنوا اللغة العربية الفصحى. ما يعينه على إضافة بعض المعلومات وتوضيح بعض المواقف حتى ولو كانت تفصيلية.

أما المنهج الذي اعتمدته، فقد حتمه عليّ موضوع البحث، والدروس التي استقيتها من الذين عرضوا له من قبل، فآثرت الابتعاد ما أمكنني عن الوصف والسرد، واعتماد المنهج المقارن مطعّماً بالوصف والتحليل، سبيلاً لمقاربة الأحداث

التاريخية. وكان لا بد من السرد أحياناً كيف لا والبحث شبه موسوعي، يتناول 297 سنة متأججة ومفعمة بتفاصيل مثيرة.

لم يجر العمل بالسهولة المأمولة إذ اعترضته صعوبات أكاديمية وإدارية، جعلته يستغرق ست سنوات، كان عليّ قبل الشروع بالعمل أن أراجع مئات المصادر والمراجع، كان بعضها صعب المنال، وكانت بعض الفصول تضطرني لتأخير تحريرها سنة أو يزيد قبل أن تجتمع عناصرها. ولم تكن المصادر العربية وحدها كافية لإلقاء الضوء الكامل على الموضوع ، فالمعلومات العربية المعاصرة لقبرص اللاتينية عن أوضاع الجزيرة وعلاقاتها شحيحة. أما المصادر الأجنبية فقد كانت مبعثرة في المكتبات الأوروبية والأميركية وخاصة القديم منها، وكان بعضها مفقوداً أو يكاد، وقد أعانني ولدي عبد الحفيظ بصبر ودأب كبيرين في البحث عنها، فعثرنا بفضل الله على أغلبها، إلا بعض المصادر الأجنبية الثانوية مما اضطرني للاستعانة أحياناً بالمرجع الأجنبي المناسب.

ومع ذلك فقد كان العزم معقوداً على الخوض في هذا العمل في سباق مع العمر وبكل صبر وجلد، لتقديم مستند، أرجو أن يكون وافياً بقدر الإمكان، فيسد فراغاً ولو صغيراً في المكتبة العربية. ينفض الغبار، عن مقولات وأفكار، ويفصل بين الزبد والغث والسمين، ويسلط الضوء على الجوار، موضحاً قضايا تهم قبرص والعالم العربي أمس واليوم وربما غداً ، من يدري...

وأعترف أخيراً أن في تاريخ مملكة قبرص اللاتينية، من القضايا التفصيلية والجانبية ما يحتاج إلى المزيد من البحث والتقصي، في وثائق الفاتيكان وبلديات المدن التجارية الأوروبية وفي طيات المخطوطات العربية المبعثر منها والمخفي في أماكن كثيرة، فلربما كشفت الأيام القادمة عن مزيد من الحقائق التاريخية، لكني أعتقد بأن ذلك لن يمس جوهر البحث ولا حقيقة مضامينه الأساسية، وأرجو أن يشكل لبنة أساسية ونقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق لبحوث أخرى، تستند إليه، تأخذ منه وترد عليه.

ولا بد لي قبل عرض الكتاب من أن أتقدم بالشكر إلى الأصدقاء الذين لا يسعني ذكرهم جميعاً بالإسم، والذين شجعوني واستحثوني على متابعة هذا البحث، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور الصديق أحمد حطيط، الذي لم يبخل علي بالنصيحة

ولم يمنعه الود ولا الصداقة من توجيه النقد الجاد والملاحظات البناءة دونما تردد. كما أذكر بالخير الأهل والأصدقاء، من لبنان وسوريا ومصر وفرنسا، الذين بذلوا جهودهم لتقديم المساعدة بأشكال شتى ومنها تأمين عدد من المصادر والمراجع النادرة. وأخص بالذكر والشكر زوجتي الحبيبة وأولادي الأعزاء عبد الحفيظ وسارة وهادي الذين تفانوا في دعمي بكل الوسائل ووقفوا، رغم مشاغلهم، إلى جانب زوجٍ وأبٍ في ظروف دقيقة حرجة، وجعلوا من هذا البحث رهاناً شخصياً وقضية محورية.

المؤلف

الباب الأوّل

مَملكة قبرُص اللّاتينيَّة

التّاريخ السِّياسيْ

الفصْل الأوّل ـ جزيرة قبرُص، موقعها الجغرافي ومكانتها في العلاقات بين الشّرق والغرب

الفصْل الثّاني ـ مَملكة قبرُص اللاتينيّة وعلاقاتها مع الغرب الأوروبي

الفصْل الثّالث ـ مَملكة قبرُص اللاتينيّة وعلاقاتها السِّياسيَّة مع المماليك

الفصْل الرّابع ـ سُقوط مَملكة قبرُص اللاتينيَّة

إستنتاجات الباب الأوّل

الفصل الأول
جزيرة قبرص
موقعها الجغرافي
ومكانتها في العلاقات بين الشرق والغرب

أولاً–موقع قبرص الجغرافي وتاريخها السياسي القديم

ثانياً– قبرص والفتح العربي

ثالثاً–قبرص بين الخلافة العباسية والامبراطورية البيزنطية

رابعاً–صورة قبرص في كتب الرحالة في العصور الوسطى

1– الرحالة العرب والمسلمين

2– الرحالة الأوروبيين

خامساً– قبرص في العلاقات بين الشرق والغرب من بداية الحروب الصليبية وحتى العهد الأيوبي

1– قبرص البيزنطية خلال الحروب الصليبية

2– قبرص من السيادة البيزنطية إلى السيادة اللاتينية

3– قبرص اللاتينية خلال العهد الأيوبي

أولاً- موقع قبرص الجغرافي وتاريخها السياسي القديم

1-الموقع الجغرافي

تعتبر قبرص من أكبر الجزر الواقعة في شرقي البحر المتوسط وهي أقربها الى العالم العربي والاسلامي، إذ تبعد عن أقرب سواحل آسية الصغرى 71 كم (من رأس "كورماكيتي" القبرصي إلى "أنامور" على الساحل التركي) ولا تبعد أكثر من 98كم عن الساحل السوري (بين رأس "أندرياس" القبرصي ورأس "ابن خانا" السوري). كما تبلغ المسافة بين بيروت وبين أقرب شواطئها حوالي 185كم، كذلك فهي تقع على مسافة متساوية تقريباً من مصر (460كم بين مينائي بافوس والاسكندرية) ومن جزيرة رودس (480كم) ومن جزيرة كريت (553كم).

يرتبط إسم الجزيرة Chypre or Cyprus ارتباطاً وثيقاً بمعدن النحاس الذي اكتشف فيها قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة. فالنحاس باللاتينية "كوروم" وبالفرنسية "Cuivre". والقبرصي من النحاس أجوده عند العرب، كما جاء في "التهذيب" وفي "لسان العرب"[1].

وملخص ما ورد عن قبرص في كتب العرب، أنها جزيرة على البحر الشامي، كبيرة القطر، مقدارها ستة عشر يوماً، وبها قرى ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواش، وإنما سميت قبرص بمدينة هناك تسمى قبرو، وكانت قبرص معظمة في القديم للوثن المسمى قابرس[2].

تبلغ مساحة الجزيرة 9251كم^2 (3572 ميلاً مربعاً)، وتمتد بموازاة الساحل التركي ضيقة جداً لجهة السواحل الشامية وتزداد عرضاً كلما امتدت غرباً.

أما ارتفاعات الارض القبرصية بشكل عام، فهي عبارة عن سلسلتين جبليتين يفصل بينهما سهل داخلي، السلسلة الاولى شمالية، تمتد بموازاة الساحل وتدعى كيرينيا-كارباس (Kyrenia-Karpas)، ويبلغ أقصى ارتفاع لها 1019 متراً، أما السلسلة الثانية فتقع جنوبي غربي الجزيرة، وتدعى ترودوس (Troodos)، ويبلغ أقصى ارتفاع لها 1952 متراً (قمة اولمبوس Olympus)، ويفصل بين السلسلتين سهل فسيح يسميه اليونان ميزاوريا (Mesaoria)، ويدعوه الأتراك ميزاريا (Mesarya) او ميزاليا (Mesalya)، وقد اشتهر هذا السهل بالزراعة منذ أقدم العصور، ويقوم على الزراعات التي لا تحتاج الى الامطار الغزيرة نظراً لقلة

---

[1] محمد بن مكرم الإفريقي المصري ابن منظور، : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج: 6 ص: 168.

[2] شهاب الدين ياقوت الحموي،(الرومي)، معجم البلدان، ج1-5 بيروت 1979، 305/4، - ابو عبد الله محمد الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت1975، ص 453و454- محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق عالم الكتب، بيروت 1989.ص194.

هطولها. وأهمها كروم العنب والحبوب والقطن والفاكهة وقصب السكر والزيتون...

لكن شهرة قبرص قديماً قامت على أمرين أساسيين، الاول، موقعها المتميز بين إمبراطوريات العالم القديم بمرافئها التجارية في كل اتجاه، والثاني، غنى الجزيرة قديماً بمعدن النحاس، وانتشار المناجم في جبال ترودوس، مما أعطاها تلك الخصوصية بين جزر المتوسط، فصارت باستمرار عرضةً للتجاذب بين سائر الامبراطوريات، وقبلة أنظار طلاب الثروة من الشرق والغرب. على أن مناجم النحاس وبقية المعادن والاملاح المعدنية، باتت بسبب استغلالها، منذ الالف الثالث ق.م. آخذة بالنفاذ، باستثناء الملح و"الأميانت".

كما أن القطاع الزراعي لا يمكن الاعتماد عليه دون سائر القطاعات الاقتصادية، ومع ذلك فإن الموقع الجغرافي المتميز لجزيرة قبرص يبقى العامل الاساسي الذي مكّنها، خلال فترات تاريخية متقطعة، من لعب أدوار أكبر من حجمها الحقيقي وأقوى من قدراتها السياسية ومن إمكاناتها البشرية والاقتصادية[1].

2–قبرص قبل الميلاد

أظهرت الحفريات الاثرية وأعمال التنقيب في قبرص، أن الجزيرة كانت مهداً لحضارات موغلة في القدم، وأن البحر الذي يفصل بينها وبين العالم القديم، لم يحل دون مشاركتها في التطور الحضاري الانساني على مرّ العصور.

فقد عرفت أولى محاولات الاستيطان في نواحي مختلفة من الجزيرة، منذ الالف الثامن ق.م. ودلّت آثار العصر النيوليتي على ان معدل الاعمار في تلك الفترة بلغ 34 عاماً، مع ارتفاع في نسبة الوفيات بين الاطفال.

ثم شهدت الجزيرة فراغاً سكانياً في الفترة الممتدة بين عام 6000 ق.م. و4500ق.م. تلى ذلك ظهور استيطاني جديد، بدأ بجنوبي الجزيرة، ليتبعه زلزال مدمر حوالي سنة 3800 ق.م.

ثم أخذت الجزيرة تشهد ازدهاراً مع الالف الثالث ق.م. باكتشاف النحاس، مما سيطبع الجزيرة بهذا الطابع الخاص لقرون طويلة. فقد أدى ذلك الاكتشاف الى ظهور العائلات الثرية غرب الجزيرة، والصناعات النحاسية على سفوح جبال ترودوس، فتشكلت القرى والمراكز الحرفية، وما صار يدعى بعد ذلك "بالحزام النحاسي" في تلك المنطقة.

وفي الوقت نفسه، كانت السواحل الشمالية للجزيرة تشهد هجرة اضطرارية لسكان اناتوليا (الأناضول) من آسيا الصغرى اليها، لتدخل الجزيرة العصر البرونزي (2500–1900 ق.م.) بدخولهم اليها.

---

[1] Encyclopedia Britannica 2002 (Cyprus) – Encarta 97 (Cyprus)

تميزت تلك الفترة، بمزيد من الاستيطان ومن التوغل في الجزيرة (منطقة ألامبرا Alambra في وسط الجزيرة)، وظهرت الحصون، لأول مرة على السواحل وفي بعض مناطق الداخل (1900–1600 ق.م.) دليلاً على أخطار هددت القبارصة، خاصةً في الفترة (1600–1100 ق.م.) التي شهدت صداماً مع الهكسوس الذين حكموا مصر في حينه، وكان انكومي Enkomi أول حاكم قبرصي تعرفه الجزيرة، واتخذ فماغوستا مقراً له.

ومع توسع التبادل التجاري البحري بين قبرص والمرافئ المحيطة بها، أخذت الجزيرة تشهد هجرات متتالية من السواحل الشرقية للمتوسط لشعوب فرّت من وجه الحثّيين (1300 ق.م.)، تلتها هجرات يونانية متتابعة على مدى قرن من الزمن (1220 ق.م.)، لكن هؤلاء المهاجرين استقروا في الجزيرة بصورة نهائية، مما أعطى لقبرص طابعها الثقافي والعرقي اليوناني الذي حافظت عليه منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، على الرغم من تعدد فاتحيها بعد ذلك، وأنشأ المهاجرون اليونانيون الجدد، مدناً جديدة منها بافوس Paphos وسلامي Salamis وكيتيون Kition.

ومع دخول العصر الفولاذي (1100–750 ق.م.)، تلازمت عادات القبارصة ومعتقداتهم مع عادات سكان جزر بحر ايجه الاغريق ومعتقداتهم ، وبدأ شرقي الجزيرة يشهد حضوراً ملحوظاً للفينيقيين التجار عبر اقامتهم محطات تجارية على سواحلها، ثم هجرة لافتة للفينيقيين، هرباً من الاضطهاد الاشوري في القرن التاسع ق.م.، ونَعِمَ سكان الجزيرة في تلك الفترة، بحقبة من الثراء والرخاء، في ظل نظام ملكي، مع ما يرافق ذلك من ترف وثقافة، فشاعت أشعار هوميروس وخاصة ملحمتا الالياذة والاوذيسة (القرن 8 ق.م.)، وفي العهد الفينيقي، كانت آثار هذا الشعب واضحة في الجزيرة، فقد طوروا الأوضاع الزراعية والصناعية والتجارية فيها، وقطعوا الأشجار وأسسوا صناعة السفن وأفسحوا في المناطق الزراعية، واستخرجوا المعادن من جبالها واستثمروها، وشقوا الطرقات من الداخل إلى السواحل، وأسسوا عدداً من المدن الرئيسية في الجزيرة، وبثوا فيها معتقداتهم الروحية، وخاصة "عشتروت" التي صارت تسمى بعد ذلك "أفروديت" عند الإغريق و"فينوس" عند الرومان[1].

خلال الفترة الممتدة بين عامي 750 و475 ق.م.، أظهر القبارصة نوعاً من الولاء الشديد والمستمر لملوكهم، وارتباطاً وتعاوناً وثيقاً بين مدنهم العشر، على الرغم من الاجتياحات المتتالية لبلادهم من قبل الأشوريين (709 ق.م.)، ثم المصريين (569 ق.م.)، ثم الفرس(545 ق.م.)، ونجح الملوك القبارصة في المحافظة على

[1] De Mas Latrie, Histoire De L'ile De Chypre, VOL.I P:64.

سيادتهم، بدفع مبالغ معينة للدولة الفارسية، وبتقديم السفن والملاحين القبارصة لمساعدة الفرس في حملاتهم البحرية.
وكان اليونانيون يحاولون مراراً تحرير قبرص من السيطرة الفارسية، فكان الفرس يردون بتعزيز مكانة الفينيقيين في الجزيرة على حساب القبارصة، حتى جعلوا أحد الفينيقيين على العرش القبرصي في "سلامي".
ثم ناضل القبارصة لعدة عقود حتى نجحوا في تنصيب قبرصي يوناني على العرش، وهو إيفاغوراس Evagoras، فحكم أربعين سنة وتوفي عام 374 ق.م.، فكرّس المعالم الاغريقية في بلاده، كما شجع المزيد من الاغريق على الاستيطان في الجزيرة، لكن الفرس ما لبثوا ان حاصروا الجزيرة طويلاً، واحتلوها ففقدت استقلالها من جديد، ولم تستعيده إلا على يد الاسكندر المقدوني، بعد ان هزم الفرس في معركة ايسوس قرب اسكندرونة عام 333 ق.م[1].
شارك القبارصة الاسكندر في فتوحاته وفي معاركه البحرية، وخاصة في حصار صور، مقابل منح الجزيرة حريتها واستقلالها، لكن عمر الاسكندر القصير أدخل قبرص تحت حكم بطليموس (Ptolemy) خليفته على مصر، وصارت بافوس عاصمة للجزيرة، واستمرت تحت سيطرة سلالته الجائرة للقرون الثلاثة التالية، حيث استغلت موارد الجزيرة من نحاس وخشب أسوأ استغلال.
وفي تلك الفترة، ولد الفيلسوف القبرصي زينو Zeno (336–264 ق.م.) في مدينة كيتيون، وهو الذي أسس مدرسته الفلسفية في أثينا وتوفي فيها.
وفي العام 58 ق.م.، خضعت قبرص للنفوذ الروماني، فألحقها الرومان بإقليم كيليكيا، ثم وضعها يوليوس قيصر تحت حكم كليوباترا في مصر، لتعود الى الوصاية الرومانية عام 30 ق.م.

3–قبرص السباقة إلى اعتناق المسيحية

منذ ظهور الديانة المسيحية، اتخذت قبرص مكانة مميزة في العالم المسيحي القديم، ففي عام 45م، استقبلت الجزيرة رسل السيد المسيح الثلاثة بولس وبرنابا ومرقص، في اول رحلة تبشيرية لهم، فنزلوا في سلامي، ثم انتقلوا الى بافوس، حيث نجحوا في تنصير الحاكم الروماني سيرجيوس بولوس Sergius Paulus، وأضحت قبرص بذلك أول مكان في العالم يحكمه مسيحي.
وحين ثار اليهود في انحاء عدة من الامبراطورية الرومانية حوالي سنة 116/115م، كان لهم في قبرص نصيب من هذه الثورة، فأرسل الامبراطور الروماني تراجان Trajan أحد قادته لقمع الثورة، فقام بطرد اليهود جميعاً من

[1] Bustron, Florio, Chronique de l'ile de Chypre, Publiee par M. René De Mas Latrie, p:35.

الجزيرة، ولم يسمح بعد ذلك بأن تطأها قدم أي منهم، حتى ولو كان راكباً عابراً في أية سفينة ترسو ولو مؤقتاً في أي ميناء قبرصي.
وعلى الأثر، انتشر الدين الجديد في كافة أنحاء الجزيرة[1]، ومنذ ذلك الحين اعتبر القبارصة جزيرتهم جزءاً أساسياً من الامبراطورية الكبرى، فشاركوا مع الامبراطور قسطنطين الكبير في حروبه، التي توّجت بإنشاء القسطنطينية عاصمة للامبراطورية عام 330م.
وتعززت بذلك العلاقات الامبراطورية بقبرص، ثم كرّسته القديسة هيلانة والدة قسطنطين الكبير، بزيارة الجزيرة وبإنشاء عدد من الكنائس والأديرة ومنها دير ستافروفونيون في جوار لارنكا، وقدمت اليه هديةً، قطعاً من الصليب المقدس الذي عثرت عليه عندما سافرت الى بيت المقدس للصلاة[2].
وبين عامي 332م و342م، دمرت الزلازل معظم المدن القبرصية الأثرية القديمة، ولم يعمد القبارصة بعد ذلك الى اعادة إعمارها بل انتقلوا الى جوار كل منها لانشاء مدن جديدة، فكانت مدخلاً لحياة حضارية حديثة لا تزال قائمة الى يومنا هذا[3].
لكنهم مع ذلك، قاموا بترميم جزء من مدينة سلامي دون سواها، لتصبح عاصمتهم الجديدة قسطنطية Constantia، تيمّناً بإسم الامبراطور الروماني قسطنطيوس ابن قسطنطين الأكبر.
أما المرحلة البيزنطية من تاريخ قبرص، فقد بدأت باكراً واعتبارً من تاريخ انقسام الامبراطورية الرومانية الى قسمين عام 395م، حيث بقيت قبرص خاضعة للامبراطورية الشرقية (البيزنطية) لقرون عديدة لاحقة، عرفت هدوءاً ملحوظاً واستقراراً نسبياً، لم يعكره سوى المقاومة القبرصية الدائمة لمحاولات بطريرك انطاكية المتكررة والحثيثة لضم الكنيسة القبرصية الى كنيسته.
ثم ما لبثت الكنيسة القبرصية أن وفقت في مساعيها، على أثر نجاح أسقفها أنثيميوس Archbishop Anthimius، بعد رؤيا رآها دلّته على قبر القديس برنابا، فعثر على قبره وجثمانه بجوار سلاميس، وقد سُجِّي، محتضناً فوق صدره نسخة بخط يده من رؤيا القديس متى [4]. فتوجه الى القسطنطينية عام 488م، مصطحباً معه الذخيرة المقدسة، وقدمها الى الامبراطور زينون Zeno، ولشدة تأثر هذا الاخير مما رآه أعطى الكنيسة القبرصية استقلالها النهائي، ووضعها تحت

---

1 De Mas Latrie, Op.Cit. VOL. I P: 72. د.ف.سبيريذاكيس ، موجز تاريخ قبرص ، ترجمة يعقوب الطليحي ويني ذياكوفوتاكيس، الاسكندرية 1971م. ص 71.

2 Bustron, Chronique de l'ile de Chypre, P:44.

3 Chroniques de STRAMBALDI, publiées par M. R. DE MAS LATRIE,1891, P:3.

4 De Mas Latrie, Op.Cit. VOL. I P: 80.

الإشراف المباشر للقسطنطينية[1]، ومنح مطرانها مميزات إضافية ثلاث، لا يزال معمولاً بها الى يومنا هذا وهي:

-أن يحمل الأسقف الصولجان البطريركي الامبراطوري بدلاً من العصا الأسقفية.

-وأن يوقع بالحبر الأحمر.

-وأن يرتدي الرداء القرمزي الأحمر خلال خدمة القداس وفي الاحتفالات الرسمية.

وبذلك ازداد الارتباط السياسي والديني لقبرص بالامبراطورية البيزنطية، فقد باتت الجزيرة، منذ أواسط القرن الخامس الميلادي بعاصمتها قسطنطية Constantia، إحدى مقاطعات الامبراطورية البيزنطية.

كما باتت الكنيسة القبرصية الأرثوذكسية، تحت سلطة أسقف، يأتي بالأهمية مباشرة بعد بطاركة العالم المسيحي الاربعة، مما جعل من الجزيرة وحدة متماسكة اجتماعياً ودينياً وثقافياً، تجمع بين كنيستها وشعبها روابط متينة استمرت حقباً طويلة على الرغم من الاحتلالات المتعاقبة التي تعرضت لها بعد ذلك[2].

ثانياً- قبرص والفتح العربي

كان لظهور الإسلام وللفتح العربي لبلاد الشام أثره الكبير على مستقبل جزيرة قبرص، إذ ما كاد عهد الامبراطور البيزنطي هرقل (41 هـ/610م)، ينتهي وينتهي معه الوجود البيزنطي من بلاد الشام، حتى بدأ العرب يفكرون بغزو الجزيرة، وذلك بدءاً من عهد الامبراطور كونستانس الثاني (21-48هـ/641-668م).

ولم يكن العرب قد ألفوا ركوب البحر غزواً قبل الاسلام، لكن تجارهم كانوا يعرفونه وخاصة في أسفارهم الى الحبشة، عابرين البحر الأحمر، ومنذ أن أسلم العرب ونزل القرآن الكريم، وجدوا فيه كثيراً من الآيات المتعلقة بالبحر وسفنه وآداب ركوبه[3].

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان قد أوعز إلى عشرات من المسلمين والمسلمات بالهجرة الى الحبشة عبر البحر الاحمر، على دفعتين، إثر تعرضهم لأذى مشركي قريش. وكان بعض أصحاب النبي ﷺ بعد وفاته، يحض على الفتح

---

[1] FRANÇOIS AMADI, CHRONIQUE DE FRANCOIS AMADI, Pub. Par M.L. DE Mas Latrie,
Paris , Imp. Nationale, MDCCCXCI. P:79.

[2] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL. I P: 81. -E.I.2: TV; KUBRUS, p. 301.

[3] (سورة البقرة – آية 164) – (المائدة – 96) – (ابراهيم – 33) – (النحل – 14) – (الاسراء – 66- 67- 70)- (الحج – 65) – (لقمان – 31) – (الشورى – 32) – (الجاثية – 12).

عبر البحار، متفائلاً ببشارة النبي وبدعائه لهؤلاء الفاتحين [1]، وتفصيل ذلك أن النبي ﷺ نام يوماً في بيت قريبته أم حرام بنت ملحان زوجة الصحابي عبادة بن الصامت، ثم استيقظ يضحك فقالت ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: "ناس من أمتي عُرِضوا عليّ يركبون ثبج هذا البحر مثل الملوك على الأسِرّة"، فقالت: "يا رسول الله ادع الله ان يجعلني منهم". فقال: "أنتِ منهم". ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقال مثل ذلك. فقالت ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: "أنتِ من الأولين"[2].

وما أن تمّ فتح بلاد الشام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حتى استأذن واليها معاوية بن أبي سفيان في ركوب البحر لفتح قبرص، وكان من أسباب ذلك متابعة سياسة الفتح من جهة وتأمين شواطئ بلاد الشام من أعمال الغزو والقرصنة انطلاقاً من جزيرتي قبرص وكريت[3]، وذلك بعد أن أدى الصراع بين العرب والروم الى خراب بضعة مدن ساحلية ومنها عكا وصور اللتين أعاد والي الشام معاوية بن أبي سفيان ترميمها[4].

رفض الخليفة عمر بن الخطاب، طلب معاوية في ركوب البحر الى قبرص، على الرغم من دفعه للجيوش البرية في كل اتجاه، شعوراً منه بالمسؤولية، إذ كان يخشى على جنده الذين سيفصله البحر عنهم ألا يتمكن من إيصال النجدة اليهم في الوقت المناسب، كما كان يخشى عليهم من الغرق، إذا ما ارتفع البحر او انقلبت السفن لأن أغلب العرب لم يكونوا يجيدون السباحة في ذلك الوقت، وكان في مطلع جوابه الى معاوية: "والله الذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً..."[5].

كما تأخر الخليفة الثالث عثمان بن عفان بالاذن لمعاوية بركوب البحر الى قبرص غازياً، ولم يسمح له بذلك الا سنة 28 هـ/648 م، بعد ان اشترط عليه أن يكون بمحض اختيار الجنود، وألا يؤاخذ من يرفض ذلك، وأن يقود هو الحملة وأن يصحب معه زوجته[6].

وبالفعل، نفذ معاوية غزوته البحرية الاولى لقبرص فور انحسار الشتاء عام 28هـ/649م، ومعه زوجته فاختة، وغزا معه عدد من كبار أصحاب النبي ﷺ مختارين، بينهم أبو ذر الغفاري، وأبو الدرداء وشداد بن أوس وعبدالله بن بشر

---

[1] عماد الدين اسماعيل، إبن كثير ، كتاب البداية والنهاية في التاريخ ،دار الفكر، بيروت -1982. ، ج 6، ص 222- أبو عاصم الضحاك، أحمد بن عمرو، الآحاد والمثاني، تحقيق احمد فيصل الجوابرة، الطبعة الأولى، الرياض، 1991. ج 4، ص 132.

[2] ابن كثير، المصدر ذاته، ج 7، ص 153.

[3] محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل ، بيروت، ج 2، ص 31 و32.

[4] أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري،، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1403هـ، ج 1، ص 124، ياقوت الحموي، المصدر ذاته، ج 4، ص 144.

[5] أحمد أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ج 1، ص 94-95.

[6] البلاذري ، المصدر ذاته، ج 1، ص 157-158.

المازني والمقداد ووائلة بن الأسقع وفضالة بن عبيد الانصاري وأبو أيوب الانصاري وعبادة بن الصامت وزوجته ام حرام بنت ملحان، التي بشرها النبي ﷺ قبل بضع وعشرين سنة بركوب البحر، مع أول مجموعة غازية بحراً من المسلمين، "فلما انتهوا الى قبرس، خرجت من المركب وقُدِّمت اليها دابة لتركبها فعثرت بها فقتلتها فقبرها بقبرس يدعى قبر المرأة الصالحة"[1].

لكن الغزاة لم يكونوا من العرب المسلمين فقط، بل عاونهم بحارة نصارى من القبط، وود معاوية أن يقسم لهم من الغنائم إضافة إلى أجرهم في العمل، لكن أحد الصحابة لم يقره على ذلك كونهم إذا فعل سيتقاضون أجرهم مرتين[2].

قاد مراكب العرب عبدالله بن قيس، حليف بني فزارة، ونزل الاسطول في العاصمة قسطنطية، وضُرِب الحصار حولها طويلاً، ثم وافاهم عبد الله بن أبي سرح في أسطول آخر قادماً من مصر، فنزل في ناحية أخرى من الساحل، فاعملوا القتل والسبي وغنِم العرب أموالاً طائلة وأسروا الكثيرين.

إضطر أهل قبرص لطلب الصلح، ووافقوا على أداء خراج سنوي مماثل للذي يؤديه القبارصة لامبراطور الروم، وقدره سبعة آلاف ومئتي دينار[3]. وكان من شروط الصلح أن يستمر القبارصة بدفع الخراج المقرر للروم، على أن يُعلِم القبارصة المسلمين بخبر جيش الروم اذا قدم اليهم، وأن يقفوا على الحياد بين الروم والمسلمين في القتال[4].

عاد العرب أدراجهم بعد الغزوة الاولى، مما أتاح الفرصة للقبارصة بالاخلال بالاتفاق، فأعانوا الروم على الاسطول العربي عام 32هـ/653م، وأمدوهم بالمراكب فغزاهم معاوية ثانية عام 33هـ/654م، في خمسمائة مركب " وفتح قبرص عنوة فقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم" السابق[5].

لكنه أنزل فيها هذه المرة حامية من العرب، بلغ عديدها 12 ألفاً ودفع لهم الرواتب، ونقل اليها بعضاً من أهل بعلبك، فبنوا في الجزيرة مدينة لهم ومساجد، مما يشير الى نية معاوية في جعل الجزيرة أرض رباط هذه المرة.

---

[1] لها مقام يزار الى يومنا هذا يدعى "هالة سلطان تكة" بجانب البحيرة المالحة قرب لارنكا. البلاذري، فتوح البلدان، ج 1، ص 158و159.- الطبري، محمد بن حزير، تاريخ الطبري، ج 2، ص 602.

[2] أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت 1405هـ ج5 ص134.

[3] الدينار الإسلامي، نقد ذهبي، وزنه 4،25 غ. قريب جداً من وزن البيزنت البيزنطي 4،245 غراماً، وقطر كل منهما 20 ملم. لكنه على عكس البيزنت البيزنطي، خلا من الصور ونقش باللغة العربية. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج 4 / ص 131).

[4] السلاوي، المصدر ذاته، ج 1، ص 94-95.

[5] البلاذري، المصدر ذاته، ص 158.

تولى أمر الحملة البحرية الثانية موسى بن نصير[1]، فبنى في بعض أنحاء الجزيرة حصوناً كالماغوصة (فماغوستا)، وحصن بانس (بافوس) وولاه معاوية على الجزيرة نائباً عن الخليفة[2].

وخلال العهد الأموي، بقي العرب في جزيرة قبرص طيلة ما تبقى من عهد معاوية فقط، الى أن تولى من بعده ابنه يزيد (60–64هـ/680–683م)، فدفع رشاوى عظيمة لأخذ الموافقة على اقفال البعث العربي في قبرص. وما إن قفل العرب عائدين من الجزيرة، حتى قام أهل قبرص بهدم المساجد والمدينة الجديدة التي بناها العرب قبل ربع قرن[3].

واستمرت قبرص في العهد الاموي، تشكل تهديداً مستمراً للسواحل الشامية، مما اضطر الخلفاء الامويين الى ارسال الحملات والتهديدات لأهل الجزيرة وحكامها، فكانت قبرص تؤدي سنوياً للأمويين الخراج ذاته الذي أقره معاوية، ثم زاد عليه عبد الملك بن مروان الف دينار حتى خلافة عمر بن عبد العزيز، ولما ولّي هشام بن عبد الملك الخلافة، أعاد قيمة الخراج الى سابق عهدها الاول، وبقيت كذلك حتى مطلع العصر العباسي.

وقد ورد أن الخليفة الوليد بن عبد الملك، حين جمع لبناء الجامع الأموي أمهر بنائي فارس والهند والمغرب والروم، أنفق عليه خراج الشام سبع سنين إضافة الى حمولة ثماني عشرة سفينة، تحمل الذهب والفضة، أقلعت من قبرص، سوى ما أهداه اليه ملك الروم من آلات[4].

كان الوضع السياسي لجزيرة قبرص في العصر الاموي فريداً من نوعه، فهي لم تكن موالية للعرب، ولم ترغب في التخلص من ولائها للروم، فكانت عموماً جزيرة شبه "محايدة" لا حامية أجنبية فيها. لكن المؤرخ القبرصي "ماخياراس" (النصف الأول من القرن الخامس عشر)، يؤكد أن قبرص كانت تدفع الخراج للإمبراطور في كثير من الأحيان مقابل إبقاء حامية بيزنطية من الخيالة والرجالة، للدفاع عن الجزيرة وأهلها ولصد هجمات العرب[5].

---

[1] إبن منظور مختصر تاريخ دمشق، ج7 ص474- الذهبي، تاريخ الإسلام،ج2،ص277-إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج1 ص92- -(جاءت تسمية موسى بن نصير في المراجع الأجنبية بكنيتين، الاولى "أبو الانوار" في بعض المصادر الغربية، E.I.2;V; P. 301 ، والثانية "أبو الآبار" في المراجع البيزنطية موجز تاريخ قبرص، ص 282.).

[2] ابن كثير، المصدر ذاته، ج 9، ص 171.

[3] البلاذري، المصدر ذاته، ص 158، ويروي البلاذري أن يزيد هو الذي أمر العرب بهدم مدينتهم قبل أن يقفلوا عائدين- E.I.2; V; KUBRUS, p301 .. - -

[4] محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1980. ج 1، ص 144-147.

[5] LEONCE MACHÉRAS, CHRONIQUE DE CHYPRE, traduction française par E. MILLER & C. SATHAS, Paris, 1882. Page 8.

وتكرّس هذا الوضع باتفاق بين الخليفة الوليد بن عبد الملك والامبراطور قسطنطين الرابع عام (65 هـ/685م)، ثم جدد الوليد الاتفاق مع الامبراطور جوستنيان الثاني عام 68هـ/688م، حيث اتفقت الدولتان الكبيرتان على اقتسام خراج الممالك المتنازع عليها كقبرص وأرمينية الصغرى.

ويبدو أن هذا الاتفاق تضمن في مرحلة من المراحل إجلاء سكان قبرص برمّتهم عن الجزيرة، بحيث نقل الامبراطور جوستنيان الثاني القبارصة الملكيين وكنيستهم وأسقفهم، وأسكنهم في جوار مدينة "جوستنيانا الجديدة" على شاطئ بحر مرمرة، في وقت نُقِل فيه القبارصة المسلمون الى السواحل الشامية، لكن أهل الجزيرة من الطرفين طلبوا العودة فأعيدوا اليها حوالي عام 79هـ/698 م[1].

وفي عام 80هـ/699 م، وفي خلال ولاية عبد العزيز بن مروان الأموي على مصر خرج عبد الواحد بن أبي الكنود من الاسكندرية في أسطول وصل الى قبرص، وذلك في العام الذي توفي فيه الامبراطور الروماني ليون[2].

وفي سنة 96 هـ/714 م، قام بشر بن الوليد بفتح قبرص مجدداً [3]. وفي سنة 107 هـ/725 م، وخلال الحملة الاموية في آسيا الصغرى، خرجت من بلاد الشام حملتان، الاولى برية، بقيادة مسلمة بن عبد الملك شقيق الخليفة هشام بن عبد الملك، والثانية بحرية، بقيادة معاوية بن هشام بن عبد الملك، وفيها قائد جيش أهل الشام ميمون بن مهران، فاجتازت البحر الى قبرص[4].

وفي سنة 123 هـ/740م، طاردت حملة بحرية بقيادة حفص بن الوليد، فلول سفنٍ للروم حتى وصلت الى قبرص دون أن تدركهم[5].

وهكذا، فقد كرر العرب غزو قبرص كلما نقض القبارصة العهد معهم، حتى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، بعث عام 125 هـ/742 م، جيشاً بقيادة أخيه لإجلاء أهل قبرص عن بكرة أبيهم، وخيرهم بين التحوّل إما الى بلاد الشام أو الى بلاد الروم، ولم يوضح المؤرخون العرب السبب المباشر لهذا التدبير، لكن يزيد بن الوليد بن عبد الملك ما لبث أن أعادهم الى بلادهم فور توليه الخلافة[6].

وانتهى العصر الاموي دون أن تنتهي حملات الكر والفر بين العرب والروم والتي كانت بعض رحاها تدور عند الشواطئ القبرصية، ومنها خروج آخر أسطول

---

[1] E.I. Tome V ; KUBRUS, P 301.

[2] ابن تغري بردي، (ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة1942. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة. ج 1، ص 200..

[3] أحمد بن اسحق اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 292.

[4] ابن كثير، المصدر ذاته، ج 9، ص 244.

[5] كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج 6، ص 2853.

[6] الطبري، ج 4، ص 232- الكامل في التاريخ، ج 4، ص 474- ابن كثير، المصدر ذاته، ج 10، ص5 .

أموي من ثغر الاسكندرية عام 129هـ/747م، حيث تمكن الاسطول البيزنطي من تدميره عند الشواطئ القبرصية[1].

ومع ذلك فقد استمر الاتفاق السياسي بين الخلفاء الامويين والاباطرة البيزنطيين حول قبرص، تقاسما خلالها النفوذ والخراج في الجزيرة، واستمر الاتفاق الى العصر العباسي ليدوم حوالي 250 سنة.

وكان الخلفاء الامويون يستشيرون حكماء المسلمين وفقهاءهم في أمر قبرص، بسبب الحالة الفريدة من شروط الصلح التي تمتع بها أهل قبرص في التعامل مع البيزنطيين والعرب على السواء، شرط عدم الإضرار بالعرب، وجاءت فتاوى الفقهاء وآراؤهم متضاربة، فقد اتهمهم البعض بالخيانة وبنقض شروط الصلح التي اشترطها معاوية، ومن هؤلاء الليث بن سعد وسفيان بن عينية، لكن الفقهاء الآخرين وهم الاغلبية، وفيهم الاوزاعي ومالك بن أنس وموسى بن أعين، مالوا الى ما مال اليه جمهور المسلمين بالتريث وإعذار اهل قبرص، فكتب اسماعيل بن عياش: "أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم".

ولما أجلى الوليد بن يزيد القبارصة الى بلاط الشام كما أسلفنا، إستاء عامة المسلمين من ذلك واستعظمه فقهاؤهم، "فلما ولي يزيد بن الوليد بن عبد الملك ردهم الى قبرس فاستحسن المسلمون ذلك من مثله ورأوه عدلاً".

كما أفتى الإمام الاوزاعي في عدم جواز نقض الصلح مع أهل قبرص، إلا بعد أن يثبت عذرهم ونكثهم بالعهد[2].

ثالثاً- قبرص بين الخلافة العباسية والإمبراطورية البيزنطية

تولى العباسيون الخلافة سنة 132هـ/750م، ولم تمض بضعة سنوات حتى شعروا بضرورة حماية الثغور البحرية، فقد خطط البيزنطيون لاسترداد الساحل السوري من العرب، وهاجم روم قبرص كلاً من مدينتي اللاذقية وطرابلس، ودخلوهما في سنة 140هـ/758م، فيما كان البيزنطيون يتحركون براً لملاقاتهم، لكن القوات العباسية كانت من الكثافة بحيث أوقفت الهجوم البري، فعاد روم قبرص أدراجهم بحراً [3].

أعاد العباسيون على الأثر بناء الاسطول العربي، وأطلقوه في بحر الروم بعد ست سنوات، فكانت أول غزوة بحرية عباسية لقبرص سنة 146 هـ/763م، في عهد

---

[1] كان الاسطول البيزنطي بقيادة الامير سيبيرها Cibyrrhae راجع E.I. KUBRUS p 301.

[2] البلاذري- المصدر ذاته، ج 1، ص 161-162.

[3] عمر عبد السلام تدمري، لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الخشيدية، جروس برس، الطبعة الأولى طرابلس 1992م، ص: 19-20.

الخليفة أبي جعفر المنصور[1]، بقيادة أمير البحر الشامي "العباس بن سفيان الخثعمي".
وأعاد أبو جعفر المنصور الجزية على الجزيرة، كما كانت على عهد عمر بن عبد العزيز، مسقطاً زيادة الألف دينار التي كان قد فرضها هشام بن عبد الملك من قبل[2].
وكان أشهر قادة البحار العباسيين، معيوف بن يحيى الهمذاني وابنه من بعده حميد بن معيوف[3]، وبين قيادة معيوف الأب ثم حميد الابن توالت الغزوات البحرية على قبرص خلال السنوات (155هـ/772م) – (158 هـ/775م) – (174هـ/790م) – (190 هـ/806م) – (191 هـ/807م).
أسر العرب في أغلب تلك الغزوات، خلقاً كثيراً كانوا يُرَدّون الى ديارهم أو يباعون حسب درجة إبلاء القبارصة في حروب البيزنطيين ضد العرب، وعندما ينقض القبارصة الصلح[4].
فقد وقع حاكم جزيرة قبرص أسيراً في قبضة العباسيين خلال حملة استهدفت الجزيرة عام (158 هـ/775م)، كان القصد منها التخفيف عن الحملة العباسية الرئيسية التي كان يقودها صمامة بن وقاص مستهدفاً قيليقية[5].
واستمر الصراع البحري بين العرب والروم محتدماً طيلة عهد الخليفة هارون الرشيد، وغالباً ما كانت قبرص تدفع غالياً من أثمان هذه الحروب، فقد جرد الرشيد حملة بحرية على قبرص سنة 174 هـ/790م، بقيادة والي الثغور" عبد الملك بن صالح بن علي" ، انتهت بمواجهة حاسمة بين الاسطولين العربي والبيزنطي، عند الشواطئ الشمالية الشرقية للجزيرة، وأسر العرب فيها القائد البيزنطي البحري ثيوفيل Theophilus وأرسل الى بغداد حيث أعدم[6].
واختلف فقهاء المسلمين في فتاويهم لجهة نقض الصلح مع أهل قبرص، أو التقيد به رغم التجاوزات، وكان جمهورهم يميل إلى المحافظة عليه "وألا تؤخذ العامة بجريرة الخاصة"، إلى أن تزايدت الحملات من قبرص على الثغور الإسلامية، مما

---

[1] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج 1، ص 261.
[2] تدمري، المرجع ذاته، ص38-39.
[3] يذكر إبن كثير أن الرشيد ولّى حميد بن معيوف سواحل الشام الى مصر عام 191 هـ. (البداية والنهاية، ج 1، ص 206). وتفرد أبو الفدا بكتابة اسمه معتوق بالقاف بدلاً من معيوف (راجع المختصر في اخبار البشر، ج 1، ص 322).
[4] ابن كثير، المصدر ذاته، ج 10، ص 203.
[5] سعيد عبد الفتاح عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص 13.
[6] عاشور، المرجع ذاته، ص 13.- تدمري، المرجع ذاته، ص43و44- موجز تاريخ قبرص، ص 82.

جعل الفقهاء يعودون عن فتاويهم السابقة "كون القبارصة أحدثوا ما يوجب قتالهم"، وصار غزوهم بمثابة وسيلة لاستمرار رضوخهم[1].

لكن الحملة العباسية البحرية الأكثر إيلاماً، كانت الحملة التي أمر بها الخليفة الرشيد قائده البحري حميد بن معيوف بغزو قبرص سنة 191 هـ/806 م[2]، كي تتزامن مع الحملة البرية الكبرى التي أعدها الخليفة العباسي ضد القائد البيزنطي نقفور Necyphorus الذي صار بعد ذلك امبراطوراً.

وقد دفعت قبرص ثمناً باهظاً في صراع الكبار، لكونها نقضت العهد مع العرب[3]، فقد أُحرقت مدنها وهدمت اسوارها، وقتل الكثير من رجالها وسبي ستة عشر الفاً من أهلها، حيث تولى القاضي أبو البختري بيعهم في منطقة الرافقة[4] ، حتى أن اسقف "شيترون" في قبرص ويدعى "ديمتريانوس" وهو من أبرز رجال الدين القبارصة بيع يومها بألفي دينار[5] . ويذكر سبيراذيكس أن القائد نقفور هو الذي دفع دفع هذا المبلغ لفداء الأسقف المذكور[6].

ويقال أن من بعض غنائم الحرب التي غنمها العرب من قبرص، كانت كتب الفلاسفة اليونان، استخرجها الخليفة المأمون[7].

ولا يجد الباحث تعارضاً بين ما نقله المؤرخون العرب أو المؤرخون الغربيون حول الحالة السائدة في قبرص خلال العصر العباسي، فقد كان يترتب على الجزيرة استحقاق مزدوج، أوله نوع من الارتباط السياسي بالامبراطورية البيزنطية، التي كانت تعين حاكماً بيزنطياً للجزيرة وثانيه التزام سياسي وأمني فرضه العرب على القبارصة، فقد كانت الحملات البحرية العربية على قبرص لا تقوم الا على أثر نقض القبارصة لعهدهم، بقيامهم بإمداد الروم بالسفن والرجال في حملاتهم على الثغور العربية.

شهدت الجزيرة خلال القرن الثالث الهجري، نوعاً من الاستقرار تحت الحكم البيزنطي حيث قام الامبراطور باسيل الاول (253هـ/867م–273 هـ

---

[1] تدمري، المرجع ذاته، ص:48.

[2] انفرد العماد الكاتب بتأريخ هذه الحملة في عام 189 هـ (راجع شذرات الذهب، ج 1، ص 325).

[3] أحمد بن علي القلقشندي، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، الطبعة الثانية ، 1985، ج 1، ص 196.

[4] القاضي أبو البختري، وهب بن وهب الأسدي القرشي (ت200هـ)، من أهل المدينة المنورة، تدمري، المرجع ذاته، ص:252.

[5] تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 431.

[6] موجز تاريخ قبرص، ص 85.

[7] شمس الدين محمد بن احمد الذهبي، تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، حوادث (631-660هـ) و(661-700هـ)، بيروت 2003. ج 4، ص 130.

/886 م)، بتنظيم إدارة الجزيرة مجدداً، فعين القائد الكسيس حاكماً عليها، مع استمرار دفع الخراج المتفق عليه للخليفة العباسي[1].

لكن نهاية القرن شهدت معارك بحرية متعاقبة، كان أهمها غزوة "ليو الطرابلسي" قائد الأسطول العربي، وأصله من ساتاليا، لسالونيكا البيزنطية سنة 291هـ/904م، وعودته عن طريق كريت وقبرص العربيتين[2]، عند ذلك قام البيزنطيون باحتلال قبرص، وشارك القبارصة الاسطول البيزنطي في طرد العرب من جزيرة كريت، وساعدوه في غزو الثغور الشامية الشمالية سنة 298 هـ /910م، فاحتلوا حصن العقبة بعد حصار طويل ثم احتلوا مدينة اللاذقية وسبوا منها خلقاً كثيراً في حين تأخر العرب في النجدة[3]. مما دفع بالخليفة المقتدر الى الايعاز الى واليه في مصر "تكين"، بإرسال الاسطول المصري لغزو قبرص، فقامت المراكب المصرية بقيادة "دمنانة"[4] بغزو الجزيرة سنة 299 هـ/911 م، " وأقام دمنانة في هذه الجزيرة أربعة اشهر يسبي ويحرق" ويفتح الحصون[5].

توالت الحملات بين الطرفين، وتمكن العرب من استعادة قبرص وكريت، وفشل القائد البيزنطي "هيميريوس" في استرداد جزيرة كريت على رأس حملة ضخمة في أربعين سفينة بعد مواجهة عنيفة قاومه فيها أهلها ، ثم التقى الأسطولان العربي بقيادة دميان وليو، والبيزنطي بقيادة "هيميريوس"، عند جزيرة "خيوس" وانهزم البيزنطيون وفر قائدهم إلى جزيرة "ليسبوس" شمالي "خيوس"[6].

بقي النفوذ العربي في قبرص طاغياً حتى أواسط القرن الرابع الهجري، فقد حاول سيف الدولة الحمداني في حلب استمالة ولاة الأخشيديين الذين حكموا مصر في تلك الفترة وكان منهم "علي"... والي قبرص[7]، وكان ذلك حوالي سنة 350 هـ/961م.

ثم بدأت قبرص بعد ذلك تعرف نوعاً من الاستقرار النسبي، بسبب انشغال الدويلات العربية بالنزاع فيما بينها، مما دفع أهل الجزيرة الى بدء حياة زراعية ومدنية مستقرة في البر القبرصي.

وقبل نهاية القرن العاشر الميلادي كان الامبراطور البيزنطي نقفور الثاني فوقاس (352– 359 هـ/ 963–969 م)، قد احتل قبرص مجدداً على يد قائده نقتاس

---

[1] E.I. P. 302.

[2] تدمري ، المرجع ذاته، ص: 105.

[3] الذهبي، المصدر ذاته، ج 4، ص 130.

[4] "دمنانة" أي دميان الصوري (ت301هـ/913م)، راجع تدمري، عبد السلام المرجع ذاته ص:125-126.

[5] أبو الحسن،علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د.محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، 1986 بيروت.، ج 2، ص 171.

[6] تدمري ، المرجع ذاته، ص:127و128.

[7] إبن جرادة، المصدر ذاته، ج 4، ص 281.

(NIKITAS) وذلك سنة 354 هـ/965 م، فأزال الحضور العربي من الجزيرة نهائياً[1]، في وقت برز فيه الاسطول الفاطمي، وانعدمت بعده النشاطات البحرية العباسية.

ولم يعد يعكر صفو تلك المرحلة سوى الثورات الداخلية التي اندلعت في الجزيرة ضد حاكمها الكسيس كومنين خلال عامي 435 هـ/1042 م وعام 486 هـ/1093 م.

على أثر الحملات المتبادلة بين العرب والبيزنطيين، والتي دارت بعض رحاها على سواحل قبرص وفي المياه المحيطة بها، تراجعت الحالة الاقتصادية للجزيرة وقلّت مواردها ونقص عدد الحجاج العابرين بها الى بيت المقدس لاضطراب الأمن وضعف النظام، وزاد في اضطرابها أن الأباطرة البيزنطيين اعتمدوا الجزيرة في ذلك الوقت كمنفى لأخصامهم[2].

كانت الجزيرة حتى ذلك الوقت، لا تزال في نظر البيزنطيين، جزءاً من مقاطعة كفيريوتون ويحكمها "دوق" يعيّنه الامبراطور، لكن الركود والضجر اللذين كانا يسودان الجزيرة تمّ استغلالهما مرتين خلال القرن الحادي عشر ميلادي، للاستقلال بالجزيرة عن الامبراطورية، قام بالمحاولة الاولى الثائر "ثيوفيلوس ايروتيكوس" حين كان "كاتيبانو" حاكماً غير كفوء للجزيرة عام 434 هـ/1042م، وسرعان ما تمكن أمير البحار "قسطنطين خاييس" من اخمادها بسهولة، اما المحاولة الثانية فقد جرت مع بدء الحملات الصليبية قام بها "رابسوماتيس" عام 485هـ/1092م، تمكن الامبراطور اليكسيوس كومنينوس من اخمادها بصعوبة[3]، بعد أن أوكل أمير البحار الدوق الكبير يوأنس ذوكاس هذه المهمة الى القائد إيمانويل فوتوميتيس الذي تعقب رابسوماتيس من كيرينيا الى ليماسول الى ستافروفوني حيث قبض عليه وأرسله الى الدوق.

اضطر الامبراطور على أثر الثورة الثانية، الى استبقاء الدوق المذكور حاكماً على الجزيرة ثم عين بعده "كاليباريوس" الذي اتصف بالعدل والحياد ثم عيّن قائد المعسكرات والحاميات في قبرص "فيلوكاليس ايفاماثيوس" حاكماً عسكرياً على قبرص، حيث خضع له فرسان الجزيرة وكذلك اسطولها.

وقبل أقل من قرن على دخول الفرنج الى الشرق العربي، كان الامبراطور البيزنطي لا يزال يعتبر حامياً للمسيحيين وللمسيحية في الشرق، سواء كان ذلك

---

[1] ستيفن رنسيمان، الحملات الصليبية من كليرمونت الى اورشليم، ترجمة نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ج 1، ص 57.

[2] عاشور، سعيد، قبرص والحروب، ص 19.

[3] "سبيريذاكيس"، موجز تاريخ قبرص، ص 87-88.

في المناطق الخاضعة لامبراطوريته أو في البلاد الاسلامية[1]. وكان يعتبر السيطرة على بحر الروم من الضرورات الأساسية لحماية الامبراطورية البيزنطية وحماية رعاياها في الشرق.

وقد تمكن هذا الاسطول بالفعل من أن يشكّل القوة البحرية الاعظم في تلك الفترة وخاصة على أثر استرداد جزيرة كريت من العرب عام 350 هـ/961م[2]، وكان من الطبيعي أن تؤوي المرافئ القبرصية اليها بعض قطع الاسطولين البيزنطيين الحربي والتجاري[3].

وكان معظم الاباطرة البيزنطيين يحاولون المحافظة على صلات ودية او على الاقل مقبولة مع الخليفة أو مع السلطان أو الملك الذي يقع بيت المقدس وطرق الحج اليه تحت سيطرته. ولذلك كان من الطبيعي أن يناصب الامبراطور العداء أحياناً للخليفة العباسي وأن يحافظ على الصلة بالخليفة الفاطمي الذي يتبع له حاكم القدس من جهة، والذي يمكن لأسطوله القوي أن يقطع الطريق على السفن التي تقلّ الحجاج والتجار من الغرب الى الشرق.

ولم يكن الاسطول الفاطمي ليتساهل بالتخلي عن حماية الثغور التابعة للقاهرة، وعن تأمين الامن لتجاره ولسفنه التجارية، وكان عليه أن يثبت قوته من وقت لآخر، وكانت أهم غزواته على قبرص تلك التي جرت عام 553 هـ/1158م، والتي عاد منها الفاطميون محملين بالغنائم والاسرى ومن بين هؤلاء شقيق صاحب قبرص[4].

كانت العلاقات والاتصالات بين الامبراطور البيزنطي وبين الحكام المسلمين تخفف من حدة النزاعات، ومن وطأة اضطهاد النصارى المواطنين في المناطق الاسلامية والعابرين فيها.

ويروي وليم الصوري أن والي بيت المقدس الفاطمي كان عام 455 هـ/1063م، أي قبل احتلال الفرنج لها بست وثلاثين عاماً، قد أنجز ترميم أسوار المدينة المقدسة، وأجبر النصارى فيها على المشاركة في الترميم والبناء، مما أرهقهم مادياً وأجهدهم صحياً، فبعثوا الى الامبراطور البيزنطي قسطنطين دوكاس العاشر يسألونه العون المادي في بناء جزء من السور، مقابل وعد من الوالي الفاطمي بأن يمنحهم حق السكنى داخل هذا القسم دون سواهم من غير النصارى، فكتب الامبراطور الى أهل قبرص، طالباً اليهم تلبية الطلب بتقديم العون المادي، على أن

---

[1] ستيفن رنسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997م ص 50.

[2] رنسيمان،المرجع ذاته، ص 179.

[3] سبيريذاكس، موجز تاريخ قبرص، ص 88.

[4] عاشور، المرجع ذاته، ص 24.

يُحتسَب المبلغ الذي يقدمونه لنصارى بيت المقدس من أصل الضريبة التي سيتوجب على أهل قبرص دفعها للامبراطور في العام التالي[1].

رابعاً- صورة قبرص في كتب الرحالة في العصور الوسطى

1-صورة قبرص في كتب الرحالة العرب والمسلمين

ارتبط ظهور النتاج الفكري العربي بظهور الإسلام، وبانتشاره عبر الفتوحات، وبوحدة فكرة الشعوب والأمم التي اعتنقته، فتبودلت الأفكار والحضارات فيما بينها، وازداد تطور الفكر العربي، عبر الاحتكاك بالأمم ذات الحضارات السالفة.

وذاع صيت الترجمة والتدوين أولاً، ثم بدأ عصر الابتكار والتجربة انطلاقاً من العلوم المترجمة إلى العربية، ثم أطلق الدين الجديد العقول من عقالها دونما حدود، إلا الشرك بالله تعالى، ولم تكن وحدانية الإله لتعيق استنباط العلوم واكتشاف الكون، بل شجع القرآن والحديث على طلب العلم والذهاب إليه، ولو كان في الصين أبعد حدود الأرض في حينه.

ووجد علم الجغرافية والرحلات الاستكشافية المرتبطة به طريقهما إلى التطور والتخصص، إما طلباً للعلم بالتوجه إلى الحواضر المنتشرة في أصقاع الأرض شرقاً وغرباً، وإما سعياً وراء الرزق، وإما لحاجة ماسة تهم المسلمين أجمعين وهي استطلاع الطرق والمناطق المؤدية إلى الحج[2] وإلى الديار المقدسة: مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. فالحج ركن الإسلام الخامس، فرض على كل مسلم ومسلمة إذا توفر لأي منهما الزاد والراحلة، أما زيارة المدينة المنورة والقدس الشريف ففيهما ترغيب نبوي ورغبة تجارية.

وانطلق العرب في هذا العلم، معتمدين على تقسيم العالم القديم كما رتبه بطليموس، واعتمدوا في البدايات على خرائطه التي رسم فيها البر والبحر، لكن الأمر لم يطل بهم حتى أدلوا بدلائهم الخاصة، بعد أن عبروا البراري والقفار وركبوا البحار، فنقلوا مشاهداتهم كتابةً، ورسم بعضُهم خرائطَه المصححة والمنقحة، كما سيظهر لنا عند إبن حوقل[3] وعند الإدريسي[4].

---

[1] وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج2 وج3 ، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية، 1992. ج 2، ص 177-178.

[2] نقولا زيادة ، الرحالة العرب، دار الهلال 1956، ص36.

[3] أبو القاسم النصيبي، إبن حوقل ، كتاب صورة الأرض، القسم الأول ص202 الطبعة الثانية، مطبعة بريل في مدينة ليدن، 1928.

[4] محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق عالم الكتب، بيروت 1989.

ظهر موقع قبرص في كتب المؤرخين والرحالة العرب، استناداً للتقسيم الجغرافي التالي للعالم القديم[1]:

قُسّم العالم القديم إلى سبعة أقاليم متوازية من الجنوب إلى الشمال، تفصل بينها خطوط عرض، تمتد من الشرق عند البحر المحيط على شواطيء الصين " وهو غير مسلوك"، إلى الغرب عند البحر المحيط على شواطيء طنجة وبلاد الأندلس " ولا يُلَج فيه إنما يُسلَك بالقرب من ساحله". ويعرف العرب أن السير بمحاذاة شاطئه يوصل إلى منابع النيل وجنوب السودان لكن " في سلوكه غرر لا تنجو منه سفينة". يمتد الأقليم الأول من الشواطيء الجنوبية لبلاد الصين و السند وحضرموت واليمن ومجرى النيل، والحبشة والسودان عند نيل مصر.

ويبدأ الإقليم الثاني شرقاً عند سواحل الصين ويمر ببلاد السند حتى البصرة والبحرين ومكة والمدينة والطائف ونيل مصر وأسوان والحبشة مصولاً إلى بلاد المغرب.

وأما الإقليم الثالث فيبتدىء من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين ثم الهند ثم السند ثم كابل وكرمان وسجستان وفرس والأهواز والعراقين والشام ومصر والاسكندرية ويمر ببيروت في حده الشمالي.

ويبتديء الإقليم الرابع كذلك من أرض الصين والتبت ويمر على جبال كشمير وبلور وكابل وهراة ومرو ونيسابور والري وقم وقاشان وهمذان وأذربيجان وحران وعزاز والثغور وجزيرة قبرس ورودس وصقلية الى البحر المحيط على الزقاق بين الأندلس وبلاد المغرب.

أما الإقليم الخامس فيبتديء من أرض الترك المشرقين ويأجوج المسدودين ويمر على أجناس الترك المعروفين بقبائلهم إلى كاشغر وفرغانة وسمرقند وبخارى وخوارزم وميافارقين وأرمينية ودروب الروم وبلادهم وعلى رومية الكبرى وبلاد الأندلس وينتهي إلى البحر المحيط .

ويبتدىء الإقليم السادس من مساكن ترك المشرق من قانى وقون وخرخيز وكيماك وأرض التركمانية وفاراب وبلاد الخزر وشمال بحرهم ويمر على القسطنطينية وأرض فر نجة وشمال الأندلس حتى ينتهى إلى بحر المغرب.

وأما الإقليم السابع " فليس فيه كثير عمران إنما هو في المشرق غياضٌ وجبال يأوي إليها فرق من الترك كالمستوحشين ويمر على جبال باشغرد وحدود البجناكية وبلد سرار وبلغار والروس والصقالبة وينتهي إلى البحر المحيط"[1].

---

[1] إعتمد آخرون التقسيم الهندي للعالم، بالحلقات: " ذكر علماء الأوائل أن أقاليم الأرض سبعة وأن الهند رسمتها فجعلت صفة الأقاليم كأنها حلقة مستديرة، تكتنفها ست دوائر على هذه الصفة...). "بغية الطلب في تاريخ حلب" لعمر بن أبي جرادة ج:1 ص:-447- 448 .

ثم يقسَّم كل إقليم إلى أجزاء تبدأ من الشرق وتتراصف جنباً إلى جنب وتقع قبرص في الجزء الخامس من الإقليم الرابع المذكور:

" إن هذا الجزء الخامس من الإقليم الرابع تضمن قطعة خامسة من البحر الشامي وفيه من الجزائر جزيرة رودس وجزيرة قبرس وبعض بلاد على الساحل الشمالي من بلاد الروم والمسلمين وفيه حيث انتهى صدر البحر الشامي وعليه من البلاد الشامية أنطرطوس واللاذقية وأنطاكية والمصيصة وآذنة وعين زربة وطرسوس وقرقوس وحمرتاش وأنطاكية المحرقة وأنطاكية المحدثة والباطرة والميرة وجون المقري وحصن استروبلي وفيه من البلاد الشامية البرية فامية وحصن سلمية وقنسرين والقسطل وحلب والرصافة والرقة والرافقة وباجروان والجسر ومنبج ومرعش وسروج وحران والرها والحدث وسميساط وملطية وحصن منصور وزبطرة وجرسون واللين والبذنذور وقوة وطولب..." [2].

واكتفى كثير من الجغرافيين العرب والمسلمين الأوائل بتناقل المعلومات العامة عن أقطار ذلك العالم دون تجشم عناء الانتقال والاستكشاف إلا للضرورة ، لكن جيلاً آخر من الرواد اعتباراً من القرن الرابع الهجري وعلى امتداد القرون الثلاثة التالية آثر التنقل وتدوين أدق تفاصيل ما رآه وما اكتسبه، خلال فترة سماها نقولا زيادة "فترة النضج" ومنهم الاصطخري وابن حوقل والمقدسي، فركز هؤلاء ومعهم البلخي على الأقطار الإسلامية دون سواها، كما تخصصت مجموعة أخرى في الإخبار عن مناطق دون سواها كالهمداني عن جزيرة العرب، والبيروني عن الهند وابن فضلان عن البلغار في الفولغا، إلى أن تكونت لدى مجموعة ثالثة فكرة المعاجم الجغرافية عن البلدان كالبكري وياقوت الحموي في معجم البلدان، دون أن نسقط من حسابنا ما جمعه مؤرخون وعلماء عرب في مؤلفاتهم، من علوم مختلفة في الأدب والتاريخ والاجتماع وسواها، كالنويري والقلقشندي وابن فضل الله العمري، تضمنت كذلك معلومات جغرافية هامة[3].

ومما يؤخذ على الرحالة العرب والمسلمين، أنهم عنوا بالترحال في بلاد المسلمين دون سواها، واكتفى بعضهم إما بذكر ما تناقل إليه عن بعض البلاد الأخرى، أو بعبورها دون التوقف فيها، ويعزى ذلك لتجنبهم خطر الوقوع في الأسر بسبب

---

[1] أحمد بن سهل البلخي، كتاب البدء والتاريخ، ج4 ص51-52-ياقوت الحموي ، معجم البلدان، من ص 5 حتى ص 12 –المقريزي تقي الدين أحمد، المواعظ والاعتبار، ج3 ص257- أبو الفرج إبن الجوزي ، المنتظم ، ج1 ص131.- إبن أبي جرادة ، المصدر ذاته، ج1 ص 444-447).

[2] الإدريسي، المصدر ذاته ، ج 1 ، ص 208.

[3] زيادة، المرجع ذاته ص37.

العلاقات المتردية أحياناً بين الدول، وإما خوفاً من قرصنة البحر التي كانت شائعة في حينه، والتي لم يكن القراصنة يومها يفرقون بين ملّة وملّة.[1]

وأما المقاييس التي اعتمدها الجغرافيون والرحالة العرب فكانت عموماً كما يلي:

الميل: وهو أقل من الكيلومتر بقليل، **والفرسخ:** وقدره ثلاثة أميال، وأما للمسافات الطويلة فيعتمدون **اليوم** في البر، أي يوم مسير على الدواب، **والمجرى** في البحر وقدره مائة ميل[2]. فقد ذكر الإدريسي في "نزهته" بعضاً من المسافات والمقاييس:

"ومن رودس إلى قبرس ثلاثة مجار، وهي ثلاث مائة ميل ... جزيرة قبرس، جزيرة كبيرة القطر، مقدارها ستة عشر يوما ... ومن جزيرة قبرس إلى مدينة أطرابلس الشام مجريان وكذلك من قبرس إلى جبلة مجرى ونصف ..". [3]

وأما تقسيم الخرائط بالدرجات، فقد اقتبسه العرب عن تقسيم بطليموس وما ترجموه عن اليونانية، من كتب الجغرافيا، كما أورده ياقوت الحموي:

" جزيرة في بحر الروم وبأيديهم، دورها مسيرة ستة عشر يوما، وذكر بطيلموس في كتاب ملحمة الأرض قال: مدينة قبرس طولها إحدى وستون درجة وخمس عشرة دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث عشرة دقيقة في الإقليم الرابع".[4]

وقد استند الرحالة العرب والمسلمين إلى ما توفر لهم من معلومات مدونة عن البلاد التي سيرحلون إليها، فبنوا على ذلك وأضافوا، فمنذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بدأ الجغرافيون العرب بأعمال موضوعية دقيقة وعلمية وواقعية، فقد تميّز كتاب إبن خرداذبة (ت300هـ/912م)، "المسالك والممالك"، بالدقة المتناهية في تقدير الخراج، وهو يصرح أنه تلقى معلوماته عن الفضل بن مروان وزير المعتصم ومتولي ديوان الخراج للخليفة الواثق.

فعن اتصال البحر الرومي (المتوسط) بالمحيط(الأطلسي) وما وراءه يقول : "...وجزيرة أخرى تسمى غديرة تقابل بلاد الأندلس عند خليج عرضه سبعة أميال، يخرج من البحر الأخضر ويمر بين الأندلس وطنجة ويسمى سبطا وينفذ إلى بحر الروم وفيه أيضاً من ناحية الشمال اثنتا عشرة جزيرة وهي الجزائر التي تسمى جزائر براطانية (بريطانيا)، فأما إذا بعد هذا البحر المسمى بالمحيط فإن السفن لا تجري فيه ولا يعلم أحد من البشر حاله.

---

[1] شمس الدين محمد إبن بطوطة ، (رحلة إبن بطوطة) ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج1 ، ص 329.

[2] زيادة المرجع ذاته ص 39.

[3] الإدريسي ، المصدر ذاته، ج: 2 ص: 642-643-644

[4] ياقوت الحموي ، المصدر ذاته، ج 4 ، ص 305.

وأما بحر الروم ومصر ... وفيه خليج يخرج إلى ناحية الشمال بالقرب من بلد رومية طوله خمسمائة ميل يسمى إدريس، وفيه خليج آخر يخرج من الأرض المعروفة بنربونة(Narbonne) يكون طوله مائتي ميل، وفي بحر الروم مائة واثنتان وسبعون جزيرة كان جميعها عامراً، فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازي إليها، منها خمسٌ عظامٌ وهي جزيرة قبرس، وجزيرة أقريطش، وجزيرة سقلية، وجزيرة سرتانية(سردينيا)، وجزيرة يابس حيال الأندلس..." [1].

وفي تسمية البحر (الأبيض المتوسط) ، قسمه الجغرافيون العرب إلى ثلاثة أقسام دعي أغلبه بالبحر الرومي، والقسم الشرقي منه بالبحر الشامي[2]، وسماه إبن العديم "بحر اللاذقية"[3]، والقسم الجنوبي منه بالبحر المصري وسماه المصريون بالبحر الملح لتفريقه عن بحر النيل العذب.

وعن قبرص وما جاورها من الجزر ذكر إبن خرداذبة:

" وجزائر الروم المشهورة: قبرس ودورها اثنا عشر يوماً، وجزيرة إقريطِش(كريت) ودورها خمسة عشر يوماً، وجزيرة الذهب وبها كان يُخصى الخدم، وجزيرة الفضّة، وجزيرة سقلّية ودورها خمسة عشر يوماً. ... وبريد الروم براذين لطاف محذَّفة الأذناب خفاف وحلبتهم غرّة آذار، يُجري الملك خيله وخيل أمرائه بباب الذهب، وهي خيل بين فرسين عجلة عليها الغلمان الوصفاء قيام بالسماط (بالسياط)....وليس للروم في عساكرهم أسواق إنما يحمل الرجل من منزله كعكه وزيته وخمره وجبنه"[4].

أما قبرص في عصره، فقد كانت في غاية الأهمية لدى الخلافة العباسية حيث كانت مجمع الأسطول العربي من كافة الثغور المصرية والشامية قبل انطلاقه في أعماله الحربية:

" ... وأما الثغور البحرية وهي سواحل جند حمص أنطرطوس وبانياس واللاذقية وجبلة والهرياذة وسواحل جند دمشق عرقة طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنون (عدلون)، وسواحل جند الأردن صور وعكا، وبصور صناعة المراكب، وسواحل جند فلسطين قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة، وسواحل مصر رفح وألفرما والعريش، ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشامية، ما يجتمع إليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين إلى المائة، والغزاة إذا عزموا عليها في البحر، كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له، يجتمع بجزيرة قبرس، ويسمى ما يجتمع منها الأسطول، كما

---

[1] أبو القاسم عبيد الله ابن خرداذبه، المسالك والممالك ، ج1 ص62، مطبعة بريل بمدينة ليدن 1889م.

[2] إبن خلدون ، المقدمة، ج 1 ، ص 61-62-65-74.

[3] إبن أبي جرادة، المصدر ذاته، ج 1 ، ص 395.

[4] ابن خرداذبه ، المصدر ذاته ، ج 1 ، ص 26.

يسمى ما يجتمع من الجيش في البر المعسكر، والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار"[1].

ومن رحالة القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي، محمد بن أحمد المقدسي (335هـ/947م-380هـ/990م)، الذي نقل ما يعرفه عن قبرص دون أن يمر بها ولعل أحد الأسباب هو ما ذكره أنها تعاني من الكر والفر:"... وبازاء صور تقع جزيرة قبرص، يقال إنها اثنا عشر يوماً كلها مدن عامرة، وللمسلمين فيها رفق وسعة لكثرة ما يحمل منها من الخيرات والثياب والآلات وهي لمن غلب. المسافة إليها في البحر اقلاع يوم وليلة ثم إلى بلد الروم مثل ذلك"[2].

أما الاصطخري(ت340 هـ/951م)، فينقل بدقة أوضاع الأمم المجاورة والأقرب إلى العرب والمسلمين والمعارك البحرية التي تدور بينهما ثم يخصّ قبرص بالذكر:

" ...وسواحل أثيناس ورومية ذات قرى ومزارع ومدن كبار، وأثيناس ورومية مدينتان بهما مجمع النصارى بقرب البحر، فأما أثيناس فإنها دار حكمة اليونانيين، وبها تحفظ علومهم وحكمهم، وأما رومية فإنها ركن من أركان ملك النصارى، فإن للنصارى كرسياً بإنطاكية وكرسياً بالإسكندرية وكرسياً يرومية، والكرسي الذي بالبيت المقدس محدث، لم يكن في أيام الحواريين، وإنما اتخذوه بعد ذلك لتعظيم البيت المقدس، ... وأما قبرس فإن أهلها نصارى كلهم، ليس فيهم من المسلمين أحد، وهي تقارب في الكبر والعمارة اقريطش، خصبة جداً، افتتحها معاوية صلحا فهادن أهلها فهي في هدنة المسلمين، وهم نصارى من الروم، وعرض هذا البحر من سواحل الشام – إذا استوت الريح- يومان إلى قبرس، ومن قبرس إلى الجانب الآخر من هذا البحر نحو ذلك، ويقع بقبرس الميعة التي تحمل إلى بلدان الإسلام من بلد الروم، والمصطكي تكون بقبرس؛ وأما جبل القلال فإنه كان جبلا فيه مياه خرارة، فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه، وصاروا في وجوه الإفرنجة، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم، ومقداره في الطول يومان، وليس في البحار أحسن حاشية من هذا البحر، فإن العمارات في الجانبين ممتدة غير منقطعة، وسائر البحار يعرض في شطوطها المفاوز والمقاطع، وتترد فيه سفن المسلمين والروم، يعبر كل فريق إلى جانب الآخر سواء فيغنمون، وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين

[1] ابن خرداذبه ،المصدر ذاته، ج 1 ، ص 71.

[2] المقدسي، المصدر ذاته، ، ج 1 ، ص 69.

والروم في السفن، فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك، فيكون حربهم في الماء، وهذه صفة هذا البحر وما يكون فيه... "[1] .

وأما أبو الحسن المسعودي (ت345هـ/956م)، ففي عمله المتقن الشهير ، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، لم يخص جزيرة قبرص بتفاصيلها الجغرافية والاقتصادية، واكتفى بذكر المخاطر التي يكابدها المسافرون إليها والمبحرون بالقرب من مياهها:

"... وإذا كان ما وصفنا من الجبل في البر ومنه تحت البحر سمي في البحر الرومي سفالة، من تلك السفالة في الموضع المعروف بساحل سلوقيا من أرض الروم، واتصالها تحت البحر بنحو من جزيرة قبرص ، وعليها عَطَبُ أكثر مراكب الروم وهلاكها..."[2] .

أما الرحالة النصّيبي أبو القاسم محمد إبن حوقل 380هـ/990م، في كتابه " كتاب صورة الأرض"، فقد رسم بعض الخرائط قبل الإدريسي أستاذ الخرائط الأكبر، بما لايقل عن مائة وثمانين سنة ولكنها على أخطائها وعدم دقتها تدل على أنها نجمت عن تجربة رحلات وعبور مناطق، وليس مما يبلغه سامع عن سامع.

لكنه أخذ عن كتاب سلفه الأصطخري، الذي سبقه بأربعين سنة، كثيراً من المعلومات، حتى أنه دوّن ما يتعلق بأثينا ورومية وكراسي البطاركة في أنطاكية والاسكندرية وبيت المقدس، السالف ذكرهم، كلمةً كلمة، وحرفاً بحرف، ثم ذكر بعض المعلومات عن قبرس:...وقد ذكرت أن من جبلة إلى قبرس يومين ومنها إلى جانب بلد الروم مثله، وبقبرس المسطكى الجيد والميعة الكثيرة والحرير والكتان، وبها من القمح والشعير والحبوب والخصب ما لا يوصف كثرة.." [3].

وزاد إبن حوقل على بقية الرحالة لمسات ومعلومات تاريخية منها:

" كان للمسلمين في هذا البحر غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة نبيلة، فاستولى العدو عليها كقبرس وأقريطش، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة، والوارد منها والصادر إليها رائج، وكان أخذهما أحد الأسباب الزائدة في أطماع الروم لأنهما بما كان فيهما من الرجال والعدة والعتاد كالنار لهيبها لا يفتر وأوارها لا يقصر، ينكون في بلد النصرانية صباح مساء نكاية بينة ظاهرة، يوجبها لهم قربهم من مطالبهم، ومجاورتهم للروم في مساكنهم، فصمدت النصرانية صمدهما، ووكدت وكدهما، إلى أن فتِحتا جميعاً وملِكتا. وكانت قبرص على غير ما كانت عليه أقريطش من موافقة كانت بين أهلها فيها، وذلك أنها لم تزل قسمين، نصف

---

[1] أبو إسحق إبراهيم،الإصطخري ،(ت346هـ/957م)، مسالك الممالك، دار صادر، بيروت، 1937. ج1، ص28.

[2] المسعودي ، المصدر ذاته، ج 1 ص 61 .

[3] إبن حوقل، المصدر ذاته ص 204.

للروم ونصف للمسلمين، بها لهم أمير وحاكم، وأيدي المسلمين مبسوطة على من جاورهم من النصارى والنصارى بهم شقّيْن (مذهبين)،..."[1].

أما رحالة القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، وعلى رأسهم الرحالة الفارسي ناصرى خسرو (394هـ/1003-542هـ/1060م)، صاحب الكتاب الشهير "سفرنامة"، فإن أحداً منهم لم يأت على ذكر جزيرة قبرص من قريب أو بعيد ولعل السبب الرئيسي هو في انعدام الأمن في البحر في ذلك القرن، وعلى الثغور العربية على السواء.

وفي القرن السادس الهجري الثاني عشر ميلادي، أخرج الجغرافي والرحالة أبو الحسن الإدريسي (493هـ/1099م-560هـ/1164م)، عملاً موسوعياً، متوّجاً بالخرائط، وخصّ قبرص بوصف أشمل من ذي قبل، عرض موقعها والمسافات فيها والإمكانات الاقتصادية، وجاء في ذلك:

"... إن جزيرة قبرس جزيرة كبيرة القطر مقدارها ستة عشر يوماً وبها قرى ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواش، وبها معادن الزاج المنسوب إليها، ومنها يتجهز به إلى سائر الأقطار المتنائية والمتقاربة، وبها من المدن ثلاث منها النميسون (ليماسول)، وهي بجنوب الجزيرة، وهي مدينة حسنة، فيها الأسواق والعمارات الكثيرة، ومنها مدينة لفقسية (نيقوسيا) وهي توسطة الوضع في الجزيرة، ومنها مدينة كرينية، وكلتاهما مدينتان حسنتان ذواتا أسواق وقصب وبهما معايش وصنائع وأرزاق واسعة، والعسل بهما كثير موجود.

ومن جزيرة قبرس إلى مدينة أطرابلس الشام مجريان، وكذلك من قبرس إلى جبلة مجرى ونصف، وجزيرة قبرس، على قدم الأيام، رخاؤها شامل وخيرها كامل. ومن شمال الجزيرة إلى أقرب بر منها حصن قرقوس(قرياقوس)، ومنه تظهر جبال قبرس وهي أقرب براً إليها وبينهما نحو من سبعين ميلاً، وبالشرق من هذه الجزيرة صدر البحر الشامي وحيث انتهاؤه في أرض الشام..." [2].

ومن نتاج القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، توسع ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م)، في " معجم البلدان"، بشرح المواقع والمسافات وذكر بعض خصائص الجزيرة ومواردها، دون الدخول في أوضاعها السياسية. ومما ذكره تعاريف عن بعض المدن الكبرى: "... الأفقوسية (نيقوسيا)، اسم مدينة (في) جزيرة قبرس، وهو تعريب أفقديون بالرومية معناه خير موضع، خبّرني بذلك

[1] إبن حوقل، المصدر ذاته ص 203.

[2] الإدريسي، المصدر ذاته ، ج 1 ، ص 208.

رجل عربي من أهل قبرس ..." ،"... والسمار بلدة في جزيرة قبرص في الإقليم الرابع طولها سبع وخمسون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة ونصف"[1].

وأما ابن الوردي (691هـ/1292م-749هـ/1348م)، وهو من أدباء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ومؤرخيه، فقد اكتفى بتكرار ما سجله الجغرافيون العرب من قبله :

" جزيرة قبرص: وهي جزيرة كبيرة مقدار ستة عشر يوماً، بها مدن كثيرة وقرى عامرة ومزارع وأنهار وأشجار وثمار؛ وبها معادن الزاج القبرصي الذي ليس في البلاد مثله شيء، وبها من المواشي ما يكفي بلاد الفرنج..."[2].

ولأخذ فكرة عن أخطار السفر بحراً في حينه، حتى في أقوى المراكب الإيطالية، ذكر لنا الرحالة البلوي، أبو البقاء خالد بن عيسى(كان حياً عام 767هـ/1365م) وهو من رحالة القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي في تحفته " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، ما عاناه لدى توجهه من تونس إلى المشرق العربي بحراً في رحلة طويلة لا يعلم مبتداها ولا منتهاها حتى كاد يلاقي حتفه:

"...ثم تهيأ زادي، وكمل للسفر استعدادي، وخرجت بعد الاستخارة المشهورة، ومن حضرة تونس المذكورة في صبيحة يوم السبت السابع عشر شهر ربيع الثاني عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، ...، ثم أحصى الراكبون فكمل في المركب منهم نحو ألف راكب، ثم رفع الشراع وسرنا خارجين من المرسى إلى أن جزنا جزيرة قوسرة(كورسيكا) ووصلنا إلى جزيرة ملطة، ثم هبت ريح إقتلعتنا وأسرعتنا، واشتدت وحامت فروّعتنا وأزعجتنا، حتى أدخلتنا مرسى جزيرة أقريطش(كريت) فأقمنا فيها خمسة أيام، وهي جزيرة للروم، وطولها نحو ثلاثمائة ميل ثم خرجنا منها فلما توسطنا المواسط اشتدت الريح المختلفة، وعظمت الأمواج المضطربة، وأتت الأنواء من كل جانب، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة، فاظلم الجو وتراكم النوء، وارتفع الصحو، ... وتفاقم الأمر وتعاظم حتى انتهينا إلى جزيرة أشقرباطة (كريت)، فركبنا إلى مرساها، وأرسينا به فتزايد الأمر وعظم، حتى قطع المراسي جملة واحدة، وخرج المركب رغما على الأنواف واستقبل عظيم تلك البحار فأيقنا بالهلاك، ...، فاستغاث الناس ولم يبق شك في الهلاك، وإذا بالرئيس والبحريين قد أقبلوا عليهم وقالوا ما بقي في الحياة من طمع إلا ان قدرتم على ميح الماء ورمى الوسق، ... فلما رجع أحد عن رمي ما قام في وجهه شيء كان، ما عدا النفس خاصة، ... وأهوال البحر لا تحصى ولا تحصر، .. فأقاموا كذلك حتى ظهرت جزيرة قبرس وهي جزيرة كبيرة معمورة بالنصارى كالجزر

---

[1] ياقوت الحموي، المصدر ذاته ج: 1 ص: 232 و ج: 3 ص: 245

[2] أبو حفص زين الدين عمر إبن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، (ج 1 ، ص 36).

التي قبلها، فما انفصلنا عنها إلا وقد أدركهم الجهد والإعياء، ولحقهم العطش الشديد والعناء، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقي لهم من الماء المعد للشرب فطلبت قطرة من الماء توجد، فما رضّ ضلوعي ولا فضّ دموعي إلا أطفال يضطربون بالبكاء ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش، وتجزع بعضهم من ماء البحر فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت، ... إذ أمر الله تعالى الرياح ان تسكن. والبحار أن تبيض، فلم تتحرك فيها للنسيم حركة.

فتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط في أيدي الناس، فضجوا بالدعاء، ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التي كانوا يأخذونها من الماء، واختلفت إليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة، جمعت الأصحاب من قراء القرآن فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا إلا اللجوء إلى الله عزل وجل، والتوسّل إليه بكتابه وبرسوله، فصلينا العشاء الأخيرة وقسّمت عليهم القرآن مجزءا، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا تلك، فلم يكن إلا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم، ونبيّه الكريم، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه، وظهر منار الإسكندرية فأعلِم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضي عليهم ذلك الأمل ومن فرح النفس ما يقتل..."[1].

حتى أن إبن بطوطة (1368/770–1304/703)، أشهر الرحالة العرب في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي على الإطلاق، لم يأت على ذكر جزيرة قبرص، ولو عرضاً ولو بكلمة واحدة، وهو الذي بلغ المشرق والمغرب.

ومن رحالة القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، تفرد الرحالة العربي الحِمْيَري محمد أبو عبد الله (ت900هـ/1494م)، في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار"، لدى وصفه لموقع الجزيرة بذكر شيء من تاريخها قبل ظهور المسيحية، وكذلك في تصريف بعض نتاجها:

" قبرس: جزيرة على البحر الشامي كبيرة القطر مقدارها ستة عشر يوماً، وبها قرى ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواش، وبها معدن الزاج المنسوب إليها، ويتجهز به منها إلى سائر الأقطار. وبها ثلاث مدن. ومن قبرس إلى طرابلس الشام مجريان، وقبرس على ممرِّ الأيام رخاؤها شامل وخيراتها كاملة. ... ودور جزيرة قبرس يوم ، وبينها وبين الأرض الكبيرة يوم، وبينها وبين ساحل مصر خمسة أيام، وبينها وبين رودس ميل، وإنما سميت جزيرة قبرس بمدينة هناك تسمى قبرو، وكانت قبرس معظمة في القديم للوثن المسمى قابرس...وأهل مدينة قبرس موصوفون بالغنى والجِدَة وبها معادن الصفر، ويجمع في جزيرة قبرس اللاذن ولا

[1] أبو البقاء خالد البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، ج 1 ، ص 22-23.

يجمع في غيرها، والذي يجمع منه على الشجر خاصة، يحمل إلى ملك القسطنطينية أفضله، لأنه يعادل الألنجوج القماري طيباً وسائر ما يجمع مما يسقط على وجه الأرض هو الذي يستعمله الناس" [1].

والملاحظ، بعد استعراض نتاج أغلب الجغرافيين والرحالة العرب في العصور الوسطى، أنهم تقصوا عن الجزيرة ولم يقصدوها، وأن أحداً لم يغامر في النزول إلى الجزيرة أو يمكث فيها أو يتوغل في داخلها، للإطلاع على أوضاع أهلها وغربائها، فهي لا تقع على الطريق الرئيسي للحج إلى مكة، ولا تشكل موطئاً آمناً دائماً، وكانت غالبية المسافرين من مصر لا تضطر إلى المرور عبرها، لأن جزيرة رودس أقرب إليهم في طريقهم إلى صقلية أو إلى القسطنطينية[2]، بينما كان البحر بين شواطيء الشام وبين الجزيرة تجتاحه العواصف وتتحطم عنده كبريات سفن الروم أو تجنح[3].

2-صورة قبرص في كتب الرحالة الأوروبيين

لم تكن أهداف الرحالة الأوروبيين الأوائل لتختلف كثيراً عن أهداف الرحالة العرب، ولئن سبق الأوروبيون الأوائل العرب الأوائل بستة قرون، فلأن انتشار المسيحية سبق ظهور الإسلام بهذه المدة تقريباً، ولأن الهدف الرئيسي لكليهما، كان الحج إلى الديار المقدسة قبل التجارة وطلب الرزق أو العلم. على أن الفارق في المستويين الحضاري والاقتصادي بين الشرق والغرب كان دافعاً أساسياً لقدوم عدد من الطموحين والمغامرين بحثاً عن المغنم أو استجلاءً لسحر الشرق وغموضه[4].

وقد انعكس هذا الفارق الحضاري على تراجم الرحالة من كل جهة، فلا يمكن العثور إلا على معلومات متفرقة عن الرحالة الأوروبيين في المصادر الأوروبية، بينما نجد تراجم معظم الرحالة العرب وفيرة ومفصلة في كتب الوفيات والتراجم.

وكان معظم أعمال هؤلاء وأولئك، هو وصف الطرق المؤدية إلى الحج، ثم وصف الأماكن المقدسة، ثم ما تعرضوا له من المصاعب والمشاق والمخاطر، ولا يمكن الحكم على أي منهم بالمبالغة، إلا فيما يتعلق بما ذكره البعض من عجائب وخرافات، نقلها عن ألسنة الناس أو ادعى أنه رآها.

على أن عدداً من الرحالة الأوروبيين، وجّه بعض ما كتبه إلى القيّمين الروحيين أو إلى ملوكهم وأمرائهم، لتنبيههم إلى الحالة السائدة في بيت المقدس وجوارها، وإلى

---

[1] الحميري، المصدر ذاته، ج 1 ، ص51 و454.

[2] راجع أمر جنوح سفن الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد في مطلع الفصل الثاني، وأمر تحطم سفن الظاهر بيبرس على شواطيء قبرص في مطلع الفصل الثالث.

[3] إبن أبي جرادة، المصدر ذاته، ج 1 ص 389- 397-398.

[4] محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية 1099-1187م، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992 ، ص11.

درجة الحرية أو الحرمان التي يعيشها السكان النصارى القاطنين فيها والحجاج القادمين إليها.

أما فكرة الحج من العالم المسيحي إلى القدس، فلم تتبلور في القرون الأولى إلا بعد استقرار الأوضاع في فلسطين، التي شهدت تنكيلاً بالنصارى الأوائل وصراعاً بين السكان اليهود وحكامهم الرومان قبل الإسلام بوقت طويل. وبالتالي فلم يتيسر الحج إلا بعد تدخل الإمبراطور قسطنطين وإيقافه عمليات الاضطهاد بحق النصارى، ثم قامت والدته هيلانة (ت 330 م)، التي طوّبت فيما بعد كقديسة، بفتح باب زيارة الأماكن المقدسة بحثاً عن "رفات السيد المسيح وخشبة الصليب"، وذلك اعتباراً من القرن الرابع الميلادي.

وعلى سبيل السرد الموجز، نذكر أهم رحالة القرن الذين تواتروا بعد ذلك، وهم القديس جيروم (342–420م)، ترافقه الراهبتان بولا (347–404م) وإيستوكيوم (368–419م)، وهما أم وابنتها من طبقة النبلاء، أمضتا بقية عمرهما تتعبدان كراهبتين في جوار بيت المقدس.

وقد اقتصر الحج، في باديء الأمر، على الطبقات الارستقراطية المقتدرة مالياً تأسياً بالقديسة هيلانة، ومنهم الإمبراطورة أيودوكيا زوجة الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، والتي استقرت في القدس أيضاً.

أما في القرن الخامس، فقد اتجه بعض رجال الدين من مختلف الطبقات الاجتماعية إلى الارتحال شرقاً، ومنهم أيوخيريوس أسقف ليون، الذي كان لا يزال حياً عام 449م، والأسقف بطرس الإيبري، نسبة إلى مدينة إيبيريا في جورجيا، والذي قام برحلته عام 437م وتوفي قبل نهاية القرن الخامس.

وخلال القرن السادس، شهدت رحلات الحج إزدياداً في العدد وتحسناً في الوصف، مما سهل على الحجاج اللاحقين رحلاتهم، ومن هؤلاء ثيودوسيوس، الذي وصف تضاريس الأرض المقدسة، وأنطونيوس الشهيد. وعرف هذا القرن أول دليل مرشد لبيت المقدس:

(the braviarus of Jerusalem) [1]، وصار أصحاب السفن التجارية يروجون لمثل هذا الدليل تشجيعاً للراغبين بالحج.

ثم راجت بعد ذلك فكرة الترحال إلى بيت المقدس للتكفير عن الذنوب والخطايا، ومن أشهر رجال الدين الذين روجوا لفكرة التكفير في ذلك العصر، القديس كولومبان (St Columban)، الإيرلندي، حيث يترتب على الشخص المذنب أن يقوم برحلة طويلة وشاقة يمحو بها ذنوبه، وإذ بهذه الفكرة تعم أنحاء القارة الأوروبية اعتباراً من القرن الثامن الميلادي.

[1] عوض، المرجع ذاته، ص19.

ولربما توقفت رحلات الحج إلى بيت المقدس لبعض السنوات خلال النصف الأول من القرن السابع، بسبب الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام، والتي حُسِمت إثر معركة اليرموك عام 15 هـ/ 636 م، بعد أن تسلم الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس من يد البطريرك سوفرونيوس(Sophronios) في العام التالي[1]، لكن بدا أن رحلات الحج سرعان ما استؤنفت فور استقرار الأوضاع في بلاد الشام ، بدليل قيام الأسقف الفرنسي أركولف (Arculf) بعد 34 سنة من فتح بيت المقدس عام 670 م، برحلة شملت مصر والشام والقسطنطينية، إلا أنه تعرض لمتاعب جمة[2].

وبالإفادة من شيوع حالة التسامح الديني في العهد الأموي، ازداد عدد الرحلات والرحالة من أوروبا إلى الشرق، ومنهم الرحالة أدومنان (Adomnan of Luna)، القادم من مدينة لونا، والذي كان يشغل وظيفة كنسية في المدينة في أواخر القرن السابع الميلادي، ومنهم أيضاً عدد من الحجاج الإنكليز، وعلى رأسهم الأسقف ويلي بالد (willybald)، أسقف مدينة إيكستاد في بافاريا، وذلك في مطلع القرن الثامن، ثم الراهب أبيفانيوس (Epiphanius)، الذي زار بيت المقدس خلال المرحلة الأولى من قيام الدولة العباسية في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي.

ثم نشطت حركة الحجاج في عهد شارلمان (carolus Magnus)، الإمبراطور الروماني، لكونه نجح في إقامة علاقات ودية مع الخليفة العباسي هارون الرشيد، مما منح الحجاج ميزات كثيرة في تسهيل الوصول إلى بيت المقدس والإقامة فيه، وأتاح الفرصة لإقامة الراهبات في الأرض المقدسة، ولخدمة الضريح المقدس، ويبدو من خلال وثائق تلك الفترة أن الحرية الدينية في عهد الرشيد بلغت شأواً عالياً[3].

لكن عهد الدويلات في أواخر العصر العباسي، والذي استفحل في القرن الميلادي العاشر، أدى إلى فوضى في حركة الحجاج الأوروبيين، حيث فُقِد الأمن وضاعت المسؤولية عند الحدود الفاصلة بين تلك الدويلات، في الوقت الذي بدأت الحركات الدينية في أوروبا تتخذ طابعاً جماهيرياً متدفقاً.

كذلك صارت السيطرة على البحر بين أوروبا والشرق الإسلامي، موضع تجاذب مستمر بين الأساطيل البيزنطية والسفن التجارية الإيطالية، وما تبقى من الأسطول الفاطمي، لدرجة أن حركة الحج بحراً صارت تتوقف حتى القسطنطينية

---

[1] George w. Cox,; The crusades; Longmans Green, & co, London, 1874, page 13.

[2] محمود سعيد عمران، أركولف ورحلته إلى الشرق، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، القاهرة 1985.

[3] فيليب حتي، تاريخ العرب، ص423و425.

والبوسفور، ثم تتابع براً حتى بيت المقدس، لكونها أصبحت أقل خطورة وأكثر أماناً.

ومن أهم رحالة القرن العاشر، هيلدا كونتيسة سوابيا (suabia)،(ت969م)، وجوديت دوقة بافاريا، وشقيقة الإمبراطور أوتو الأول (Otto I) (المتوفي سنة 912–973م)، وعدد غير قليل من نبلاء المدن الأوروبية ورجال الدين فيها، مثل أسقف أوليفولا الذي قام بالرحلة عام 920م، والقديس كونراد وأسقف كونستانس والقديس يوحنا أسقف بارما، وبين هؤلاء من قام بأكثر من رحلة، ورئيس دير أوريلاك ورئيس دير مونتييه، يرافقهم عدد كبير من رجال العامة ونسائهم[1].

أما أحداث القرن الحادي عشر ورحلات الحج خلاله فقد كان لها أبلغ الأثر، ليس على الرحالة فحسب، بل على مستقبل الشرق والغرب، فقد أدى اضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمي لأتباع بقية الأديان وحتى لأتباع بعض المذاهب الإسلامية، من ضمن ما أداه، إلى تدمير كنيسة الضريح المقدس عام 1010م، وقد أجبر الحاكم بعض الجماعات على اتباع عقيدته، لكنه ما لبث أن تدارك الأمر، فاتفق البيزنطيون والفاطميون على تسوية الأوضاع بعد ذلك، حيث أعاد الإمبراطور قسطنطين التاسع (1042–1055) بناء الكنيسة وتحسينها[2].

وفي الوقت الذي ساءت فيه الأوضاع بين الدويلات الإسلامية وحكام المدن الساحلية، كان عدد الحجاج الأوروبيين يتصاعد، في رحلات جماعية شبه منظمة، يقودها رجال دين ويعينهم عليها تجار وبحارة إيطاليون.

كما ازدادت الرحلات البرية للحجاج، من مناطق كان أهلها قد اعتنقوا الدين المسيحي حديثاً كهنغاريا وبلغاريا والبلقان، ففي هذه الفترة حج ناسك من بامبرج (Bamberg) ، وكونت أنجو فولك نيرا (Fulk Nerra de Anjou)، (ت1040م). وبين عامي 1064–1065م، انطلقت رحلة حج كبيرة قادها سيغفريد (Siegfried)،رئيس أساقفة ماينز(Mainz)، وغونتر أسقف بابمبرج وعدد من رجال الدين، وضمت البعثة آلاف الحجاج قدرت بين 7 و12 ألفاً، ترافقهم عناصر مسلحة للحماية، ويروى أن عدد العائدين منهم كان قليلاً نسبياً بسبب وفاة الكثيرين وبقاء آخرين منهم في الشرق، ومنهم من تمنوا أن توافيهم المنية في الأرض المقدسة تكفيراً عن ذنوبهم. ثم قامت حملة ضخمة أخرى عام 1088م بإشراف الكونت (Robert of Flanders) روبرت الأول الفلاندري[3].

---

[1] عوض، المرجع ذاته، ص 23.

[2] حتي، فيليب، تاريخ العرب، دار غندور بيروت ط5 1974، ص707.-Cox, G.W. p 14

[3] عوض ، المرجع ذاته، ص25.

ومما يلفت النظر، تأثر الرحالة الأوروبيين بعد القرن الحادي عشر الميلادي، بالحملات الصليبية السالفة، ثم تأثيرهم بعد عودتهم، في استثارة الروح الدينية وتأجيج الحماسة في محيطهم. ولا غرو أن ما تواتر إلى الأوروبيين من رجال دين وحكام وعامة عن الأوضاع في الشرق، سواء لجهة معاناة الحجاج النصارى، أو لجهة حضارة العرب الباهرة، أو فيما يتعلق بالتجارة الوافرة، كانت كلها من العوامل التي حركت المشاعر والعواطف والغرائز والطموحات، للقيام بالحملات الصليبية الأولى إلى الشرق.

ويذكر الرحالة الانكليزي سايولف (Seawolf)، أشهر رحالة أوائل القرن الثاني عشر، خلال رحلته إلى فلسطين خلال عامي 1102–1103م، مروراً بالجزر الإغريقية، أن أهل الجزر بأنهم ليسوا كرماء، وأنهم كانوا فقراء معدمين يقطنون في الأكواخ. ويذكر أن سفينته صادفت، بعد انطلاقها من ميناء بافوس في جزيرة قبرص، عاصفة عنيفة استمرت سبع ليال، سبقتها عاصفة أعنف، أحزنته كثيراً لأنها تسببت بغرق بعض رفاقه كانوا معه على متن السفينة. ولم تكن سفينته صغيرة أو ضعيفة بل كانت ضخمة، تقل أعداداً كبيرة من الناس وكان عدد حراسها مائتين، ولولاهم لوقعت السفينة وركابها في الأسر على يد الأسطول الفاطمي، ثم وجدوا انفسهم فجأة أمام ساحل يافا[1].

وعرف مطلع القرن ذاته الرحالة الروسي دانيال (ت1122م)، الذي قام برحلته بين عامي 1106و1107م، والذي يرجح المؤرخون أنه أصبح بعد عودته أسقفاً لمنطقة سورييف(Suriev) عام 1115م، وقد حرص دانيال على ذكر المحطات البحرية والبرية التي توقف فيها، والتي كان لقبرص قسط منها، فقد وصفها دانيال بأنها: "ذات امتداد عظيم، وأنها عامرة بالسكان بصورة كبيرة، ومنتجة لكافة الأنواع، وانها تشتمل على عشرين أسقفية، وأورد إشارات عن بعض القديسين الذين دفنوا فيها"[2]، لكن دانيال لم يتوسع في ذكر قبرص أكثر من ذلك.

ولم تصبح جزيرة قبرص ذات شأن، إلا اعتباراً من أواخر القرن الثاني عشر، أي بعد سقوط بيت المقدس بأيدي المسلمين، وإزالة آخر حاكم بيزنطي مستبد في قبرص على يد الملك الانجليزي ريتشارد قلب الأسد، حيث لعبت دور نقطة الانقضاض الأخيرة لمعظم الحملات الصليبية بعد ذلك، وحيث أصبحت مقراً لاحتياطي التموين بالحبوب والأرزاق لكل حملة يتم التحضير لها فقد استمر الملك

---

[1] سايولف،(Sea wolf) وصف رحلة الحج لبيت المقدس والأراضي المقدسة، ترجمة ونعليق سعيد البيشاوي ، دار الشروق عمان الأردن 1997. ص 20وص 48.

[2] عوض المرجع ذاته، ص77.

الفرنسي لويس التاسع يخزن في الجزيرة مؤونة جيشه قبل انطلاق حملته من فرنسا بحوالي السنتين.
ونذكر الرحالة فتيلوس (1118–1130)، الذي لم يغادر البر وأقصى ما وصل إليه بعض المدن الساحلية وأهمها عكا حيث يذكر أن عدد السفن التي ترد إلى مينائها يفوق عدد السفن التي ترد إلى كافة مدن الساحل الشرقي[1].
وهناك عدد من الرحالة الذين تتالوا بعد ذلك منهم يوحنا الوزربرجي (ألمانيا)، والذي استغرقت رحلته عشر سنوات(1160–1170)، ورحالة روسية هي الراهبة إفروسين(Euphrosine)، إبنة أمير روسي، ترجع في نسبها إلى أمير كييف فلاديمير صاحب الدور الهام في تحول روسيا إلى الدين المسيحي، وهي الرحالة الأنثى الوحيدة التي حُفِظت تدويناتها من القرن الثاني عشر، والرحالة الألماني ثيودريش، الذي استغرقت رحلته سنتين ونيف(1171–1173)، ثم الرحالة يوحنا ماثيو فوكاس، الذي زار الشرق عام 1185م، وهو من مواليد جزيرة كريت، إنخرط في السلك الكنسي وله وصف دقيق للساحل الشرقي للمتوسط ووصف مدينة صور بإعجاب [2]. ويشترك هؤلاء في أنهم توسعوا في وصف الأماكن المقدسة والأوضاع فيها وحولها، لكن لم يكن لجزيرة قبرص حظ هام من تدويناتهم.
ويجدر كذلك ذكر الرحالة اليهود الذين زاروا الشرق في العصر الوسيط، وأهمهم اثنان بنيامين التطيلي من الأندلس، والرحالة بتاحيا الراتسبوني (1174–1187م)[3].
وللرحالة اليهود أهداف مختلفة عن بقية الرحالة الأوروبيين، فقد عنوا أولاً بالبحث عن الجاليات والتجمعات اليهودية في الشرق، ثم بإحصاء أعدادهم ووصف أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم بمختلف أطراف النزاع خلال الحروب الصليبية[4].
إنطلق الحاخام بنيامين يوحنا التطيلي من بلدته الأم تُطَيْلَة (Tudela) التي أسسها اليهود عام 186هـ/ 802م، في عهد الأمير الأموي الأندلسي الحكم بن هشام (796–822م)، وتقع بالقرب من مدينة سرغسطة (Saragossa) في مقاطعة نافارا الأندلسية الجنوبية. واتجه بنيامين شمالاً ماراً بجنوبي فرنسا ثم عبر البحر من مرسيليا إلى جنوا ثم بيزا ثم زار روما ثم تابع بحراً إلى سالونيك ثم القسطنطينية، ثم عبر الجزر اليونانية حتى رودس. وكان لقبرص نصيب من هذا الإحصاء في تدويناته، جاء فيها:

---

[1] عوض، المرجع ذاته ، ص109.
[2] المرجع السابق ص 149-159-190-202.
[3] Travels of Rabbi Petachi , translated by Dr. A. Benisch ; London, Tribner & Co., 1856.
[4] عوض المرجع ذاته، ص16.

"... إلى رودس حيث يوجد فيها حوالي 400 يهودي، وعلى رأسهم الحاخام "أبــّا" والحاخام "حنانيل" والحاخام "إيليجا"، وتستغرق الرحلة منها إلى قبرص أربعة أيام، حيث يوجد حاخامون يهود وقرائيون[1]، كما يوجد بعض الهراطقة المنشقين اليهود ويدعون الأبيقورييين الذين نفاهم الإسرائيليون من كل مكان. وهم ينتهكون ليلة السبت ولاينصرفون للعبادة والتأمل إلا اعتباراً من أول الليلة الأولى في الأسبوع تماماً عند انتهاء السبت. ومن قبرص تستغرق الرحلة أربعة أيام إلى كوريكوس أول رحلتنا البرية..."[2].

ثم تابع رحلته البرية إلى أنطاكية فالمناطق الإسلامية فالداخل الآسيوي حتى مشارف الهند والصين، ثم غادر عائداً بحراً من ميناء الإسكندرية إلى صقلية وإيطاليا ثم ألمانيا ثم روسيا ثم عاد إلى فرنسا ثم إلى بلاده مجدداً. وقد استغرقت رحلته حوالي ست سنوات (1166–1171م)[3].

وبالمقارنة مع ما كتبه بنيامين عن تجمعات اليهود في سائر المدن والمناطق، يظهر جلياً أن نظرته إلى السكان اليهود في قبرص كانت سلبية كونهم منشقين، فلم يهتم لا بأعدادهم ولا بأوضاعهم، ولا بأسماء كبار رجال الدين فيهم، ولا يبدو أنه زارهم أو اختلط بهم، كما فعل مع بقية اليهود في المناطق الأخرى التي زارها. وبنيامين التطيلي هو موضع تمجيد وتخليد لدى اليهود حتى في عصرنا الحاضر بسبب غيرته على بني قومه وقيامه بإحصائهم رغم تشتتهم "في زوايا الأرض الأربعة"[4].

أما الكونت الألماني ويلبرند أولدنبورغ (Willebrand d'Oldenbourg)، من هانوفر، والذي كلف بمهمة رسمية من الإمبراطور الألماني لزيارة الشرق، فأنصف قبرص التي زارها نهاية العام 1211م، عائداً من الأراضي المقدسة عن طريق أرمينية، ومستفيداً من الهدنة التي عقدها الفرنج مع الملك العادل الأيوبي وذلك في عهد هوغ الأول ، فكتب يقول:

" قصدت قبرص من مرفأ غوريغوس، وهي جزيرة كثيرة الخصوبة، حيث تنبت الكرمة المميزة بنيذها الفاخر،...في الجزيرة رئيس أساقفة يعاونه ثلاثة أساقفة لاتين، أما الإغريق الذين يجب عليهم الولاء للاتين، فهم ثلاثة عشر أسقفاً بمن فيهم رئيسهم...أسياد البلد هم الفرنج، أما الإغريق والأرمن فيشكلون السواد الأعظم

---

[1] طائفة من اليهود على المذهب القرائي من الذين رفضوا التمسك بالتلمود وأصروا على التقيد بالتوراة، وقد نشأ هذا المذهب في بغداد في القرن الثامن الميلادي.

[2] BENJAMIN OF TUDELA, THE ITINERARY OF BENJAMIN OF TUDELA CRITICAL TEXT, TRANSLATION AND COMMENTARY BY MARCUS NATHAN ADLER, M.A FIRST EDITION: LONDON 1907 -*published by* PHILIPP FELDHEIM. 96 EAST BROADWAY New York, N. Y. p: 25-26.

[3] BENJAMIN OF TUDELA,Page 69 foot note#2.

[4] Ibid, Page xii

ويدفعون الضريبة كالأقنان، وحالتهم بائسة وثيابهم رثة...في الجزيرة كثير من الدواب والأغنام البرية والأيائل ولا وجود للدببة ولا للأسود ولا لأي من الحيوانات المفترسة...نزلنا أولاً في كيرينيا، مدينة صغيرة محصنة ذات مرفأ جيد، فيها قصر محاط بأسوارٍ وأبراج، وللملك في هذه المدينة أربعة قصور...توِّج السيد الأول في الجزيرة ملكاً بمباركة الإمبراطور هنري(السادس)، وعلى يد المستشار كونراد ويدين الملك القبرصي بالولاء للإمبراطور الروماني...توجهنا إلى نيقوسيا التي تتوسط سهلاً واسعاً، وهي عاصمة المملكة، ولا تحميها أية حصون، وأرى حصناً قيد البناء....سكان نيقوسيا كثيرون، وتبدو عليهم آثار النعمة، منازلهم بألوانها وزينتها أشبه بمنازل انطاكية...تضم المدينة الكرسي الأسقفي والبلاط الملكي وقصر السيد الملك، في هذا القصر كانت أول مرة رأيت فيها طائر النعامة...ثم توجهنا إلى ليماسول، مدينة ضعيفة التحصين تقع على شاطيء البحر، وفيها مرفأ زاهر، وبها الأسقفية الأولى بعد أسقفية نيقوسيا الكبرى... ومن أعلى جبل الصليب المقدس، أمكننا أن نرى مدينة بافوس الصغيرة حيث الأسقفية الثانية...أما فماغوستا فهي مدينة ضعيفة التحصين لكن لها مرفأ رائع وفيها الأسقفية اللاتينية الثالثة التابعة لنيقوسيا..."[1].

كما دوّن كثير من الزوار في عصر هوغ الرابع(1324 – 1359) ملاحظاتهم حول ازدهار الجزيرة ونموّها وسرعة تطورها، ومنهم المندوب الفلورنسي المقيم في قبرص "Francesco Baldacci Pegalotti" الذي تحدث عن فيض العملات الفضية المتدفق على الجزيرة[2]. وكان لفرسان الجزيرة حظ من وصف الرحالة لودلف سوذيم(Ludolphe De Sucheim) لقبرص عام 1349م، بأنهم أغنى فرسان العالم[3]. وتؤكد ذلك المباني الأثرية الفخمة التي أنشأها الفرنج في القرن الرابع عشر والتي تشهد على فترة النهضة والإزدهار هذه وبينها وأشهرها على الإطلاق كاتدرائية القديس نقولا في فماغوستا.

ولودلف المذكور هو كاهن مدينة "سوذيم" في مقاطعة وستفاليا، مرّ على قبرص، وهو في طريقه للحج إلى الأراضي المقدسة، وكتب مذكراته في عدة أوراق، عمل المؤرخ الفرنسي " دوماس لاتري" مع آخرين على ترميمها، ومما جاء في مذكرات الكاهن لودولف:

" أرض قبرص خصبة وغنية وهي متعددة الثروات، يحميها البحر من كل جانب، وتتوسط البلاد المصرية والسورية والأرمينية والتركية واليونانية...إستوعبت

---

[1] DE MAS LATRIE, Op:Cit. VOL. I. Pages: 186-187-188.

[2] EDBURY, P: 151 - Riley Smith – P: 293.

[3] عاشور، قبرص والحروب الصليبية – ص: 55.

أعداداً كبيرة من الذين هجروا من الأرض المقدسة... ويتمتع حكامها الذين انتقلوا من مملكة بيت المقدس بالنبل والأخلاق وحسن المعاملة... ومدنها الرئيسية بافوس التي تواجه الإسكندرية مباشرة وفماغوستا التي تواجه المرافيء الأرمينية والسورية تمتاز بثرواتها وحركة مرفئها الناشط..أبنيتها جميلة ومخازنها واسعة...أما نيقوسيا فهي تقع في وسط البر وهي آهلة جداً بالسكان، وفي قبرص سهول غنية بالكرمة، ويصنع منها النبيذ الفاخر، بالقرب من وادي الأولمب...".
وكتب لودولف مطولاً عن تاريخ قبرص الديني وتميزها عن سواها من الأقطار المسيحية [1]. وذكر أيضاً أن عدداً من الإمارات التركية في آسية الصغرى كانت في ذلك الوقت تدفع الضريبة لقبرص ومنها: العلايا وأنامور وسيق وساتاليا...[2].
حاج آخر يدعى"أوجيه" سيّد أنجلور،(Oger seigneur d'Anglure)، مرّ بجزيرة قبرص خلال فترة أعياد الميلاد ورأس السنة 1395–1396م، نزل مع الحجاج في ليماسول ووجدها خالية من السكان، بسبب القصف المدمر الذي أحدثه الأسطول الجنوي في المدينة، وقد رافقت الحجاج قوة من الجيش القبرصي، أرسلها الملك لمواكبتهم حتى قصره في نيقوسيا، رحب بهم الملك، وكان وسيماً يتحدث الفرنسية بطلاقة، وكان مضيافاً كريماً. استدعى الملكة زوجته وأطفاله لتحية الضيوف، وكانت عائلته في أبهى الملابس والزينة والفخامة. وتبين للحجاج أن مناخ قبرص غير صحي، وأن الحجاج غالباً ما يصابون بالحمى وبالفعل توفي أحد النبلاء الذين كانوا في عداد الحجاج[3].
ومن الحجاج الذين زاروا قبرص في القرن الخامس عشر، بعد الغزو المملوكي للجزيرة، نذكر الحاج " غبريال كابوديليستا" (Capodilista)، وهو من نبلاء مقاطعة بادو (Padou)، نزل مع رفاقه في ميناء بافوس صيف العام 1458م، عائداً من بيت المقدس. كانت بافوس خربة، وقليلة السكان، ثم وصل مع الحجاج إلى قلعة ابيسكوبي (Episcopia) حيث تنتشر مزارع السكر العائدة لعائلة من نبلاء البندقية (كورنارو)، وفي هذه المنطقة توفيت ملكة قبرص(الزوجة الأولى للملك حنا الثاني دو لوزينيان)، والناس بدأوا بالعودة إلى هذا المكان الذي اتخذه إبن الملك (جاك الدعي) مقراً له، ويبدو أن الأتراك قد تواجدوا فيه من قبل.
ويتميّز هذا الحصن بحدائق غناء مؤلفة من شجر النارنج والأرز والميموزا، وكانت بعض أشجاره تحمل ثماراً خضراء تشبه الخيار، لكن طعمها يصبح لذيذاً

---

[1] De Mas Latrie, Histoire de l'ile de Chypre, VOL II , 1ere partie, les documents, Annee 1350 P:210.

[2] بيتر إدبوري، قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت ،الطبعة الأولى. 1997.، ص 132.

[3] De Mas Latrie, OP.CIT. VOL II, P:430.

حين يصفر لونها (لعلها شجرة الموز)، كانت حقول قصب السكر تسقيها أنهار جارية إنتشرت على ضفافها أعشاب متعفنة...

...انتشرت في الجو رياح منتنة فاسدة اصابت الجميع بالحمى وتوفي أغلب الحجاج بعد آلام مبرحة دامت 15 يوماً، ولم يبق على قيد الحياة سوى الحاج "الفقير" غبريال(يقصد نفسه) ورفيقه أنطونيو. وحين وصلا منهكين إلى نيقوسيا استقبلهما نبيل من أسرة كورنارو في دارته ثم توجها لزيارة الملك، الذي رحب بهما وأهداهما ثياباً فخمة مطرزة، ثم خصصت لهما إقامة في قصر جميل للاستراحة والتعافي"[1].

يتبين مما سبق أن غالبية الرحالة العرب تحدثوا عن قبرص عن بعد، ولئن زارها أحدهم ففي القرون الأولى من العصر العباسي، حين كانت أوضاع الجزيرة تسمح للمسلمين بارتيادها. أما في العهد اللوزنياني فقد ازدهرت التجارة منها وإليها، لكن غالبية التجار كانوا من الغرب الأوروبي أو من المسيحيين المشرقيين، وهؤلاء لم يكونوا من عداد الرحالة في ذلك العصر، أما المسلمون الذين كانوا يترددون إلى الجزيرة، فللتجارة فقط وللعبور خلال الظروف الأمنية السانحة.

يبقى أن قبرص كانت ممراً أساسياً لحج اللاتين الأوروبيين والبيزنطيين إلى الديار المقدسة خاصة عبر مرفأي ليماسول وفماغوستا كما رأينا. مع الإشارة إلى أن بعض خطوط النقل البحرية الأوروبية كانت تتجاوز قبرص انطلاقاً من رودس للوصول إلى المرافيء المصرية أو الفلسطينية، كما كان بعض ربابنة السفن الكبرى يتجنبون قبرص لخطورة مياهها وكثرة حوادث التحطم عند شواطئها، ولسوء مناخها، ويفضلون الإبحار مباشرة إلى طرابلس أو عكا. وأما أصحاب السفن الصغيرة فقد كانوا يبحرون بمحاذاة سواحل آسية الصغرى للالتجاء إلى موانئها عند الضرورة هرباً من العواصف أو من أعمال القرصنة[2].

خامساً–قبرص في العلاقات بين الشرق والغرب
من بداية الحروب الصليبية وحتى العهد الأيوبي

1–قبرص البيزنطية خلال الحروب الصليبية

مع دخول الإفرنج الى أراضي الامبراطورية، ومنذ الحملة الصليبية الاولى نشب النزاع المرير بين الإفرنج اللاتين والبيزنطيين الارثوذكس، وألقت أوروبا باللوم في حينه على الامبراطورية البيزنطية بسبب المصائب والكوارث التي حلّت بالحملات الصليبية الاولى.

---

[1] De Mas Latrie, OP.CIT.. VOL III, P:76.

[2] سايولف، المصدر ذاته، ص 46.

وينسب وليم الصوري فشل الحملات الصليبية الأولى، الى "خيانة الامبراطور الكسيوس كومنين"، فهو برأيه لم يكتفِ بمضايقة الفرنج في الحملة الاولى، بل سعى في الثانية الى تأليب سكان المناطق وأمرائهم عليها، مما أدى الى فشلها واندحارها. ويؤكد أن هدايا الامبراطور لم تُغرِ القائد ريموند دو بواتييه، لأنه كان يعرف سلوك الامبراطور وحقيقة نواياه، وأن الثقة بين الشعبين البيزنطي والفرنجي كانت موضع شك مستمر[1].

فعندما وصل قادة الحملة الصليبية الاولى الى القسطنطينية، فوجئوا بعلاقات باردة مع الامبراطور بقدر ما ظهرت لهم فخامة المدينة وغناها وثروتها. وذلك على الرغم من الكرم الذي اتصف به الامبراطور الكسيوس، فقد استحصل على قسم الولاء له من جميع أمراء الحملة باستثناء ريموند، واعتبر عامة الحجاج والمحاربين اللاتين أن هذا القسم هو بمثابة خيانة وإهانة، في وقت كان لا يسمح لقوات الفرنج بالاقامة أكثر من ثلاثة ايام في اي مكان تصل اليه. كما كان لا يسمح بدخول القسطنطينية الا لمجموعات صغيرة تتألف من بضعة افراد، حفاظاً على أمن العاصمة وهدوئها.

وصدم المحاربون ايضاً من استقبال البيزنطيين البارد لهم وهم الذين ظنوا انهم قد أتوا لتحريرهم وانقاذهم، كما استعصى عليهم ان يفهموا لغة البلاد وعاداتها اضافة الى الطقوس الكنسية المختلفة عن طقوسهم[2].

وبحلول عام 491 هـ/1097م، كانت الحملة الصليبية قد وصلت الى المنطقة الممتدة من حلب الى وادي نهر العاصي، وأوشك مخزونها على النفاد، كما استهلك الجيش الغنائم الوافرة التي عثر عليها في سهل انطاكية، وأمحلت الارياف المجاورة وارتفعت الاسعار وأخذ الكثيرون يتضورون جوعاً، فكان رجل من كل سبعة رجال يسقط ميتاً من الجوع، ولم يصمد الا الجنود الاثرياء، ولم يبقَ من الخيول الا سبعمائة جواد. وبسبب حسن تصرفه وعلاقاته الطيبة مع رجال الدين الارثوذكس نجح "أديمار" أسقف "لوبوي" والممثل الشخصي للبابا في الحملة، في استقدام المؤن من قبرص، وساهم البطريرك سيمون ومعاونوه في هذه المهمة مساهمة فعالة، فأرسلت قبرص ما فاض عن حاجة الجزيرة من طعام ونبيذ الى الحملة الصليبية عن طريق البحر، كما ساهم في انجاحها "تاتيسيوس" ممثل الامبراطور البيزنطي، فقدم بعض الطعام كهدية، أما اكثره فكان يتم شراؤه من التجار القبارصة[3].

---

[1] سايولف، المصدر السابق، ج 2، ص 269-270.

[2] رنسيمان، ستيفن، الحملات الصليبية ، ص 219.

[3] المرجع ذاته، ص 274، 278، 296 - جوناثان رايلي-سميث، الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية، ص 125.

ومع انطلاق الحملات الصليبية الاولى، اتخذت قبرص موقعاً فريداً لها، فقد أدى سوء تنظيم تلك الحملات الى فناء الكثيرين وفرار الكثيرين عائدين الى بلادهم، وكانت أسهل الطرق هي العودة بحراً عبر الجزر، وخاصة جزيرة قبرص الأقرب الى شواطئ منطقة الصراع. كما كانت أعداد أكبر تتدفق من الغرب، لتلتحق بمن سبقها وتستخدم الجزيرة كنقطة عبور او نقطة التقاء بين الوافدين براً والملتحقين بحراً. ولم يكن الحاكم البيزنطي ليقف حجر عثرة في طريق أي من العائدين أو الملتحقين أو أولئك القادمين للبحث عن أقاربهم المفقودين[1].

ومع نهاية القرن الحادي عشر، ظهرت قبرص كقاعدة للعمليات البرية والبحرية للامبراطورية البيزنطية، حيث عزز البيزنطيون وجودهم، كما بدأ قادة الافرنج يعتمدون على قبرص كمحطة لتموين قواتهم بالرجال والمؤن، وعلى رأسهم ريمون دو سان جيل صاحب طرابلس وخلفاؤه من بعده. لكن هذه الحركة التجارية والعسكرية النشطة تمت على حساب القطاعات الاقتصادية الاخرى وخاصة الزراعية والعمرانية، وزاد في ذلك سوء ادارة حكامها. وباتت الموارد مقتصرة على ما يرد الى مرافئها من سفن ومؤن وعتاد وحجاج لاتين، في الوقت الذي استقرت فيه علاقاتها مع العرب لضعفهم وانشغالهم في الحروب مع الافرنج على طول الثغور الشرقية للبحر.

فقد ضعفت الخلافة العباسية المركزية، وأخذت بعض دويلاتها بالانهيار ومنها الدولة التركية، فتوفي السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان سنة 485هـ/1092م، بعيد مقتل وزيره نظام الملك، في السنة ذاتها، ثم توفي شقيقه السلطان "تتش" بعده بثلاث سنوات. ولم يستقر الملك بعده لولديه رضوان في حلب ودقاق في دمشق، وسادت البلاد أجواء من التوتر، وانعدم الأمان وعجز الإثنين عن ضبط الأمور، مما دفع البطريرك الارثوذكسي "سيمون" وكبار قساوسته الى مغادرة القدس واللجوء إلى قبرص، طلباً للأمان[2].

وباتت قبرص محطة للفارين من النصارى والمسلمين على السواء. فقد فرّ أمير بيروت وعدد من سكانها المسلمين الى قبرص بحراً بعدما حاصرها بودوان ملك بيت المقدس ثم احتلها وذلك سنة 504 هـ/1110م[3].

كما شهدت تلك الفترة أول هجرة للموارنة من جبل لبنان الى قبرص، تبعت ذلك هجرة قسرية الى الجزيرة لسكان تل حمدون من أعمال ارمينية الصغرى بضغط من الامبراطور البيزنطي حنا كومنين الثاني وذلك سنة 531 هـ/1136م[1].

---

[1] رايلي سميث، المرجع ذاته، ص 117.

[2] Runciman, A History Of The Crusades, vol I , Cambridge University Press, USA 1995, P:78.

[3] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج 5، ص 333. - عاشور ، المرجع ذاته، ص 23.

وكان لقبرص دور فعال خلال الصراع الطويل على انطاكية بين الافرنج والبيزنطيين، فقد أخل بوهميد النورماني بالاتفاق المعقود مع الامبراطور الكسيوس كومنين (474هـ/1081م – 512هـ/1118م)، في القسطنطينية، عندما تعهد بتسليم اقليم انطاكية للامبراطور فور انتزاعه من العرب، ولم يفعل، فشكلت قبرص عند ذلك قاعدة للحملات البيزنطية ضد الافرنج في شمال الساحل السوري، وعززت دفاعاتها ضد أي غزو بحري من الافرنج، ومنها انطلق فيلوكاليس حاكم قبرص عام493هـ/ 1099م، على رأس قوة كبيرة للدفاع عن اللاذقية في وجه بوهيمند واضطره الى التراجع عنها باتجاه انطاكية[2].

وعن طريق قبرص، قفل "تاتيسيوس" ممثل الامبراطور البيزنطي المرافق للحملات الصليبية، عائداً الى القسطنطينية بعد فتور العلاقات والاتهامات المتبادلة بينه وبين بوهيمند.

وبقيت الحامية القبرصية على أهبة الاستعداد، وهي تراقب الحملة الصليبية على السواحل الشرقية، وما أن عجز روبرت النورمندي عن المحافظة على اللاذقية مضطراً لاخلائها، حتى هبت الحامية القبرصية للتدخل بحملة بحرية صغيرة فدخلت المدينة وحافظت عليها، وكان الحاكم القبرصي ايوستاسيوس فيلوكاليس في الوقت ذاته يحافظ على صلات ودية بالكونت ريموند دو تولوز، مكنتهما من تبادل الدعم والمساعدة[3].

وعلى الرغم من سقوط طرطوس بمينائها الهام والملائم بيد الافرنج سنة 492هـ/1099م فإن حركة النقل والدعم البحرية زادت بين قبرص وبين جيوش الافرنج في الشرق، ولم تفقد قبرص أهميتها العسكرية والاقتصادية.

وبقي ولاء القبارصة للبيزنطيين ثابتاً، وعند كل سانحة كانت السفن القبرصية تشارك الاسطول البيزنطي في معاركه، وخاصة عندما تواجهت سفن بيزا مع الاسطول البيزنطي فدمّر لها الأخير بعض قطعها. ولما قام الاسطول البيزني بمحاصرة اللاذقية وحاميتها البيزنطية، بحراً دعماً لبوهيمند الذي حاصرها براً، أوقف حاكم قبرص كل أنواع الدعم للافرنج في الجزيرة، مما اضطر ريموند دو سان جيل الى التدخل وفك الحصار، حتى عاد حاكم قبرص الى وضع موانئه وسفنه في خدمة الحملة الصليبية وأمرائها، ثم صارت اللقاءات بين أمراء الفرنجة وبين قادة أساطيل المدن الايطالية بعد ذلك تعقد في قبرص الآمنة[4].

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج 5، ص 233. E.I.2; p. 302.

[2] عاشور، المرجع ذاته، ص 22.

[3] رنسيمان، المرجع ذاته، ص 277- 308- 321.

[4] المرجع السابق، ص 359- 378- 379.

وقد زاد من ارتباط أهل الجزيرة بالقسطنطينية ومثلهم نصارى الشرق بوجه عام، ما عانوه من سوء معاملة الافرنج لهم منذ قدومهم إل الشرق، "إساءة أفنت الكثيرين قتلاً لأتفه الاسباب ولم يراعوا فيهم إلاّ ولا ذمة"[1].

تأخر الفرنج كثيراً حتى شعروا بأهمية نصارى الشرق في مختلف الميادين، بعد أن عانوا من نقص في العدد وندرة في اليد العاملة، وبعد أن عرفوا أهمية العيون التي كان يمكنها أن ترصد حركة جيوش المسلمين. وكان بلدوين ملك القدس أول من عرف أهمية نصارى الشرق، فأرسل في كل ناحية يطلب اليهم السكن داخل حرم المدينة، ويعدهم ويمنّيهم بحياة رغيدة بعد طول بؤس وشقاء وسوء معاملة، فمنحهم نواحٍ خاصة بهم في المدينة فعمروها وعمرت بهم[2].

كما سبقه في ذلك ريموند دو تولوز عند حصاره لطرابلس التي أعجزته، فطلب العون من الامبراطور البيزنطي الذي أمدّه بالميرة (المواد الغذائية)، والاخشاب والمعدات من جزيرة قبرص. لكن النصارى المحليين هم الذين ساندوه في إحكام الحصار الطويل، ومن الغريب والجدير ذكره أن قبرص ذاتها كانت تمد الحامية الاسلامية في طرابلس خلسةً بالمؤن اللازمة مقابل أثمان باهظة كان يدفعها الطرابلسيون[3].

ولم تخل تصرفات بعض نبلاء الافرنج من الرعونة ومن ضعف النظر بحق قبرص وأهلها، فقد أغار رينو دو شاتيون (الذي يعرفه العرب باسم أرناط)، أمير انطاكية، يعاونه ملك أرمينية الصغرى طوروس الثاني (549 هـ/1154م – 564 هـ/1168 م)، على الجزيرة. فأعمل فيها القتل والشدة والتنكيل والتمثيل، فجدع أنوف رجال الدين القبارصة وآذانهم، وخرّب القلاع ودمّر المدن وأشاع القتل والسلب والنهب، وقام بأعمال مشينة ومخجلة، فاقتحم أديرة الرهبان والراهبات على السواء وسمح باغتصاب الراهبات والعذارى الصغيرات على حد قول وليم الصوري[4].

وتبين أنه لم يكن ينوي احتلال الجزيرة والدفاع عنها، بقدر ما كان يهدف الى تلقين القبارصة درساً عنيفاً لردعهم عن مهاجمة انطاكية، وعن مد يد العون للامبراطور البيزنطي في حملته عليها[5].

وعلى الرغم من سوء العلاقات البيزنطية اللاتينية، بقي الغالب عليها عداؤها المشترك للمقاطعات الاسلامية، فكان الطرفان يتناسيان خلافاتهما ويوحدان

---

[1] الصوري، وليم، المصدر ذاته، ج 2، ص 317.

[2] المصدر السابق، ج 2، ص 319.

[3] عاشور، المرجع ذاته ، ج 1، ص 282 وص 286.

[4] الصوري، وليم، المصدر ذاته، ج 3، ص 402.-De Mas Latrie, Op.Cit. VOL I, P: 116.

[5] عاشور، المرجع السابق، ص 23.

جهودهما كلما تعاظمت قوة الجيوش الإسلامية، وما أن أنهى صلاح الدين وجود الدولة الفاطمية في مصر، واتحدت مصر والشام تحت زعامة نور الدين، حتى دعا الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين الافرنج الى إحياء اتفاقية عام 563هـ/1168م، التي سبق أن عقدها معهم، للقيام بغزو مشترك لمصر واقتسامها، فخرج الاسطول البيزنطي من الدردنيل وانضمت اليه بقية سفنه الراسية في قبرص، ثم توّجه الى صور وعكا لينضم اليه اسطول الافرنج وجيوشهم وفيها فرسان الأسبتارية وغيرهم للقيام بالحملة الشهيرة على مصر في مطلع سنة 565هـ/خريف عام 1169م[1].

وكان الايوبيون بعد ذلك يردون بعمليات بحرية تستهدف سفن الافرنج وموانئ الجزر في بحر الروم، فبعد أن قام الامير أرناط "رينودو شاتيون" امير الكرك بالهجوم على الحجاج في البحر الاحمر سنة 578هـ/1182م، وحاول الوصول الى المدينة المنورة، قمع الايوبيون المحاولة وردوا بعدد من الاعمال الحربية كان بينها "تكاية أهل الجزائر" أي جزر الإغريق، فعاد الاسطول ومعه سفينة للفرنج كانت متوجهة الى عكا تحمل أخشاباً وأخذوا منها سبعين أسيراً[2].

وعند حصار الفرنج للحامية المسلمة في عكا سنة 587 هـ/1191م، أوعز صلاح الدين الى نوابه في الثغور بالخروج بالسفن الى البحر، لقطع طرق السفن الافرنجية المتوجهة الى عكا، فعادت السفن العربية بسفن وغنائم كثيرة، وذلك خلال رحلة ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترة الى الشرق ماراً بقبرص[3].

لكن قبرص البيزنطية لم تنعم بالازدهار طويلاً، وأخذت تحتضر لأسباب داخلية وخارجية، اقتصادية وسياسية، فقد استبد بها حاكمها اسحق كومنين عام 580هـ/1184م، وحاول الاستقلال عن قريبه الامبراطور اندرونيق الاول كومنين (578–581هـ/1182م – 1185م)، فقطع علاقته بالقسطنطينية، ونصّب نفسه امبراطوراً على قبرص، وعجز الامبراطور البيزنطي عن استرداد الجزيرة، وعن تأديب اسحق المذكور الذي شرع في الانفاق على الجيش وعلى التحصينات، مما أضعف موارد الامبراطورية البيزنطية والجزيرة القبرصية معاً[4].

وبالغ إسحق هذا في كرهه وممارساته ضد البيزنطيين والافرنج معاً، كما حاول تقوية صلاته بالسلطان صلاح الدين، وكان يطلعه على تحركات قوات الافرنج ونواياهم، وكان يعرقل حركة تموينهم بالمؤن عبر المرافئ القبرصية، ووصل به

---

[1] عاشور، الحروب الصليبية، ج 2، ص 559.
[2] المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ص 13.
[3] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج 5، ص 203.
[4] عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص 25.

الحال الى منع خروج المؤن من قبرص قطعياً، الى الموانئ التي يحتلها الافرنج في الشرق[1].

بقيت الثقة معدومة بين البيزنطيين والافرنج على امتداد الحملات الصليبية، وبقيت نظرة كل منهما للآخر أنه "طبع على الخيانة والغدر والكراهية" [2] ، فجاءت هذه العوامل مجتمعة لتهيّئ الظروف لاستيلاء الافرنج على الجزيرة في وقت بات قريباً.

2-قبرص من السيادة البيزنطية إلى السيادة اللاتينية

لم يكن نزول الملك الانكليزي ريتشارد قلب الاسد الى جزيرة قبرص عام 587هـ/1191م هو أول عهد القبارصة بالافرنج، فقد سبقه تجار البندقية اليها مع مطلع القرن الثاني عشر، وفي سنة 543هـ/1148م، كان الامبراطور مانويل كومنين قد أعطى التجار البنادقة بعض الامتيازات في جزيرتي قبرص وكريت.

ثم تعرضت الجزيرة لأحداث مأساوية متعاقبة مهدت لظهور قبرص اللاتينية: بدأت مع غزوها من قبل الامير الفرنجي أرناط، يعاونه الملك الارميني طوروس، ثم غزو الاسطول المصري للجزيرة عام 553هـ/1158م، ثم اعتداء القراصنة عليها عام 557هـ/1161م، حيث نزلوا بساحل كيليكيا، بإيعاز من الكونت ريموند الثالث أمير انطاكية، ومن كونت طرابلس. وكان التغلغل اللاتيني في الجزيرة قد بدأ منذ الحملة الصليبية الأولى، عندما حوصرت أنطاكية ولجأ الإفرنج إليها[3].

لم يكن ظهور قبرص اللاتينية حدثاً عارضاً، بل كان وليد ظروف سياسية حاسمة، حين ضجت أوروبا إثر سقوط بيت المقدس بيد صلاح الدين، في رجب سنة 583هـ/اكتوبر 1187م.

وبدأت أوروبا ترسل تباعاً ما تيسّر لها من الدعم الى الشرق أولاً بأول، فوصل عن طريق البحر مئات من الفرسان النورمان، يدعمهم ملك صقلية وليم الثاني النورماني، ساهموا في الدفاع عن حاميتي طرابلس واللاذقية، وحالوا دون سقوطهما في قبضة الايوبيين[4].

في ذلك الوقت، كان حاكم قبرص، إسحق دوكاس كومنين قد اعلن نفسه امبراطوراً لقبرص مستبداً بأهل الجزيرة وبالتجار، وبالعابرين منها وإليها[5].

وفي تموز من العام 1188م الموافق 584 هـ، أطلق صلاح الدين سراح ملك بيت المقدس الاسير غي دو لوزينيان وآخرين من أمراء الافرنج، وفيهم مقدم الداوية[1]،

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL I, P:4.

[2] الصوري، وليم، المصدر ذاته، ج 3، ص 273.

[3] أحمد حطيط، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، الفرات ،2003، ص168.

[4] عاشور، الحروب الصليبية، ج 2، ص 663.

[5] Bustron, Op.Cit , P:48.

ولعلّ صلاح الدين كان يهدف الى تسجيل موقف مشرف جديد، والى توطيد علاقة طيبة مع الملك المطلق سراحه[2]، للافادة منه لاحقاً في المواجهات المتوقعة مع وصول الحملة الصليبية الثالثة التي أخذت أوروبا تعد لها العدّة[3].

ولما أرسل صلاح الدين إلى "غي دو لوزينيان" يذكره بالقسم الذي أداه شرط إطلاق سراحه، بعدم قتال المسلمين، رد الملك "العتيق" أنه على العهد، وأن سيفه لا يزال في غمده منذ أطلق سراحه، ثم أحلته الكنيسة بعد ذلك من قسمه وعهده لصلاح الدين.[4]

لكن ملك بيت المقدس "الاسمي"، حيل بينه وبين دخول صور، التي كان الامير كونراد دو مونتفرات قد صمد فيها ودافع عنها، مما اضطره للتوجّه الى عكا لحصار حاميتها الايوبية، بعد أن جمع جيشاً من حوالي ثمانية آلاف من فلول المقاتلين الإفرنج الذين تفرقوا بعد معركة حطين وبعد سقوط الحاميات الإفرنجية على أثرها[5].

ثم تحرك الملك الالماني فردريك بربروسا في أيار 1189م/585هـ، الى الشرق، براً، على رأس حملة ضخمة، تضم أكثر من مئة ألف مقاتل، أرجفت سمعتها من قبل أن تصل الى آسية الصغرى في آذار 1190م/586هـ[6].

وإذ بقائدها يتعرض لحادثة غرق في كيليكيا، ما أدى الى انفراط عقد الجيش وتعرضه للسلب حيناً وللأوبئة حيناً آخر . ولم يسلم من الجيش الا القسم الضئيل الذي تمكن فردريك السوابي (Duc De Soave)، ابن الملك الالماني من قيادته، حيث وصل الى مشارف عكا، لدعم قوات الإفرنج التي كانت تحاصر المدينة الإسلامية[7].

---

[1] Amadi, OP.Cit,P:75.

[2] STRAMBALDI, OP.Cit.P:8.

[3] حصّل صلاح الدين بعض التواصل مع جي دو لوزينيان على المدى الطويل حين ملك الأخير جزيرة قبرص:(Machéras, Op. Cit,P:14.) .- (عاشور قبرص والحروب الصليبية، ص33).

[4] Histoire d'Eracles.RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES:- HISTORIENS OCCIDENTAUX, Publiés par les Soins de l'Académie Royale des Inscriptions et Belles-Lettres TI Paris Imprimerie Royale MD CCC XLIV, et TII Paris, Imprimerie Impériale MDCCCLIX. T II, P:124.
- DE MAS LATRIE, FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE, Imprimerie, FIRNIN DIDOT Frères PARIS, 1855,P: 25..

[5] Histoire d'Eracles T II, P:121,131 - JOSEPH FRANÇOIS MICHAUD,HISTOIRE DES CROISADES, FURNES & CIE, 1841, Tome II, LIVREVIII, P: 337.

[6] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 586 هـ...-ابن أيبك الدوادار، كنز الغرر، ج7، ص99.
RENÉ GROUSSET.: Histoires des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem vol I II & III. Librairie PLON, Paris 1936, P:54 et 59.

[7] Histoire d'Eracles , T.II, P:138-AMADI,OP.Cit.P:76 -
عاشور، الحروب الصليبية، ج 2، ص 669

ثم أخذ القسم الثاني من الحملة الصليبية الثالثة بالانطلاق من أوروبا بحراً، في صيف عام 586هـ/1190م، وعلى رأسه الملِكان ريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، الذي وصل الى صور في ربيع عام 587هـ/1191م واستقبله قريبه قائد الحامية كونراد دو مونتفرات.

انطلق الملك الانكليزي بعد الفرنسي من مسينا في صقلية، متوجهاً الى عكا في أسطول ضخم أقلّ في إحدى سفنه شقيقته الأرملة جوانا ملكة صقلية السابقة وخطيبته برنجاريا (Bérangère) ابنة ملك نافار (Navarre)، بنيّة اتمام الزفاف في إحدى مدن الشرق.

لكن عاصفة بحرية هوجاء هبت على الاسطول، أدت الى تفرق السفن وجنوح بعضها فتبعثرت القافلة، وفقد قلب الاسد الاتصال بخمس وعشرين سفينة، بينها سفينة شقيقته وخطيبته، فتوجه الى رودس، ثم الى قبرص، ليتبين له أن ثلاثة سفن قد جنحت وتحطمت على شواطئ قبرص، وأن حاكمها "الامبراطور" قد صادر بعض السفن ونهب حمولاتها، وأسر الرجال الإنكليز الناجين من الغرق. كما تبين له أن سفينة شقيقته وخطيبته ترسو في ميناء ليماسول، وأن اسحق كان لا يزال يمارس ضغوطاً حثيثة وتهديدات لإجبار السيدتين النبيلتين على النزول الى اليابسة لأخذهما كرهينتين. كانت السيدتان على وشك الرضوخ حين نفدت مياه الشرب من سفينتهما، حين وصل قلب الاسد إلى نواحي ليماسول، وتسلّم زمام المفاوضة بالطرق الدبلوماسية ثم بالتوبيخ والتهديد[1].

لم يتخلّ إسحق عن تصلّبه وغطرسته، وأصرّ على أن يقوم قلب الاسد بالاعتذار وبتقديم الترضيات المادية اللازمة، فوجد قلب الاسد نفسه مضطراً لاستعمال القوة، فنزلت القوات الانجليزية الى البر، وبسرعة اجتاحت ليماسول في 6 ايار 1191م /587هـ. وكان قلب الأسد يستعلم عن تعزيزات إسحق الدفاعية بفضل الإفرنج المقيمين في الجزيرة[2].

عجز إسحق عن الانسحاب إلى الجبال نظراً لضعف عديد قواته ولضعف تسليحهم، ولم يتمكن من التراجع إلا لمسافة خمسة أميال، حيث أقام مخيمه طيلة الليل، فقام قلب الأسد باجتياحه عند الفجر فقضي على معظم القوات القبرصية، وبصعوبة بالغة تمكن إسحق من الفرار باتجاه نيقوسيا مع قلة قليلة من رجاله[3].

بعد ثلاثة أيام، انضمّ إلى الملك الانكليزي عدد من أمراء الإفرنج في سوريا، ومن بينهم جي دو لوزينيان المطالب بعرش بيت المقدس، ومعه بوهيمند الثالث أمير

---

[1] Histoire d'Eracles,T.II, P 161-Bustron, Op.Cit., P:48- De Mas Latrie, -FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:6.

[2] De Mas Latrie,FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:6.

[3] Histoire d'Eracles T II, P:163.

انطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس، مما يعطي صورة واضحة عن الأهمية الستراتيجية التي ظهرت لقبرص مع وصول قلب الاسد إلى الشرق، وعن طبيعة التحالفات والانقسامات داخل صفوف الافرنج بين حليفٍ لملك انكلترة وحليفٍ لملك فرنسا[1].

وانتقل ريتشارد الى مواجهة اسحق برّاً وبحراً ، فقامت بعض قطع الأسطول الإنكليزي بمطاردته بمحاذاة الساحل، وتولى جي دو لوزينيان عمليات المطاردة البرية مظهراً كفاءة عالية في قيادة الفرسان، مما سيشجع قلب الاسد على تسليم حكم الجزيرة القبرصية لهذا الملك فيما بعد[2].

وعندما وجد إسحق نفسه معزولاً، بعد أن تخلى عنه معظم رجاله، أرسل إلى ريتشارد يعرض عليه السلم مقابل 20 ألف مارك ذهباً وأن يساهم بخمسمائة جندي ضمن الحملة التي سيقودها الملك الانجليزي في الشرق[3]، لكنه نقض العهد وفر خوفاً من أن ينكل به قلب الأسد. فاستأنف دو لوزينيان المطاردة، وبدأ أولاً بالقبض على عائلة اسحق في قلعة كيرنيا، ثم حاصر اسحق في قصر القنطرة بالقرب من فماجوستا، ففرّ الى حصن سانت هيراليون بين نيقوسيا وكيرينا. ثم ما لبث اليأس أن اعترى اسحق فاستسلم مع ما تبقّى من قواته في 21 أيار 1191م/ 587 هـ، بعد معركة خاسرة في تريميتوسيا (Trémithoussia)[4].

وسيق اسحق معتقلاً الى حصن المرقب في شمالي سوريا، وهو معقل فرسان الأسبتارية حيث أمضى بقية عمره في السجن حتى مات سنة 592هـ/1195م[5].

استحث الملكُ الفرنسي حليفَه الانكليزي على الاسراع في نجدة الافرنج على أبواب عكا الاسلامية المحاصرة، إذ لم تكن القوة الفرنسية كافية لتقوم منفردة بهذه المهام[6]، فتزوج قلب الاسد خطيبته برنجاريا على عجل في ليماسول في 12 أيار، وتوّجها جون أسقف إفرو (Evereux) ملكة على إنكلترا.

كانت الغنائم التي حصل عليها قلب الأسد وفرسانه من قبرص فوق التوقعات ولا تقدر بثمن، مما دفع بالملك الإنكليزي إلى التمسك بالجزيرة. فعيّن اثنين من النبلاء الإنكليز نائبين عنه في قبرص، الأول ريتشارد دو كانفيل (Richard of Canville) حاكماً، وروبرت تورنهام (Robert Tornham) مشرفاً على النشاط البحري وحركة الموانئ، على أن يؤدي القبارصة ضريبة الى الملك الانكليزي

---

[1] Runciman. Op.Cit.V: III. P:44-45.

[2] رينيه غروسيه، الحروب الصليبية، ترجمة احمد ايبش دار قتيبة، ط1، 2002، ص 111.

[3] يورد بعض المؤرخين أرقاماً أقل من التي ذكرها آخرون، راجع:
De Mas Latrie,FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:8.

[4] Bustron, Op.Cit., P: 49 . - Cox, G.W. Op.Cit p. 125.

[5] Histoire d'Eracles UU, p. 168 &169.-29 عاشور، قبرص والحروب الصليبية، ص

[6] إبن الأثير، الكامل في التاريخ، ج5 ص203 حوادث سنة 587هـ.

بمقدار نصف عائداتهم، كما أقر قلب الاسد كافة المؤسسات السابقة في عملها، وأقر أيضاً النظم الإدارية التي كانت سائدة في قبرص البيزنطية، لكنه استبدل الحاميات الاغريقية التي كانت تحرس الجزيرة بحاميات من فرسان الافرنج[1].

ثم أبحر الملك الانجليزي شرقاً على رأس اسطوله الضخم، يصحبه حلفاؤه من أمراء الافرنج الذين عاونوه في معارك قبرص، ووصل الى صور في أوائل حزيران 587هـ/1191م.

وجد الملك الانكليزي ميناء المدينة وأبوابها قد سدت في وجهه بتحريض من ملك فرنسا، فاضطر الاسطول الانكليزي لمغادرة مياه صور الى مياه عكا، حيث نزلت القوات بجوار المدينة المحصنة لتشارك القوات الفرنسية في حصار الحامية الايوبية، وأثناء حصار عكا ظهر الانقسام جلياً في صفوف الإفرنج بين محورين الأول حول ملك انجلترا والثاني حول ملك فرنسا[2].

وبالسقوط السهل لقبرص في يد قلب الاسد، خسرت الامبراطورية البيزنطية احدى قواعدها الاساسية وإحدى حامياتها الرئيسية، بينما كان يعتريها الضعف السياسي والاقتصادي، مما مهّد لاحتلال الافرنج للقسطنطينية لاحقاً عام 601 هـ/1204م[3].

أدرك الملك الانكليزي أهمية احتلال الجزيرة من أول يوم، ولم يعد بمقدوره أن يعهد بها الى غير حلفائه من الافرنج، كونها أصبحت قاعدة الانطلاق الاخيرة للحملات البحرية القادمة من الغرب، ولكونها أصبحت مركزاً هاماً ومستقراً للتموين بعد أن صارت المدن الساحلية السورية في وضع غير آمن بين الكرّ والفرّ[4].

لكن قبرص البيزنطية لم تكن لتذعن بسهولة للاحتلال الإفرنجي، فنشبت ثورة على حاكمها الجديد بعد أقل من شهر على تسلمه لمنصبه، ورغب القبارصة باستعادة حريتهم واستقلالهم، فقاموا بالثورة وعينوا عليهم راهباً يمت بصلة القرابة إلى الامبراطور البيزنطي، فقام الحاكم بقمع الثورة بصورة دموية قبل أن ينضج مخطط الثورة، وشنق الإنجليز قائدها[5].

ورأى قلب الأسد أن لا قِبَلَ له بحفظ الجزيرة، نظراً لحاجته إلى الفرسان الانكليز في معاركه بالشرق، وكان لا بد من جعل الجزيرة في أيدٍ أمينة كونها تحمي ظهر حملته، مما دفعه إلى القبول الفوري بما عرضه عليه فرسان الداوية لشراء

---

[1] De Mas Latrie,FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:16.

[2] عاشور، الحروب الصليبية، ج 2، ص 679.

[3] سبيريذاكيس، تاريخ قبرص، ص 98.

[4] E.I.2; KUBRUS, p. 302.

[5] STRAMBALDI, Op.Cit., P:17. -De Mas Latrie, FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:16.

الجزيرة بمبلغ مئة ألف بيزنت إسلامي (دينار) ، دفع منه سيد الداوية الأكبر روبير دو سابليه (Robert De Sablé) أربعين ألفاً على الفور، وتعهد بدفع الباقي فور استرداد بعض القلاع في فلسطين، ورحّب الملك الإنكليزي بالصفقة المربحة[1].

أوكل السيد الأكبر قيادة الداوية وإدارة شؤون الجزيرة إلى الفارس أرنو بوشار (Arnaut Bouchart)، غير أن الداوية لم يتمكنوا من الصمود طويلاً، نظراً لقلة عددهم، ولسوء تعاملهم مع القبارصة بالقسوة ذاتها التي تعاملوا بها مع المسلمين، كما اتهمهم ماخياراس بالفساد[2]، وتصاعد النفور بين القبارصة وفرسان الداوية الذين لم يتمكنوا من إحكام السيطرة على الجزيرة، فتمركزوا بالقرب من الموانيء فقط دون التوغل في الداخل ولا في كل الحصون، ولم تكن إمكاناتهم المادية بأفضل من إمكاناتهم البشرية. فكانوا لا ينفقون على متطلبات الجزيرة إلا بعضاً مما يجمعون منها، فهب القبارصة ثائرين من جديد وخاصة في نيقوسيا، وقرروا إعلان الثورة والانقضاض على فرسان الداوية في عيد الفصح من عام 1192م، ولما علم الداوية بالمؤامرة عرضوا على القبارصة إخلاء الجزيرة مقابل نجاتهم بأرواحهم، لكن أمام رفض القبارصة للاقتراح ونظراً لقلة عددهم وخوفهم من عدم القدرة على صد الجماهير الثائرة، لجأوا إلى قلعتهم قرب نيقوسيا ثم تسللوا في 5 أيار 1192م، ليلاً إلى المدينة وأعملوا فيها الذبح بلا هوادة دون أن يميزوا بين الأعمار والأجناس[3].

أوشك الإفرنج على خسارة الجزيرة من جديد، ولجأ فرسان الداوية إلى قلب الأسد ليستعيدوا ما بذلوه ويعيدوا إليه الجزيرة الثائرة، وإذ بالظروف تؤاتيه مجدداً إذ كان عليه أن يحل إشكالاً هاماً يهدد وحدة النبلاء الإفرنج في الشرق، ألا وهو تسمية ملك بيت المقدس، تلك المدينة التي كان الإفرنج يعدون العدة لاستردادها من صلاح الدين عن طريق المفاوضة أو القتال لا فرق.

كان النزاع على اللقب مستفحلاً بين الملك الأصيل جي دو لوزينيان، ذي السمعة السيئة بسبب خسارته معركة حطين والمدينة المقدسة[4] ، وبسبب خسارته لقب الملك على أثر وفاة زوجته الملكة سيبيل (La Reine Sibylle) صاحبة اللقب وابنتيها، وبين المركيز المحبوب كونراد دو مونتفرات، صاحب صور والمشهود له بالشجاعة والبسالة والحكمة، فاختار فرسان الإفرنج، في مؤتمرهم بعسقلان،

---

[1] Histoire d'Eracles , T.II, P :190.- De Mas Latrie, FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:32

[2] MACHERAS, Op.Cit., P:9.

[3] L. DE MAS LATRIE, FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:36- Peter W. Edbury Cyprus under Richard I; (Cardiff University, Wales, United Kingdom).page2

[4] وليم الصوري ، صفحاته الأخيرة، وتكملة بلاغون لها، راجع ميلز :. Mills vol I p 478

كونراد لتسميته ملكاً على بيت المقدس، لكنه وجد مقتولاً بعد أقل من عشرين يوماً، على يد فدائيين من الباطنية، بإيعاز من قلب الأسد، على ما قيل[1].

ولعل صلاح الدين هو الذي تآمر مع زعيم تلك الفرقة "راشد بن سنان " على قتل كونراد، وصلاح الدين هو الذي أطلق سراح جي دو لوزينيان من قبل، رغبة في استفحال الخلاف بين قادة الإفرنج على وراثة مملكة بيت المقدس[2].

تفتق الحل عند الملك الإنجليزي بأن زوّج إيزابيل أرملة كونراد بعد يومين من مقتله إلى النبيل هنري دو شامبيني، الذي يمت بصلة القرابة إلى الملكين الفرنسي والانجليزي معاً، فهو إبن أخت ريتشارد، وبذلك يتم تنصيبه لاحقاً ملكاً على بيت المقدس، ثم قام بترضية حليفه في معركتي قبرص وعكا، الملك الأصيل جي دو لوزينيان، بأن يصبح صاحب قبرص مقابل تخليه عن لقب ملك بيت المقدس.

وافق دو لوزينيان على العرض، وتمكن من جمع الأربعين ألف بيزنت المستحقة لفرسان الداوية في غضون شهرين، على أن يسدد للملك الإنكليزي بقية المبلغ المستحق بعد استلام الجزيرة. وبالفعل تمكن جي من استدانة الدفعة الأولى بمساعدة أسقف طرابلس وبيار دانغوليم (Pierre D'Angoulême) مستشار مملكة بيت المقدس، وأعانه عليها كذلك عدد من الجنويين وعدد من التجار الأثرياء، وبوساطة طرابلسي مسيحي مشرقي يدعى"السايس" (Saiis)، وبعض كتاب العدل اللاتين. كما نجح جي في سداد دينه لقلب الأسد قبل بضعة أشهر من موعد مغادرة الملك الإنجليزي للشرق عائداً إلى إنجلترا نهائياً في تشرين الأول من عام 1192م/ 588 هـ[3].

3- قبرص اللاتينية خلال العهد الأيوبي

جاءت العلاقات القبرصية الأيوبية في البداية متلائمة مع العلاقات العربية مع الإفرنج في هدوئها واستقرارها، إذ نجح قلب الأسد وصلاح الدين في عقد صلح الرملة في شوال سنة 588هـ/أيلول 1192م. تقاسم الطرفان بموجب الصلح، المناطق الساحلية واحتفظ صلاح الدين بالداخل العربي، وصار صلاح الدين محوراً لاتصالات جانبية فردية قام بها عدد من حكام المناطق، دون العودة إلى هنري دو شامبيني ملك بيت المقدس المتربص في عكا[4].

---

[1] MICHAUD, Op.Cit,Tome II, Livre VIII, P: 341.- L. DE MAS LATRIE, FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE, P:28.

[2] MICHAUD, Op.Cit.P:342.

[3] Histoire d'Eracles , T.II, P:191- De Navarre, Op.Cit.,, P: 14. - L. DE MAS LATRIE, FRAGMENTS D'HISTOIRE DE CHYPRE,P:41.

[4] GROUSSET, Op.Cit. P: 153.- عاشور ، الحركة الصليبية ج2 ص 708-709.

بقيت عين جي دو لوزينيان على ما تبقى من مملكة بيت المقدس، خاصة بعد مغادرة قلب الأسد عائداً إلى إنكلترة، وبعد أن لاحظ ضعفاً في ملك بيت المقدس الجديد هنري، لأن ملكه لم يتعد بضعة مدن ساحلية غير مترابطة، وكان يرزح تحت رحمة تجار المدن الإيطالية ونفوذ قناصلها.

اتجه دو لوزينيان، بعد أن فقد الأمل من دعم الأيوبيين، إلى البيازنة ، وقدم لهم تسهيلات تجارية خاصة في الجزيرة، وأعطاهم امتيازات عديدة جعلتهم يثقون به ويتعهدون بمساعدته على احتلال صور وانتزاعها من يد هنري.

عرف هنري بالخطة المدبرة ضده، فضيّق على البيازنة ثم طردهم نهائياً من مملكته، ما دفعهم إلى القيام بأعمال قرصنة على الشواطيء التابعة له. واستمر العداء بين هنري دو شامينى وجي دو لوزينيان إلى أن توفي هذا الأخير سنة 590هـ/ 1194م[1].

لم يكن سهلاً على "الملك العتيق"[2]، غي دو لوزينيان، توطيد سلطته في جزيرة قبرص، والانصراف إلى تنظيم شؤونها الإدارية، وإلى الإشراف على مرافئها، دون أن يوجه اهتمامه أيضاً إلى احتمال قيام الإمبراطور البيزنطي بغزو الجزيرة لاستردادها من الإفرنج عند أية سانحة، وكان في الوقت نفسه يطمح إلى استرداد لقب ملك بيت المقدس من هنري دو شامبين آملاً أن يستولي على إحدى مدن الساحل العربي كموطيء قدم بانتظار معركة استرداد بيت المقدس من المسلمين.

ولكي يضمن عدم وقوف صلاح الدين إلى جانب الإمبراطور البيزنطي، الذي كثرت رسله ورسائله إلى صلاح الدين، طالباً معونته لاسترداد الجزيرة، أرسل غي بدوره إلى صلاح الدين يتودد إليه ويعلن ولاءه له، حتى أن صلاح الدين عرض عليه الإسلام فخاف الملك وأصيب بالذعر[3]، لكنه وعد بعدم تأييد الملك الإنكليزي وبعدم تقديم العون له في معاركه المقبلة[4].

توفي جي صاحب قبرص عام591 هـ/ 1194م، بعد 11 شهراً من تسلمه الجزيرة[5]، وخلفه شقيقه عموري الثاني دو لوزينيان وكان عاقلاً حكيماً، سعى إلى إقامة علاقة طيبة مع هنري ملك بيت المقدس الجديد، ونجح في التسوية والمساواة بين المملكتين[6].

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit.,, VOL.I P:51. -عاشور ، المرجع ذاته ج2 ص713-714.

[2] سماه أبو شامة "الملك العتيق" لوقوعه في الأسر في معركة حطين ثم أعتقه السلطان صلاح الدين بعد ذلك.

[3] MACHERAS Op.Cit.,,P:16.

[4] أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين، ج 4 ص 220-221.

[5] Histoire d'Eracles , T.II, P :192.

[6] De Navarre, Op.Cit.,, P:15.

ومنذ ذلك الوقت، كانت قبرص تقدم نفسها للغرب، على أنها بلا منازع، نقطة الانقضاض الأخيرة لكل حملة تتجه شرقاً بحو بلاد الشام، أو جنوباً نحو الثغور المصرية. فعند وصول الحملة الألمانية الهنغارية إلى بلاد الشام، خريف سنة 614 هـ/1217م، بقيادة ليوبولد السادس دوق النمسا وأندريه الثاني ملك هنغاريا، كان ملك قبرص الشاب هوغ الأول في عداد المساندين لها والمشاركين فيها، مع من أمكن تجميعهم من فرسان الجزيرة، فوصل إلى عكا في أيلول من العام نفسه بانتظار تجمع القوات .

كان هدف هذه الحملة تخفيف الضغط العسكري الأيوبي عن المملكة في عكا وفتح المناطق الداخلية المؤدية إلى بيت المقدس، واستمر هوغ يشارك في المعارك على الرغم من عدم تفاهمه مع ملك بيت المقدس حنا دو برين(Jean De Brienne) ، ومنافسته له إلى أن وافت الملك الشاب المنيّة وهو في طرابلس في 10ك2 سنة 1218م بعد حضوره حفلة زفاف أخته غير الشقيقة ميليزاند على بوهيمند الرابع الحاكم السابق لأنطاكية،[1] كما أن قادة الحملة قادوا معارك محدودة بين عكا والبقاع وشقيف أرنون (جنوب لبنان) وجنوبي دمشق ثم عادوا إلى أوروبا في أواخر العام نفسه دون أن يحققوا أي تقدم يذكر[2].

ثم دخلت قبرص في خضم المعارك الصليبية في الشرق، عندما قرر الملك الكهل في بيت المقدس حنا دو برين، أن يحتل دمياط مفتاح النيل الغربي، بعد تعرضه للضغوط من قبل فرسان عكا.

ومع التدفق المستمر للفرسان من أوروبا، وبتحريض من البابا إنوسنت الثالث(Innocent III)، وبعده البابا هنريوس الرابع (Henrius IV)، وجد "دو برين" أن الفرصة قد سنحت، لاستغلال الخلاف داخل البيت الأيوبي، فقرر بجيش بلغ 15 ألفاً، أن يحتل ثغر دمياط عند الفرع الغربي من الدلتا لتكون قاعدة الانطلاق لهجوم كبير لاحق نحو القاهرة[3].

وانطلقت طلائع الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة في أيار 1218م، واشتركت مملكة قبرص اللاتينية فيها بالعدد والمؤن ، وكان على رأس الفرسان القبارصة مطران نيقوسيا القبرصي إستورجيوس (Eustorgius)، الذي خالف رأي العائلة القبرصية المالكة وأيّد تلك الحملة ودعا لها ورافقها ودعمها بكل ما أوتي من مال

---

[1] Steven Runciman, , THE KINGDOM OF ACRE &THE LATER CRUSADES VOL III. P: 155.

[2] GROUSSET,OP.CIT. P:235.

[3] De Navarre, Op.Cit., P:19-28.-200إبن أيبك الدوادار، المصدر ذاته، ج7 ص

ورجال، ولم يكن هنري الأول، وريث ملك قبرص وإبن الملك المتوفي هوغ الأول قد أتم السنة الأولى من عمره بعد[1].

كان للمطران دوره الفعال في بداية الحملة ، إذ كان قادتها قد تأخروا في الوصول، فحض الفرسان على الخروج من السفن إلى البر، وعين لهم قائداً مؤقتاً ريثما يصل حنا دو برين يرافقه رؤساء منظمات الفرسان. وقد واجهت هذه الحملة مقاومة باسلة من الأهالي والعربان قبل الاصطدام بالمماليك والفرسان، ولم تحرز تقدماً يذكر في الأشهر الثلاث الأولى، لكن دفاعات مدينة دمياط والمعوقات المثبتة في نهر النيل، أخذت تتهاوى، وهوى معها السلطان العادل مريضاً متأثراً من الهزيمة، فتوفي في 31 آب 1218، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين، وسقطت دمياط في شعبان من سنة 616هـ/ت2 1219م، بعد دفاع مستميت يائس.

أخذ الملك الكامل إبن الملك العادل يقدم عروضاً سخية للإفرنج مقابل انسحابهم من مصر، بعد أن انسحب من المعركة خوفاً من مؤامرة في بلاطه تستهدفه، فعرض تسليم بيت المقدس وعدداً من المدن صلحاً، لكن تصلب الموفد البابوي بالرأي ومعه فرسان المنظمات الإفرنجية، وإصرارهم على متابعة التقدم باتجاه القاهرة، أطال مدة الحرب، وأرهق المحاربين[2]، ودب الخلاف في الرأي بين فرسان الشرق والفرسان القادمين من الغرب، وتأخرت الإمدادات بالوصول إلى الحملة، كما مرت الحملة بأزمة قيادة بين الملك حنا دو برين وبين الموفد البابوي الكاردينال بيلاجيوس[3]، (Pelagius) مراراً، مما حدا بالملك حنا إلى ترك المعركة والعودة إلى عكا حانقاً[4]، ولم يعد إلى دمياط إلا في 4 تموز من عام 1221م، متشائماً ومعه فرسانه، فقط، لكي لا يتهم بالجبن والتخاذل، خاصة بعد أن أرسلت الملكة الأم في قبرص إلى الكاردينال بيلاجيوس، الذي كان يرفض بعناد كل عروض الصلح[5]، تخبره أن جيشاً كبيراً في الشام يجري تحضيره، بإشراف الملكين المعظم والأشرف شقيقي الكامل، وسيتم زجه في مصر لطرد الإفرنج.

وبسبب ضعف قدرات جيشه البري، وبانتظار قدوم التعزيزات، عمد الكامل إلى ترميم أسطوله البحري وتعزيزه، في محاولة للقضاء على التعزيزات التي ترسل للأفرنج عبر قبرص. وعلى الرغم من وجود الإفرنج بكثافة في فرع دمياط وجواره تمكن الأسطول المصري من الخروج إلى البحر عبر "رشيد" الفرع الآخر لنهر النيل، وأبحر باتجاه قبرص في صيف عام 1220م، ليهاجم أسطولاً للإفرنج

---

[1] عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ص40.

[2] إبن أيبك الدوادار، المصدر ذاته، ج7، ص209.

[3] MICHAUD, Op.Cit.,,Tome III, Livre VII, P: 341.

[4] De Navarre ;Op.Cit. P:20-29

[5] GROUSSET,Op.Cit. P: 253.

كان قد خرج للتو من ميناء ليماسول، فدمر بعضه وصادر البعض الآخر وأسر الآلاف من المقاتلين[1].

وبمرور الوقت ازدادت حماسة الأهالي، وقدم المجاهدون من كل الأقطار، ومعهم الجيش المملوكي المنظم[2]، وتحسنت العلاقات بين الملك الكامل في مصر وشقيقه الملك المعظم في دمشق، فوصلت النجدات والتعزيزات، واستجمعت لمصر عوامل أدت إلى تغيير الموقف لصالح الأيوبيين، وكان المصريون أعرف من الفرنج بأرضهم ونهرهم فأحسنوا فتح السدود والقنوات، وأغرقوا الأراضي التي يسيطر عليه الإفرنج، مما أوقف زحفهم باتجاه القاهرة، وعجزت قواتهم عن المناورة فسارعوا إلى الإعلان عن استعدادهم للإنسحاب من دمياط والخروج من مصر بدون مقابل، باستثناء تبادل إطلاق سراح الأسرى، وأثناء مفاوضات الصلح رهن الأيوبيون عندهم أربعة عشر من قادة الإفرنج بينهم عدد من القبارصة، وذلك على الرغم من وصول المزيد من التعزيزات من أوروبا، غير أن المؤن لم تعد تكفي لأكثر من 20 يوماً، ويروي إبن أيبك الدوادار أن الصلح تم قبل وصول التعزيزات الإفرنجية، ولو وصلت في الوقت المناسب لاستمر الأفرنج في معركتهم[3]. وتم الانسحاب في رجب من سنة 618هـ/أيلول 1221م[4].

أثبتت تداعيات الحملة الخامسة، صحة آراء الملوك قادة الحملات السابقة واقتراحاتهم، وعلى رأسهم ريتشارد قلب الأسد، بأن مصر هي البوابة الرئيسية إلى بيت المقدس، وأنها الهدف الأول الذي يجب الاستيلاء عليه، وأن الجيش المصري قادر على دحر أية حملة تستهدف بلاد الشام فهو القلب، ويقتضي تدميره أولاً حتى يسقط الشرق الإسلامي بأكمله في أيدي الإفرنج[5].

كما كشفت الحملة الخامسة الثغرات التي تعاني منها الدولة الأيوبية، بتعاظم قوة المماليك فيها، وانعدام الثقة بين ورثة السلطان العادل وهم الكامل والأشرف والمعظم، وساءت الأخبار الآتية من الشرق حول غزو الخوارزميين لأطراف الدولة الأيوبية، لكن تلك الحملة كشفت أيضاً الثغرات في جبهة الإفرنج سواء بين أمراء الساحل أو مع مختلف منظمات الفرسان الأسبتارية والتيوتون وخاصة الداوية (فرسان الهيكل).

---

[1] Runciman .op.cit p 165-166-167.

[2] Henri de Giblet, Histoire Des Rois de Chypre,P: 37.

[3] إبن أيبك الدوادار، المصدر ذاته، ج7، ص212.- Grousset,Op.Cit. P: 268.

[4] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22 ص234و235و236- عاشور ، الحركة الصليبية ج2 ص760و776- زيادة نقولا، الرحالة العرب ص20.

[5] Runciman .op.cit p 110-111.

وكانت لقبرص اللاتينية أيضاً ثغراتها، إذ كان هنري إبن الملك الراحل هوغ الأول لا يزال قاصراً، وكان الصراع على السلطة مثالثة بين رجال الدين المتشددين في طلب الحرب من جهة أولى، وبين الحاكم (bailli) فيليب دو إيبلان يدعمه المجلس الأعلى للنبلاء من جهة ثانية، وبين الوصية على العرش الملكة الأم أليس دو شامباين ومعها أقرباء الملك من جهة ثالثة، إضافة إلى ضعف مخزون الجزيرة من الموارد، بسبب التورط في دعم الحملات الصليبية والمشاركة فيها ثم الإخفاق فيها[1].

ويجدر بالذكر أن الخلاف استفحل بين الملكة أليس وبين فيليب إيبلان لدرجة اضطرت معها الملكة الأم إلى مغادرة قبرص واللجوء إلى طرابلس عام620هـ/ 1223م[2].

كذلك كان لقبرص اللاتينية دورها في حملة الملك لويس التاسع، التي إتخذت طابعاً فرنسياً، على الرغم من انضمام بعض النبلاء الإنكليز إليها، بدأها الملك لويس التاسع من قبرص التي يحكمها النبلاء ذوو الأصول الفرنسية، فنزل في ميناء ليماسول في 17 أيلول سنة 646هـ/1248م، ولقي ترحيباً حاراً من النبلاء ورجال الدين وحتى من العامة، وكان هنري الأول على رأس المستقبلين فاصطحبه إلى العاصمة نيقوسيا، وقام هنري بواجب الضيافة والترحيب بالنبلاء القادمين من الغرب، وكذلك بالبارونات وبقادة منظمات الفرسان الذين قدموا من مدن الشرق لتقديم واجب الطاعة للملك الفرنسي[3]. ومن قبرص أرسل الأخير بعثة إلى خان المغول في الموصل، وعبره إلى قراقورم مقر الخان الأعظم، لدراسة إمكانية التحالف بين الطرفين حتى أن الملك الفرنسي كان يأمل أن يتحول الخان إلى الدين المسيحي[4].

وبلغ السلطان الصالح نجم الدين أيوب إبن السلطان الكامل، أن الإفرنج قد اجتمعوا في قبرص وأنهم عزموا على قصد الديار المصرية، وأن الملك الفرنسي سيسير إليها في خمسين ألف مقاتل، وأنه سيمضي الشتاء في قبرص قبل أن يستأنف الحملة إلى مصر. وكان الصالح في تلك الأثناء قد دخل دمشق وحاصر حمص بقواته في صراع داخل البيت الأيوبي أضعف السلطان والأمة، فأمر بفك الحصار وبالعودة سريعاً إلى مصر، وأخذ في تحصين دمياط وتموينها بالذخائر والمؤن[5].

---

[1] Runciman .op.citP: 179-.
عاشور الحركة الصليبية ج2 ص 790و794- ، قبرص والحروب ص41 .

[2] Runciman, Op. Cit. P:180.

[3] De Navarre, Op.Cit., P:147.

[4] JOINVILLE,J. Histoire De Saint Louis, par Natalis De Wailly, Librairie De La Societe De L'Histoire De France,1868, P:47. .- Runciman .op.cit p 260.

[5] أبو الفدا، المختصر في اخبار البشر، ج2 ص 284-المقريزي، السلوك، حوادث سنة 647هـ.ج1 ص437

وبعد أن أمضى الملك الفرنسي الشتاء في قبرص مع جيشه الضخم، ظهرت له مصاعب كثيرة، فقد تمنّع البنادقة عن تقديم العون ضد الأيوبيين، كما نشبت حرب ضروس بين الجنويين والبيزيين على طول الساحل الشامي، وصرفت قبرص جل مخزونها من الحبوب والأغذية لإطعام الجيش الضخم، وصار كل حاكم محلي يلتمس من الملك الفرنسي الدعم والمعونة لصد هجمات المسلمين على إقطاعه، والملك يعتذر لهم ويصر على توحيد وجهة الحملة باتجاه مصر، كما أوعز الملك الفرنسي لفرسان الداوية بوقف المفاوضات مع السلطان في مصر، والاستعداد لخوض الحرب[1]. ثم بدأ التحميل في محرم سنة 647هـ/ 13 أيار 1249م، وناهز عدد سفن الأسطول 120 سفينة كبيرة، عدا المراكب والقوارب، لكن عاصفة ضربت الساحل القبرصي وفرقت الأسطول، ولم يجد الملك الفرنسي حوله حين وصل إلى دمياط في 3 حزيران، سوى 700 فارساً من أصل 12800، ثم وصل ثلث الجيش وبدأ بالإبرار لحين استكمل وصول سفن الأسطول جميعها.[2]

شارك الملك القبرصي هنري الأول بحماسة في هذه الحملة، إذ انضم إليها على رأس ألف فارس شاركوا في القتال على أبواب دمياط، ودخلوها بسهولة مع الملك الفرنسي، وذلك في شهر صفر سنة 647هـ/1249م[3]. وكان أمراء المماليك على الجبهة يرسلون البريد إلى القاهرة بواسطة الحمام الزاجل، لكن الملك المريض لم يكن قادراً على الإجابة، مما أضعف معنويات المقاتلين المصريين، وكان الأمراء الفرنسيون يتشاورون بين توجيه الحملة من دمياط إلى الإسكندرية أو إلى القاهرة، قلب مصر، مباشرة [4].

وفيما كانت قوات الإفرنج تنطلق نحو القاهرة، توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في السنة ذاتها ليلة النصف من شعبان647هـ/23 ت2 1249م، وصار القتال يزداد ضراوة مع كل تقدم للإفرنج باتجاه الجنوب. وأخذ الأمراء المماليك المبادرة في مناورة أعدائهم، وتكبيدهم خسائر عند كل معبر ومضيق، كما فعل الأمير المملوكي الشاب الواعد ركن الدين بيبرس البندقداري، الذي هزم الفرقة الإفرنجية المتوغلة عبر الطرقات الضيقة لمدينة المنصورة[5]، ثم نجحت السفن المصرية في اصطياد أسطول التموين الأفرنجي سفينة بعد أخرى، مما أضاف

إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج2 ص227.

[1] Runciman .op.cit P:258-261.

[2] JOINVILLE,J. Histoire De Saint Louis,P:53.

[3] إبن أيبك الدوادار، المصدر ذاته، ج7، ص 369.

[4] JOINVILLE,J.Op.Cit.,P:64-Grousset, Op.Cit. P:456.- ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص 36.

[5] إبن أيبك الدوادار، المصدر ذاته، ج7، ص 376.

المجاعة إلى مرضي التيفوئيد والإسهال الحاد (الديزنتاريا)، لتحقيق خسائر فادحة في صفوف الإفرنج[1].

أخذت موازين القوى العسكرية تتغير، لصالح مماليك أكفاء ملكوا زمام المعركة، ففني الكثير من قوات الأفرنج وقادتهم، ووقع الملك الفرنسي في الأسر وكذلك جمع عظيم من قواته وتمكن الملك القبرصي هنري الأول من الإفلات والنجاة في الوقت المناسب[2].

وعلى اثر قيام المماليك بقطع رأس كل أسير رفض أن يفدي نفسه بالمال، وافق الملك الفرنسي والبطريرك وسائر بارونات الإفرنج الأسرى على دفع الفدية، وتبادل لويس التاسع وأمراء المماليك أقسى العهود الصارمة، بأن يدفع الملك فدية مقسطة على دفعتين، بلغت كل منها مئتي ألف ليرة فرنسية ذهبية[3]، واحدة قبل فك أسره، أعان الداوية على إكمالها بثلاثين ألفاً، والثانية فور وصوله إلى عكا، وتعهد المماليك كذلك باحترام المواثيق بأن أقسموا بأغلظ الأيمان[4].

أصر الملك الفرنسي، بعد عودته إلى عكا، على البقاء في مملكة بيت المقدس، وأيقن نبلاء الشرق أن الإمبراطور الألماني كونراد لن يأتي إليها بعد الذي حصل، ما جعل الملك القبرصي هنري الأول يتخلى للملك الفرنسي عن حكم بيت المقدس، ويبقي على حنا دو إيبلان صاحب أرسوف في وظيفته (bailli)، مكان شقيقه الراحل باليان[5].

لم ينجب هنري الأول أولاداً حتى العام 650هـ/ 1252م ، حين تزوج وللمرة الثالثة من الفتاة "بليزانس" إبنة بلدوين الخامس صاحب أنطاكية(ت1252م)، ثم ما لبث هنري نفسه أن توفي في14 ذو القعدة 651هـ/ 18 ك2عام 1253م، ليخلفه ابنه هوغ الثاني وعمره بضعة أشهر، فطالبت والدته بليزانس بتعيينها وصية عليه في مملكة قبرص، كما طالبت بالوصاية الإسمية فقط على مملكة بيت المقدس، نظراً لوجود الملك الفرنسي لويس التاسع فيها، فوافق المجلس الأعلى للنبلاء في قبرص على طلبها شرط حضورها من أنطاكية إلى قبرص.

غادر لويس التاسع عكا عائداً إلى فرنسا في 2 ربيع الأول 653هـ/ 24 نيسان 1254م، ململماً جراح الحملة على مصر، تاركاً الشرق في عهدة بارونات، بعد أن

---

[1] Bustron, OP.CIT., P:107,108- Runciman .op.cit p 261- 269.

[2] إبن خلكان ، وفيات الأعيان، ج6 ص259و260 –إبن خلدون ، تاريخ إبن خلدون ، ج5 ص359.-إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة -ج6 ص329 و330.- عاشور ، قبرص والحروب الصليبية، ص43.

[3] وزن الليرة الفرنسية الذهبية(Livre Tournois) :271؛8 غراماً أي ما يعادل دينارين أو 2 بيزنت. راجع: Jean Monange-Histoire-Genealogie. La vie et La monnaie des Hommes.1er Fev. 2001.

[4] JOINVILLE ,OP.CIT. P:63-127-128-135.

[5] RUNCIMAN, OP.CIT. p 275.

عين جوفري دو سرجين نائباً عنه في غيابه على رأس حامية فرنسية صغيرة [1]، وقاصداً الغرب المتخبط بفوضى الوراثة والصراع الموروث بين البابا وبين الإمبراطور كونراد إبن فردريك الثاني. وأوشك أن لا يصل إلى أوروبا أبداً، بعد أن كادت سفينته تجنح قرب شواطيء قبرص. وصار حنا إيبلان صاحب أرسوف حاكماً bailli على قبرص، وتولى وظيفة البايلي في عكا مؤقتاً مكانه إبن عمه حنا دو إيبلان كونت يافا ، كما توفي الإمبراطور الألماني كونراد في أيار من العام نفسه، وخلفه في لقب ملك بيت المقدس طفله كونرادين.

وإذا كان لا بد من رابح في تلك الفترة فهم بلا شك التجار الإيطاليون، البنادقة والجنويون والبيزيون، الذين ازداد طلب مودتهم عند المسلمين والإفرنج على السواء، وكلاهما بحاجة للتجارة، التي بدونها لا يمكن التعويض عن الخسائر الناجمة عن المعارك الحربية، لكن المنافسة بين تجار المدن الثلاث سرعان ما ساقت إلى حرب أهلية انطلقت عام655هـ/ 1256م، بسبب نزاع حول دير القديس سابا المشرف على ميناء عكا، فانطلقت الحرب في كل شوارعها، وامتدت منها إلى مدن الشرق الأخرى، حيث استدرجت نبلاءها كذلك، فانقسموا هم أيضاً بين مؤيد ومعارض، وتفاقمت الحرب وأثارت كل الأحقاد الدفينة، وعززت الانقسامات السابقة، وشملت معاركهم البر والبحر، ودامت لأكثر من ثلاث سنوات، حتى أن الملكة الوصية بليزنس وجدت نفسها وابنها الملك القاصر هوغ الثاني وشقيقها بوهيمند السادس صاحب إنطاكية في خضم ذلك الانقسام[2] .

في العام 1261م توفيت الملكة بليزانس، تاركة ولدها الملك القاصر هوغ الثاني بعمر ثماني سنوات[3]. وكان على مجلس النبلاء الأعلى في قبرص أن يعين له وصياً، فوقع الاختيار على هوغ إبن عمته إيزابيلا وزوجها هنري شقيق بوهيمند الخامس صاحب أنطاكية، أما المجلس الأعلى في مملكة بيت المقدس، فتأخر حتى العام 662هـ/ 1263، ليقرر تعيين العمة إيزابيلا نفسها وصية، مع الاحتفاظ بحق كونرادين إبن كونراد الألماني في حال حضوره ومطالبته بحقه كالمعتاد.

وفي العام التالي توفيت إيزابيلا فحلّ ابنها هوغ مكانها ليصبح وصياً على العرشين في قبرص وبيت المقدس معاً[4]. وكان هوغ الوصي نشيطاً ساهراً على المملكتين، بحيث لم يعين نائباً عنه ليحكم في عكا، بل اكتفى عند وجوده في قبرص بتكليف جوفري دو سرجين، ممثل الملك لويس التاسع، برعاية أمور مملكة بيت المقدس لحين عودته.

---

1 Runciman OP.CIT. p:281.
2 Loc.cit .-Grousset,Op.Cit. P:550.
3 De Navarre, Op.Cit., P:166.
4 Runciman .op.cit p 289.

باستعراض أداء مملكة قبرص اللاتينية، عبر علاقاتها الوثيقة بالبابوية وبالغرب، وبمشاركتها الفعالة في معارك الشرق إلى جانب إمارات الإفرنج الساحلية منذ تأسيسها وحتى نهاية الحملة الصليبية السابعة ونهاية العهد الأيوبي، في أواسط القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي، أي قبيل العهد المملوكي وقبيل الغزو المغولي الأول لبلاد الشام، يمكن الاستنتاج أن المملكة القبرصية قد ثبّتت سلالة آل لوزينيان فيها، على عكس مملكة بيت المقدس ومملكة أرمينيا الصغرى اللتين شهدت سلالاتهما وعائلاتهما الحاكمة سلسلةً من التقلبات وعدم الاستقرار. فقد كان انتقال الحكم في مملكة بيت المقدس مشوباً بالحذر والخلافات، ومرهوناً بقرارات مجلسها الأعلى، كما جاء دامياً وحاداً في المملكة الأرمينية.

شهدت المملكة القبرصية في تلك الفترة أفضل استقرار سياسي ونمو تجاري نسبة للقرون السابقة في العهد البيزنطي، فقد أصبحت تكدس المؤن في مخازنها لتموين الحملات الصليبية المتتالية مما ساهم في نمو القطاع الزراعي.

وثبتت المملكة وضعها، ركناً أساسياً في الصراع الإفرنجي في الشرق، خاصة بفضل موقعها الجغرافي، وصوتاً مسموعاً في الغرب، وبمشاركتها الفعالة في المعارك، وبدعمها المادي للحملات، الأساسي في تأمين استمرار تلك المعارك، كما أخذ أسطولها البحري ينمو باضطراد ويعاد ترميمه ودعمه بعد كل خسارة.

اما ارتباطها بالغرب فقد كان مؤقتاً بالإمبراطور الروماني بدايةً، لكنها لم تخالف الكرسي الرسولي في روما أبداً ولم تقطع اتصالها ببقية ملوك الغرب وبخاصة ملوك فرنسا المتعاقبين، كما ارتبطت بأواصر عائلية مع مملكتي بيت المقدس وأرمينية وكذلك مع إمارتي بيروت وصيدا ويافا وأرسوف.

كما صارت المملكة عيناً للإفرنج على التحركات العسكرية للعرب، بحكم تجارة أبنائها وتنقلهم بين الموانيء، وأصبحت ملاذاً للنبلاء المنفيين من مقاطعاتهم[1]، وصارت إقطاعاتها مطمحاً للنبلاء الذين خسروا إقطاعاتهم في الشرق أو سئموا من طول أمد الحرب ومالوا إلى التنعم بالأمن والاستقرار.

ولا يغرب عن البال دور ريتشارد قلب الأسد، إذ أن للملك الإنكليزي الفضل ليس فقط في تأسيس مملكة قبرص، بل أيضاً في الاستيلاء على عكا مجدداً، وفي إعادة تثبيت مملكة بيت المقدس حولها، ولو بدون مدينة بيت المقدس، وله الفضل كذلك في وقف تدهور أوضاع الإفرنج عامة في مدن الشرق وقلاعها، مع أنه لم يُمض أكثر من ثلاث سنوات في المنطقة. وكانت شجاعته وقسوته[2] وكذلك بعد نظره،

[1] Runciman .Op.Cit. p 172.
[2] Lamb. Op.Cit. P: 147&156.

موضع حسد نظيره الفرنسي[1]، وعادت أعماله على الفرنج بفوائد جمة، كان أهمها تأسيس قاعدة متينة وآمنة لهم في قبرص، ساهمت في تمديد وجودهم في الشرق لمائة سنة إضافية، بعد أن تزعزع هذا الوجود في معركة حطين وبسقوط بيت المقدس[2].

أما الفضل الكبير في تثبيت مملكة قبرص، فيعود بلا شك إلى حكمة ملكها الأول عموري الثاني دو لوزينيان، الذي عرف كيف يوازن بين مختلف القوى المحلية والخارجية، الدينية منها والسياسية، والاقطاعية وكذلك التجارية، دون أن ننسى الدور الهام والمستمر لأسرة إيبلان في السياسة والحوار، وفي حسن استعمال القانون والاستناد إليه ناهيك عن شجاعتهم واستبسالهم في القتال عندما تدعو الحاجة.

كما أظهرت المملكة القبرصية اللاتينية الجديدة، من خلال سياساتها ومواقفها انسجامها مع الكرسي الرسولي، وتلبيتها لمطالبه، وخصومتها مع أسرة هوهنشتاوفن الإمبراطورية الألمانية وتوافقها التام مع فرنسا الملكية، مما يدل على دقة وصعوبة وقوفها على الحياد وعلى اضطرارها للانخراط في الصراعات الأوروبية الداخلية منذ تأسيسها حفاظاً على وجودها وعلى حسن علاقاتها بالبابوية وبفرنسا .

---

1 Mills OP.CIT.P: 44.

2 MICHAUD ,OP.CIT.,Tome II, Livre VIII, P: 430.- Runciman .op.cit.P:45.

الفصل الثاني
مملكة قبرص اللاتينية وعلاقاتها مع الغرب الأوروبي

أولاً– قبرص اللاتينية والبابوية

ثانياً– دور قبرص اللاتينية في دعم مملكة بيت المقدس

ثالثاً– العلاقات القبرصية مع دول الغرب الأوروبي

رابعاً– مملكة قبرص اللاتينية والامبراطورية البيزنطية

خامساً– مملكة قبرص وأرمينية الصغرى

سادساً– قبرص اللاتينية على عتبة التحولات الكبرى في المنطقة

أولاً- قبرص اللاتينية والبابوية

لعبت البابوية في القرون الوسطى دوراً تخطى الدور الروحي إلى الدور السياسي والعسكري، وقد زاد أداؤها البارز في الحملات الصليبية من تعاظم هيبتها ومكانتها في المجتمع الأوروبي.

تكرس الدور القيادي للكنيسة الغربية في عهد شارلمان، حين أضحى البابا يبارك الملوك والأمراء وحتى الأباطرة، وصار يرأس قداس حمل الصليب لكل من سيتوجه في حملة إلى الأراضي المقدسة. ولم يقتصر دور الكرسي الرسولي على التحريض وإثارة حماسة الملوك والأمراء فحسب، بل تعداه أيضاً إلى الإسهام بجزء من نفقات الحملة المالية وأعتدتها حتى تأمين السفن أحياناً. كما حض الحكام الأوروبيين على الإسهام في نفقات كل حملة، وصار يرسل موفديه مع الحملات ليس فقط للمباركة بل للمشورة ولإطلاعه على مجريات الأمور ميدانياً، وأخذ يهدد برمي الحرم على المتقاعسين والمتلكئين من الحكام، في حال عدم خروجهم بالحملات في الوقت المحدد.

وأولى الكرسي الرسولي أهمية كبرى لحماية مملكتي قبرص وأرمينية، وأعطى الأولوية لقبرص اللاتينية، باعتبارها نقطة استناد أية حملة مقبلة إلى الشرق سواء باتجاه مصر أو بلاد الشام أو سواحل آسية الصغرى. ومنذ أن أصبح الحكم في قبرص لاتينياً أخذت الروابط بين الجزيرة وبين البابوية تصبح أكثر متانة، فقبرص تحتاج إلى الدعم البابوي لتتمكن من الصمود في وجه غزو محتمل في كل حين، قد يأتي من كل اتجاه من العرب والبيزنطيين[1]، ومن إحدى المدن التجارية الإيطالية ومن مملكة أراغون[2] كما أن البابوية صارت تشعر بالحاجة إلى قبرص، كونها باتت نقطة الارتكاز والدعم للوجود اللاتيني المهتز في الشرق، منذ سيطرة صلاح الدين على بيت المقدس، وأوعز البابا إلى الغرب الأوروبي بضرورة الاتجار مع قبرص لتأمين صمودها[3].

وقد عبر فيليب ميزيير خير تعبير عن أهمية قبرص اللاتينية وهو مستشار بطرس الأول وهو الذي عاصر أهم الأحداث في أواسط وأواخر القرن الرابع عشر:

" كانت جزيرتنا بمثابة الحجرة النبيلة الشرقية للغرب، إنها النعمة التي آوت فرسان الله والحجاج الذين عبروا البحار،...إنها الجدار الحقيقي الذي يدافع عن المسيحية

---

[1] De Mas Latrie , Op.Cit. , tome I p 154 - 159.

[2] Edbury, Peter, the kingdom of Cyprus & the Crusades p.107.

[3] MACHERAS, Op.Cit. P: 52.

في الشرق، ففيها يستشفي مسيحيو الغرب، وباختصار، هي الحدود القوية والضرورية للمسيحية الكاثوليكية..." [1].

ومنذ نشأة المملكة اللاتينية في قبرص، كان للباباوات تدخل شبه مباشر فيها، فيما يتعلق بالأمور السياسية، وتدخل مباشر فيما يتعلق بالأمور الكنسية. فنجد لدى استعراض الأحداث التي توالت في الشرق، خاصة بعد سقوط عكا، أن البابوات المتعاقبين على الكرسي الرسولي تدخلوا في كثير من الأمور السياسية سواء لحل الخلافات الداخلية والخارجية في مملكة قبرص اللاتينية[2]، أو لعقد التحالفات وتنسيق الحملات والمساعدات وتأمين النجدات.

وكان من الطبيعي أن يكون للبابوية، وهي القائد المخطط والداعم لوجود الإفرنج في الشرق، اهتمام خاص بالجزيرة التي أصبحت لا يستغنى عن دورها المتمايز عن سائر الإمارات اللاتينية على طول الساحل الشرقي للمتوسط، ومع مرور الوقت، يشعر الناظر إلى سير الأمور في الشرق، بأن الوضع الوحيد المستقر بين هذه الإمارات، هو وضع الجزيرة القبرصية، وأنها باتت الملاذ الآمن والفوري، لكل من اضطرته الحملات الأيوبية إلى الهجرة والبحث عن موطن جديد.

وقد رافقت البابوية، بحكم قلقها على مصير أتباعها، نمو النشاط اللاتيني في الجزيرة منذ أن بدأ جي دو لوزينيان يشجع القادمين من الشرق ومن الغرب على الاستيطان.

توفي "جي" في ربيع سنة (591 هـ/ 1194م)، وخلفه عموري صاحب الخبرة القتالية والإدارية الطويلة في الشرق، وكان يرمي إلى تأكيد سيادة سلالة دو لوزينيان على قبرص،[3] وتثبيت هذه السيادة بنسج علاقات وطيدة ومتينة مع هيئات الغرب الروحية والزمنية، فوضع لنفسه ثلاثة أهداف فورية، أولها تضييق إقطاعات نبلاء الجزيرة وتوسيع "سنيورية" صاحب الجزيرة، وثانيها أن يستعيد منصب الملك الذي فقده شقيقه الراحل "غي"، وثالثها أن يسترضي مصدر الدعم المستمر وهو الكرسي الرسولي فيكسب ثقته.

---

[1] "C'est nostre ysle estoit la noble chambre orientale, et gracieux retrait des chevaliers de Dieu et des pélerins qui aloient oultremer. Ceste ysle mal fortuné, estoit lors le vray mur defensable de la Crestienté d'Orient; c'estoit comme un gracieux hospital des Crestiens d'Occident, et brefment c'est la frontière puissante et necessaire de la Crestienté catholique...". De Mas Latrie , Op.Cit., tome II p. 386-387.

[2] De Mas Latrie , Op.Cit, tome I p 181-215-231.

[3] AMADI,op.cit.,P:90.

ويعتبر عموري الثاني دو لوزينيان، المؤسس الحقيقي لمملكة قبرص اللاتينية، فقد كان عاقلاً حكيماً، ولم يدخر وسعاً في إقامة علاقة طيبة مع هنري ملك بيت المقدس الجديد، لكنه لم يرغب في أن يكون تابعاً له، فأخذ يسعى للحصول على لقب الملك، حتى يصبحا متساويين في المرتبة، وفكر في المصدر الذي سيمنحه هذا اللقب، أيكون دينياً من البابا الذي أتعب ملوك بيت المقدس السالفين كما أتعبوه، أم من الإمبراطور البيزنطي، الذي لن يوافق حتماً، ولو وافق، فسوف يلاقي هذا الأمر معارضة قوية من الإفرنج قاطبة، فارتأى أن يلجأ إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإمبراطورها هنري السادس (561–594هـ/ 1165–1197م)، الذي كان يعد للقيام بحملة صليبية، لن يمانع في أن يجعل تحت وصايته مملكة لاتينية تقاتل في الشرق وتشكل له رأس الجسر في هذه المنطقة.

أرسل عموري موفده، رينيه حاكم جبيل في (ذو القعدة 592هـ/ ت. أول 1195م) ، إلى بلاط الإمبراطور، وعاد بموافقته ومباركته، وتم تتويجه ملكاً على قبرص في(شوال 594هـ/ أيلول 1197م)، بحضور مستشار الإمبراطور الألماني وعددٍ من نبلاء الشرق ورجال الدين[1].

طبّق عموري النظام الإقطاعي الفيودالي المعمول به في مملكة بيت المقدس، وأنشأ المجلس الأعلى كما في المملكة المقدسة، ولكي لا يغضب البابا لأنه لم يطلب التاج منه، أرسل إلى البابا في روما يتمنى عليه أن ينظم الجهاز الكنسي في الجزيرة[2]، وأن يجعله متكافئاً مع الوجود الكنسي الإغريقي العريق فيها. فأوفد إثنين من رجال الدين اللاتين إلى البابا سلستين الثالث يشرحان له الوضع الديني في الجزيرة ويتمنيان عليه تنظيم الوضع الكنسي اللاتيني في الجزيرة في ظل الوجود الراسخ للكنيسة الشرقية فيها. خاصة وأن متطلبات الإفرنج الدينية والشخصية تطورت وتسارعت وباتت حاجة ملحة. سجل هذا الأمر ارتياحاً لدى البابا سلستين وكلفهما بتنفيذ مقترحاتهما، موافقاً على إنشاء أسقفية أساسية في نيقوسيا تتبع لها ثلاث كنائس واحدة في كل من بافوس وليماسول وفماغوستا، وعين أحدهما أسقفاً عاماً للجزيرة مركزه في أسقفية نيقوسيا[3].

ومنذ تلك البدايات صار للباباوات تدخل مباشر فيما يتعلق بالأمور الكنسية وتدخل شبه مباشر في مملكة قبرص اللاتينية فيما يتعلق بالأمور السياسية.

وعلى أثر وفاة هنري دو شامباني في(23 شوال 594هـ/ 10 أيلول 1197م) ، وسقوط يافا في شوال سنة 593هـ/1197م، في يد الملك العادل

---

[1] Bustron, , op.cit., P:54.

[2] Runciman .op.cit p 85.

[3] De Mas Latrie, op.cit, vol I p.122-123.

الأيوبي الذي أعمل فيها السيف[1]، وصل من قبرص وعلى عجل، كونراد أمير ماينز ممثل الإمبراطور الألماني هنري السادس في الشرق، وكونراد صديق مقرب من البابا المقبل إنوسنت الثالث، وبصحبته عدد من النبلاء الألمان، ودار في خلده اسم عموري الثاني دو لوزينيان الأرمل الذي توفيت زوجته أشيفا إيبلين مؤخراً، فاقترح أن يتم زواجه من الأرملة الجميلة إيزابيلا [2]. لاقى الأمر ترحيباً من كافة الأطراف، حتى من منظمات فرسان الداوية والأسبتارية ووجد فيه الجميع حلاً فورياً للمشاكل العديدة العالقة في عكا.

كان كونراد حاد الذكاء ماكراً في اقتراحه هذا، فقد اختار الملك الذي رفض التتويج من البابا، واختار وصاية الإمبراطور الألماني، فحريّ به أن يضع مملكة بيت المقدس أيضاً تحت التاج الإمبراطوري الروماني المقدس.

وتردد عموري في الحضور من قبرص إلى عكا ولم يصلها إلا في (صفر سنة 595هـ/ ك2 1198م)، ليتم زواجه في اليوم التالي، ثم عمد البطريرك إلى تتويجهما قي صور ملكاً وملكة لبيت المقدس.

تبنى البابا إنوسنت الثالث هذا التتويج، ووضع الملك وزوجته والمملكة تحت الرعاية البابوية المباشرة، وأمر البارونات والفرسان بإطاعة الملك، وبتوحيد الجهود لتحرير الأراضي المقدسة، كما طلب إليهم المسارعة لنجدته حتى في قبرص، إذا تطلب الأمر، لما في ذلك من مصلحة لمملكة بيت المقدس[3].

لم يأت هذا التنصيب في الحقيقة، على هوى البابا ولا الإمبراطور بعد ذلك، فقد أصر عموري على أن عائدات قبرص لن تنفق في الدفاع عن مملكة بيت المقدس، وأنه هو الصلة الوحيدة بين المملكتين، لأن المُلك في قبرص قد بات وراثياً ومن حق خلفائه من نسله، بينما بقي منصب الملك في عكا رهناً بقرار المجلس الأعلى لمملكة بيت المقدس. وفي حال موته فإن حظوظ آل لوزينيان من بعده ضئيلة في أن يؤول الملك إليهم.

مال عموري الثاني إلى إجراء مفاوضات مع الملك العادل لتهدئة الأوضاع، ونجحا معاً في توقيع اتفاق الصلح في شعبان سنة 594هـ/تموز1198م، وذلك قبيل وفاة السلطان العزيز ببضعة أشهر[4]، فأصبح عقد الصلح مع العادل أكثر ثباتاً، وأثبت عموري للبابا وللغرب كفاءة في القتال وحكمة في تحقيق الهدنة.

---

[1] إبن الأثير، المصدر ذاته، ج10 ص245- إبن كثير، المصدر ذاته، ج13 ص15.

[2] De Navarre, op.cit, P:16.

[3] De Mas Latrie , op.cit, tome I p 152.

[4] إبن كثير، المصدر ذاته، ج13 ص19.

استمر التدخلان الديني والسياسي للكرسي الرسولي فاعلين في الجزيرة على مر الأيام، وكان ملوك قبرص ينفذون رغبات البابوات، في مقابل الدعم والحماية البابوية للملك وعائلته وللجزيرة. وفي فصل علاقات قبرص بالغرب الأوروبي يظهر بوضوح وقوف ملوك قبرص في صف البابوية خلال نزاعاتها مع بعض ملوك أوروبا، وخاصة ضد الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (591–648هـ/1194–1250م)، ومن سيخلفه، فأيد البابا غريغوار التاسع عام635هـ/ 1237م، الملك القبرصي في نزاعه مع الامبراطور، وطلب من نبلاء الشرق وباروناته الوقوف إلى جانب الملك القبرصي، ثم أعلن البابا إنوسنت الرابع بعده في عام645هـ/ 1247م، إستقلال مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس عن أية تبعية أخرى، وحرر الملك القبرصي هنري من قسم الولاء للإمبراطور، ووضع الملك وعائلته وتاجه تحت الرعاية البابوية المباشرة[1].

امتدت العلاقات المتينة بين ملوك دو لوزينيان وبين الكرسي الرسولي لتشمل منظمات الفرسان وهي الذراع العسكرية للفاتيكان، فقد كان للداوية وللاسبتارية مواقع في الجزيرة كما كانتا تشتركان في المعارك إلى جانب قوات التعزيز القبرصية القادمة لنجدة المدن الساحلية على طول الساحل السوري[2].

وكان موقف الكرسي الرسولي يزداد تأثيراً بمرور الزمن في سير الأحداث الداخلية بقبرص، فصار البابا في بعض الأحيان مرجعاً لشكاوى النبلاء القبارصة المتضررين من بعض قرارات الملك، واعتمد البابا في المعالجة سياسة توفيقية تطالب الشاكي بالانصياع للملك وعدم الخروج عن طاعته، وتتمنى على الملك أن يحيط الشاكي بعنايته ويرد له ظلامته[3].

وفي مطلع القرن الرابع عشر، وبعد أن مرض الملك هنري الثاني دو لوزينيان، وتسلم شقيقه عموري السلطة بالقوة، حاول البابا رعاية المصالحة بين الشقيقين [4]، وتلكأ عموري في تلبية طلب البابا بمحاكمة فرسان الداوية، مما جعل فرص دعم عموري تتضاءل وفرص عودة هنري إلى الحكم تزداد بمعونة الكرسي الرسولي.

وعلى الرغم من نجاح عموري عام 708هـ/ 1308م، بالقضاء على انقلاب قام به فرسان موالون للملك هنري الثاني، فقد أدت قسوته في التعامل مع الانقلابيين وفي التنكيل ببعض قادتهم إلى انخفاض شعبيته وتقلص عدد مؤيديه، حتى أنه اضطر إلى نفي شقيقه الملك إلى أرمينيا عام710هـ/ 1310م، وعلى

---

[1] De Mas Latrie , op.cit, vol. I p 313-314-339 & vol II p. 38.
[2] Ibid ,vol. I , p 304.
[3] Ibid , vol I p 181.
[4] Ibid , vol II p 109-111.

الرغم من تعاونه مع فرسان الأسبتارية في رودس عجز عن استمالة الكرسي الرسولي، ليتمكن من تسلم الحكم بصورة شرعية.

وفي نيقوسيا في محرم 711هـ/ حزيران 1310م، قُتِل عموري بغتة على يد الفارس سيمون دو مونتوليف (Simon de Montolif) ، وبقيت ملابسات مصرعه غامضة ما بين مؤامرة مدبرة أو خلاف شخصي بين فارسين، وفشل أنصار عموري في المجيء بشقيقه الأصغر عامري حاكماً بديلاً، إذ سرعان ما قبض الملك هنري على زمام الأمور، وتولى السلطة، وأودع شقيقه الأصغر في السجن، واستمر الملك في الحكم حتى وفاته عام 725هـ/ 1324م.

وتثبت الوثائق المتبادلة على مر الأيام بين ملوك قبرص من آل دو لوزينيان وبين البابوات في روما وأفينيون، قوة العلاقة بين الجهتين واستمرار التواصل واللياقات، سواء على مستوى الموفدين أو على مستوى الرسائل، فقد كان الملك هنري الثاني دو لوزينيان يعتبر نفسه أحد مستشاري البابا، ووجّه له عدة اقتراحات تتعلق بمعالجة الوضع اللاتيني في الشرق، وطرق ووسائل تحرير بيت المقدس[1]. كما تثبت صحة هذه العلاقة الوطيدة، تلك التسهيلات التي كان ملوك قبرص يقدمونها للجهاز الإكليركي العامل في الجزيرة، وتنفيذهم لكافة الطلبات البابوية المتعلقة بهذا الشأن، ولو على حساب الرعايا الإغريق والكنيسة الشرقية.

بعد وفاة هنري الثاني اتجه المجلس الأعلى في المملكة إلى تنصيب"هوغ" (725–761هـ/1324–1359م)، الإبن البكر لـ "جي دو لوزينيان" الشقيق المتوفي للملك، حيث نسج هوغ الرابع عدة زيجات سياسية لشقيقاته ولأولاده باتجاه ملوك أوروبا وأرمينيا، بقصد توظيف الأواصر العائلية لتوطيد دعائم حكمه، وترسيخ علاقاته مع البابوية ومع ملوك الغرب[2].

وجه هوغ الرابع اهتمامه لحماية مصير مملكة قبرص اللاتينية، وتأمين الشواطئ والبحار المحيطة بها، وذلك في مواجهة الحضور التركي المتنامي، خاصة في المياه والجزر التي تفصل الجزيرة عن الغرب الأوروبي، فكان لا بد من توطيد العلاقات مع البابوية القادرة على تجييش النجدات عند النوائب. وأخذ منذ بداية حكمه يعزز تعاونه مع فرسان الأسبتارية الذين اتخذوا من جزيرة رودس مقراً لهم، كما تعاون مع البنادقة، وخفف من حدة التوتر مع الجنوية، وعزز اتصاله بالكرسي البابوي، ووظف كل علاقاته وخدماته ليتمكن من القضاء على القرصنة التركية في البحر القرماني، ومن حصر التمدد التركي، وصولاً إلى إخضاع بعض مدنهم الواقعة في الأناضول على الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى.

---

[1] De Mas Latrie,op.cit, vol II p 118.

[2] Edbury op.cit. P: 143-144.

وقد شارك هوغ الرابع حلفاءه الأسبتارية في حملتهم على ازمير عام745هـ/ 1344م، وجنى من حملته الكثير من الربح المادي والمعنوي، وكان يرى من المصلحة أن يخفف من تدابير الحصار حول الشواطئ المملوكية لكي لا يستفز السلطنة ولكي لا يحثها على التحالف مع الترك وعلى مشاركتهم في القتال في آسية الصغرى، أو على محاولة غزو الجزيرة اللاتينية.

استمر هذا التعاون الوثيق مع الغرب حتى منتصف القرن، قبل أن يحل الموت الأسود بالبلاد عامي 748هـ/ 1347م و749هـ/1348م، فقد ضرب وباء الطاعون الجزيرة بقسوة، أدت إلى وفيات هائلة أطاحت باليد العاملة الزراعية منها والصناعية، وأدخلت البلاد تدريجياً في مرحلة من الكساد والفقر والتقهقر[1]، مما دفع بالملك هوغ الرابع إلى انتهاج سياسة اكثر انطوائية، فابتعد عن المعارك والمطاردات عبر البحار، حتى أن علاقته بالكرسي الرسولي في أفينيون أخذت بالفتور، خاصة عندما تدخل البابا بأمور داخل عائلة دو لوزينيان، إذ اعتبرها الملك والنبلاء شأناً عائلياً وداخلياً هم أعرف به وأقدر على حله، فقد تلكأ هوغ الرابع عندما طلب منه البابا كليمانت السادس (743–754هـ/1342–1352م)، السماح لحفيده "هوغ" ابن ابنه المتوفي "غي" عام744هـ/ 1343م، بمغادرة الجزيرة برفقة أمه "ماري بوربون".

ولأن "هوغ" أولى بالحكم من عمه بطرس (الأول) بحسب القوانين، كان جده الملك هوغ الرابع قد حظّر السفر على حفيده حامل إسمه وعلى والدته ومنعهما من التوجه إلى أوروبا، ووضعهما في ما يشبه الإقامة الجبرية، وذلك بعد أن تأكدت الأرملة سليلة العائلة الفرنسية المالكة أن عمها الملك والد زوجها، يرغب بتنصيب ولده بطرس من غير وجه حق، بدلاً من تنصيب حفيده وولدها حسب الأصول، مما دفع البابا إلى التدخل مراراً لإخلاء سبيلهما وإرسالهما إلى أوروبا، فتم له ذلك عام747هـ/ 1346م، لكن هوغ الرابع أصر على ألا يدفع أية نفقة لمن يقيم خارج المملكة القبرصية[2]، على الرغم من رسائل البابا المتكررة بهذا الشأن.

وبتولي ابنه بطرس الأول الملك، قويت علاقة قبرص اللاتينية بالكرسي الرسولي في أفينيون، وصارت قبرص ترتع في حضن البابوية، وتحمل لواء الحملات في الشرق كما سيأتي في فصل لاحق.

وعلى الرغم من تقيد ملوك قبرص عموماً بتعليمات الكرسي الرسولي، بشأن نشر المذهب اللاتيني في الجزيرة، والحد من سلطة الكنيسة الشرقية فيها، باتخاذ إجراءات وصلت في بعض الأحيان إلى حد الاضطهاد، فإن انصياع ملوك

---

[1] المقريزي، السلوك، ج4، ص71، حوادث سنة 749هـ.

[2] Edbury op.cit. P:148.

قبرص اللاتينية بشأن الأمور الدينية لم يكن كاملاً، عندما يتضارب مع سياسة الحكم في الجزيرة، نذكر منها موقفين على سبيل المثال، الخلاف الأول سنة608هـ/ 1211م، الذي حصل بين الملك هوغ الأول والبابا إنوسنت الثالث لأن البابا قام بتعيين أساقفة الجزيرة دون استشارة الملك، والعرف يقضي بالتنسيق بين السلطتين الدينية والزمنية، كون الأسقف لا يمكنه الاستمرار بعمله إذا كان على خلاف مع الحاكم، والثاني حين ضغطت الكنيسة اللاتينية عام618هـ/ 1220م، لتحصل على المزيد من الإعفاءات لها وللرعايا العاملين في أراضيها، فوقف النبلاء بالمرصاد، كون مثل هذه الإعفاءات تقلل من دخل المملكة وتحض الفلاحين على ترك إقطاعات النبلاء والالتجاء للعمل في أراضي الكنيسة اللاتينية ولم ينته الخلاف إلا بعد تدخل الملكة الأم حيث توصلت إلى تسوية بين الطرفين[1].

من خلال استعراض هذا العدد من مواقف مملكة قبرص اللاتينية وتحليلها، يمكن القول بأن المملكة القبرصية أخلصت في انتمائها اللاتيني، وفي اندماجها بمحيطها الحربي الضاغط ، وتعهدت بإقامة الصلات الطيبة بالقيادات الروحية للحملات الصليبية ، والانسياق التام في خططها ومشاريعها، لكن مع انتهاج سياسة داخلية وخارجية حكيمة، أعطت للمملكة شخصيتها ووضعت لها أعرافها، وخاصة بالتعاون بين عائلتي دو لوزينيان ودو إيبلان الفرنسيتين المتصاهرتين، ومشاركتهما في الجهاز الحاكم، مما أغنى المملكة وفرض لها هيبتها واحترامها واستقرارها في محيط متأجج وغير مستقر. وعرفت هذه السلالات كيف تستند إلى القوة المعنوية الروحية والسياسية الأبرز في أوروبا، وهي الكرسي الرسولي لكي تضيف إلى استقرارها الاقتصادي، اعترافاً سياسياً وسيادياً.

وسوف يتبين في الفصل الرابع والأخير من الباب الثاني من الأطروحة، وبالتفصيل المزيد من الدلالات على الصلات الوطيدة بين الكرسي الرسولي وبين طبقة النبلاء في قبرص عامة ومع أسرة دو لوزينيان خاصة، لنشر المذهب اللاتيني في الجزيرة بالحسنى أحياناً وبالقوة في أغلب الأحيان.

ثانياً– دور قبرص اللاتينية في دعم مملكة بيت المقدس

مع دخول القرن الهجري السابع، كان الأسطول الأيوبي في غاية الضعف عدداً وعدة، وصارت رحلاته البحرية محفوفة بالمخاطر، وخلا البحر للأساطيل الأوروبية وللأسطول القبرصي، الذي بدأ يشهد ازدهاراً كما الجزيرة، بفضل زوال الأخطار عنها ولتمتعها بموقع جغرافي وتجاري يتوسط حركة النقل البحرية الأوروبية بين إيطاليا والقسطنطينية وعكا.

---

[1] De Mas Latrie , op.cit, VOL. I, P: 183-206.

وصار بإمكان القبارصة أن يتنقلوا بحراً بين الجزيرة وبين الساحل السوري دون خطر يذكر، حتى أن القبارصة شاركوا سنة(599هـ/ 1203م)، بحوالي خمسمائة مقاتل بينهم مئة فارس، في إحدى حملات الأسبتارية على حماة، لانتزاع حصن بعرين حسب أبي الفدا، أو لإرغامه على استئناف دفع الحمل السنوي المقرر عليه حسب أمادي[1].

ومنذ وفاة صلاح الدين، أصبحت المدن الساحلية التي يسيطر عليها الإفرنج، وخاصة عكا وصور وبيروت، تنعم بحياة رغيدة ولها مداخيل وفيرة ، فلا الورثة الأيوبيون يريدون تجدد المعارك، ولا الأمراء الإفرنج كذلك، وكأنهم توصلوا إلى تفاهم لاقتسام خيرات الشرق وتجارته، ولم يعد لدى البابا بد من تحريض أوروبا لمتابعة معارك تحرير بيت المقدس[2].

وبقدوم الإمبراطور فردريك الثاني (591–648هـ/1194–1250م)، الابن الوحيد للإمبراطور هنري السادس، رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلى الشرق، بعد لأي، ودون تنسيق مع الكرسي الرسولي، وبعد خلاف مستفحل مع البابا، تلاه حرمان كنسي مضاعف[3]، تعرضت مملكة قبرص والسلطنة الأيوبية أيضاً، لضغط معنوي جعلهما تذعنان للإمبراطور القادم على الرغم من ضعف إمكاناته العسكرية، إذ لم يكن أحد في حينه يعلم شيئاً عن حقيقة الحملة الصليبية السادسة التي تمخضت عن نتائج أكبر بكثير من قدراتها المحدودة.

ففي أواخر سنة 622هـ/ت2 عام 1225م، كان البابا هونوريوس لا يزال يحث الإمبراطور على التوجه إلى الشرق، فاستقدم فردريك الثاني، الشاب الوسيم المثقف ذي الثلاثين سنة من العمر، عروسه الفتاة الصغيرة إيزابيل وريثة مملكة بيت المقدس وابنة الملكة ماري دو شامباين من زوجها حنا دو برين، وتزوجها في براندیزي(صقلية)، بمباركة البابا لكي يؤول إليه عرش بيت المقدس، قبل أن يتحرك نحو الشرق.[4] وفي طريقها إلى صقلية كانت العروس قد عرجت مع الوفد المرافق لها على قبرص لتزور خالتها الملكة أليس، حيث ودعتهم كما ودعت سوريا إلى الأبد، وكان ثمن هذا الزواج أن حنا دو برين نال موافقة الإمبراطور فردريك والبابا، بأن يبقى بقية حياته ملكاً على بيت المقدس وأن تؤول تحت سلطته أية أرض أو مدينة يأخذها الإفرنج من المسلمين لاحقاً.

---

[1] أبو الفدا، المصدر ذاته، ج2، حوادث سنة 599هـ ص 193.

AMADI,Op.Cit. P: 92 ـ De Mas Latrie, Op.Cit. Vol I P:304.

[2] Runciman .op.cit p 147.

[3] De Navarre, op.cit., P:146.

[4] AMADI, op.cit.P:116.

لكن سرعان ما أنكر الإمبراطور حق حنا دو برين بالملك، وذلك غداة حفلة الزفاف، كما انتزع منه النقود التي أوصى له بها الملك الفرنسي فيليب لتعزيز الدفاع عن مملكة بيت المقدس، ولما شكا دوبرين حاله إلى البابا وإلى ملك فرنسا، عرضا عليه منصب الوصي على الإمبراطور القاصر بلدوين الثاني في القسطنطينية، زوج إبنته الصغيرة ماريا فرحب بالمنصب، كما أن العروس اليافعة إيزابيل لم تكن أوفر حظاً من أبيها، فقد أدخلت فوراً في "حريم الملك" وما لبثت أن ولدت للإمبراطور ولده كونراد، لتوافيها المنية بعد بضعة أيام بعمر السابعة عشر، وذلك في جمادى الأول 626هـ/ نيسان 1228م[1].

أخذت قوات الإمبراطور تصل إلى الشرق تباعاً اعتباراً من عام625هـ/ 1227م، بينما اعتراه المرض مع حفنة من رجاله، مما اضطره للعودة إلى بلاده مع قسم من الجيش، ولم يتحرك نحو الشرق إلا بعد أن استثار غضب البابا جريجوري التاسع، الذي أصدر قراراً بحرمانه في العام ذاته، ولما وصل القسم الأخير من جيشه إلى عكا عام626هـ/ 1228م، فوجيء الجميع بأن الإمبراطور قد تخلف في قبرص[2]، وكان هدفه من ذلك تكريس تبعية الجزيرة وملكها للإمبراطورية الرومانية المقدسة، منذ أن رعى والده الإمبراطور هنري السادس، بواسطة ممثله، حفل تنصيب عموري الثاني دو لوزينيان ملكاً على الجزيرة عام594هـ/ 1197م.

وكان فردريك يمارس منذ وفاة الملك هوغ الأول سنة 1218م، ضغوطاً مستمرة على المملكة ليحظى بالوصاية على الطفل الوريث هنري الأول، فرأى أن ينزل بالجزيرة ويفرض طلبه بالقوة، مما حدا بالحاكم الوصي "البايلي" فيليب دو إيبلان إلى أن يعجل في تتويج هنري ملكاً على قبرص قبل أن يبلغ سن الرشد، وذلك في نيقوسيا سنة623هـ/ 1225م.

ولما توفي فيليب سنة626هـ/ 1228م، حل محله في الحكم شقيقه الأكبر حنا إيبلان، صاحب بيروت وأغنى وأعرق نبيل في الشرق، وهو أقرب الذكور نسباً إلى ملك قبرص وإلى ملكة بيت المقدس، أما أليس دو شامباين أم الملك الوصية الشرعية والتي تربطها بعائلة إيبلان قرابة قوية من جهة أمها ملكة بيت المقدس الراحلة إيزابيلا، فلم تظهر إلى العلن أية معارضة لقرار التعيين هذا.
لكنها عندما علمت بتحرك الإمبراطور إلى الشرق، أرسلت إليه وفداً من خمسة فرسان طالبة منه المساعدة للحد من نفوذ حنا إيبلان، فوعد بالاستجابة[3]، وهو الذي

---

[1] Bustron, op.cit., P:57,- Runciman .op.cit p 175-177.
[2] De Navarre, , op.cit, P:37.
[3] De Giblet, Henri,, Histoire Des Rois de Chypre,P:54.

يتوق إلى بلوغ الشرق وجعل كل مدن الإفرنج وممالكهم تحت سلطته، وقد ساعد في إغرائه بالقدوم إلى قبرص، ما سمعه من وفد الملكة، بأن موارد قبرص وحدها تكفي لتغطية نفقات حملته على الدولة الأيوبية[1].

حط فردريك الثاني في ليماسول في شعبان سنة 626هـ/ تموز 1228م، وأحسن القبارصة استقباله، فاستدعى حنا إيبلان وأولاده والملك القاصر للقائه، وخاف النبلاء على إيبلان وحذروه من الذهاب إليه، لكن إيبلان كان شجاعاً ومستقيماً في موقفه من الإمبراطور بصفته سيد الجزيرة، فذهب ليجده قد أحسن استقباله منادياً إياه "يا عم" ، ومغدقاً عليه الهدايا والتكريم.

لكن وبعد بضعة أيام وخلال أحد الاحتفالات وقف جنود فردريك خلف الضيوف شاهرين سيوفهم، فطلب فردريك من حنا إيبلان تسليمه إقطاع بيروت وكل عائدات قبرص منذ موت هنري الأول وحتى تاريخه، ورد إيبلان بجسارة أنه تسلم إقطاع بيروت من شقيقته إيزابيلا ملكة بيت المقدس، وأنه على استعداد للدفاع عن حقه الشرعي فيها أمام المجلس الأعلى للمملكة [2]، كما أن عائدات قبرص التي جمعها هو وشقيقه فيليب من قبل قد سلمت إلى الملكة الأم الوصية على العرش القبرصي[3].

وجد الإمبراطور نفسه في حرج أمام قوة حجة إيبلان وقوة شخصيته في انضباطه وفي تحليه بلياقة النبلاء وتقيده بالقانون، وأمام ضعف قوته العسكرية، إذ كان عدد جنوده لا يتعدى الثلاثة أو الأربعة آلاف، أمر بأن يوضع عشرون من نبلاء قبرص وأبناء حنا إيبلان كرهائن عنده، وأن يرافقه الأخير معه في حملته إلى فلسطين[4].

أقر إيبلان ونبلاء قبرص بسيادة الإمبراطور على الجزيرة وتحفظوا على وصايته على الملك لأن ذلك يخالف قانون المملكة ، ثم أخذ أمراء المدن الساحلية الإفرنج يتوافدون على قبرص لتحية الإمبراطور، ومنهم باليان صاحب صيدا على رأس قوة عسكرية ، ثم تبعه غي أمبرياتشو صاحب جبيل، الذي أقرض فردريك 30 ألف بيزنت، فسار الإمبراطور مع التعزيز الذي تلقاه إلى العاصمة نيقوسيا حيث تلقاه بوهيمند الرابع صاحب أنطاكية[5]. وانسحب حنا إيبلان، من باب الحيطة،

---

[1] إبن الأثير ، المصدر ذاته، ج10 ص477و478- عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ص41.

[2] De Giblet, Henri,,op.cit. ,P:60.

[3] De Navarre, op.cit., P:41.-Grousset,Op.Cit.P:313.

[4] Bustron, 0p.cit., P:68-70.

[5] يختلف القانون الجرماني عن قانون مملكتي بيت المقدس وقبرص كون الوصاية تستمر على الملك حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين في القانون الجرماني بينما تنتهي الوصاية حين يتم الملك الخامسة عشر في قانون مملكتي الشرق..Grousset, Op.Cit. P:321 - Runciman VIII p 180-

إلى حصن هيلاريون حيث سبقته عائلته، وقد كدس فيه المؤن والأرزاق، متذرعاً بالقانون الفيودالي الذي يعطي النبيل حصانته إذا لزم حصنه.

لم يجد الأمبراطور بداً من الإذعان للقانون، خاصة وأن المهمة الأصعب في فلسطين لا تزال أمامه، فقام باليان حاكم صيدا بالوساطة بين فردريك وبين خاله حنا إيبلان، حيث توصلا إلى إتفاق توضع الجزيرة بموجبه تحت سيادة الإمبراطور، وفقاً لقانون الإقطاع الجرماني، وأن يقسم له الملك والنبلاء بالولاء، وأن تبقى الملكة الأم وصية على الملك القاصر، وأن يخلي الأمبراطور سبيل الرهائن، شرط أن يرافقه حنا إيبلان إلى فلسطين، ليمثل أمام المجلس الأعلى لمملكة بيت المقدس فيما يتعلق بإقطاعه لبيروت.

عيّن الإمبراطور عموري بارلي الصقلي (Amarlic Barlais) نائباً له (bailli) ليحكم الجزيرة يعاونه أربعة نبلاء، إثنان من صقلية واثنان من نبلاء الشرق أحدهما عموري أمبرياتشو من جبيل والآخر هوغ من أمراء بيسان، وجميعهم من أخصام عائلة إيبلان ومنافسيهم، كما سيطر فرسان الملك الصقليون على كافة نواحي الجزيرة وقلاعها، وتم تعيين موظفين من قبل الإمبراطور لجباية الضرائب في كافة الناطق والمرافيء[1]. ولم يجد حنا إيبلان ولا سواه من النبلاء في قبرص بداً من إطاعة الإمبراطور إذ كان الجميع على يقين من أنه سينتقل بعد قبرص إلى الشرق لقيادة حملة تحرير بيت المقدس، ولا بد من تأييده وتلبيته مهما كانت التضحيات. خاصة وأن صيدا قد سقطت في يد الإفرنج قبيل وصول فردريك إلى الشواطيء الشامية، إذ انخفضت معنويات الأيوبيين من قبل أن يصل.

وصل الإمبراطور إلى عكا يرافقه حنا إيبلان ومجموعة من الفرسان القبارصة[2]، وخافه أمراء المقاطعات، من الإفرنج والعرب على السواء، وانسحب بوهيموند من قبرص إلى طرابلس بسرية تامة، بعد أن طلب منه فردريك تقديم الطاعة في مقاطعتي طرابلس وأنطاكية، وأسرع حنا إيبلان إلى إقطاعه في بيروت، وأمر بتعزيز الحامية للدفاع عنها في حال قرر الإمبراطور مهاجمتها، خاصة بعد أن أخبره الجنوية بعزم الإمبراطور على قتله[3]، ثم عاد إلى عكا ليمثل أمام المجلس الأعلى، لكن الإمبراطور انشغل في تنظيم مملكة بيت المقدس وإعدادها للحرب، كما انشغل في مفاوضات هامة وطويلة مع السلطان الكامل[4].

ثم كان للسلطان الكامل وجهة نظر خالفه فيها السواد الأعظم من المسلمين، وهي تسليم الإمبراطور بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والقرى التي

---

[1] Bustron, op.cit., P:73.

[2] AMADI,op.cit.,P:132.

[3] De Giblet, Henri, op.cit,P:71-72- Grousset,Op.Cit. P:316.

[4] Runciman ,.op.cit, p: 182-183 .

بينها، لتأمين التواصل مع القدس[1]، مع شريط ضيق من القرى حتى البحر، لتأمين وصول الحجاج، وتسليم المنطقة المحيطة بصيدا التي يسيطر عليها المسلمون، على أن تبقى مساجد القدس للمسلمين ويسمح لهم بارتيادها ولهم حرية العبادة فيها، وذلك اعتباراً من ربيع سنة 626هـ/آذار1228 م، بموجب إتفاقية مدتها عشر سنوات[2]، لكن المعاهدة لا تشمل إمارة طرابلس الإفرنجية.

لا يغرب عن البال أن هذه المعاهدة لاقت سخطاً من العالمين الإسلامي والمسيحي، فأعلن الحداد في بلاد الشام، وجابه الأئمة المصريون سلطانهم وجهاً لوجه، فيما لم يقنع فرسان الإفرنج وخاصة فرسان المنظمات بما أحرزه الإمبراطور، واعتبروه أقل مما عرضه الكامل عليهم من قبل، وطلبوا من أتباعهم عدم الترحيب بفردريك حين يدخل القدس لأنه كان من الواجب أن تقتحم بالسيف وليس بالتفاوض[3].

وما أن أقرت الاتفاقية حتى وجد الامبراطور نفسه مضطراً لمغادرة الشرق والعودة إلى بلاده، فقد كان الغضب عليه يسود مملكة بيت المقدس أينما حلّ، وقاطعه معظم النبلاء وفرسان المنظمات إلا التيوتون الألمان، وكان في عكا يحيط نفسه ومكان إقامة أخصامه بحراسة مشددة، كما سرّع في عودته إلى الغرب ما بلغه من أن حماه السابق حنا دو برين، ملك بيت المقدس السابق ووالد زوجته الراحلة، يتجهز ليقتحم بلاده بإيعاز بابوي على رأس جيش كبير.

كان في نية فردريك خطف حنا إيبلان ورئيس فرسان الداوية، وإرسالهما إلى سجن أبوليا، لكنهما أحاطا نفسيهما بحراسة قوية منعته من المجازفة. وقبل أن يغادر عكا عيّن لمملكة بيت المقدس حاكمين(baillis)، هما باليان إيبلان صاحب صيدا والألماني جارنييه المساعد القديم للملك السابق حنا دو برين، كما عين أودو دو مونبيليارد قائداً للجيش (constable)، ومع أنه خرج للسفر من عكا في الصباح الباكر، محاولاً تجنب الازدحام فقد أتى وداعه صاخباً وسط حشود معادية وغاضبة مما اضطر إيبلان ومونبيليارد للتدخل لضبط الأمن[4].

وفي طريق عودته نزل مجدداً في قبرص، فرتب خطوبة الملك القبرصي القاصر هنري الأول على النبيلة ألكس دو مونتفرات، إبنة أحد حلفائه في أوروبا، وعهد بالوصاية على الملك وبالحكم إلى النبلاء الخمسة و"بارلي" على رأسهم، وجلّهم من أخصام حنا إيبلان، ثم تابع سفره إلى صقلية، ووصل إلى براندیزي في رجب 627هـ/ 10 حزيران 1229م.

---

[1] ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص15.

[2] عاشور، قبرص والحروب ص42.

[3] الذهبي، سير أعلام النبلاء ج23 ص160.-188- Runciman ,.op.cit p 187

[4] De Navarre, op.cit., P:50.-Grousset, Op.Cit. P:340.

ترك فردريك الثاني مناطق الشرق الإفرنجية في أسوأ حال، ولم يحرز أي تحسين لأوضاعها الأمنية، فمملكة بيت المقدس بقيت منقوصة الأطراف، مدنها وقلاعها متناثرة، ضيقة المساحة دون جبهة دفاعية تذكر، ومعرضة لمناوشات البدو والقوات الأيوبية، مما جعل ضبطها عبر الحكم المركزي مستحيلاً، وصارت السلطات الحقيقية في أيدي طبقة البارونات وقادة المنظمات العسكرية. أما تسلمه لبيت المقدس فقد جاء واهياً فالمدينة بقيت مفتوحة وأسوارها مخربة أو ضعيفة التحصين، والطرقات الموصلة بينها وبين الشاطيء محفوفة بالمخاطر، والحجاج يتعرضون لمتاعب جمة أقلها السلب وتصل إلى الموت في كثير من الأحيان.

وأما مملكة قبرص فقد عرفت حرباً أهلية إندلعت على الفور ودامت بضع سنوات، بعد أن أمر فردريك الحكام الموالين له بنفي حلفاء عائلة إيبلان من الجزيرة، وبدفع مبلغ عشرة آلاف مارك للإمبراطور على أن تستوفى من الضرائب على الناس، ومن مصادرة أملاك عائلة إيبلان. ويروي الشاعر والمؤرخ فيليب دو نوفار المقرب من حنا إيبلان تفاصيل تلك المرحلة، فقد أوقع به حكام الجزيرة الجدد، ودارت بينه وبينهم مشادة حامية بحضور الملك القاصر، انتهت بخروجه بكفالة وبالتجائه إلى قلعة الفرسان الأسبتارية، ومن هناك أرسل إلى حنا إيبلان في عكا يخبره بما يحصل[1].

جهز إيبلان حملة بحرية إلى قبرص نزلت ليلاً قرب فماغوستا، واصطدمت القوتان قرب نيقوسيا في شعبان 627هـ/ 14 تموز 1229م، وانضم الأسبتارية يرافقهم نوفار إلى إيبلان. وحوصرت قلاع الأمبراطوريين حيث أخِذ الملك وبعض عائلته كرهائن، ولم تستسلم آخر قلعة للإمبراطوريين، إلا مع حلول العام 628هـ/ 1230م، بعد أن حسمت المعارك لصالح إيبلان، وانتهت بمقتل أحد الحاكمين الصقليين وبموت الآخر بعد فراره إلى كيليكيا، بينما عفا إيبلان عن بارلي وأميري جبيل وبيسان بناء لنصيحة حلفائه، وحكم حنا إيبلان الجزيرة بانتظار بلوغ الملك هنري سن الرشد عام 1232م، وأرسل موفداً إلى ملوك أوروبا يشرح ويبرر ما حصل.

لم يسكت فردريك الثاني على هذ الخسارة، لكنه انتظر حتى وقع معاهدة سان جرمانو مع البابا في رمضان 628هـ/ 23 تموز 1230م، وعمل على ترتيب أوضاعه في أوروبا وأخذ يتحين الوقت المناسب للتدخل ثانية في الشرق[2].

وفي خريف سنة 629هـ/ 1231م، وتحت ذريعة حماية مدينة بيت المقدس، أخذ موافقة البابا لإرسال حملة جديدة إلى الشرق قوامها 600 فارساً و800 مقاتلاً

[1] De Navarre, op.cit., P:60

[2] Runciman .op.cit p 195

و3000 بحاراً، بقيادة المارشال ريتشارد فيلانجياري (Filangieri) ، من مواليد نابولي ومنحه لقب ممثل الإمبراطور[1].

علم حنا إيبلان بأمر الحملة قبل وصولها، واستعد للمواجهة فاستقدم عسكره من بيروت إلى قبرص، ولم يبقِ فيها سوى حامية صغيرة للدفاع عنها. وما أن وصلت طلائع حملة فيلانجياري إلى قبرص حتى أرسل إلى ملكها رسالة من الإمبراطور، نقلها له الحاكم بارلي، يوعز له فيها بطرد عائلة إيبلان من الجزيرة ومصادرة ممتلكاتهم، لكن الملك أجابه بأن حنا إيبلان خاله، ومن غير الممكن أن يتخلى الملك عن إقطاعات عائلته لأحد، وعلى الأثر قامت الحشود الغاضبة بالاعتداء على بارلي، وعلى الأثر توجه فيلانجياري بأسطوله إلى بيروت، حيث لم يواجه أية مقاومة، وقام أسقفها بتسليمه المدينة وانتقل إلى قلعتها وحاصر حاميتها التي قاومت بضراوة ورفضت الاستسلام[2]. ثم تحرك بأسطوله إلى صيدا ثم صور ثم ظهر في عكا، حيث أبرز القرار الإمبراطوري بتعيينه حاكماً على مملكة بيت المقدس، والقرار بمصادرة إقطاع عائلة إيبلان، فدار بينه وبين باروناتها جدل حاد حيث لقي معارضة عامة قوية، لأن مصادرة الإقطاع تحتاج إلى انعقاد المجلس الأعلى وإتاحة الفرصة للنبلاء المعنيين بعرض وجهة نظرهم.

وعلى الأثر توحدت جهود النبلاء والتجار وعدد من الفرسان ورجال الدين لدعم آل إيبلان، فشكلوا مجلساً يشرف عليه 12 قنصلاً، وعينوا حنا إيبلان عمدة لهذا المجلس.

أدى سقوط مدينة بيروت، دون قلعتها، إلى إلحاح حنا إيبلان على ملك قبرص بضرورة التحرك العسكري من الجزيرة إلى الشرق، لحماية مملكة بيت المقدس، وللدفاع عن إقطاعات عائلته في وجه الهيمنة الإمبراطورية. ووافق الملك على إيفاد حملة بحرية تضم معظم قوات الحزيرة وفرسانها وبحارتها، وأبقى قوات قليلة للدفاع عن المملكة، واقترح إيبلان أن يرافقهم الحاكم بارلي إلى الشرق، لكي لا يقوم بأية حركة عسكرية في غيابهم فوافق الملك.

حطت الحملة جنوبي طرابلس، وتمكن بارلي من الإفلات ومعه ثمانين فارساً قصدوا طرابلس، ثم التحقوا بفيلانجياري بحراً إلى بيروت، بينما تبعهم إيبلان براً بمساندة من الأسطول الذي تحرك بمحاذاتهم، لكن الطقس السيء قرب البترون أدى إلى تحطم بعض السفن وغرقها وتضرر السفن الأخرى، فضاع الأسطول القبرصي، وفرّ عدد من المشاة لدى وصولهم قرب قلعة جبيل، ثم تابع إيبلان والتحق بحاميته الصامدة في قلعة بيروت.

---

[1] De Navarre, op.cit., P:77.

[2] Bustron, ,op.cit., P: 81.

استنفر إيبلان كل أصدقائه، فلباه الكثيرون وتجند في خدمته عدد من المقاتلين ومن بينهم جنويون من صور، وقام باليان صاحب صيدا بدور الوسيط فلم يفلح بسبب تشدد فيلانجياري وإصراره على مصادرة أراضي إيبلان[1].

رفع فيلانجياري الحصار عن قلعة بيروت، وألحق قواته بمركز قيادته في صور، وأعاد الحاكم بارلي معززاً بالفرسان اللومبارديين إلى قبرص لاسترداد الجزيرة، فصارت قلاعها تتساقط في يده تباعاً، إلا قلعتي ديو دامور (Dieu d'amour) حيث لجأت شقيقات الملك هنري، وقلعة بوفافنتو (Buffavento) الحصينة حيث تحصنت سيدات العائلة المالكة بانتظار عودة الملك هنري إليها، وكانت المؤن في القلعتين شحيحة للغاية[2].

كانت أخبار قبرص ترد إلى إيبلان عبر قباطنة السفن الجنوية، ومع نهاية شهر نيسان وافقت الجنوية على دعم حملة إيبلان لمهاجمة قوات فيلانجياري في صور، وحازت جنوا بذلك على مزيد من الوعود والامتيازات[3]. لكن الموفد البابوي بطريرك أنطاكية ألبرت دو روزاتو، أقنعه بالعودة إلى عكا والاحتكام إلى المجلس الأعلى لمملكة بيت المقدس، في وقت قام فيه فيلانجياري بهجوم مباغت على قوات إيبلان المرابطة جنوبي صور، فحطمها مما اضطر الملك القبرصي إلى النجاة والفرار على عجل باتجاه عكا، ومالت موازين القوى لمصلحة فيلانجياري، الذي وجد من المفيد الانتقال مجدداً إلى قبرص، لمؤازرة حاكمها بارلي في معارك الاسترداد.

سارع حنا إيبلان إلى مصادرة كل السفن الراسية في عكا لنجدة قبرص، بينما أغرى الملك هنري النبلاء المحليين، بمنحهم إقطاعات في الجزيرة إذا انضموا للحملة، وسرى العرض حتى على التجار السوريين إذا انضموا إليها، كما وافق على إعفاء الجنويين من الضرائب، ومنحهم حق إنشاء أحيائهم الخاصة في المدن الثلاث، نيقوسيا وفماغوستا وبافوس، بعد أن وعدوا الملك بتقديم المساعدة.

وللتمكن من الإنفاق على الحملة، باع نبلاء من عائلة إيبلان بعض ممتلكاتهم في قيسارية وعكا إلى فرسان الأسبتارية والداوية، وتمكنوا من جمع مبلغ 31 ألف بيزنت أقترضها الملك منهم[4].

انطلقت الحملة من عكا في 30 أيار، ومر الأسطول بصيدا لتلقي الدعم من حاكمها باليان إيبلان، ثم قصد فماغوستا حيث يرابط أكثر من 2000 فارس إمبراطوري مقابل فرسان الحملة وقوامها 233 فارساً، لكن إنزال القوات ليلاً

---

[1] Bustron. Op.Cit P:102.
[2] De Navarre, op.cit., P:65.
[3] AMADI,op.cit.,P:166.
[4] Grousset,Op.Cit. P:361.

بالقرب من مينائها أحدث ذعراً في المدينة، فقامت القوات اللومباردية بإحراق سفنها بأيديها، وأخلت المدينة قبيل الصبح، وانتقلت باتجاه نيقوسيا، وهي تحرق كل مخازن الحبوب والمحاصيل الجديدة التي تمر بها، لمنع القوات القبرصية من الاستفادة منها، مما أثار العامة والفلاحين، فلم تجروء على البقاء في نيقوسيا، بل أخلتها كذلك وسارعت إلى الالتحاق بفيلانجياري، عند قلعة كيرينيا.

كانت عائلتا الملك المتحصنتان في القلعتين على وشك الاستسلام عندما وصلت النجدة، ولحسن حظ قوات الملك، وجدت مخازن كثيرة في نيقوسيا لم تمتد إليها نيران اللومبارديين. وكانت المعركة الفاصلة في المناطق الجبلية قرب قلعة ديو دامور، Dieu d'amour حيث استبسل حنا إيبلان وأولاده، الذين قاد كل منهم مجنبة أو مقدمة وتركوا المؤخرة لوالدهم يحركها حيث تدعو الحاجة[1] ، وخلال المعارك جرحت كل عائلة إيبلان وقتل الكثير من فرسانهم، لكن فيلانجياري فقد أعصابه في الساعات الأخيرة، وفقد القدرة على التنسيق بين فرقه، فانهزم وانسحب إلى قلعة كيرينيا، حيث دام الحصار عشرة أشهر ثم تمكن من الهرب، قبل أن يحكم إيبلان الطوق من البر والبنادقة من البحر، ولجأ إلى أرمينية الصغرى، مع الحكام بارلي وعموري أمير جبيل وهوغ أمير بيسان، طلباً للنجاة وللعون من الملك الأرمني هيثوم دون جدوى، لأن الرباط الذي يجمع أرمينية وقبرص بالفاتيكان وبحكم الجوار كان أقرب من الولاء لإمبراطور أوروبي غائب.

استسلم اللومبارديون المحاصرون في قلعة كيرينيا في جمادى الثاني سنة 631هـ/ نيسان 1233م، دون أن يتعرض لهم أحد حتى غادروا الجزيرة إلى صور، ثم تبادل إيبلان وفيلانجياري الأسرى، في كل من قبرص وصور[2]. واسترد الملك هنري إقطاعاته في الجزيرة، ووزع إقطاعات أخرى على مستحقيها ثم قام بتسديد القروض المستحقة عليه، وحكم الجزيرة بالتعاون مع خاله حنا إيبلان[3].

استمر الوضع في مملكة بيت المقدس مزعزعاً بسبب سياسة فردريك الثاني غير الحكيمة وغير الواقعية، حيث قام بعزل فيلانجياري وأبقاه في صور، ليأتي بأسوأ منه ولتستمر المملكة في نزاع داخلي طيلة فترة حكم الإمبراطور.

وانتقل حنا إيبلان ليشارك بارونات عكا وبيت المقدس في انتفاضتهم إلى أن وافته المنية عام 1236م ، تاركاً الملك هنري الأول على عرش قبرص بعد أن اكتسب خبرة أفضل فرسان الإفرنج في الشرق.

---

1 De Giblet, Henri, op.cit.,P:108.
2 De Navarre, op.cit., P:105.
3 Runciman .op.cit p 202.

تزوج هنري الأول عام 635هـ/ 1237م، من ستيفاني، شقيقة هيثوم ملك أرمينية، وتوطدت أواصر الصداقة بين المملكتين، واستمر هنري يساهم في كل نشاط للإفرنج في الشرق، فعرف كيف يحسن استقبال قادة الحملات الصليبية التي تمر بقبرص ويكرم وفادتهم كما جرى مع حملة 1239م، التي كان على رأسها نبلاء فرنسيون تنقصهم الخبرة والدهاء[1]، لكن هنري على عكس والده لم يتورط في الانخراط معهم بالقتال، إذ عجزوا عن توحيد صفوفهم وتناثرت قواتهم بدلاً من الاستفادة من وفاة السلطان الكامل في 17 رجب سنة 636هـ/ 8 آذار سنة 1238م، واحتدام الخلاف بين ورثته الأيوبيين، وكان جل ما استطاعوا تحقيقه أن استردوا بيت المقدس مجدداً، بعدما حرره الملك الناصر داود الأيوبي إبن الملك المعظم شقيق السلطان الكامل صاحب الأردن لفترة وجيزة.

وكان هنري على قدر من الحكمة وحسن التصرف، أنه لم يتخذ موقفاً في النزاعات التي شبت بين الإفرنج في الشرق خلال العقد الخامس من القرن الثالث عشر، ما جعل الجزيرة القبرصية حينذاك تستقر سياسياً وتنمو إقتصادياً .

عام 641هـ/ 1243م، كان كونراد إبن الإمبراطور فردريك الثاني والملكة الراحلة يولاند إبنة حنا دو برين وماري دو شامباين ملكة بيت المقدس الراحلة، قد بلغ الخامسة عشر من العمر أي سن الملك، وكان من واجبه أن يصل إلى المملكة لتسلم زمام الملك، خاصة أن والده الإمبراطور فقد حقه في الوصاية على المملكة ببلوغ ولده سن الرشد[2].

لكن لا الملك الشاب ولا نائبه توماس الأسيري (Thomas of Acerra)، ظهرا في عكا، مما دعا المجلس الأعلى في المملكة إلى استعمال حقه في تعيين الوريث التالي للمُلْك وصياً عليها، والوريث التالي هو الملكة الأم في قبرص أليس دو شامباين، شقيقة يولاند أم كونراد، وبما أن الملكة الأم عادت وتزوجت من شاب يصغرها سناً، شاركها في الحق بالوصاية، هو الكونت رالف دو سواسون (Ralph comte de Soissons)[3]، وهكذا بايع بارونات الشرق وفرسان المنظمات ورجال الدين أليس ورالف بالوصاية، مع حفظ حق الملك كونراد ابن فردريك الثاني في حال وصل إلى المملكة، وأخذ جميع الحاضرين العهود على أنفسهم وأقسموا على ذلك. إلا أن رالف اعتبر نفسه، بعد التجربة، ألعوبة في يد البارونات، فقرر ترك الشرق والعودة إلى فرنسا. وبقيت الملكة أليس تحكم بالوصاية حتى وفاتها عام 644هـ/ 1246م، ثم آلت الوصاية على مملكة بيت المقدس إلى ابنها هنري الأول

---

[1] عاشور ، الحركة الصليبية ج2 ص817.

[2] AMADI op.cit.,P:201.

[3] De Navarre op.cit., P:122.

دو لوزينيان ملك قبرص[1]. وخلال تلك السنوات تم رأب الصدع في قبرص بعد الحرب الأهلية، وعرفت الجزيرة فترة من الاستقرار والازدهار وحسن الإدارة، على عكس ما كان يجري في عكا وجوارها، مما دفع البابا إلى التفكير بتوحيد المملكتين تحت عرش واحد لإنقاذ مملكة بيت المقدس.

وبقي هنري الأول ملك قبرص منصرفاً إلى تدبير أمور مملكته الداخلية، حتى سقوط بيت المقدس مجدداً بيد المسلمين، في الأول من صفر سنة 643هـ/ 11تموز 1244م، وبشكل دموي على يد الخوارزميين هذه المرة، وخروج الإفرنج منها بشكل مأساوي استمر حتى أواخر آب، مما أدى إلى استثارة إفرنج الشرق والغرب على السواء، وأخذ الملك الفرنسي لويس التاسع يتجهز لحملة على الشرق الإسلامي ، فيما كان إفرنج الشرق يحاولون توحيد صفوفهم وبالتحالف مع بعض أمراء الأيوبيين في بلاد الشام، لمواجهة قبائل الخوارزميين الذين عاثوا فساداً في قرى فلسطين الإسلامية والإفرنجية على السواء، ولم يكن السلطان الصالح أيوب في مصر، بعيداً عن التنسيق مع الخوارزميين أحياناً لإنهاك أخصامه الإفرنج والأيوبيين، فصار يدير المعارك كي تصب في مصلحته، وأعان الخوارزميين بفرقة من المماليك، في معركتهم ضد الإفرنج في "الحربية" قرب غزة عام643هـ/ 1244م، وأنزل بهم هزيمة ساحقة، ثم نكل بالخوارزميين وشتتهم، ثم ألحق بأمراء الشرق من الإفرنج هزائم متتالية كان آخرها استيلاؤه على عسقلان[2].

اكتفى هنري الأول ملك قبرص بحكم الجزيرة، ونظراً لوصايته على ملك بيت المقدس وبسبب بدانته وضعف همته من جهة، ووفاء لما قام به أخواله في معركة تحرير قبرص من جهة ثانية، أوكل إلى باليان دو إيبلان وظيفة حاكم مملكة بيت المقدس(bailli)، ثم عين مكانه بعد وفاته عام 645هـ/ 1247م، شقيقه حنا إيبلان صاحب أرسوف، وعين حنا ابن باليان حاكماً على بيروت[3]. ويشهد له أنه حفظ مملكته ورجاله طوال مرحلة الاستنزاف التي مرت بها مملكة بيت المقدس، مع أنه لم يجد مفراً من مد يد المساعدة إلى زملائه وأنسبائه الأمراء، وخاصة نائبه على مملكة بيت المقدس حين طلبوا دعمه في معركة عسقلان، فقد كانوا بحاجة لنجدتها وتموينها من جهة البحر بعد أن شدد الأيوبيون حصارهم البري حولها.

أمدّ هنري حلفاءه بأسطول من ثمانية سفن كبيرة، ومائة فارس بقيادة وكيله"Le seneschal"، بالدوين دو إيبلان، فوصلوا إلى عكا لينضم إليهم فرسان من مملكة بيت المقدس وليتضاعف عدد السفن، وبسبب هبوب عاصفة هوجاء

---

[1] Runciman .op.cit p 221-223.

[2] ابن العميد، المصدر ذاته، ص 27و30و33و34.

[3] Runciman.op.cit p 230.

تحطم الأسطول المصري وتفرق قبل وصوله إلى مياه عسقلان ، كما عجز الأسطول المشترك للإفرنج عن البقاء في جوارها فأنزل الفرسان وعاد إلى عكا من حيث أتى، وترك حامية عسقلان تواجه مصيرها المحتوم فدخلها الجيش المصري في 22 جمادى الثانية سنة 647هـ/ 15 تشرين الأول عام 1248م، وقضى جيش الإفرنج وتعزيزاته بين قتيل وأسير سيقوا إلى القاهرة[1].

وبعد سقوط عسقلان وتخريب أسوارها، استعاد الصالح أيوب سلطانه على كافة الإمارات الأيوبية في بلاد الشام، وأعاد تحصين بيت المقدس، بينما كان صدى الهزائم يتردد في أوروبا وبينما كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع تستعد للتحرك باتجاه الشرق.

يستنتج مما ورد آنفاً أن مملكة قبرص اللاتينية المولودة حديثاً، كانت عرضة للبيع والشراء في الغرب مرة جديدة، ومع ذلك فهي لم تدخر وسعاً للمشاركة في حروب الشرق سواء كان ملكها هو نفسه ملك بيت المقدس أم لا، وكان ولاء المملكة القبرصية لأصلها اللاتيني وللمشروع اللاتيني في الشرق، تاماً وملتزماً، خاصة وأن بقاء عائلة دو لوزينيان المالكة في قبرص على رأس السلطة كان مرهوناً في كثير من الأحيان بهذا الالتزام التام. دون أن ننسى الدور الرائد والرديف من أسرة دو إيبلان لعائلة دو لوزينيان، فقد أظهرت السنوات الخمسين الأولى من عمر مملكة قبرص اللاتينية، مدى الوعي والحكمة والشجاعة والتفاني الذي أبدته أسرة دو إيبلان للمحافظة على مملكتي بيت المقدس وقبرص وللمحافظة على الوجود الفرنسي فيهما، مقابل الأخطار الأيوبية والألمانية عليهما. وأن يبقى في البال أن تنازل السلطان الأيوبي الكامل عن بيت المقدس مؤقتاً، كانت له آثار جانبية إيجابية أبعدت خطراً إفرنجياً جامعاً للحرب على االمسلمين ونقلته إلى حرب أهلية فيما بين الإفرنج في الشرق، دفعت قبرص من جرائها ثمناً باهظا.

ثالثاً–العلاقات القبرصية مع دول الغرب الأوروبي

لم تكن قبرص ترتبط بأية علاقات ذات أهمية في العهد البيزنطي إلا على مستوى التجارة والتجار، لكن الوجود اللاتيني فيها جمع ما بين العلاقات التجارية والسياسية مع دول الغرب ومدنه التجارية.

ومن أول العلاقات السياسية بعد نشاط العلاقات التجارية مع الغرب كان قدوم أسقف "تراني" مع أسقف "براندیزي" اللذين أحضرا صولجان الإمبراطور الألماني هنري السادس لتنصيب عموري شقيق "جي" المتوفي ملكاً على قبرص[2].

---

[1] Runciman. Op.Cit .p 229.-Grousset, Op.Cit.P;431.

[2] ف.هايد ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، الجزء الثاني ص 6 و 7.

واتخذت "بيزا" مواقف سياسية وعسكرية مؤيدة ل"جي دو لوزينيان" في مواجهة هنري دو شامبيني ملك بيت المقدس، مما أدى إلى طردهم من عكا، حيث قام جي ومن بعده شقيقه عموري بالتعويض عليهم بمنحهم امتيازات تجارية في قبرص[1].

وتميزت علاقة المملكة القبرصية اللاتينية بفرنسا بنوع من الولاء للهوية أكثر منه للمصالح، فمعظم نبلاء الشرق من أصول فرنسية، وكانوا يفاخرون بالمحافظة على عاداتهم ولغتهم ولباسهم وتقاليدهم بالمجمل.

وكان أفراد سلالة دو لوزينيان، كما كل النبلاء اللاتين في الشرق، يعلقون آمالاً كبيرة على الحملات التي كان ملوك فرنسا يقودونها إلى الشرق لتحرير الأراضي المقدسة، وما كانوا يميلون إلى عقد الهدنة مع العرب، إلا بعد أن تنتهي إليهم الأنباء بأن الحملات الموعودة قد تأجلت[2]. ومع ذلك فإن عدداً من النبلاء الفرنسيين في الغرب، كانوا يطمحون إلى حمل لقب أحد ملوك اللاتين في الشرق، وإلى الثروة التي تنجم عن مثل هذه المسؤوليات، فقد كان يتقدم للملكات الأرامل ولشقيقات الملك وأنسبائه في الشرق، عدد لا بأس به من النبلاء الإقطاعيين في فرنسا[3].

كما بقيت فرنسا الوجهة المعاكسة للنبلاء الفرنسيين الذين يعجزون عن تحقيق أحلامهم في الشرق، فيعودون إلى الغرب بحثاً عن ملاذ آمن وعن مستقبل جديد[4].

وعلى الرغم من هذه العلاقة المميزة بين المناطق اللاتينية في الشرق وبين فرنسا الأم، كان في الأمر بعض الشك والريبة من قبل سلالة دو لوزينيان خوفاً من إنتقال مُلك قبرص إلى عائلات فرنسية أخرى عن طريق الزيجات.

ولعل مثل هذا السبب هو الذي دفع الملك هوغ الرابع إلى تنحية حفيده هوغ إبن إبنه المتوفي "جي"، لأن والدة حفيده هي سليلة العائلة المالكة الفرنسية، فسارع، وهو على قيد الحياة، إلى تنصيب إبنه بطرس ملكاً على قبرص بصورة إستثنائية[5].

أما عن العلاقات السياسية، فيبدو أن فرنسا كانت لا تجني من الحملات على الشرق إلا الخسارة المادية والمعنوية، مما ولّد في ذاكرة ملوك فرنسا، بعد الذي جرى مع حملة القديس لويس إلى مصر وتونس، نوعاً من التخاذل والتقاعس. ولم يسجل تاريخ مملكة قبرص اللاتينية أية علاقة سياسية مباشرة، إلا معاهدة التحالف التي عقدت بين المملكتين في عهد الملك الفرنسي شارل السادس والملك القبرصي جاك الأول، والتي جرى التحضير لها في باريس في ربيع الثاني سنة

---

[1] EDBURY,OP.CIT.,P:28.

[2] DE MAS LATRIE. OP.CIT., Vol I P: 433.-130 ص ، قبرص والحروب ، بيتر ، إدبوري -

[3] IBID.O Vol I P: 305 - Vol III P: 10 – 12.

[4] IBID. Vol. I P: 321 - Vol II P: 59.

[5] IBID, Op.Cit. Vol II P: 137 – 158 (les documents).

801هـ/أوائل عام 1398م، على يد جان عم الملك جاك دو لوزينيان (1382 – 1398م) وممثلين عن الملك الفرنسي، فتم التوقيع على المعاهدة في السابع من شهر ك2 من ذلك العام.

وعلى الرغم من الترحيب الكبير الذي لقيه عم الملك في بلاط الملك الفرنسي وفي أوساط العائلة المالكة الفرنسية، فإن المعاهدة بقيت حبراً على ورق بوفاة الملك القبرصي في السنة ذاتها، وبقيت قبرص تترنح بعد الضربة الجنوية، وصارت مطمعاً لكثير من الدول دون أن تقوم فرنسا بأي عمل مباشر أو غير مباشر، لإنقاذ العائلة المالكة اللاتينية ذات الأصول الفرنسية[1].

وفي كل مرة كان ملوك قبرص يقفون فيها عاجزين عن حماية أنفسهم وعائلاتهم ومملكتهم، كانوا لا يجدون مناصاً من الإستعانة إما بالجنوية أو البنادقة النافذين، فيخضعون لمزيد من الإبتزاز ولتقديم المزيد من التنازلات، بينما يكتفي الفرنسيون بحفظ ماء الوجه عن طريق تقديم الحماية أو المواكبة أو النقل للنبلاء وللملوك الذين يطلبون اللجوء إلى خارج المملكة[2].

ولعبت فلورنسا دوراً سياسياً خلال فترة النزاع بين الملك جاك الثاني وشقيقته شارلوت، فقد لجأ إليها الطرفان، للوساطة. وكانت فلورنسا من الدول ذات التأثير الإقتصادي والسياسي على الجزيرة ولو لم يكن من الدرجة الأولى، فقد أرسل جاك الثاني بعد اغتصابه العرش على أثر الحرب الضروس بينه وبين أنصار شقيقته شارلوت، عدداً من السفراء لتبرير ما فعل، ولفتح قنوات الإتصال السياسية والتجارية من جديد مع دول الحوض الإدرياتيكي، فاستقبلهم رئيس جمهورية فلورنسا، وبادلهم بالود والنوايا الطيبة، على الرغم من رفض الصرح البابوي استقبالهم أو الإعتراف بهم. وكانت الملكة شارلوت قد راسلت فلورنسا في نهاية الأمر وتمنت على رئيسها تأمين مواكبتها للإنتقال من روما إلى السافوا الموطن الأصلي لزوجها الكونت[3].

وفي العلاقات القبرصية الإنكليزية، سبق خلال الفصل الأول من البحث التعرض للعلاقة الخاصة بين الملك ريتشارد الأول قلب الأسد وبين جي دو لوزينيان المؤسس الأول لمملكة قبرص اللاتينية، وسيظهر في الفصل الثالث دور الأمير الإنكليزي إدوارد إبن الملك هنري الثالث، حينما أرسله والده إلى الشرق على رأس حملة صغيرة، من رمضان سنة 670هـ/ أيار عام 1271م، إلى حين

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. Vol II. Vol II P: 438 – 440.
[2] Ibid. Vol III P: 67 – 117.
[3] Ibid, Op.Cit. Vol III P:114- 154.

عودته إلى إنكلترا في صفر سنة 672هـ/ أيلول من العام 1272م، ليصبح بعد بضعة سنوات الملك إدوارد الأول.

وعلى الرغم من انشغال الإنكليز بعد ذلك بجبهات أخرى في ساحات أوروبا وفي الجزيرة الإنكليزية نفسها فقد سجلت لنا بعض الوثائق النادرة بعض المعلومات عن العلاقات بين الإنكليز والقبارصة فيما يتعلق بفرسان منظمة القديس توما الإنكليزية[1].

وعن علاقات قبرص مع مملكة أراغون التي كانت تضم مناطق أراغون وفالنسيا وكاتالونيا، فقد أجرى الوفد القبرصي لدى الصرح البابوي عام 711هـ/ 1311م، محادثات في مملكة أراغون بشأن زواج ماريا شقيقة الملك القبرصي هنري الثاني من ملك أراغون جيمس الثاني، ثم تابع المحادثات مع الملك الأراغوني وفد من الأسبتارية فتم الاتفاق وعقدت الخطوبة بين الإثنين عام 714هـ/ 1314م، وانتهت بعقد الزواج في 715هـ/ 1315م. وما أغرى ملك أراغون هو أن ماريا هي الأخت الكبرى التي يحتمل أن ترث عرش أخيها بعد وفاته، كونه لا يزال بدون عقب.

ولم يخجل الموفدون الأراغونيون من الطلب بأن تعطى الضمانات ليصبح وصول ماريا إلى العرش ممكناً، بدلاً من أن يرث العرش أحد أبناء أخوة هنري المتوفين فوعدهم القبارصة خيراً.

يبقى أن نستنتج أن مملكة أراغون كانت مهتمة بالعلاقات مع مملكة قبرص اللاتينية التجارية والسياسية، وراغبة بتعميق نفوذها فيها، إلا أنها كانت غير مستعدة لأية مواجهة عسكرية لا تحمد عقباها مع جنوا أو البندقية، تلك المدينتين اللتين كانتا الأقوى تجارياً وعسكرياً على مدى البحر المتوسط كله.

وتطورت العلاقات الجنوية القبرصية سياسياً قبل أن تأخذ المنحى التجاري، عندما وقفت جنوا إلى جانب القبارصة اللاتين في وجه خصمهم المشترك الإمبراطور الألماني فريدريك، وفيما كان الملك القبرصي هنري الأول صغيراً، كانت علاقة الجنويين مع الأوصياء عليه تتوثق، فأعانوا فيليب إيبلان (ت 625هـ/ 1227م)، ومن بعده أخاه يوحنا (ت 634هـ/ 1236م)، صاحب بيروت، وكانت المعونة الأهم تقديم السفن للنقل البحري في معارك الكر والفر بين قبرص والساحل السوري[2]. وفي مطلع القرن الرابع عشر، دخلت جنوا في حرب أهلية دامت 15 سنة، مما أضعف أوضاعها الداخلية والخارجية[3].

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit.. VOL II ,P: 81 – 82.

[2] هايد ، ج2 ص 7 و 8.

[3] De Mas Latrie, Op.Cit., Vol II P: 166.

وبعد ذلك أخذت الحساسية تزداد بين الطرفين، ونشأت بينهما روحية الخصومة والعداء، لأن الجنوية لم يكونوا على استعداد لردع أي جنوي عن تجاوزاته، سواء كان قرصاناً أو مهرباً. وكانت جنوا ترعى جميع سكان مستعمراتها في بحر إيجه والبحر الأسود وكذلك المتحدرين من الأحياء الجنوية في سوريا اللاتينية، وتعتبرهم من مواطنيها، إلا أنها كانت تدعوهم "الجنويين البيض" لتمييزهم عن مواطنيها الأصليين، بينما تطالب الآخرين بمعاملتهم كالجنويين الأصليين، ولا تسمح بإخضاعهم للسلطة القضائية القبرصية بل لسلطة القنصل الجنوي الذي كان يغض الطرف عن تجاوزاتهم[1]. وكانت جنوا تستعمل القوة عند كل أزمة فتقصف المدن والمزارع وتحرق وتدمر الممتلكات القبرصية وغيرها خاصة في فماغوستا وجوارها، كما سنرى في فصول لاحقة.

ففي مفاوضات عام 721هـ/ 1320م، على سبيل المثال، بين جنوا وقبرص، على أثر اشتباكات دامية بين البحارة الجنويين والقبارصة، فإن الأمور لم تستقر ولم توقع المعاهدة إلا في 11 ربيع الثاني سنة 730هـ/ 16 شباط سنة 1329م في نيقوسيا، على الرغم من تدخل الصرح البابوي. ومع ذلك فقد كانت النتيجة أن المعاهدة جددت الإمتيازات التي كانت ممنوحة سابقاً للجنويين. وأقرت التعويضات عن الأضرار التي سببها الصدام بين سفن الطرفين[2].

وبعد ذلك الوقت تعزز الحضور الجنوي في قبرص وخاصة في فماغوستا بحيث توسع النفوذ الجنوي في كافة الاتجاهات التجارية والسياسية والعسكرية حتى صار في وقت ما أقرب إلى الاحتلال منه إلى التعاون والصداقة.

لكن الوضع غير الطبيعي بين القبارصة والجنوية في فماغوستا لم يعد قابلاً للإحتمال من كلي الطرفين بعد مقتل بطرس الأول، فجرت خلال حفلة تنصيب إبنه بطرس الثاني عام 774هـ/ 1372م، ملكاً على بيت المقدس صدامات بين الجنوية والبنادقة حول شكليات مواكبة الملك الجديد لكنها سرعان ما انقلبت إلى إشتباكات خطيرة بين القبارصة والجنوية أصابت الأرواح والممتلكات إصابات فادحة. وظهر الصراع الحقيقي بين الطرفين سافراً وبليغاً. وصارت تهديدات الحكومة الجنوية واضحة وأرقام التعويضات التي تطالب بها كبيرة وغير مقبولة، حتى وصل الأمر إلى حرب طالت مدن الجزيرة وعاصمتها وقلاعها وتجارتها ودمرت ميناء فماغوستا ومدينتها دماراً دام عشرات السنين.

---

[1] إدبوري ، بيتر ، قبرص والحروب الصليبية ص 128 – 129.

[2] De Mas Latrie,.OP.CIT.. Vol II P: 150 – 151 – 153.

كان الأسطول الجنوي والجيش الذي يقله أقوى من أن يقاوم، وكان على القبارصة في النهاية أن يرضخوا للمطالب الجنوية في ظل سكوت دولي تام لم يتقدم فيه أحد للمبادرة أو التدخل[1].

فتوصل الطرفان عام 783هـ/ 1381م، بعد تدخلات عديدة إلى إتفاق مهين بالتهدئة وإلتزام قبرصي بدفع التعويضات الباهظة بالتقسيط للجنوية[2].

ولعل الملفت في الوجود الجنوي في الجزيرة أنه لم يساهم في الدفاع عنها حين كان أسطول المماليك يتعرض لقبرص في عهد الملك جانوس وغيره. بينما نصت المعاهدات السابقة على التعاون في الدفاع ضد أي إعتداء بري أو بحري على الجزيرة[3].

أما عن العلاقات مع البندقية، فيعود حضور البنادقة في جزيرة قبرص إلى العصر البيزنطي، فقد كانت لهم تجارة في الجزيرة رعاها الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين منذ سنة 543هـ/ 1148م، لكنهم لم يجدوا إهتماماً خاصاً في الجزيرة سوى لشراء ما يحتاجونه من منتجاتها من وقت لآخر، وكان الملح هو أحد هذه المنتجات الرئيسية[4].

وفي عهد هوغ الرابع وفي قمة إزدهار الجزيرة ومرفأ فماغوستا تحديداً، نمت بين البندقية وبين قبرص علاقة أخرى غير العلاقة التجارية، حين نجحت البابوية بإقامة "الإتحاد المقدس" :(The Holy Union)، بين قبرص والأسبتارية وانضمت إليه البندقية وكان يستهدف الإمارات التركية الناشئة في آسية الصغرى براً وبحراً، فوافق مجلس شيوخ البندقية في ربيع الأول سنة 735هـ/ ت2 عام 1333م، على الدعوة التي وجهت إليه للمساهمة في هذه العمليات العسكرية.

وكان هذا الإتحاد يهتز باستمرار نتيجة تضارب المصالح بين أطرافه، وإرتباطات البندقية ببعض الإمارات التركية ومع السلطنة المملوكية بموجب إتفاقات بعضها تجاري علني وبعضها الآخر سياسي سرّي[5].

أجادت البندقية في التقرب من كبار الشخصيات القبرصية، بأن منحتهم درجة مواطن شرف في جمهورية البندقية، كان منهم فيليب ميزيير مستشار الملك بطرس الأول[6]، كما زار بطرس الأول البندقية، قبيل غزوة الإسكندرية، خلال

---

[1] هايد ، تاريخ التجارة ، ج3 ص 279.

[2] De Mas Latrie,op.cit.. Vol II P: 351 – 378.

[3] Ibid.. Vol III P: 23 – 28.

[4] De Mas Latrie, Op.Cit. Vol II P: 99 & P:133.

[5] KENNETH, M. SETTON,: THE PAPACY & THE LEVANT (1204-1571), The American Philosophical Society, Philadelphia, 1976.P:221-222.

[6] هايد ، المرجع ذاته ، ج3 ص 287.

جولته الأوروبية، وأبدى كل الإستعداد لمشاركة البنادقة في إخضاع الثورة التي اندلعت ضدهم في جزيرة كريت[1].

وعلى الرغم من كل العلاقات الطيبة التي أرستها البندقية في قبرص، ومن حاجة الملك بطرس الأول إلى دعم البندقية الكامل، لنقل الحملة التي أخذ يحضر لها لعدة سنوات، فقد كان الغرب كله يعلم، أن علاقة البنادقة بسلطان المماليك قوية ومصالحها في بلاده متجذرة، لدرجة تجعل هذه الجمهورية تزود السلطان بأخبار الحملات القادمة من الغرب تباعاً، مما دفع بالبابا أوربان الخامس والملك بطرس الأول إلى إخفاء وجهة الحملة عن البنادقة[2].

ونجحا في إقناع دوق البندقية بدعم الحملة بالرجال والسفن، دون معرفة الوجهة الحقيقية للحملة مسبقاً، بدليل أن دوق البندقية بتاريخ 1و2 شوال سنة 767هـ/ 26 و 27 حزيران 1365م، أي قبل موعد الهجوم على الإسكندرية بأكثر من ثلاثة أشهر، أعطى تعليماته إلى نقيب البحرية في خليج البندقية، بوجوب تتبع جيش الملك بطرس الأول بحراً أينما توجه، وأن يخبر الجمهورية دون أدنى تأخير، عن المكان الذي سيتم فيه الإنزال، وعن الخطة التي سيعتمدها الملك بطرس الأول[3].

وفي دليل آخر على تعمد إخفاء وجهة الحملة عن البنادقة، أن التجار البنادقة في السلطنة المملوكية، كانوا هم الذين دفعوا الثمن الأعلى لمغامرة بطرس الأول على الإسكندرية من بين التجار الأوروبيين فتعرضوا للإعتقال والسجن والإضطهاد. مما يشير إلى أن سلطات البندقية كانت لتخطر تجارها في مصر، لو كانت تعلم بأن الحملة تستهدف الإسكندرية، خاصة وأن "الإتحاد المقدس" الذي رعته البابوية منذ الثلاثينات وضم البندقية وقبرص والأسبتارية، كان موجهاً فقط ضد الأتراك في آسية الصغرى. ولم يكن البنادقة يتوقعون أن يتخطى بطرس الأول منطقة عمليات آسية الصغرى باتجاه عقر دار المماليك.

وفي دليل آخر على جهل البندقية بالوجهة الحقيقية للحملة، أن مجلس الشيوخ في البندقية أرسل في الثالث من تموز إلى المسؤولين البنادقة عن التموين في جزيرة كريت، وجوب إخطار أي أمير تركي قد يهاجمه الملك بطرس الأول، في حال كان هذا الأمير مرتبطاً بمعاهدة سلام مع البندقية. أو كان هناك علاقات بينه وبين البنادقة في كريت، كما يقتضي إبلاغه بأن هذه العملية تتم دون مشورة جمهورية البندقية ودون موافقتها[4].

---

[1] Edbury . op.cit. P: 165 – 166.

[2] إدبوري، المرجع ذاته ص 145.

[3] De Mas Latrie.Op.Cit.. Vol III P: 751.

[4] Ibid.,Op.Cit Vol III P: 752. Les documents.

وعلى أثر الحملة المذكورة، كان الإستياء البندقي واضحاً في كل المجالات، فأصدرت البندقية تعليماتها بوقف شحن الأسلحة والخيول إلى قبرص، متجاهلة إلحاح الكرسي الرسولي بوجوب مساعدة الملك القبرصي. ثم مارست البندقية ضغوطاً عديدة ومغريات كثيرة حتى يتوقف بطرس الأول عن مغامراته العسكرية باتجاه الموانئ السورية والتركية على السواء، حتى أذعن الملك القبرصي، وقام بتفويض كل من جنوا والبندقية لإجراء المباحثات بإسمه مع السلطان في مصر وصولاً إلى توقيع إتفاقية الهدنة[1].

وخلال الحرب بين الجنوية وبين القبارصة، على كافة الأراضي القبرصية، وقع صهر الملك القبرصي في البندقية مع دوقها ومع دوق ميلانو معاهدة تحالف ضد الجنوية وذلك بتاريخ7 رجب سنة 780هـ/ 14 ت2 1377م. لكن البندقية لم تشترك مباشرة بأية معركة ضد الجنويين على الأراضي القبرصية، حتى أنها منعت قادة أساطيلها البحرية في الجزر من الإبحار إلى الجزيرة القبرصية في ذي الحجة سنة 786هـ/ شباط 1384م، واستمر هذا المنع حتى صفر سنة 788هـ/ نيسان من العام 1385م، كي لاتصطدم قواتها بالقوات الجنوية[2].

وفيما كان الجنويون يضغطون على الملك القبرصي جانوس (800–836 هـ/1398م – 1432م)، لقبول مشروع السلام الجنوي بشروط مهينة، أرسل البنادقة إليه يشجعونه على توقيع الإتفاق، لكن تبين للبنادقة بعد ذلك أن الإتفاق تضمن إمتيازات واسعة للجنوية وتقييداً لحرية التجار القبارصة والبنادقة على السواء، فأخذت البندقية تمارس ضغوطاً على الملك القبرصي وتهدد بسحب جاليتها أو بحظر السفر إلى قبرص أو منع الإتجار مع القبارصة لكن دون أن يصل ذلك إلى حد القطيعة أو النزاع[3]، فقد كانت الحرب الأهلية الدائرة في جنوا تخفف العناء عن البنادقة، وكانوا يخططون لأمر آخر لاحقاً، هو السيطرة على قبرص برمتها.

وفي 24 ذي الحجة سنة 809هـ/ 18 حزيران سنة 1406م، وقعت جنوا والبندقية معاهدة السلام، وأعطت جنوا التعليمات لنقيب البحرية الجنوية بدفع التعويضات لبايل البندقية في قبرص من جراء الضرر الذي لحق بسفينتين تابعتين للبندقية في مرفأ فماغوستا[4]. وكأن خريطة النفوذ في المنطقة قد رسمت وقسمت بهدوء بين المدينتين الإيطاليتين، ومنذ ذلك الوقت بدأ النفوذ الجنوي ينحسر في قبرص، ليحل محله النفوذ البندقي شيئاً فشيئاً.

---

[1] De Mas Latrie.Op.Cit.. Vol II P: 285 & 302. Les documents.

[2] Ibid.Op.Cit Vol II P: 371& 400.

[3] هايد ، المرجع ذاته ، ج3 ص 288.

[4] De Mas Latrie,Op.Cit Vol II P: 483 & 503.

وبالفعل اضمحل النفوذ الجنوي الفاعل في الجزيرة، وبدأ النفوذ البندقي يزداد اعتباراً من سقوط الملك جانوس أسيراً في قبضة المماليك خلال حملتهم الثالثة على قبرص، عام 1426م.

وكان الأسبتارية والبنادقة من أهم الذين أقدموا على تسليف الملك جانوس النصف الأول من الفدية، ومن هؤلاء التاجر البندقي أنجلو ميشال Angelo Michiel، والذي ماطل الملوك القبارصة بدفع حقه لأكثر من عشرين عاماً بعد ذلك. واستمر الملك يوحنا الثاني (836–863هـ/1432م – 1458م)، إبن جانوس بتنفيذ الإلتزام لمصر حتى دفع المبلغ بكامله[1].

ولما توفي الملك حنا الثاني، خلفته إبنته شارلوت وصارت إلى الجنوية أقرب منها إلى البندقية، ويبدو أن شقيقها جاك الثاني "الدعي" كونه ولد غير شرعي للملك حنا، قد استطاع أن يستميل السلطان "إينال" في مصر بإيعاز من البنادقة. فأعانه السلطان بحملة عسكرية لإعادته إلى العرش القبرصي. وانحسرت منطقة نفوذ الملكة شارلوت حتى اعتصمت في قلعة كيرينيا حتى العام 869هـ/ 1464م[2].

في 15 رجب سنة 865هـ/ 13 أيار سنة 1460م، أرسلت حكومة البندقية إعتذاراً إلى الملكة شارلوت وزوجها عن تزويدهما بالذخائر المطلوبة، بسب العلاقات الجيدة التي تربط البندقية بالسلطان في مصر واكتفت بعرض خدماتها الدبلوماسية في حال أرادت الملكة التوسط لدى السلطان.

لكن البندقية في الحقيقة، كانت تحرص على الظهور أمام الغرب بمظهر المحايد في تلك القضية، وأن لا تظهر ميلها لقرارات السلطان بتأييد الملك جاك الثاني فأرسلت إليه رسالة في 3 شوال سنة 866هـ/ 18 تموز سنة 1461م، تعتذر فيها عن إطلاق صفة السفراء على موفديه إلى الفاتيكان وتبلغه فيها أنها غير مستعدة لتقديمهم إلى البابا. وردت البندقية موفدي الملك إلى قبرص بكل لباقة[3].

ولما عزم الملك جاك الثاني على الزواج من كاترين كورنارو الثرية البندقية الأصل، شجعته حكومة البندقية، ووجدت لأول مرة في تاريخ قبرص فرصة لإنتقال الملك إلى عائلة من البنادقة، وحاول ملك نابولي ثني الملك جاك عن عزمه وعرض عليه زوجة أخرى، فكتبت حكومة البندقية إليه رسالة شديدة اللهجة في 29 شوال 874هـ/ 18 أيار سنة 1469م، حملها إليه موفدها الخاص، ومفاد الرسالة أن خبر الزواج قد أشيع ولا ترضى الجمهورية بأن تتعرض للإذلال في حال عاد الملك عن قراره. وتستعجله بأن يرسل بطلب عروسه في أسرع فرصة،

---

[1] هايد ، المرجع ذاته ، ص 289 و 290.

[2] عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ص 123 و 124.

[3] De Mas Latrie,Op.Cit. , Vol III P: 103 – 153 – 173.

وطلبت إلى موفدها أن يبلغ الملك أن البندقية تعلق أهمية كبرى على هذا الزواج وأنها قررت وضع الملك والجزيرة تحت "الحماية المباشرة" للجمهورية[1].

واعتباراً من تاريخ هذا الزواج بات للملك القبرصي ولاءان غير متناقضين، أحدهما للسلطان في مصر والآخر لدوق البندقية. ولئن كان ارتباطه بالسلطان منوطاً بالحمل المادي الذي يدفعه سنوياً، وبالأخبار التي يزود بها السلطان عن الحملات التي يمكن أن يوجهها الغرب إلى سواحل مصر والشام، فإن ارتباط الملك القبرصي بحكومة البندقية صار شبيهاً بالتبعية الكاملة، فهو يفاوض الترك في آسية الصغرى بعلم البنادقة، ويشكل بأسطوله وتجارته جزءاً من أسطول البنادقة وتجارتهم[2].

ومن المعلوم بعد ذلك أن جاك الثاني توفي سنة 878هـ/ 1473م، وورثه ولده الطفل جاك الثالث الذي لم يعمر أكثر من عام واحد بعد أبيه، فانتقل الملك إلى أمه الملكة كاترين كورنارو، التي كادت أن تقع فريسة إغراءات ملك نابولي لتزويجها من إبنه، كي ينتقل ملك الجزيرة بصورة شرعية إلى سلالته.

عند ذلك أمرت حكومة البندقية الملكة كاترين بمغادرة الجزيرة ونقلتها تحت "الحراسة المشددة" لتمضي بقية عمرها في البندقية وأضحت قبرص منذ ذلك الوقت مستعمرة تخضع لحكم البنادقة مباشرة[3].

وبالتقييم الإجمالي لعلاقات قبرص اللاتينية بالغرب الأوروبي فقد كانت تخضع للتأثيرين الإقتصادي والسياسي. وأما موقف الملوك القبارصة اللاتين فهو يشبه إلى حد كبير موقع الجزيرة القبرصية في خضم الأمواج العاتية، حيث تعيش الجزيرة في خضم كل الأحداث وتدفع كل الضرائب وتتحمل كل الخسائر وتقف في خط المواجهة الأول، سواء أتت النجدة من الغرب أو لم تأتِ، بينما كانت الجزيرة تعيش بين خيارين أحلاهما مرّ، فإما أن تستغني عن العلاقات التجارية مع المدن التجارية الإيطالية فيتهدد أمنها واقتصادها، وإما أن تستعين بهم فتضطر لتقديم المزيد من التنازلات لهم.

وقد أظهر مسار الأحداث السابقة أن ضغط الأيوبيين والمماليك والترك لم يكن هو الأشد خطراً على المملكة القبرصية اللاتينية بقدر ما كان من حكومتي جنوا والبندقية.

ويكفي كي نفهم مواقف هؤلاء الملوك من هاتين المدينتين أن نعرف القوة العسكرية لكل من الطرفين، فلئن قدّر فيليب ميزيير عدد السفن القبرصية بستين

---

[1] De Mas Latrie. Op.Cit.Vol III P: 307 – 312 – 316.
[2] Ibid. Op.Cit P: 332 – 335.
[3] Ibid.Op.Cit. Vol III P: 420 – 435.

مركباً بينما يقدرها ماخياراس بـــ 106 سفن من كل الأحجام[1]، وذلك خلال أقوى حملة شنّتها قبرص في تاريخها وهي حملة الإسكندرية، فإن عدد السفن التي كانت البندقية تملكها في الحقبة التاريخية ذاتها بلغ ثلاثة آلاف سفينة من مختلف الأحجام[2]. دون التطرق إلى عدد المقاتلين الذين يمكن تجنيدهم من البندقية ومن مستعمراتها ومن المرتزقة ومن القراصنة. وينبغي قياساً أن تكون لجنوى قبل دخولها في الحرب الأهلية في مطلع القرن الخامس عشر قوة أدنى بقليل من قوة البندقية.

رابعاً- مملكة قبرص اللاتينية والإمبراطورية البيزنطية

حين انتزع الملك الإنكليزي ريتشارد الأول الجزيرة القبرصية من حاكمها البيزنطي إسحق كومنين، كان ذلك الحاكم على خلاف مع قريبه الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الأول، وبحكم الخارج عن القانون، لإعلانه استقلاله التام عن الإمبراطورية. ولم يسجل التاريخ في ذلك الوقت أي إعتراض من الإمبراطور البيزنطي على قيام الملك الإنكليزي والنبلاء الفرنسيين بمطاردة الحاكم إسحق واعتقاله وسوقه إلى سوريا، ولم يسجل التاريخ كذلك أية بادرة بيزنطية تجاه الحكم اللوزنياني الذي استقر بعد ذلك في الجزيرة، إلا عام 595هـ/ 1198م.

فقد اغتنم الإمبراطور إلكسيس "الملاك" (592-600هـ/1195-1203م)، مناسبة انتخاب البابا انوسنت الثالث (ت 613هـ/1216م)، وأرسل له سفارة أمبراطورية رسمية لتقديم التهاني والتمنيات محملة بالهدايا الثمينة.

تضمنت السفارة رسالة من الإمبراطور يتمنى فيها على البابا المنتخب أن يتدخل لدى ملك بيت المقدس (عموري الثاني دو لوزينيان)، أن يرد جزيرة قبرص إلى التبعية البيزنطية، واصفاً مرحلة نزول الملك الإنكليزي بها وما تلاها من أحداث بأنها كانت دامية، وبأن مثل هذه الأعمال لم تكن أكثر من مجرد احتلال، وعقّب أندرونيق الأول بأن الأباطرة البيزنطيين المتعاقبين لا يزالون يعتبرون قبرص تابعة لهم[3].

وأبلغ الإمبراطور البابا أن لديه جيش جاهز لاسترداد الجزيرة عنوةً، لكن أحداً لا يتمنى أن تنشب الحرب فيما بين الأمراء المسيحيين، وهو عوضاً عن ذلك جاهز لإرسال بعض فرقه للمشاركة إلى جانب الإفرنج في حروبهم في سوريا، بمجرد أن يُعتَرَف له بحقه في استعادة قبرص.

---

[1] إدبوري ، بيتر ، المرجع ذاته ص 144.

[2] عطية ، تاريخ العلاقات، ص 169.

[3] De Mas Latrie, Op.Cit., Vol I , Page: 154.

لم يكن بمقدور البابا أن يوافق على هذا الطلب الجريء في مثل تلك الظروف العصيبة، إذ كان الملك العادل قد توج سلطاناً على مصر والشام وبيت المقدس، وكان الغرب يترقب انعكاس هذا الأمر على استئناف الحرب بين الأيوبيين والإفرنج.

لذلك أرسل البابا سفارة إلى القسطنطينية عام 596هـ/ 1199م، رداً على البادرة البيزنطية، وحمّل موفديه رسالة مفادها، أن ليس بإمكان البابا الإستجابة لمثل هذا الطلب إلا بعد استشارة ملوك أوروبا، الذين لا يقلون أهمية ومسؤولية عن ملك بيت المقدس.

كما ألمح إليه صعوبة الإستحصال على مثل هذه الموافقة، خاصة وأن ريتشارد قلب الأسد لم ينتزع الجزيرة القبرصية من الإمبراطور البيزنطي، بل من أحد العصاة على الإمبراطور. وشدد البابا على أهمية الجزيرة بالنسبة لعاهلها الشديد البأس عموري دو لوزينيان، وأن تاج مملكة بيت المقدس لم يعد حظوةً، بمقدار ما أصبح عبئاً ومسؤولية على عموري، وأن هذا الأخير لن يسكت عن حقه في المملكة، وسيكرس كل إمكاناته للدفاع عنها. وفي هذه الحالة فإن الوضع اللاتيني في سوريا سيصبح في مهب الريح، ولن يعود هذا الأمر بالنفع على أحد. وأبلغ البابا الإمبراطور أن ملوك أوروبا وأمراءها، لطالما كانوا يلحّون على البابا أن يثني الإمبراطور البيزنطي عن عزمه على احتلال الجزيرة لأنها، ومنذ سقوط بيت المقدس بيد الأيوبيين، أصبحت ذات أهمية قصوى للمحافظة على ما تبقى من مدن الإفرنج في سوريا ولدعم صمودها[1].

أعطت الرسالة إنطباعاً جازماً بأن لا نيّة مطلقاً لإعادة الجزيرة إلى التبعية البيزنطية، وبأن لا فائدة ترجى من استمرار هذا الأخير بالمطالبة بحقٍ له في الجزيرة.

ثم أخذ البابا انوسنت الثالث يستحث ملوك الغرب وأمراءه على الإستعداد لحملة كبيرة تتجه إلى الشرق، لنجدة قبرص والمدن اللاتينية في سوريا، لكن الذي حدث في أوروبا بعد ذلك كان أمراً عجباً، ولربما كان مطلب استرداد قبرص سبباً يضاف إلى أسباب أخرى، فالحملة التالية تستعد للإبحار شرقاً، وعلى رأسها أمراء بلا ملوك، تحملها سفن البندقية ومن بين مموليها البابا انوسنت الثالث نفسه.

كانت الخطة معدة بعناية لاستهداف الديار المصرية كخطوة أولى، وإذا بالحملة تنحرف تبعاً لأهواء ومكاسب، وتحت ذريعة النقص في التموين[2]، لتتجه نحو

---

[1] De Mas Latrie., Op.Cit. Vol I , Page: 155.

[2] زبيدة محمد عطا ، الشرق الإسلامي والدولة الأيوبية زمن الأيوبيين، دار الأمين القاهرة، الطبعة الثانية 1994 ص111.

القسطنطينية فتسقط الإمبراطورية البيزنطية العريقة في يد الإفرنج سنة 601هـ/ 1204م، ويسقط معها عدد هائل من الضحايا، وينهب ويدمر القسم الأكبر من الحاضرة البيزنطية، ويعيَّن كونت إفرنجي لاتيني إمبراطوراً بديلاً، فيما يتم تنصيب رجل دين لاتيني بطريركاً لكنيستها من التابعية البندقية . ويسمي (رنسيمان) ما ارتكبته الحملة الصليبية الرابعة بالقسطنطينية:"ابشع جريمة ارتكبت ضد الانسانية "[1].

كان البنادقة هم الذين وقفوا وراء هذا التحول الخطير للحملة، في وقت هادنوا فيه السلطان العادل في مصر، ووعدوه بألا يشاركوا في أية حملة تتجه إلى بلاده، مقابل امتيازات تجارية هامة كرّسها العادل لهم في المواني‌ء والثغور الإسلامية.

كان لهذه الحملة أكثر من سبب وأكثر من فائدة من وجهة النظر اللاتينية. فالبابا يهدف إلى توحيد الكنيسة المسيحية تحت قيادته لتعود كنيسة عالمية واحدة كما كانت من قبل. والبنادقة ينظرون إلى الإمبراطور البيزنطي المتعالي، على أنه عقبة في وجه التجارة من بحر إيجه إلى البحر الأسود، وأن عليهم أن يحدوا من تصرفاته الرعناء تجاه التجار الإيطاليين فقد كان يوقف التجار حتى الأغنياء منهم ويودعهم في السجون لأتفه الأسباب[2].

وكان ملوك الغرب وأمراؤه يعتقدون جازمين أن أحد الأسباب الرئيسية لإخفاق الحملات الصليبية هو المواقف المتذبذبة التي يتخذها الأباطرة البيزنطيون مع العرب والأتراك.

والحقيقة أن نظرة البيزنطيين إلى الحملات الصليبية حول ما يجري في الشرق تختلف جذرياً عن نظرة الغرب الأوروبي إلى هذه القضايا. إنه اختلاف في الرؤى والمصالح بين من يسعى لاحتلال أراضي إسلامية واسعة وصولاً إلى بيت المقدس، وبين من يملك أراضي شاسعة في آسية الصغرى وجلّ ما يريده هو المحافظة على إرثه وتوطيد دعائم حكمه؛ وتحسين علاقاته بجيرانه أياً تكن معتقداتهم وأعراقهم.

وإلى العوامل الكثيرة التي أدت إلى انتكاس الوجود اللاتيني في الشرق، يمكن أن نضيف إليها عاملاً جديداً، بعد إحتلال الإفرنج للقسطنطينية، وهو تشجيع الكرسي الرسولي للنبلاء والأمراء على التوجه إلى القسطنطينية، والبلقان وآسية الصغرى وجزر بحر إيجه لإنشاء الإمارات اللاتينية، وإعلانها حرباً مقدسة مماثلة لحرب تحرير بيت المقدس، مما أغرى الكثير من النبلاء على تفضيل البلاد الهادئة على

[1] Runciman, , op.cit. p 130.

[2] De Mas Latrie, Op.Cit., Vol I Page: 164.

الجبهات الساخنة في المدن اللاتينية السورية[1]. مما جبهة الشرق في ركود نسبي، وأشغل تعزيزات المحاربين عنها لفترة طويلة.

ولم يجد عموري الثاني لوزينيان بداً من الإذعان للظروف الدقيقة التي تمر بها المنطقة فاستمر ملتزماً باتفاق عام 595هـ/ 1198م، الذي أبرمه مع العادل، وكان عليه أن يتريث قبل الإقدام على أي عمل عسكري ملحوظ ضد العرب قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة، فالأنظار كلها كانت متوجهة نحو القسطنطينية، وهناك شائعات كثيرة حول حملة صليبية جديدة يتم الإعداد لها في أوروبا فكان عليه الانتظار والمهادنة، وقد تعرض بسبب ذلك أكثر من مرة للإهانة وجهاً لوجه من قبل الفرسان القادمين حديثاً من أوروربا متهمينه بالجبن[2].

ولما علم الأيوبيون بانشغال الإفرنج في القسطنطينية، بادروا إلى شن الهجمات البرية والبحرية، حتى وصلت بعض حملاتهم إلى مشارف عكا [3]. لكن عموري لم يكن ليفقد الحزم اللازم للمحافظة على مكتسبات الإفرنج في الشرق، والتي أصبح هو المسؤول الأول عنها، فخطط لكي يحقق مكاسب ملحوظة بعمليات عسكرية نوعية ذات قدرات محدودة. فعلى أثر تعرض سفينتين للقبارصة لأعمال قرصنة من أمير صيدا الأيوبي بالقرب من شواطيء قبرص، وبعد تجاهل الملك العادل لنداءات عموري، عمد الأسطول الإفرنجي إلى التصدي لقافلة بحرية مصرية غنية متوجهة إلى اللاذقية، وتمكن من مصادرة عشرين سفينة محملة ببضائع، قدرت بستين ألف دينار، ومن أسر بحارة مسلمين ناهز عددهم المئتين[4].

كما أذن عموري، بعد ما ضغط عليه الفرسان، بالقيام بمناوشات في الداخل الإسلامي، انطلاقاً من الحاميات الإفرنجية الساحلية على الطريق بين عكا وبيت المقدس، وكذلك فعلت قوات أخرى في مناطق جبلة واللاذقية وحمص وحماة، وذلك اعتباراً من العام 600هـ/1203م. كما قام الإفرنج بحملة بحرية في أواخر سنة 601هـ/1204م، استهدفت دلتا النيل عند ميناء رشيد، واستولت على بلدة فوّة الصغيرة(45 ميلاً جنوبي رشيد)، وأمضت فيها خمسة أيام، قبل أن تقفل عائدة إلى عكا محملة بالأسرى والغنائم، والغريب أن السلطان العادل ذي القوة البحرية الضعيفة، لم يتحرك حتى براً لدحر تلك القوة التي توغلت بعيداً في الدلتا.

وبإظهار قدرات عسكرية باهرة في البر والبحر، توصل عموري إلى عقد صلح لمدة خمس سنوات مع الملك العادل سنة 601هـ/ 1204م، حقق بموجبه كثيراً من المكاسب، منها التخلي للإفرنج عن قطاعات للمسلمين في صيدا واللد والرملة،

---

[1] De Mas Latrie ,Op.Cit.Vol I Page: 174

[2] Runciman.op.cit p 101-102.

[3] De Mas Latrie ,Op.Cit., Vol I Page: 165.

[4] عاشور ، الحركة الصليبية، ج2 ص735-745.

ووضع يافا والناصرة تحت سيطرة عموري الثاني، لإعطاء مزيد من التسهيلات على طريق الحج بين السواحل وبيت المقدس[1].

لم ينعم عموري بالصلح طويلاً، إذ وافته المنية في عكا في 7 شعبان سنة 602هـ/ أول نيسان سنة 1205م، إثر تناوله وجبة من السمك، تسببت بمرضه ثم موته عن عمر يناهز الخمسين.

بوفاة عموري الثاني دو لوزينيان، إنفصلت مملكتا بيت المقدس وقبرص عن بعضهما، فآلت مملكة قبرص إلى ابنه من إشيفا إبلين هوغ الأول، وكان في العاشرة من عمره، وصار الوصي عليه رئيس المجلس الأعلى، زوج شقيقته الكبرى بورغونديا، النبيل والتر دو مونتبليارد. وعادت مملكة بيت المقدس إلى "إيزابيلا"، الملكة الأرملة دائماً ، لكنها لم تعمر طويلاً بعد ذلك، فانتقل الملك إلى ابنتها الكبرى ماري دو مونتفرات، وكانت في الثالثة عشرة من عمرها، وصار الوصي على العرش حنا إيبلانٍ صاحب بيروت، أغنى إقطاع في المملكة، لكونه الأخ غير الشقيق والأكبر سناً لإيزابيلا. وهو إبن باليان إيبلان الحكيم وماريا كومنينا سليلة العائلة الإمبراطورية البيزنطية، والذي يتمتع بحكمة أبيه وبود الأيوبيين واحترامهم.

حكم إيبلان بالوصاية حتى بلغت ماري سن الرشد ، وحاول قدر المستطاع أن يكبح جماح الفرسان وأن لا تبلغ المناوشات ضد الأيوبيين حد المعارك الكبرى. وبانفصال المملكتين وبسقوط القسطنطينية بيد الأمراء الفرنج، إنقطع الاتصال والتنسيق بين قبرص وحيفا، وازدادت حركة الأسطول القبرصي مدعوماً من إفرنج القسطنطينية، وصار يستهدف السفن الأيوبية، وحتى المواني المصرية، فقام سنة 604هـ/1207م، بالاستيلاء على عدة قطع من الأسطول المصري وأسر بحارتها، ولما أرسل السلطان العادل إلى الوصي إيبلان في عكا، يطالبه برد ما أخذ وبالتقيد بشروط الصلح المعقود أجابه حنا دو إيبلان:"إن أهل قبرص ليس لي حكم عليهم وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية"[2].

ولما كان الحكم في قبرص لا يزال بيد الوصي الفرنسي دو مونبليارد عندما بلغ الملك هوغ الأول الثالثة عشر من عمره، تم تزويجه من أليس إبنة إيزابيلا ملكة بيت المقدس من زوجها الثاني هنري دو شامباين[3].

وخلال عهد الوصاية في قبرص، إستولى أحد النبلاء الإيطاليين الذي سبق أن كان في خدمة الإمبراطور البيزنطي، ويدعى "ألدوبراندان" Aldobrandin، على مدينة

---

[1] عاشور ، المرجع ذاته ص747.

[2] إبن الأثير، المصدر ذاته، ج10،ص 341.

[3] De Navarre, Op.Cit., P:18.

ساتاليا ومرفئها وقلعتها، ولما اشتد الضغط التركي على المدينة، استنجد الإيطالي في 13 ذي القعدة 604 هجري/ 12 حزيران 1207م، بالوصي القبرصي "دو مونبليارد"، توجه الأخير على رأس فرقة قوامها 200 فارساً وبأسطول صغير، فاحتل المدينة والقلعة ودافع عنها ضد الأتراك، ونجح في رد الهجوم التركي الذي قاده صاحب قونية غياث الدين كيخسرو.

لكن القبارصة الإفرنج أساؤوا التصرف مع أهل المدينة البيزنطية، فكانت ممارساتهم أقرب إلى ممارسات المحتلين منها إلى أجواء التعاون والصداقة، حتى ضاق السكان ذرعاً بالمحتلين، وقرروا طرد القبارصة من ساتاليا، فطلبوا من غياث الدين، خصمهم القديم، أن ينجدهم، وتعاونوا معه وفتحوا له المدينة، بعد أن حاصروا القبارصة في القلعة. فدخل غياث الدين "وفتك بالإفرنج الذين تحصنوا في إحدى قلاعها".[1]

وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر، كان الأناضول البيزنطي أقرب من حيث المسافة والتأثير إلى قبرص منه إلى القسطنطينية، مما عزز التبادل التجاري بين قبرص والمرافئ البيزنطية والتركية في الأناضول، عبر الرحلات اليومية للأسطول القبرصي المتنامي.

وصارت الرحلات شبه آمنة بين قبرص وساتاليا والعلايا وأنامور وقرياقوس، في وقت وجّه تجار المدن الإيطالية إهتمامهم إلى مناطق أكثر غنى وموارد في البحر الأسود والبلقان والجزر اليونانية[2].

وحين دخل العهد المملوكي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، كانت العلاقات المملوكية القبرصية غاية في الحذر والريبة، وتسبب في تعقيدها فشل الحملة التي قام بها الأسطول المملوكي، بأمر من السلطان الظاهر بيبرس، على الجزيرة اللاتينية سنة 669هجري/1271 م.

وكان بيبرس يوظف كل الصداقات والعلاقات الممكنة لتهدئة كافة الجبهات، وصولاً إلى التركيز على جبهة المدن اللاتينية على الساحل السوري، فيقضم أراضيها وقلاعها وحصونها واحداً بعد الآخر. كما نسج بيبرس علاقات خاصة مع الإمبراطور البيزنطي ميشال الباليولوجي ويقال أنه أغراه باحتلال الجزيرة ووعده بأن يشغل المدن السورية اللاتينية بحرب مستمرة في تلك الأثناء.

شعر البابا أدريان الرابع بالخطر البيزنطي يهدد الجزيرة من جديد، وعلم بأن الإمبراطور يحث القبارصة الشرقيين على الثورة، تمهيداً لدخول قوات بيزنطية

---

[1] ابن الأثير، المصدر ذاته، ج 10 ص 328.

[2] De Mas Latrie Op.Cit.Vol I Page: 174.

تنقلها سفن جنوية من القسطنطينية إلى الجزيرة[1]. لكن سرعان ما تبين أن هذه المعلومات مبالغٌ فيها، وأن الجنويين لم يكونوا على استعداد لمهاجمة مملكة تقدم لهم كل التسهيلات، ويتمتعون فيها بصداقات عديدة.

كما أن السكان القبارصة كانوا في تلك الأثناء، على وئام تام مع السلطة الحاكمة في الجزيرة، لدرجة أن حكام الجزيرة كانوا يقفون إلى جانبهم في أغلب الأحيان عندما تمارس الكنيسة اللاتينية في الجزيرة ضغوطها عليهم[2].

ومن خلال إستعراض ما سبق من الأحداث، تبين أن موقف القبارصة اللاتين من الإمبراطورية البيزنطية لم يكن مختلفاً عن الموقف اللاتيني العام من هذه القضية الحساسة، وأن النشاط القبرصي الإيجابي مع القسطنطينية، إنما تم خلال الفترة التي سيطر فيها اللاتين على العاصمة البيزنطية، وبخلاف ذلك فإن نوعاً من الحساسية والتحسس كان يسود العلاقات القديمة البيزنطية، بسبب التنافس على حكم الجزيرة، ما يجعلنا نميل إلى ترجيح وصف هذه العلاقات بأنها تشبه القطيعة بين الدولتين، والمتقطعة بين الإمبراطور البيزنطي ورعيته السابقة من السكان الأصليين في الجزيرة القبرصية.

كان البيزنطيون يرون في تنظيم العلاقات بينهم وبين جيرانهم من المسلمين وغيرهم، وسيلة أقل كلفة وأدنى خسارة مما تسببه الحروب، فقد ولدت الأيام لديهم خبرة طويلة في هذا الشأن.

وتمكنوا بالسياسة ما عجزت عنه الحروب، إذ كثيراً ما لعبوا على التناقضات بين حكام المسلمين، بين العباسيين والفاطميين ثم بين الترك والسلاجقة، مما يبين الإختلاف الحضاري بين الإدارة البيزنطية المتمرسة، عبر خبرة دامت قروناً وبين عقلية الإفرنج القائمة على تمجيد الحروب وتعظيم الشجاعة والفروسية.

كما كان المسيحيون الشرقيون أكثر تسامحاً مع المسلمين، وأكثر معرفة بعقيدتهم وتراثهم، مما دفع ريموند لول (R. Lull) إلى القول، بأن المسيحيين الشرقيين هم الأقدر على التبشير بالمسيحية من المبشرين الإفرنج[3].

وفوجئ الإفرنج عند دخولهم إلى القسطنطينية، بوجود مسجد يتردد إليه التجار والأسرى والمرتزقة من المسلمين. والحقيقة أن مسيحيي الشرق وبيزنطة، لقوا من المسلمين، خلال الحروب الصليبية، معاملة أفضل، عموماً، مما رأوه من الإفرنج بعد ذلك[4].

---

[1] De Mas Latrie.Op.Cit., vol I P.392.

[2] Ibid. Op.Cit.Vol I, P: 292 – 293.

[3] Richard, Jean, La Papauté et les missions d'Orient au Moyen Age, P: 119.

[4] Runciman, S. , Greece & the Gusades , P:4.

وقد سجل التاريخ مواقف عدة للأباطرة البيزنطيين، حول نظرتهم الأبوية إلى رعيتهم في قبرص، كان آخرها البعثة التي أوفدها الإمبراطور إلى مصر، للتوسط لدى السلطان برسباي بعدم غزو جزيرة قبرص، رحمةً بأهلها وذلك سنة 823 هجري/1420 م، مع أن الحكم اللاتيني في الجزيرة كان مناوئاً للقسطنطينية[1].
كانت هذه السفارة وأمثالها خلال أحداث وأزمات سبقت، دليلاً على الموقع الذي رسخه الإمبراطور البيزنطي لدى العباسيين والفاطميين والزنكيين والأيوبيين ثم المماليك، كمدافع وكممثل للمسيحيين الشرقيين، من مقيمين وحجاج وتجار وسكان أصليين في المناطق التي يسيطر عليها المسلمون[2].

خامساً- مملكة قبرص وأرمينية الصغرى

نشأت مملكة أرمينية الصغرى على أثر المعركة الحاسمة في ملاذكرت (Manzikert) عام 464هـ/1071م، التي هزم فيها الأتراك السلاجقة البيزنطيين، مما اضطر قسماً من الشعب الأرمني للنزوح إلى منطقة كيليكيا، بين آسية الصغرى وشمالي بلاد الشام، بينما لجأ آخرون إلى مصر والشام وغيرهما[3].
ولعل الهزيمة المدوية للإمبراطورية البيزنطية، وتقلص نفوذها لتصبح مملكة صغيرة، في محيط إسلامي أوسع بدأ يجدد قواه بأقوام من غير العرب، كانت من جملة الأسباب التي دفعت بالبابا أوربان الثاني (481-493هـ/1088-1099م)، والغرب أجمع إلى تبني فكرة الحروب الصليبية[4].
قبيل انطلاق الحملات الصليبية في أواخر القرن الميلادي الحادي عشر، كان الأرمن ينعمون بشيء من الحرية وبمعاملة حسنة من الملك السلجوقي ملك شاه (465-486هـ/1072-1092م)، وكانت علاقاتهم مع الدولة الفاطمية أفضل من علاقاتهم مع البيزنطيين[5]، وكان الخليفة الفاطمي يحيط نفسه عادةً بفوجين من الحرس أحدهما نوبي والآخر أرمني[6]. كما أن اثنين من الأرمن بلغا مرتبة الوزارة الوزارة في البلاط الفاطمي[7].
أسس روبين الأول(ت473هـ/1080م)، الإمارة الأرمنية الأولى في كيليكيا، ثم حاز ابنه قسطنطين الأول(ت495هـ/1101م)، على لقب بارون من الإفرنج، وهو ما يعادل لقب الكونت أو المركيز. ثم بدأ خلفُه وشقيقه ليون الأول عام525هـ/

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج 3 ص 299 .

[2] Runciman, S. , OP.CIT. , P:5.

[3] الباز العريني، الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار النهضة العربية ، بيروت، الأيوبيون، ص12.

[4] عطية ، عزيز، العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب سيف، دار الثقافة، القاهرة، طبعة 1 ، ص35.

[5] DEDEYAN Gérard : Histoire des Arméniens. PRIVAT.Toulouse 1982. , P 297-298.

[6] Runciman, Op.Cit., vol I, P: 386.

[7] إبن الأثير، المصدر ذاته، ج5 ص9 و82.

1130م، معركته مع البيزنطيين لتأسيس الإمارة الساحلية فوقع عام532هـ/ 1137م، أسيراً وسيق إلى القسطنطينية حيث توفي وهو في سجنه عام 535هـ/1140م[1].

استمر النزاع على الشريط الساحلي بين الأرمن والبيزنطيين حتى نجح البارون مليح (Mleh) (ت 571هـ/1175م)، وبدعم من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي(ت 570هـ/1174م)، في السيطرة على إقليم كيليكية في معركةٍ جرت في آخر ربيع الثاني من عام 568هـ/ 1172م ، انتصر فيها مليح هذا على جيش بيزنطي يقوده "أندرونيقوس"، وقويت عائلته بين سائر العائلات الأرمنية النافذة التي كانت تتقاسم أراضي الأقليم فيما بينها[2].

بدأت تظهر أهمية المملكة اعتباراً من عهد ملكها الأول ليون الثاني (583-616هـ/1187م – 1219م)[3] ، حين بدأت الممالك الصليبية الساحلية تسقط في أيدي الأيوبيين، وخاصة منذ بدأ صلاح الدين يضغط منذ عام (584هـ/1188م)، على جارتها إنطاكية الملاصقة لها، كما أخذت آسية الصغرى تشهد هجرة تركية واسعة مركزها الأناضول، وعلى مشارف بحر الروم(المتوسط)، كما كان يدعى، وعلى الطرق المؤدية إلى أوروبا.

وأصبحت المرافئ الأرمينية الأكثر أمناً للتجارة بين بقية المرافئ الصليبية، فقد أصبحت أسواق آياس تعتبر من أسواق الدرجة الأولى لتجارة التوابل، وأحد الأسواق الأساسية للإفرنج في الشرق[4]. مما شجع ليون الأرمني على أن يعلن نفسه نفسه ملكاً، ويلتمس من امبراطور ألمانيا هنري السادس أن يسلمه تاج الملك بيده. وأخذ يعزز اتصالاته مع الغرب معلناً عداءه للعرب وللبيزنطيين معاً، ويعمل على التوفيق بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ويوزع جزءاً كبيراً من قصور بلده على بارونات الفرنجة وفرسان القديس يوحنا وفرسان الهيكل ، ويعامل التجار الغربيين بالترحيب والتسهيل. فقد أصبحت أرمينية الصغرى المستفيد الأول من الأوضاع المتردية التي استجدت على الصليبيين في الشرق[5].

---

[1] RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES: -DOCUMENTS ARMENIENS TOME I ,PARIS, IMPRIMERIE IMPERIALE MDCCCLXIX , Introduction par Ed. DULAURIER, page LXI.

[2] غريغوريوس الملطي ، أبو الفرج جمال الدين إبن العبري (ت685هـ/1286م)، تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية الأب إسحق رملة، دار المشرق بيروت 1991، ص155؛ - ، محي الدين عبد الله إبن عبد الظاهر (692هـ/1292م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ع.ع.الخويطر الرياض 1976 ، ص440 ؛- إبن أيبك الدواداري ، المصدر ذاته ، ص180.

[3] AMADI,OP.CIT.,P:90.

[4] هايد، المرجع ذاته، ج2 ص210.

[5] المرجع ذاته ، ج1 ص 330 وج2 ص 12 وما بعدها .

-CAHEN,C., Orient et Occident au temps des Croisades, p: 180.

شدد الأرمن على التقارب مع الإفرنج لأكثر من سبب ديني واقتصادي وسياسي، ومع ذلك اعترى هذه المحاولات بعض التصلب والتجاوز والنزاع، وخاصة مع الجارة اللاتينية الطموحة أنطاكية منذ عام 591هـ/ 1194م، وحتى العام 597هـ/ 1200م[1].

ولم يجد الأرمن بداً من المحافظة على حسن الصلة مع مملكة بيت المقدس قبل سقوط القدس وبعده، ومع كافة إمارات الإفرنج في الشرق.

ولم يتأخر ملوك أرمينيا كما ملك قبرص، عن إعلان كل الولاء لملوك الغرب، وعن الاستجابة لتعليمات البابا في روما، كما كانوا يراسلونهم بمقترحاتهم بشأن الحملات الصليبية القادمة لتحرير بيت المقدس، بفضل خبرتهم وسعة اطلاعهم على الأوضاع في الشرق[2].

لكن هذه الأواصر كانت تفرضها المصالح التجارية والحاجات السياسية والعسكرية للمملكة الأرمنية ، ولم تصل أبداً إلى درجة الخضوع التام إلا عند تعرض المملكة لأخطار جسيمة من جيرانها المماليك والترك، ويلاحظ أن الضغوط الكبيرة التي كان الكرسي الرسولي يمارسها على ملوك الأرمن ورجال الدين فيها، لتغيير المذهب تراوحت بين الترغيب والترهيب، كانت تقابل أيضاً من قبل الأرمن بنوع من المد والجزر[3].

ولم تشعر المملكة الأرمنية بالضغط العسكري الخطير في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية بسبب انشغالهما ضد مواقع للإفرنج أقرب إلى دمشق والمدن الأخرى، وبسبب تحصن الأرمن في القلاع والمرتفعات المنيعة. ولم يحن دورها إلا بعد سقوط غالبية الحصون والإمارات الداخلية للإفرنج في بلاد الشام مع بداية عهد المماليك البحرية، وعلى أثر تحالف المملكة الأرمنية مع المغول واشتراكها مع الكرج (الجورجيين) في حملات المغول على بغداد والجزيرة وحلب وسائر بلاد الشام.

إجتمعت لدى دولة المماليك عوامل سلبية ضد مملكة سيس ، الديني منها والسياسي والتجاري، فقد أطلق المسلمون على صاحب سيس لقب "متملك" بدلاً من ملك، علله القلقشندي بأن من استولى من النصارى على بلاد كانت للمسلمين لا يدعى ملكاً بل متملكاً[4]. وكان الأرمن شركاء المغول الدائمين والموثوقين في

---

[1] CHARLES MILLS,: THE HISTORY OF THE CRUSADES, Recovery & Possession, vol I&II, Longman,hurst,Rees,Orme & Brown. LONDON 1821, vol II P153-163.

[2] RUNCIMAN, OP.CIT.. VOL.III. P: 433.

[3] HAROLD LAMB, THE CRUSADES, The Flame Of Islam, Doubleday, Doran & co, MCMXXXII., P 224-281.

[4] القلقشندي ، صبح الأعشى، ج8ص29و51.

غزواتهم ومعاركهم منذ البداية ضد المماليك، ومنذ أن زار الملك الأرمني هيثوم قراقورم عاصمة المغول متخفياً عام 655هـ/ 1256م.

اتفق هيثوم مع الخان الأكبر منكو (Monga) على الحلف التاريخي بين الأرمن والمغول فيما يشبه التبعية أو العبودية[1]. ونقل رغبة أمير أنطاكية بوهيمند السادس في أن يحذو حذوه، كما عرض على الخان الأكبر أن يشارك في الحملة على الشرق بعشرة آلاف من الجند[2]، وبأن يقوم بمهمة المستشار والدليل لمسيرة الجيش المغولي، وكان من آثار هذا الحلف، أن تحرك هولاكو شقيق منكو خان إلى الشرق الأدنى بجيش جرار، بعد سنة من الاتفاق المذكور، وقام بتدمير بغداد في مطلع عام 656هـ/ شباط 1258م، بعد أن اجتاح الدولة الخوارزمية وأنهى وجودها[3].

استمر التحالف العسكري بين الأرمن والمغول لأكثر من نصف قرن، وبتلبية الأرمن للمغول عند كل حملة على المماليك، دخل الأرمن والمماليك في صراع مباشر باهظ الثمن، فاخترق الأرمن مراراً مناطق حلب والجوار[4]، ودخلوا حلب ونهبوها وأحرقوا الجامع وأخذ أهل سيس منبره [5]. ووصلوا إلى دمشق برفقة المغول أكثر من مرة، وأقدم صاحب سيس بعد إحدى الغزوات، على شراء أعداد من أسرى المسلمين بسعر بخس (عشرة دراهم للأسير الواحد) من المغول ثم عمد إلى تسفيرهم مقيدين داخل السفن ليباعوا في بلاد الإفرنج[6].

وصلت العلاقات الوثيقة بين المغول والأرمن إلى درجة، جعلت أبغا، الخان المغولي يعرض على حليفه الأرمني ليون الثالث أن يسلمه مملكة كبرى في آسية الصغرى، تشمل قونية وجوارها، لكن ظروف أبغا تغيرت بعد ذلك[7].

ولم يقتصر التعاون بين الطرفين على الشق العسكري، بل شهد تفاهماً سياسياً وتجارياً حتى أضحى مرفأ آياس الأرمني بمثابة موطيء قدم بحري للمغول على المتوسط، بعيداً عن المناطق الساخنة في بلاد الشام [8]. فقد اشتركا معاً في معاركهما ضد بلاد السلطنة المملوكية، وجهدا كذلك في توفير الأمن داخل

---

[1] إبن العبري ، المصدر ذاته ، ص327؛ الرمزي ، تلفيق الأخبار ، م1 ، ص 380؛- Grousset.Op.Cit. p. 581 -المماليك وأرمينية الصغرى، عبد السلام تدمري، مجلة المؤرخ العربي (تصدر عن إتحاد المؤرخين العرب) ببغداد العدد 1422،60هـ/2001م، ص42.

[2] Lamb.H. OP.CIT, P 423.

[3] إبن العبري ،تاريخ مختصر الدول ص262-263 ؛ تاريخ الزمان ص302.

-GROUSSET,Op.Cit.. VOL III P529-530 .

[4] إبن العبري ،تاريخ الزمان ، ص327 ؛ إبن أيبك الدواداري ، المصدر السابق ، ج8 ص94-95.

[5] كمال الدين عبد الرزاق بن الفوطي، ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، نشر مصطفى جواد ، بغداد 1351هـ،ص411-412؛ وابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص341،340 ؛ وابن أيبك الدواداري ، ج8 ص 238 ؛ والعيني ، عقد الجمان ، ج4 ص 165.

[6] النوبري ، نهاية الأرب ، ج31 ص415 ؛ الدواداري ، المصدر ذاته ، ج9 ص 46.

[7] De Mas Latrie, Op.Cit., vol I p. 502 .

[8] CAHEN, C.,Orient et Occident au temps des Croisades, p:.202.

أراضيهما، لعبور القوافل وحماية طرقها وتخفيف الضرائب وتنشيط التجارة البرية بين الهند وبلاد فارس ومملكة أرمينية، لفتح الطريق البري التاريخي بين الشرق والغرب شمالي البلاد الإسلامية، متجنبين المرور فيها، إمعاناً في حصارها وفي تخفيض عائداتها التجارية، حتى اضطر بيبرس إلى أن يطلب من هيثوم ملك سيس أن يفك الحصار وأن يتيح التبادل التجاري بين سيس وبلاد الشام، خاصة لتجارة الخيل والبغال والحديد، لكن هيثوم رفض الطلب بشكل قاطع فقرر بيبرس عند ذلك الهجوم على المملكة الأرمينية[1].

صار المماليك عقب كل حملة يقوم بها المغول ضدهم، يجردون حملة انتقام وتحجيم ضد الأرمن. ومنذ أيام الظاهر بيبرس، بعد معركة عين جالوت اعتمد المماليك سياسة قضم الأراضي الأرمنية تباعاً لإضعاف قدرات المملكة وعائداتها، ولفتح الطرق الرئيسية بين المناطق السورية الشمالية وبين آسية الصغرى، حتى لا يكون للأرمن قدرة على إقفالها.

لم يكترث الأوروبيون لهذه المملكة الصغيرة خلال الحروب الصليبية أول الأمر، وكانوا يعتبرونها من ملحقاتهم في الشرق، إلى أن أخذت المدن الساحلية تتساقط في أيدي الأيوبيين والمماليك من بعدهم. وكانت الفترة، بين عام (666هـ /1268م)، حين سقطت أنطاكية وعام (690هـ/ 1291م)، حين سقطت عكا آخر معقل إفرنجي، هي الفترة الذهبية للمملكة المسيحية الصغيرة، فوجّه البنادقة ومعهم بقية الجمهوريات الإيطالية أنظارهم إليها وحاولوا جعلها مركزهم الرئيسي للتجارة في الشرق. وصارت القوافل البرية تسير إليها من كل جانب. وكانت الحركة التجارية سرعان ما تسترد عافيتها وتبلغ ذروتها في الموانيء الأرمنية ما أن تهدأ الحرب بين الأرمن وبين المماليك[2] ، مما دفع بالتجار الإفرنج إلى صب معظم جهودهم على تلك الموانئ، والتوغل منها إلى داخل المملكة، لإجراء المبادلات التجارية مع القوافل البرية القادمة من مختلف الجهات، والمنتمية للمناطق والأعراق والديانات كافة.

ولم تتمكن الملكة الأرمنية من تحصين قلاعها وحدودها البرية، إلا بفضل عائداتها من تجارتها المزدهرة مع الإفرنج على مختلف جنسياتهم، لأن تجارة الإفرنج مع المماليك كانت غير مستقرة وغير آمنة أحياناً. كما كانت تجارتهم مع المملكة الأرمنية أوفر وأربح. فقد لعب التجار السوريون دور الوسيط بين الإفرنج وبين أصحاب البضائع في داخل آسية بينما كان الأرمن يستقدمون القوافل التجارية

---

[1] إبن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص285و 286 -هايد ، المرجع السابق، ج2 ص 295 - ضومط، المرجع السابق، ص 203.

[2] هايد ، المرجع السابق ،ج2 ،ص20 و310 و313.

مباشرة ودون وسطاء إلى مملكتهم، إما عبر آسية الشمالية أو عبر الخليج الفارسي وبلاد المغول.

قويت على الأثر العلاقات بين أرمينية والغرب، وتعززت أواصر الصداقة بين أمراء الأرمن وبين زعماء المدن التجارية الأوروبية[1] ، فعقد الملك ليون الثالث في 9 ك2 عام 1288م (أواخر سنة 686هـ)، إتفاقية تجارية مفصلة مع البنادقة أعدت بإتقان وتتضمن تسهيلات هامة، جعلت بقية المدن الأوروبية تتطلع لعقد اتفاقات مماثلة مع المملكة الأرمنية ، فحذت مدينة مونبيلييه حذو البندقية في 7ك2 عام 1314م(أواخر سنة 713هـ)، وقعها الملك أوشين(ت720هـ/ 1320م)، لتجار هذه المدينة[2]، وصدّقها الملك القاصر ليون الخامس في 16 آذار 1321م (مطلع عام 721هـ)، بعد وفاة أبيه. وفي 24 ت2 من عام1331م (مطلع عام 732هـ)، وقع ليون الخامس إتفاقية مماثلة ثالثة للصقالبة، بعد أن تزوج من كونستانس إبنة فريدريك الثاني ملك صقلية وأرملة هنري ملك قبرص.

أصبحت مملكة سيس ملتقى للقوافل الجارية الآتية من بلاد فارس والعراق شرقاً، والآتية من مصر والشام عبر حلب وأنطاكية جنوباً، وتلك القادمة من شواطئ بحري الخزر والبنطس (قزوين والبحر الأسود) شمالاً، مروراً بسيواس وملطية والأبلستين، وكذلك القوافل الآتية من القسطنطينية وقونية عبر مضيق جبل طوروس.

كان ملك سيس حاذقاً في جعل المدن الداخلية مراكز للمبادلات التجارية حيث تتوقف القوافل، وخصص المدن الساحلية للتبادل عبر البحار وهكذا توغل التجار الفرنج إلى المدن الداخلية وأشرف بعضهم مباشرة على الزراعة والإنتاج. ولم يكتف التجار الإيطاليون بالمكوث في المملكة الأرمينية لإجراء المبادلات التجارية بل طمعوا في الربح الوفير باستيراد البضائع من بلادها الأم أو توصيلها إلى وجهتها النهائية، فوصل بعضهم إلى تبريز شرقاً وسيواس شمالاً، وكانت للجنويين قوافل تنقل بضائعهم من آياس وتعبر بها جبال طوروس إلى قونية[3].

كان ازدهار مملكة سيس التجاري ينعكس سلباً على نمو التجارة في السلطنة المملوكية، وخاصة فيما يتعلق بالتجارة مع الشرق الأقصى والهند، فقد سمح الملك الأرمني لتجار غرب أوروبا بالتنقل عبر الأراضي الأرمينية إلى البر الإسلامي والقيام بتجارات مباشرة دون وسيط، شرط أن يتم ذلك خلال فترات السلم[4]. ولم يجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بداً من مواجهة هذا الأمر بإحدى وسيلتين

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit., vol I p 501.

[2] HEYTHOUM Comte de Gor'igos -DOC.ARM. TOME I pages 745-746-754 -758

[3] هايد ، المرجع السابق ، ج2 ص 315.

[4] هايد، المرجع السابق ، ج2 ص 312.

وربما بالوسيلتين معاً ، الأولى هي فرض قطيعة سنوية باهظة على سيس، قدرها مليون ومائتي ألف درهم، مما يجبر ملكها على رفع نسبة الضرائب المفروضة على التجارة في بلاده، وبالتالي دفع التجار الأجانب للعودة إلى اعتماد مرافئ مصر والشام ومدنهما كمرافق لتجاراتهم. أما الوسيلة الثانية فهي اقتطاع القسم الشرقي من مملكة سيس، والمؤدي إلى بلاد فارس والعراق، مما يقطع طريق القوافل الشهير، ويجعله محفوفاً بالمخاطر، ويضطر التجار إلى اتباع طرق القوافل عبر المناطق الجنوبية للبلاد الإسلامية[1].

ولعل السبب في تلكوء الملك الأرميني عن تسديد القطيعة السنوية للمماليك، كان اضطراره لدفع القطيعة مرتين في العام الواحد لكل من سلطان المماليك ولإيلخان المغول في فارس، بسبب نفوذهما معاً على المنطقة، وبسبب التوازن العسكري بينهما وبسبب الحدود المشتركة للمملكة الأرمنية مع كل من البلدين.

جعلت الظروف التجارية الجيدة والتحالفات السياسية من هذه المملكة الموقع الأكثر خطراً في نظر السلاطين والأمراء المسلمين. وكان عليها أن تستعد للدفاع عن وجودها بقواها الذاتية، فعلى الرغم من تعاطف الغرب الأوروبي مع المملكة الأرمينية لأسباب دينية وتجارية، كانت حماستهم لنجدتها أقل مما ينبغي، فلم يعد بمقدورهم إرسال حملة صليبية جديدة إلى المنطقة. كما أن مملكة سيس كانت في نظرهم غير مجدية من الناحية الدينية لبعدها عن الأماكن المقدسة في فلسطين. ولأن التجارة مع البلاد الإسلامية عبر أراضي المملكة الأرمينية محفوفة بالمخاطر أحياناً، ويزيدها صعوبة أقدام ملك سيس على قطع طرق القوافل كلما نشبت الحروب بينه وبين نيابة السلطنة في حلب. كما أن مناخ مملكة سيس لم يكن يتيح الإقامة فيها بصورة دائمة، لأنه غير صحي وتضربه الأوبئة الموسمية كل عام وتكثر بسببها الأمراض والوفيات[2].

لذلك كانت علاقات الإفرنج بملوك سيس محصورة ضمن المجال التجاري ومشروطة بعقود تجارية محدودة المدة كانت غالباً ما تأتي لصالح الفرنج أكثر منها لصالح الملك الأرميني. مما جعل الأوضاع الاقتصادية في مملكة سيس قاصرة عن بلوغ مرحلة الازدهار والكفاية المستمرين لتأمين جيش قوي قادر على التوسع والاستقرار في المنطقة.

وبقدر ما كان النفوذ الجنوي قوياً في قبرص كان نفوذ البندقية يشبهه في أرمينية الصغرى، وكأن بين الجنوية والبنادقة ما يشبه الاتفاق الضمني على تقاسم النفوذ

---

[1] إبن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 106_المقريزي ، السلوك ، ج2،ق2،ص533- هايد، المرجع السابق، ج2 ص 325- 146. - إبن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص82.

[2] اليوسفي ، المصدر السابق ، ص 416.

في آخر مملكتين مسيحيتين في الشرق. ويمكن تأكيد هذا الواقع من خلال الصراع الذي دار في قبرص مع الجنوية لوقت طويل (705هـ/1305) و(774هـ /1372–1373م) وما بعدها، وأدى إلى إنهاك القدرات الاقتصادية لقبرص وإلى زوال نفوذها، وكذلك من خلال الصراع الذي كان يدور بين الأرمن والبنادقة في مرافيء كيليكيا. فكان البنادقة يهادنون الملك القبرصي للحصول على مكاسب وامتيازات تجارية وإعفاءات ضرائبية، وكان الجنويون يلعبون الدور ذاته مع الملك الأرمني حتى أصبحت لهم قوافل برية خاصة تنقل بضائعهم من مرفأ آياس وتعبر بها جبال طوروس إلى قونية[1].

وبعد كل حملة للمماليك كانت تستهدف مملكة سيس، كانت التهم توجه إلى الملك القبرصي بالتقاعس والخذلان، فقد تعرضت مملكة سيس لحملتين انتقاميتين من المماليك عامي704 و705هـ/ 1304 و1305م، رداً على انضمام الأرمن إلى حملة الخان قازان بقيادة أميره قطلوشاه على سوريا، وبعد أن انهزم قطلوشاه في معركة شقحب من ضواحي الشام عام 702هـ/1303م. نظم رئيس الأسبتارية "وليام دو فيللاريه" William De Villaret حملتين متتاليتين لدعم الأرمن، بين العامين 700هـ/ 1300م و705هـ/1305م، وقد ثبت أن الملك القبرصي هنري الثاني لم يتقاعس عن نصرة الأرمن فقط، بل حاول إعاقة تسليح سفن الأسبتارية المتوجهة إلى آياس. وقد وجه إليه نبلاء الجزيرة لاحقاً وعلى رأسهم شقيقه عموري تهمة التقاعس حتى عن الاتصال بقازان وعدم التنسيق معه في حملة مشتركة تضم الأرمن ومنظمات الفرسان ضد المماليك[2].

وخلال الفترة التي سيطر فيها عموري على الأوضاع في الجزيرة، أجبر شقيقه الملك هنري الثاني على الإقامة بما يشبه العزلة (706–710هـ/1306–1310م)، ونفاه خلالها إلى أرمينية وجعله في عهدة أصدقائه الأرمن، ثم ساهم عموري في نجدة أرمينية المستغيثة بسفينتين كبيرتين مشحونتين بالرجال والعتاد، ولم يتأخر في تلبية نداء البابا لتطويع مرتزقة للقتال إلى جانب الأرمن، وأنشأ مكتباً للتطويع في نيقوسيا[3].

يجدر بالذكر أن العلاقات بين المملكتين كان يعتريها أحياناً شيء من الفتور أو التوتر بسبب الاختلاف في التحالفات السياسية، فحتى عموري المتحمس لنجدة المملكة الأرمنية أظهر نوعاً من التراخي في دعم المملكة الأرمنية بمصادرته

---

[1] هايد ، المرجع السابق ، ج2، ص315 -317-319.

[2] Edbury,OP.Cit. P112-114.

[3] Bustron, OP.Cit., P192-193.

حمولة من مواد التموين أرسلتها الجنوية إلى مملكة سيس عن طريق قبرص، ثم سلمها إلى الأسبتارية[1] .

وكذلك مرت العلاقات الأرمنية القبرصية ببعض الفتور خلال الفترة الثانية من حكم هنري الثاني دو لوزينيان، ويعزى الأمر إلى عدة أسباب، أولها وقوف الأرمن ضده وتأييدهم لشقيقه عموري صاحب صور، وللفترة التي قضاها الملك القبرصي منفياً في أرمينيا بعهدة حلفاء شقيقه وأصهاره، وتأييد الأرمن لشقيقه عموري صاحب صور[2]، ثم قيام الأرمن أقرباء عموري بالمطالبة بميراثه بعد مقتله، ورفض هنري النظر في مطالبهم، والسبب الثاني أن السفن الجنوية التي اجتاحت مرفأ بافوس القبرصي في عام 712هـ/ 1312م، كانت تستعمل مرفأ آياس كنقطة انطلاق واستناد خلال عملياتها العسكرية، ولم يكلف الأرمن أنفسهم عناء إخطار الملك القبرصي بما يحاك ضد بلاده.

والسبب الثالث والأهم أن منافسة حقيقية محتدمة كانت تجري على مدار الأيام بين المرفأين المسيحيين الأساسيين في الشرق، فأحدهما يوفر الأمن في فماغوستا، والآخر مفتوح أمام البر الإسلامي الواسع، يستقطب منه أفضل البضائع وأرخصها. وقد أدت المنافسة على السلع ذاتها وعلى التجار أنفسهم إلى صراع كاد يتفجر بين المملكتين خلال الأعوام719هـ/ 1318م، و720هـ/1319م، و721هـ/1320م، إلى أن حث البابا يوحنا الثاني والعشرين كل من الملكين هنري الثاني وليو الخامس عام 724هـ/ 1323م، على توقيع معاهدة تفاهم خشية تفاقم الأوضاع واندلاع الحرب بينهما[3].

ومع ذلك، فخلال المرحلة الثانية من حكم هنري الثاني، وأثناء حملة المماليك على المملكة الأرمنية عام723هـ/ 1322م، اجتاح المماليك مرفأ آياس، فأسرع الملك هنري بإرسال النجدة التي تمكنت من إنقاذ عدد من الأرمن والإفرنج والقبارصة العالقين في المرفأ وأخلتهم إلى قبرص. مما زاد حنق السلطان على المملكتين معاً فأرسلتا في طلب النجدة من البابا يوحنا الثاني والعشرين لكن النجدة لم تصل أبداً.

ولئن كانت العلاقات السياسية للملكتين تتأرجح بين المد والجزر، فإن المنافسة الاقتصادية بقيت على أشدها بينهما، فقد ورثت المملكتان كل المحصول التجاري الذي كانت تجنيه المرافيء الإفرنجية على طول السواحل الشرقية للمتوسط مجتمعة وعلى سبيل المثال، فقد حقق التاجر ستيفان دو لوزينيان من تجارة واحدة بحمولة

---

[1] Edbury,OP.Cit. p 118.

[2] حاول عموري الاستفادة من هذه الصلات لتدعيم موقفه لدى الصرح البابوي فأوفد أحد رجال الدين الأرمن من النبلاء ويدعى هيثوم صاحب قرياقوس(Hayton of Gorhigos) لكي يشرح للبابا صوابية موقف عموري وليحصل على دعم البابا في حركته ضد أخيه ، Edbury P 120.

[3] Edbury, OP.Cit.. p 135.

ثلاث سفن ضخمة قادمة من سوريا ربحاً يكفي لعمارة ثلاث كنائس مثل كنيسة القديسين بول وبيار في فماغوستا[1]. كما استفادت قبرص من الحظر الذي فرضه الكرسي الرسولي، على تجار أوروبا الغربية عامة بعدم تجاوز قبرص شرقاً، مما جعل الجزيرة اللاتينية محجة للتجار البنادقة والبيزيين والجنويين والفلورنسيين والقطالونيين. وكانت منتجات الجزيرة القبرصية تزيد من تفاضلها على المملكة الأرمينية الفقيرة زراعياً، فقد كانت قبرص تنتج السكر والملح والنبيذ علاوة على مصنوعاتها اليدوية الشهيرة كالشملات والأصواف وغيرها. لكن قبرص كانت تزيد بعض الضرائب على التجار الذين يقصدونها ومنها ضريبة تدعى La Missa ، التي كانت بمثابة بدل يدفع للملك القبرصي لقاء تطهير البحر من القراصنة ولتأمين سلامة السفن القاصدة إليها والمبحرة منها[2].

وجدت العائلتان الملكيتان في قبرص وأرمينيا من الزواج والمصاهرة خير وسيلة لتمتين الروابط بينهما، ولكي يطمئن كل طرف إلى الطرف الآخر، فقد كان ما يجمعهما من المصالح والأخطار المشتركة يحتم عليهما التعاون، ففي العام 635هـ/ 1237م، تزوج الملك هنري الأول من "ستيفاني" شقيقة الملك الأرمني هيثوم الأول[3]. وكان للكرسي الرسولي أحياناً دور في توطيد أواصر العلاقات بين المملكتين في الأوقات الحرجة، حتى أنه كان يتكفل أحياناً ببعض نفقات الزواج بين العائلتين المالكتين، مثلما حصل لتشجيع زواج ابن وابنة هوغ الثالث دو لوزينيان من ابنة وابن ليو الثالث(668–689هـ/1269–1289م)، خلال عامي686هـ/ 1286 و 690هـ/1290م، قبيل اشتداد الخطر على عكا ، ثم تعززت العلاقات أكثر فأكثر بتزويج مارغريت دو لوزينيان من الأمير طوروس الذي أصبح الملك طوروس الثالث، وحكم لفترة وجيزة بعد سقوط عكا في التسعينات. كما زوج هوغ الثالث إحدى بناته إلى قسطنطين شقيق الملك هيثوم الأول[4].

أبدى عموري اهتماماً خاصاً بمملكة أرمينية، وقرر أن يستأنف العلاقات بين المملكتين بعد انقطاع طويل، فمن المعلوم أن شقيقتين للملك هوغ دو لوزينيان قد اقترنتا باثنين من العائلة الأرمنية المالكة في أوائل القرن الثالث عشر. وتزوج عموري من إيزابيلا شقيقة طوروس وأنجبا ابنة وحيدة تزوجت من ابن خالها الملك الأرمني الشاب ليو الرابع.

---

[1] عزيز سوريال عطية،، العلاقات بين الشرق والغرب، تجارية ثقافية صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة القاهرة الطبعة الأولى، 1972. ص160.

[2] هايد، المرجع السابق ، ج2 ص235-236-239.

[3] De Mas Latrie, OP.Cit., vol I P. 314.

[4] Edbury, OP.Cit,P 115.

ونسج هوغ الرابع (725–761هـ/1324–1359 م)، عدة زيجات سياسية لشقيقاته ولأولاده باتجاه ملوك أوروبا وأرمينيا، بقصد توظيف الأواصر العائلية لتوطيد دعائم حكمه وترسيخ علاقاته مع البابوية ومع ملوك الغرب[1].

وكان للتعاون العسكري بين الطرفين أفضل الأثر في المحافظة على استقلال أرمينية الصغرى، فقد خاف الغرب على أرمينية وقبرص على أثر سقوط عكا، وأخذ البابا نقولا الرابع ينظم المساعدات ويرسلها إلى أرمينية، لكن المنية وافته عام 692هـ/ 1292م، وشغر المنصب البابوي بعده لمدة عامين[2].

كان البابا كليمنت الخامس موقناً أن أوروبا عاجزة عن تجهيز حملة كبيرة تقوم بتحرير بيت المقدس، لكنه لم يجد بداً من استعمال القوى والامكانات المتوفرة لديه لحماية المملكتين المسيحيتين الأخيرتين في الشرق والحفاظ عليهما. فأعد حملة دعيت Passagium Particulare للدفاع عن قبرص وأرمينية، ولوقف التجارة غير المشروعة مع المماليك، وعين الأسبتارية لقيادتها، على أن يكون قوامها ألف فارس وأربعة آلاف راجل، تنتشر في المملكتين حيث تدعو الحاجة لمدة خمس سنوات، على أن تبدأ أعمالها اعتباراً من ربيع عام 709هـ/ 1309م. لكن الأوضاع الداخلية في قبرص بين الشقيقين وأنصار كل منهما، لم تسمح لهذه القوة بالعمل في قبرص، خاصة وأن القبارصة توجسوا خطراً من هذه الحملة الضخمة، وتخوف النبلاء من تقويض سيادة الجزيرة أو تسليمها لأحد النافذين في غرب أوروبا، فتأجلت الحملة بضعة أشهر ثم انطلقت إلى الشرق لكنها لم تبلغ قبرص أو أرمينية الصغرى، بل اكتفى الأسبتارية باستعمالها لتثبيت وجودهم في جزيرة رودس[3].

خلال الفترة الذهبية التي عاشتها مملكة قبرص اللاتينية طوال القرن الرابع عشر، حافظ ملوكها على موقعهم السياسي بقيادة الحلف المقدس، فشاركت قبرص في الحملة على إزمير عام 745هـ/ 1344م، وفي احتلال ساتاليا عام762هـ/ 1361م، كما أنها لم تتأخر من قبل في تلبية نداء الاستغاثة من سكان مدينة قرياقوس الأرمنية عام 762هـ/ 1360م، حين عجز الملك الأرمني عن نجدتهم، قبل أن ينقض الأتراك على المدينة وعلى مرفئها الهام، فاستدار السكان يطلبون حماية الملك بطرس الأول، ويعرضون عليه وضع مدينتهم ومرفئهم تحت الرعاية القبرصية، فوافق بطرس الأول على العرض ولبى نداء الاستغاثة ووصلت قواته إلى قرياقوس، وأعاد تنظيم الدفاع عن المدينة والمرفأ، وحاز على ثقة السكان

---

[1] Edbury, OP.Cit P: 143-144.

[2] إدبوري، المرجع السابق، ص100.

[3] Edbury, OP.Cit. p123.

التامة بعد أن تمكن من صد الهجوم التركي القرماني الذي تعرضت له المدينة عام 769هـ/ 1367م، كما حاز بطرس الأول على ثقة أغلبية البارونات الأرمن، بعد أن رفض هؤلاء رفع الملك ليون الخامس دو لوزينيان على عرش المملكة الأرمنية، واعتبروا بطرس الأول ملك قبرص أحق منه بالملك لولا تدخل البابا أوربان الخامس في نيسان عام 767هـ/ 1365م، وتأييده للملك ليون وطلبه من البارونات الانصياع له[1].

لمع نجم قبرص اللاتينية في الغرب، بسبب نجاح أدائها في الشرق، وصارت رأس الحربة في الصراع ضد مسلمي الشرق[2]، وملأت الفراغ الذي أحدثه تخاذل بعض ملوك الغرب، فأدت الدور المطلوب منها بكل جدارة وأدى ازدهارها الاقتصادي حتى منتصف القرن الرابع عشر إلى تمويل هذه المهام دون انتظار الهبات والإحسان من الغرب. وبقيت قرياقوس في عهدة القبارصة حتى بعد احتلال المماليك للمملكة الأرمنية ولم يخلوها إلا عام852هـ/ 1448م، حين اضطروا إلى تسليمها للقرمان والعودة إلى قبرص للدفاع عن موطنهم الأم ضد القوات الجنوية ونكاية بها[3].

أخذت الغيوم تتلبد فوق المملكة الأرمنية، على أثر الغزوة التي تعرضت لها الاسكندرية عام767هـ/ 1365م، وبتضافر عدة عوامل منها ازدهار مرفأ آياس وتجارة المملكة الأرمنية على حساب مرفأ الإسكندرية وسائر مرافيء السلطنة، ومنها زوال النفوذ الخارجي المغولي وانعدام خطره التوسعي، مما يسهل استفراد حلفائه السابقين وعلى رأسهم مملكة سيس، جاء الجوم المملوكي العام على أرمينية، بمثابة الرد على حملة الملك القبرصي بطرس الأول على الاسكندرية، قبل عشر سنوات عام 767هـ/ 1365م، على الرغم من أن الأرمن لم يشاركوا فيها من قريب ولا بعيد، إتقاء لانتقام المماليك المتصلة أراضيهم بأراضيها برا. لكن ما العمل والعائلة المالكة الأرمنية في ذلك الوقت كانت تنحدر من سلالة دو لوزينيان المالكة الإفرنجية اللاتينية في قبرص، كما أن الكنيسة الأرمنية في تلك الأثناء كانت قد أعلنت ولاءها التام للكنيسة الكاثوليكية وانخرطت بها فاقدة بذلك حصانتها المشرقية.

أما الكارثة الكبرى التي حلّت بمملكة الأرمن فقد جاءت على أثرٍ تحرك خاطئ لملكها ليون الخامس، بخرق الاتفاق المعقود مع المماليك استعداداً للمشاركة في حملة صليبية على الشرق، يعدها فيليب السادس ملك فرنسا، كما أغار على بعض

---

[1] De Mas Latrie, OP.Cit, vol II , p309-311.

[2] حطيط، قضايا، ص167.

[3] Edbury, OP.Cit. p164.

المناطق في شمالي بلاد الشام[1]، تزامنت مع تعرض عسكر سيس لأمير تركماني من أولاد قرمان، الذي كان في طريق عودته من الحج رغم الرعاية السلطانية وحصانتها له[2]. فقرر السلطان شعبان القضاء عليها نهائياً في سنة (774هـ/1374م)، واغتنم المماليك وحلفاؤهم من الترك الفترة التي تورط فيها القبارصة بالحرب ضد الجنوية، فهاجموا المملكة الأرمنية وقضوا على استقلالها نهائيا. قبض جيش المماليك على ملك أرمينية الأخير ليو السادس، وسيق إلى مصر ثم أطلق سراحه ليبحر إلى الغرب ويقضي بقية عمره في منفاه بباريس[3].

يجدر بالذكر أخيراً، أن الملك جاك الأول دو لوزينيان (784-801هـ/ 1382-1398م)، ما أن علم بموت الملك ليون السادس في منفاه في باريس في 23 تشرين الثاني عام 1392م (3محرم 796هـ). حتى أضاف إلى ألقابه لقب ملك أرمينية الإسمي، تماماً كما حاز أسلافه على لقب ملك بيت المقدس بعد سقوط عكا[4]، وفي عام 799هـ/ 1396م، توج جاك الأول نفسه ملكاً على أرمينية[5].

سادساً-قبرص اللاتينية على عتبة التحولات الكبرى في المنطقة

شهدت السنوات العشر، من 648هـ/1250م، إلى 659هـ/1260م، أحداثاً متسارعة في كل مكان من العالم القديم، خلطت كل الأوراق السياسية ليس فقط على مستوى المنطقة، بل شملت العالم القديم كله تقريباً، وما طالت الحكام ومناطق النفوذ فحسب، بل انتهت خلالها عهود وبدأت معها عهود أخرى.

ففي الغرب كان الصراع لا يزال مستمراً بين البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة على النفوذ والسلطة ، بينما كان العرشان الإنكليزي والفرنسي يتعرضان لتطورات داخلية وخارجية[6]، أشغلت الغرب كله عن تتبع الأوضاع في الشرق وتركت الإفرنج في الشرق يتخبطون دون مرجعية تحسم الأمور.

وما أن غادر الملك لويس التاسع عكا عائداً إلى فرنسا عام653هـ/ 1254م، بسبب تداعيات الحكم في بلاده، حتى دخلت مدن الإفرنج في الشرق في حرب أهلية لم توفر أحداً ، بحيث انضوت جميع الأطراف في أحد الحلفين، مما أدى إلى فرز عائلات إفرنج الشرق وباروناتها ومدنهم بين جبهتين، كما شملت فرسان المنظمات الثلاث وكذلك جاليات المدن الإيطالية على طول الساحل، كذلك شهدت معارك في البحر كما في البر. وقد أشغلتهم هذه الأحداث عن فهم ما يدور من

---

[1] عاشور ، المرجع السابق ، ج2 ص965.

[2] الدوادار ، المصدر السابق ، ج9 ص 397.

[3] Runciman, OP.Cit Vol 3 P449.

[4] De Mas Latrie, OP.Cit, vol II P 386.

[5] Bustron, OP.Cit, P:353.

[6] Runciman, OP.Cit vol III p.288-291.

أحداث جسام في المنطقة بين الأيوبيين الآفلين والمماليك الصاعدين، وبين العباسيين المنقرضين والمغول الجامحين، فلم يستوعبوا مجريات الأمور ولم يحسنوا استغلالها لتأمين صمودهم واستمرارهم في الساحل الشرقي للمتوسط.

كما أن الحملتين اللتين قادهما الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر عام 647هـ/ 1249م، ثم على تونس بعد عشرين عاماً واللتين انتهيتا بشكل مأساوي، أشعرا قادة غرب أوروبا السياسيين والدينيين بخيبات أمل، أقعدت كل ملوك الغرب عن القيام بأية حملة حقيقية فاعلة نحو الشرق بعد ذلك التاريخ.

أما المغول الزاحفون إلى الشرق، فلم يوقفهم صد ولا حد، منذ أن قضوا على السلطنة الخوارزمية في آسيا الوسطى، واجتاحوا مناطق السلاجقة في آسية الصغرى، وما أن تسلّم مونغا منصب الخان الأعظم سنة 649هـ/ 1251م، حتى استأنف هولاكو شقيق مونغا قيادته لجحافل المغول لاجتياح مناطق الخلافة العباسية، إنطلاقاً من بلاد فارس. ومع نهاية العام 1257م (ذو القعدة 655هـ)، كان هولاكو وبأمر من الخان الأعظم مونغا قد قضى على وجود الحشاشين، الذين أقضّوا مضاجع الزنكيين والأيوبيين والصليبيين، والذين لم يوفروا المغول عندما استثاروا حقدهم وغضبهم بسبب تورطهم في قتل جغتاي الإبن الثاني لجنكيزخان[1]، فخرّب هولاكو قلاعهم، وقتل الآلاف منهم وشتت الباقين، ونفذ ما عجز عن فعله العرب والإفرنج معاً، ولم يبق للباطنية من وجود سوى في شمالي بلاد الشام.

وكان العباسيون قد بلغوا حداً من الضعف بلغ العجز والانحلال، فأتم المغول القضاء النهائي عليهم باحتلال بغداد عام 657هـ/ 1258م، وبقتل الخليفة العباسي وإبادة سلالته ومعهم ما يزيد على المليون ضحية من أهل بغداد وميافارقين وسائر المدن الإسلامية، حتى بلغوا دمشق وغزة عام 659هـ/1260م، دون مقاومة فعالة إلا على أبواب حلب التي استشهد على أبوابها عشرات الألوف.

وفي عام 1250م، كان العهد الأيوبي قد انتهى في مصر، واستولت شجر الدر أول سلاطين المماليك على الحكم، ولم تمض السنوات العشر حتى اندثرت الإقطاعات الأيوبية الباقية تقاتلاً فيما بينها ثم أتمها المغول باجتياحها واحدة بعد الأخرى.

ثم تتحول الظروف لصالح المسلمين تحت قيادة المماليك، فينصرف قادة المغول إلى عاصمتهم قراقورم ليشغلوا في الصراع على وراثة الخان الأعظم مونغا إثر وفاته، ويلحق هولاكو بعائلته على رأس جيش ضخم، ويترك هولاكو نائبه كتبغا في الشام ومعه قسم من الجيش ليواجه مصيره المشؤوم على يد المماليك في معركة عين جالوت الفاصلة[2].

---

[1] Runciman,, OP.Cit vol III p.299.

[2] أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2 حوادث سنة658هـ، ص315

ولم يكن وصول الظاهر ركن الدين بيبرس إلى رأس السلطة بين المماليك عرضياً أو وليد صدفة، بل كان نتيجة حتمية لشجاعة وبسالة وحنكة طيلة عشر سنوات من المعارك الطاحنة، بدأها بحرب الشوارع ضد الإفرنج في مدينة المنصورة عام 647هـ/ 1249م[1]، أثناء حملة لويس التاسع، ثم بمعارك استرداد دمياط وأسر الملك الفرنسي وطرد الإفرنج من مصر، وختمها بمؤازرة السلطان قطز واستبساله في معركة عين جالوت الشهيرة في فلسطين عام659هـ/ 1260م ، ضد المغول، مروراً بمعارك صغيرة ومؤامرات على السلطة في مصر، وبقتله سلطانين أحدهما توران شاه الأيوبي والآخر قطز المملوكي، وغيرهم من الأمراء[2]، وانتهت بجلوسه على عرش مصر سلطاناً على المماليك في نهاية العام ذاته.

واستقر المسرح السياسي بعد السنوات العشر المذكورة على الشكل التالي:

حلّت دولة المماليك مكان الدولة الأيوبية، ونصبت أحد أدعياء البيت العباسي خليفة في القاهرة، واستعادت النصف الغربي من أراضي الدولة العباسية من آسية الصغرى شمالاً إلى بلاد الشام ، مع المحافظة على مصر وجوارها واليمن والحجاز.

تأسست إيلخانية مغولية في بلاد فارس وما بين النهرين، أسسها هولاكو، عينها على وراثة قيادة المغول في قراقورم، وعينها الأخرى على آسية الصغرى وبلاد الشام.

أما الإفرنج في الشرق فبقيت لهم مملكة بيت المقدس بدون بيت المقدس ومركزها عكا، وإمارات المدن الساحلية من أنطاكية إلى يافا، وبعض القلاع الداخلية مثل شقيف أرنون وحصن الأكراد وقلعة المرقب، تعاضدهم مملكة أرمينية الصغرى المسيحية، ومملكة قبرص.

وعاد وضع الأفرنج في الشرق بعد تلك المرحلة أسوأ من ذي قبل، إذ باتوا يحملون ثقلين، أحدهما حقد الرأي العام في مصر والشام على الأخص سببه تحالف بعضهم مع المغول ودخولهم معهم إلى مدن الشام ، والاشتراك معهم في أعمال السلب والنهب والقتل والاغتصاب.

وأما الثقل الثاني فهو عبء الدفاع عن أنفسهم منفردين بعد أن خفت حماسة الرأي العام الأوروبي لنجدة إخوانهم في الشرق ولاستعادة بيت المقدس، ولم تشعر أي من هذه المدن والممالك بالأمان بقدر ما شعرت به المملكة القبرصية التي خدمها البحر أكثر مما خدمتها الظروف الأخرى[3].

-Runciman,, OP.Cit volIII p.309

[1] إبن أيبك الدوادار، المصدر ذاته، ج7، ص 376 - Runciman,, OP.Cit vol III. p.257.

[2] المقريزي، السلوك، ج1 ص145.-Grousset, Op.Cit. P: 605,606.

[3] AMADI, OP.Cit P:197.

وكان مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، قد شهد انطلاقة مرعبة لقبائل المغول في أقصى الشرق بقيادة جنكيزخان، ثم لأولاده وأحفاده من بعده، وكان البابا إنوسنت الرابع أول من تنبه إلى أهمية هذا العنصر الجديد وأثره وخطره ، فسارع إلى إرسال بعثتين إنطلقت الأولى عام 643هـ/ 1245م، ثم أتبعها بالثانية عام 645هـ/ 1247م ، وتلاه الملك هيثوم الأرميني فأرسل أخاه سمباد إلى قراقورم عام 645هـ/ 1247م ، ثم زار العاصمة المغولية بنفسه عام 1254م[1].

ومن قبرص بدأت اتصالات الملك الفرنسي لويس التاسع بالمغول وذلك أول سنة 1249م (رمضان سنة 647هـ)، وقبل أن ينطلق في حملته الشهيرة على مصر ، فأرسل راهبين من الدومينيكان إلى قراقورم، ولم يأته الجواب إلا بعد ثلاث سنوات، وكان جواباً غير مرضٍ لكون المغول اعتبروه تابعاً لهم. لكن أثر تلك الاتصالات ما لبث أن ظهر بعد منتصف القرن، حين بدأ اجتياح المغول للعراق ولبلاد الشام.

وكان لدخول الإفرنج مع المغول إلى هذه البلاد، وللنشوة التي أظهرها بعض النصارى من أهل البلاد، وترحيبهم بالغزاة آثارهما السلبية على المقيمين والقادمين فيما بعد، فما أن اندحر المغول بعد معركة عين جالوت، حتى تكوّن لدى العالم الإسلامي وخاصة أهل البلاد التي نكبت بغزو المغول، مطلب واحد هو الانتقام ممن دعم المغول، وإزالة ما تبقى من الوجود الإفرنجي في الشرق، وحمل الحكام الجدد من المماليك هذا اللواء.

[1] Runciman, OP.Cit, vol III p.259&295.

الفصل الثالث
مملكة قبرص اللاتينية وعلاقاتها السياسية مع المماليك

أولاً– مرحلة البدايات– قبرص خلال عهدي بيبرس وقلاوون

1– العلاقات بين الظاهر بيبرس وبين ملوك قبرص

2– بيبرس وملوك قبرص في المواجهة المباشرة

3– السلطان قلاوون وملوك قبرص

4– سقوط مملكة بيت المقدس اللاتينية

ثانياً– مرحلة الصراع المركز

1– قبرص اللاتينية وريثة بيت المقدس

أ– حلف الاتحاد المقدس

ب– حملات الاتحاد المقدس على سواحل آسية الصغرى

2–حملة الاسكندرية

أ– دوافع الحملة

ب– الظروف الداخلية لطرفي الصراع

ج– تجهيز الاسطول الفرنجي

د– وقائع الحملة وصورتها في المصادر التاريخية

هـ– نتائج الحملة

أولاً- مرحلة البدايات – قبرص خلال عهدي بيبرس وقلاوون

1- العلاقات بين الظاهر بيبرس وبين ملوك قبرص

أصبح بيبرس سلطاناً أواخر عام 658هـ/ 1260م ، وقد تجاوز الأربعين من عمره بعد أن عركته التجارب والحروب من قبل. كان الظاهر هو ومن أتى بعده من سلاطين المماليك، يضعون سياسة خارجية واحدة نصب أعينهم، ولم يدخروا حيلة ولا وسيلة لتنفيذ ذلك، فقد اتبع الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل، سياسة التفريق بين الإفرنج، فيعاهد السلطان أهل مدينة كي يستفرد بجيرانها، ثم يخرق المعاهدة لمجرد أن تعطي الغاية المرجوة منها، وعند أي خطأ يرتكبه أحد فرقاء الإفرنج. كما يعمد إلى استقطاب الحلفاء من أمراء الأصقاع الإسلامية وملوكها، حتى المغول الذين أسلموا منهم، ويراسل ملوك الغرب من الإفرنج لطمأنتهم إليه والحؤول دون قيامهم بنجدة الإفرنج في الشرق.[1]

وفيما كان بيبرس يسعى خلال السنوات الأولى من حكمه، إلى توطيد دعائم سلطانه في مصر، وإلى إزالة آثار الاجتياح المغولي عن بلاد الشام، لم يتنبه الإفرنج في الشرق لخطورة هذا السلطان الجديد [2]، إلا آل إيبلان المخضرمين، فقد سعى جان دو إيبلان صاحب يافا إلى مقابلة السلطان بيبرس سنة 659هـ/ 1260م، وأخذ منه الموافقة على تمديد الهدنة مع يافا وبيروت[3]. بينما جمع فرسان الأسبتارية قواهم واستولوا على القلعة الصغيرة في مجدّو، ثم أغاروا بعد بضعة أشهر على عسقلان، فيما قامت القوة الفرنسية التي استمر الملك لويس التاسع بتمويلها من فرنسا، باختراق السهول المحيطة ببلدة بيسان. واكتفى بيبرس بمناوشة الإفرنج بواسطة قواته المحلية في مرحلة أولى بينما كان يقوم بتجهيز قواته ويستعد للخروج من مصر إلى بلاد الشام لدرء الخطرين المغولي أولاً ثم الإفرنجي.

لم يحسن الوصي القبرصي هوغ الأنطاكي، ولا نبلاء الإفرنج تقدير خطورة السلطان الجديد، واستمروا باتخاذ المواقف المتشددة ذاتها التي كانوا يتخذونها خلال العهود الأيوبية الأخيرة مستغلين ضعف البيت الأيوبي وخلافاته الداخلية. ولفرط جهلهم بتطور الأوضاع في مصر والشام، أظهر الإفرنج ندمهم على الهدنة الموقعة مع المماليك، ورغبوا في نقضها، واستسهلوا قطع الطرق على قوافل الميرة

---

[1] الأمير شهاب الدين قرطاي العزي الخزنداري،، تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق ودراسة هورست هاين ومحمد الحجيري، دار النشر كلاوس شفارتس، برلين، ط1 2005م، ص 156.-العيني، عقد الجمان، ج1 ص74.- المقريزي ، السلوك، ج1 ص 154-- Runciman, OP.Cit, vol III p.319

[2] لم يقدر الإفرنج خطورة بيبرس في سني عهده الأولى إذ كان المماليك حديثي القبض على السلطة ولم يكن الحكم قد انتظم فيما بينهم بعد وكان أمراؤهم في الأمصار يعتبرون شركاء للظاهر بيبرس في الحكم أكثر منهم تابعين. (راجع العيني ، عقد الجمان، ج1 ص73).

[3] ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد ريتشاردز، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بيروت 1998م. ص 67.

المرسلة من القرى إلى إقطاعات المماليك، ورفضوا تبادل الأسرى، على الرغم من مبادرة بيبرس بتجميع الأسرى لديه في دمشق ليدل على حسن نيته، ولم يعد التجار المسلمون يأمنون على تجارتهم في المدن التي يسيطر عليها الإفرنج ولا في مرافئها، حتى أن الداوية في طرطوس قبضوا على تجار مسلمين وفدوا إليها وأسروهم وصادروا تجارتهم، دون أن يضعوا في حسبانهم ما يترتب على ذلك من عواقب [1].

وكان السلطان بيبرس حتى العام661هـ/ 1262م لا يزال يعطي الأولوية لتوطيد حكمه، والقضاء على منافسيه من المماليك ومن الملوك الأيوبيين على حد سواء، خاصة وأن بعضهم كان يكاتب المغول ويحرضهم على غزو البلاد، ويتعهد بالوقوف إلى جانبهم فور قدومهم إلى بلاد الشام، وكان من هؤلاء الملك الأيوبي المغيث.[2]، فرأى بيبرس أن يجس قوة مملكة بيت المقدس واستعداداتها للحرب، فقرر المباغتة على حين غرة، فاقترب من أسوار عكا، وأعمل في بساتينها ومزارعها الحرق والخراب، ولم يجرؤ أسياد عكا على الرد[3].

لم يكن تصور هوغ الأنطاكي الوصي، أفضل من تصور إفرنج الشرق، ولم يقدّر السلطان المملوكي الجديد حق قدره، فأقدم على اعتقال وفد السلطان إلى سلاجقة الروم، المتوجه بحراً عبر قبرص، مع أن الوفد كان يحمل كتاب أمان من نبلاء عكا، كي يمر بسلام عبر المناطق الإفرنجية. مما أثار حفيظة السلطان خاصة وأن أحد أعضاء الوفد قتل خلال الرحلة.

طلب السلطان على الأثر من رسل الإفرنج، إبلاغ أمراء المناطق اللاتينية بوجوب رد الإقطاعات التي منحهم إياها الملك الأيوبي إسماعيل من قبل، لقاء وقوفهم إلى جانبه، لأنهم خذلوه، كما أمر برد الأسرى لديهم في أقرب وقت، تحت طائلة الحرب وذلك في خطاب مطول ألقاه على نواب يافا وأرسوف بعد أن أشرف بقواته على الساحل الفلسطيني [4].

في شتاء 1265م/ 663هـ، أظهر المغول بعض التحركات في شمال سوريا، فخرج بيبرس إليهم في جيش ضخم، ولما علم بأن قواته المحلية في حمص وحلب تمكنت من دحرهم قرر أن يستفيد من قوته فوجّه جيشه جنوباً باتجاه الإفرنج [5] .

وبوفاة هولاكو في 8 شباط 1265م(664هـ)، انشغل المغول بأمر الوراثة، فاستغل بيبرس الفرصة لينفرد بإقطاعات الفرنج في الشرق، وفيما كان يتظاهر

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج1 ص 161.
[2] المصدر السابق، ج1 ص 160.
[3] بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة ، ص81.
[4] المقريزي، المصدر السابق، ج1 ص161.
[5] المصدر السابق ، ج1 ص147.

بالصيد في تلال أرسوف، ظهرت قواته فجأة أمام قيسارية في جمادى الأولى سنة 663هـ/ 27 شباط 1265م، فأسقط مدينتها على الفور، ولم تصمد قلعتها من بعدها بأكثر من أسبوع، بعد أن أذن لعناصر الحامية بمغادرتها سالمين، ثم سوّيت المدينة والقلعة بالأرض[1].

وبعد بضعة أيام، ظهرت قواته على أبواب حيفا، ففر المقتدرون من سكانها بحراً إلى المدن المجاورة، وأخليت المدينة والقلعة معاً، وتعرض من بقي من السكان للقتل والأسر. وفي الوقت ذاته، كان بيبرس على رأس قوة أخرى يحاصر قلعة عتليت، فأحرق المدينة وضرب الحصار حول القلعة، لكنه سرعان ما رفع الحصار بحثاً عن نصر سريع ومريع [2]، فتوجه نحو أرسوف المجهزة بالمؤونة والعتاد، حيث يتحصن 270 فارساً من الأسبتارية، فأسقط المدينة في 26 نيسان، وصمدت القلعة، وقاتل الأسبتارية فيها بشراسة، وخسروا في غضون ثلاثة أيام ثلث عدد فرسانهم، وعندما تم الاتفاق على تسليم القلعة للمماليك مقابل إجلاء الفرسان إلى مدن أخرى، أخلّ بيبرس بالوعد وساق الفرسان أسرى إلى القاهرة [3].

أدى هذا التساقط السريع للمدن والقلاع الإفرنجية في يد بيبرس، إلى الهلع والرعب في أوساط الإفرنج، وكثرت نداءات النجدة، ما دفع بالوصي على العرشين القبرصي والمقدسي هوغ الأنطاكي، إلى التوجه من قبرص إلى حيفا، على رأس ما أمكن جمعه من فرسان الجزيرة، فوصلها في 25 نيسان، مما شد عزم الفرنج وأثنى بيبرس عن متابعة القتال، فعاد إلى القاهرة تاركاً قسماً من جيشه لرعاية المناطق التي حررها، بحيث أصبحت الحدود الجديدة على مشارف عكا ذاتها [4].

لم تطل استراحة بيبرس في مصر أكثر من سنة، حتى عاد لاستغلال أوضاع الفرنج المتردية في بر الشام، واضعاً نصب عينيه دحرهم باتجاه الساحل، ففي تموز 1266م/664هـ، حاصر قلعة صفد التي حشد فرسان الداوية فيها عدداً كبيراً منهم وحصنوها جيداً طوال 25 سنة، وتمكن من إسقاطها والقضاء على من صمد فيها، بعد أن نجح في إغراء الكثير من المتطوعين فيها بالفرار منها، وسيطر بذلك على منطقة الجليل بأكملها[5].

---

[1] Bustron, OP.Cit P:111.

[2] لم يسبق لسلطان في ذلك العصر أن كانت له مثل هذه الحركة السريعة في تنقلاته أو في تحريك فرقه العسكرية منذ الفتح الإسلامي في النصف الأول من القرن الهجري الأول. وكانت هذه الحركة السريعة تنم عن قلق على السلطة وعن رغبة في الجهاد المستمر وعن موهبة وخبرة في البحث عن نقاط الضعف عند الفرنج والمغول واغتنام الفرص السانحة لقضم المناطق التي يسيطرون عليها. ومن دلائل قلقه على السلطة أنه رغب في إعادة الخليفة العباسي إلى مقره الأساسي في بغداد لكنه تريث ثم عدل عن رأيه فأبقى الخليفة في القاهرة تحت نظره خوفاً من ارتداده عليه يوماً ما. (المقريزي، السلوك، ج1 ص 154و 176).

[3] ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ص96.

[4] Runciman OP.Cit vol III p.318-319.

[5] AMADI, OP.Cit P:206.

كما قرر بيبرس قطع صلة المسيحيين المشرقيين بالمغول، بجعلهم يدفعون ثمن أعمال المغول السابقة في حلب ودمشق، وبجعلهم يترددون قبل دعم المغول في حملاتهم القادمة، فهاجم قرية قارة السريانية فقتل رجالها وسبى أطفالها [1].

وأوعز سنة 663هـ/ 1264م، إلى معاونه المنصور قلاوون بقيادة جيشه الثاني، واحتلال قلاع القليعات وحلبا ومدينة عرقا وتهديد طرابلس، قبل أن يتوجه شمالاً باتجاه ولاته في حمص وحماه وحلب ليؤمنوا الطوق حول كيليكيا شرقاً ويغزوها هو متجهاً غرباً [2].

ثم أتى دور الانتقام من مملكة أرمينية للأسباب عينها، وكذلك بسبب تمنع الملك هيثوم وصهره بوهيمند عن تزويد المماليك بالحديد والأخشاب من هذه المملكة، فبينما كان الملك الأرميني يقوم بزيارة الإيلخان أبغا في تبريز ببلاد فارس، منبهاً إلى خطورة المماليك، وطالباً النجدة، كان المماليك قد عبروا أراضي مملكته، وقاموا بحركة التفاف واسعة فاجأت الجيش الأرمني بقيادة "ليو" و"طوروس"، ولدي الملك، يدعمهما فرسان الداوية من بغراس، وفي شهر آب دارت في سهول كيليكيا معركة حاسمة انتهت بدحر الجيش الأرمني ومقتل "طوروس" والقبض على "ليو" وسوقه أسيراً إلى القاهرة، وغزا قلاوون المدن الأرمنية الرئيسية سيس وآياس وأدرنه وطرسوس، وعاد المماليك بغنائم ضخمة وآلاف الأسرى. ولما عاد الملك هيثوم مصحوباً بجيش مغولي صغير كان الأوان قد فات، والهزيمة قد حلت، ولم يتمكن من افتداء ابنه الأسير إلا بعد سنتين. لم تتمكن المملكة الأرمينية من التعافي بعد تلك الهزيمة، وغاب دورها السياسي والعسكري كقوة فاعلة في المنطقة، منذ ذلك الحين.

ثم دفع بيبرس بجنوده لمحاصرة أنطاكية، لكنه لم يجد لدى قادة قواته الحماسة الكافية، فأقلع عن الفكرة، وسار بقواته إلى تخوم عكا مرة أخرى في أيار 1267م/662هـ ، ولما عجز عنها فتك بضواحيها وقطع رؤوس من صادفهم فيها[3].

وكان على هوغ الوصي أن يسارع في القدوم إلى عكا من جديد، قبل أن يأخذ بيبرس ما تبقى من مملكة بيت المقدس على حين غرة، فغادر بيبرس إلى القاهرة في الخريف، وحاول هوغ في غيابه أن يسترد شيئاً من الهيبة، وأن يضع حداً للخسائر المتلاحقة للإفرنج في الشرق، فجمع فرسان المنظمات والقوة الفرنسية تحت أمرته، وقاد هجوماً معاكساً عبر مرتفعات الجليل، في 28 تشرين الأول، لكنه

---

[1] بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة ، ص106.

[2] المصدر ذاته،ص 104.- أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر. ج2، ص332.

[3] De Navarre, OP.Cit, Le Templier De Tyr, , P: 167.

واجه صداً عنيفاً عند قلعة صفد المملوكية، كما هاجم العربان قوته الفرنسية، فعاد أدراجه إلى عكا متكبداً خسائر جسيمة[1].

استمر الوضع في مملكة بيت المقدس متدهوراً، ولم تعد الحياة تطاق داخل عكا حيث صار التوتر بين الجنوية والبنادقة على أشده بسبب خلافهم على مرفأ المدينة، وفي 16 آب 1267م اندلعت الاشتباكات بين الطرفين وخسر كل منهم عدداً من سفنه، سيطر البنادقة بعدها على المرفأ، وانسحبت مراكب الجنوية إلى صور[2].

وعندما توفي الملك القاصر هوغ الثاني في كانون الأول 1267م/665هـ، أصبح هوغ الوصي ملكاً على قبرص، حيث تم تتويجه يوم عيد الميلاد، تحت اسم هوغ الثالث. لكنه وجد من الإفرنج من ينازعه على ملك بيت المقدس ومن يرفض الاعتراف به أو يحرض أخصامه عليه فتأخر تتويجه إلى 24 أيلول 1269م/668هـ.

ومع بداية العام 1268م، جمادي الآخرة سنة 666هـ، تحرك بيبرس بجيشه من مصر إلى فلسطين، واستولى في غضون 12 ساعة على يافا [3]، ولم يبق في الجنوب سوى قلعة الداوية في عتليت حتى أضحت عكا ذاتها هي الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس وليس بينها وبين الأراضي المملوكية ما يحول بينهما. وفي 15 نيسان/17 رجب سنة 666هـ، سقطت قلعة الداوية في شقيف أرنون، بعد حصار وقصف دام عشرة أيام. وانتقل الجيش المملوكي إلى أنطاكية، فاستولى عليها خلال شهر أيار، وكانت خسائر الإفرنج جسيمة وغنائم المماليك عظيمة[4].

ولم يبق من إمارة أنطاكية الفرنجية سوى مدينة اللاذقية، يحكمها بوهمند من طرابلس ويدعمه المغول، كما بقيت قلعة القصير، التي استطاع قائدها أن يربط بقاءها بموالاته للمماليك، وبعد تدمير مملكة أرمينية الصغرى، أضحت قلاع الداوية معزولة في جبال أمانوس وبغراس وفي شمال سوريا، فأخلاها الداوية طوعاً ودون مقاومة. وتمكن المماليك بذلك من إضعاف الحلف الفرنجي المغولي إلى أدنى حد[5].

عاد بيبرس إلى اقتراح الهدنة إثر سقوط إنطاكية، بعد أن ترددت شائعات كثيرة عن احتمال تحرك مشترك للمغول من فارس وللملك لويس التاسع من أوروبا، فوافق على تجديد المعاهدة مع ملك بيت المقدس هوغ الثالث، وكذلك مع بوهيمند أمير طرابلس وما تبقى من إنطاكية، ودام مفعول المعاهدة سنة كاملة حتى شعبان سنة 668هـ/ربيع سنة 1269م.

---

[1] Runciman, OP.Cit, vol III p.322.

[2] De Navarre, OP.CIT.Le Templier De Tyr, , P:168.

[3] أبو الفدا، المصدر ذاته، ج2، ص334.

[4] بيبرس المنصوري الدوادار، المصدر ذاته، ص111.

[5] Runciman ,OP.CIT, vol III p.326.

حاول هوغ الثالث في تلك الأثناء، ترتيب البيتين القبرصي والمقدسي، وكان أول ما اعترضه الولاء المشروط للنبلاء الإفرنج في قبرص، فقد أبلغوه أنهم غير ملزمين بالقتال خارج حدود مملكة قبرص، وإذا به لا يجد من يقاتل معه عبر البحر سوى نبلاء عائلته المالكة ومن يتطوع من نبلاء الجزيرة بمحض اختياره.

ومع نهاية العام 1268م/ربيع الثاني سنة 668هـ، كان الوضع في إيطاليا قد تطور، إذ قُطِع رأس كونرادين الملك الألماني والملك الإسمي لبيت المقدس، بإيعاز من شارل أنجو شقيق الملك لويس التاسع[1]، ودار الخلاف حول أحقية الملك بين هوغ الثالث وبين ماريا إبنة ميليزند دو لوزينيان خالة والدته، وقد وجدت مسوغاً شرعياً أقوى لوراثة الملك وأيدها في ذلك الملك شارل أنجو من صقلية، وفرسان الداوية في الشرق، بينما وقف نبلاء الشرق في صف هوغ الثالث، وكذلك فعل الرأي العام في المملكة، الذي فضّل ، ملكاً ذكراً شاباً على ملكة أنثى في أواسط العمر، لمواجهة سلطان جامح مثل بيبرس.

وفي يوم حفل تتويج هوغ الثالث، ملكاً في كاتدرائية صور، توجهت ماريا إلى الصرح البابوي لعرض قضيتها، فأذن لها البابا غريغوري العاشر بعرض قضيتها على مجمع ليون الذي سينعقد عام 1274م، لكن المجمع اضطر لاسقاط الدعوى أمام اعتراض ممثلي مملكة بيت المقدس، والذين أوضحوا للمجمع أن القرار يعود للمجلس الأعلى للنبلاء في عكا دون سواه. لكن البابا وقبل وفاته عام 676هـ/ 1276م، رتب بين ماريا وبين شارل أنجو اتفاقاً تبيع ماريا بموجبه حقها في الملك إلى شارل، لقاء مبلغ ألف ذهبية كدفعة أولى، تليها دفعات سنوية مدى الحياة، قدْرُ كل منها أربعة آلاف، وكان البابا يهدف إلى توليد دافع عند شارل أنجو يحضه على الذهاب إلى الشرق في حملة صليبية لاحقة[2].

ثم سعى هوغ الثالث لإصلاح الحال بين مختلف الفرقاء في عكا، وذلك عن طريق الزواج والمصاهرة، وخاصة عبر عائلة إيبلان القوية الحاكمة في بيروت، والنافذة في صور وعكا وقبرص. وكذلك فعل هو نفسه بزواجه من إيزابيلا، إبنة جي دو إيبلان (The Constable Guy)، قائد جيش المملكة القبرصية.

ومع ذلك فقد واجهت هوغ الثالث صعوبات أخرى جمة في مملكة بيت المقدس، منها تحقيق التعاون فيما بين فرسان المنظمات المتنازعة ، واستقطاب العامة من سكان عكا، والتوفيق بين جاليات المدن الإيطالية، فاستاء فرسان الداوية والتيوتون من التسوية التي أجراها الملك هوغ مع فيليب دو مونفورت في صور. كما أبدت

---

[1] De Navarre,Op.Cit.,Le Templier De Tyr, , P:189.

[2] (شكك رنسيمان في نية شارل بتسديد مثل هذا المبلغ باستمرار):
Runciman Op.Cit. vol III p.329- 342

عامية عكا استياءها من التسوية المذكورة. وبقي موقف هوغ ضعيفاً وكذلك سطوته نظراً لضآلة عدد الفرسان الذين يرافقونه من قبرص إلى عكا.
وكانت علاقاته الخارجية خائبة أكثر من علاقاته الداخلية، فقد كان يأمل خيراً من الملك لويس التاسع، لكن الأخير توفي في حملته على تونس عام 669هـ/ 1270م، وصار هوغ كثير الشكوك من شارل انجو شقيق الملك لويس، فقد جمع شارل إلى كرهه لهوغ الثالث ومنافسته له على مملكة بيت المقدس، علاقاته الطيبة مع الظاهر بيبرس على حسابه، وخلافاً لمصلحة إفرنج الشرق. كما أن شارل كان يكنّ للإمبراطورية البيزنطية كرهاً شديداً وهو أكثر ميلاً لتوجيه أية حملة صليبية مقبلة إلى القسطنطينية بدلاً من بيت المقدس.
وزاد في طين إفرنج الشرق بلة، الحملات الصليبية الصغيرة التي قدمت من أوروبا وباءت بفشل ذريع، مما زاد من إحباط هوغ ورعيته. فقد أدت إحدى الحملات القادمة من برشلونة بقيادة ولدي جيمس الأول ملك أراغون إلى استفزاز الظاهر بيبرس فتعرضت لكمين خارج عكا، أدى إلى دحر الحملة وتكبيدها خسائر جسيمة، كما أدت المواجهة إلى ما يشبه الأبادة للفرقة الفرنسية التي أقرها الملك الفرنسي في عكا، ولم يبق أمام هوغ إلا الاستعانة بالمغول من الشرق[1] .
فقد فتن أبغا بالأميرة ماريا إبنة الإمبراطور البيزنطي وتزوجها، وأكنّ لها الاحترام والتقدير وصارت تدعى " دسبينا خاتون "، لوفرة عقلها وطيبتها. وصار أبغا هو الذي يبادر دون جدوى إلى مكاتبة ملوك أوروبا وباباواتها، فلا ترده إلا الرسائل والاعتذارات عن تأخر انطلاق الحملات إلى الشرق.
ثم تلقى هوغ الثالث ضربة جديدة موجعة، بفقده نصيراً قوياً من أمراء الشرق هو صهره فيليب دو مونفورت، الذي قضى غيلةً على يد اثنين من الباطنية بإيعاز من الظاهر بيبرس وذلك في ذي الحجة من عام 669هـ/ آب 1270م[2].

2- بيبرس وقبرص في المواجهة المباشرة- إتفاقية قيسارية

ما أن ارتاح بيبرس لأخبار فقدان الدعم الأوروبي، حتى استأنف في جمادى الآخرة سنة 669هـ/ أوائل عام 1271م، عمليات قضم أراضي الإفرنج،[3] فاحتل في شباط قلعة الداوية البيضاء في صافيتا، ثم حاصر قلعة الحصن، حيث القوة الأبرز للإسبتارية، فقتل فرسانها الإفرنج، وأخذ المتطوعين فيها من نصارى الشرق أسرى، وعقد الصلح مع كومندور الاسبتار في طرطوس، بشرط المناصفة في

---

[1] Runciman, Op. Cit. vol III p.331.

[2] Bustron, Op. Cit., P:114.-Runciman OP.CIT. P:333.
ذكر بيبرس المنصوري الدوادار في زبدة الفكرة ص 134 أن القتيل هو "ورد ملك الفرنج" ويقصد الأمير الانكليزي إدوارد، والحقيقة أن القتيل في ذلك التاريخ هو فيليب دو مونفورت صاحب صور.

[3] أبو الفدا، المصدر السابق، ج2، ص337.

الأراضي، وأن لا تجدد الأسبتارية عمارة حصن المرقب. ثم سار إلى عكار فأتم احتلال قلاعها ثم حاصر قلعة الأسبتارية في البقيعة فسقطت[1].

وفتحت الطريق أمام المماليك لاستيراد الأخشاب من غابات لبنان وشمال سوريا، كما صار بإمكان بيبرس الاستفراد بطرابلس، ولقد همّ بذلك على الرغم من توسل بوهيمند بتجديد المعاهدة، ثم عاد فقبل التجديد لمدة عشر سنوات، بشرط واحد هو احتفاظ المماليك بالمناطق التي احتلوها مؤخراً،[2] وذلك بعد أن سمع بحملة إنكليزية تستعد للسفر إلى الشرق [3]. وفي طريق عودته إلى القاهرة في حزيران، حاصر بيبرس قلعة التيوتون في حصن القرين (مونفورت) بين صفد وعكا، وأسقطها في غضون أسبوع، وبذلك لم يعد للإفرنج أية قلعة خارج المناطق الساحلية.

وقبل أن يغادر فلسطين عائداً إلى القاهرة، علم بيبرس أن الملك هوغ الثالث يقوم بتفقد عكا، ففكر بمهاجمة جزيرة قبرص مباغتة وإنتقاماً من ملكها، ورداً على قيامه من قبل بأسر سفارة بيبرس إلى سلاجقة الروم وقتل أحد أعضائها، غير مكتفٍ بانتقامه من صاحب أنطاكية[4] لقرابته من هوغ الثالث القبرصي حيث أحرق كل السفن الراسية في ميناء أنطاكية، بما فيها السفن القبرصية [5]، بل أرسل في شوال من العام 669هـ/ ربيع 1271م سبعة عشر سفينة محملة بحوالي ألف وثمانماية مقاتل وبحار[6]، ظهرت قبالة ليماسول.

وقد جاء في " تاريخ مجموع النوادر" أن "عدة العساكر المذكورة كانت أربعة آلاف وثلثماية ما بين جند وقواد وأسطول" وأن عدد سفن المماليك بلغ أربعاً وعشرين، لم ينج منها سوى ثلاثة[7]، بعد أن تعرضت لحوادث اصطدام، بحسب رواية المصادر الأوروبية، بسبب قلة خبرة بحارة المماليك[8]، بينما تذكر معظم المصادر العربية ، أن السبب الحقيقي هو تعرض السفن لعاصفة هوجاء وظلام دامس وتنافر بين قائدي الأسطولين المملوكيين ، مما أدى إلى وقوع أخطاء تسببت بغرق بعض السفن وتحطم البعض الآخر، وبوقوع البحارة المسلمين بين أيدي القبارصة بين قتيل وأسير[9].

---

[1] Grousset,Op.Cit. P: 649-650.

[2] بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة ص127-128- 129.

[3] المقريزي، السلوك ج1 ص200.

[4] De Navarre, Le Templier De Tyr, Op.Cit., P:190.

[5] De Mas Latrie, Op.Cit.,, VOL I , P.392.

[6] إبن كثير، المصدر السابق ج13 ص259. العيني، المصدر السابق، ج1 ص 127.

[7] قرطاي العزي الخزنداري، المصدرالسابق، ص 147.

[8] Runciman , Op.Cit., vol III p.334.

[9] إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج7 ص154 –المقريزي، السلوك ج1 ص200 – المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج1-2 بولاق 1270هـ. ج2 ص360.

وفي النوادر، أن عسكر الأسطول نجوا إلى البر، وهموا بالقتال، لكنهم أخذوا بالحيلة عندما قال لهم رسل الفرنج:" البلاد بلاد السلطان، ونحن غلمان السلطان، ولو قاتلتمونا ما قاتلناكم"، ..." فعند ذلك سكت الجند وخلعوا لامة حربهم وانكسرت نفوس الناس..."، فاعتقل الفرنج الجند وقيدوهم ونكسوا بيارقهم، وداروا بهم في الجزيرة على أصوات المغاني والزمور والطبول في مسير مهين، تخلله إلقاء النجاسات على رؤوس الأسرى، ذكره الأمير قرطاي بالتفصيل[1].

على الأثر تبادل الملك والسلطان رسائل لا تخلوا من الشماتة ولا من التحدي، فكتب صاحب قبرص إلى السلطان يخبر بأن: " شواني (سفن) مصر وصلت إلى قبرس، وكسرها الريح وأخذتُها، وهي أحد عشر شينيا ..."، ورد عليه السلطان: " إلى حضرة الملك أوك دلزنيال (هوغ دو لوزينيان)، جعله الله ممن يوفى الحق لأهله، ... وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدةً من شوانينا وصار بذلك يتبجح، وبه يفرح، ونحن الآن نبشره بفتح (حصن) القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ما كنا من العَيْن، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصينة هو العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهواء مليح، إنما النصر بالسيف هو المليح، ونحن ننشئ في يوم واحد عدّة قطائع، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة، ونجهزّ مائة قلعة ولا يجهزّ لكم في مائة سنة قلعة، ... وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، ...، فإن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فترى اينّا أغنم، ولو أن في الملك سكوتا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم"[2].

مما فتح باب الانتقام والحرب على مصراعيه، خاصة وأن الملك هوغ غالى في ثمن البحارة الأسرى، ومنع بيع قادتهم الست مهما بلغ الثمن. ورد بيبرس بالامتناع عن فدائهم قائلاً: "إني قد استغنيت عنهم بغيرهم"،[3] وكتب إلى الأسرى أن أن لا يشتري أحد نفسه وإلا شنقه السلطان.

لم يأمن بيبرس على الجنود والبحارة الأسرى من خطر الملك القبرصي، فمارس الضغوط على أسياد عكا، وكتب إلى مقدم الداوية يقول:" والله ما أعرف خلاص

---

[1] قرطاي العزي الخزنداري، المصدر ذاته، ص 148.

[2] العيني، المصدر ذاته ، ج 1 / ص 128.

[3] عز الدين محمد بن علي إبن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فرانزشتاينر، فيسبادن 1983م. ص102.

هذه الجند والريسا إلا منكم... متى لم تحضروا هؤلاء من قبرص إلى عكا ويقعدوا عندكم في ترسيمكم وتصل كتبهم إلينا، وإلا هدمت عكا على رؤوسكم" [1].

لم يدخر بيبرس وسيلة لإطلاق الأسرى، حتى أنه دفع الرشاوى إلى نافذين في عكا، واجتمع أسياد عكا، وطالبوا الملك القبرصي بالأسرى حفاظاً على ما تبقى من عكا وجوارها، فأحضر من بقي منهم إليها، بعد أن غرق من غرق خلال الغزوة، وبيع من بيع منهم إلى أوروبا بعد ذلك[2].

طالب هوغ الثالث من حكام عكا أن يبقى الأسرى تحت الحراسة المشددة فأودعهم الداوية في سجن البرج الكبير المشرف على البحر، وأكرموهم بالطعام والشراب وسمحوا لهم بمقابلة أقربائهم وبتلقي الرسائل. ولا شك في أن إفرنج من عكا، أحدهم يدعى"جفرين"[3]، أعانوا الأسرى على الفرار بعد ثلاث سنوات سنة 673هـ/1274م، فأدخلوا المناشير إلى الزنزانة وسهلوا فرار السجناء، ووجد هؤلاء المراكب جاهزة لأخذهم من البرج إلى البحر ومن ثم إلى البر حيث وجدوا الخيول بانتظارهم ، فوصلوا مع الفجر إلى صفد حيث المسلمين، وثارت في عكا فتنة بسبب ذلك[4].

أوجس هوغ الثالث خيفة من بيبرس، وخشي أن يقوم بعملية انتقامية مفاجئة ضد مملكة بيت المقدس رداً على هزيمة حملته البحرية [5]، فأمضى معظم وقته في عكا، ولم يطمئن إلا عندما وصلته أخبار الحملة الإنكليزية التي تستعد للإبحار إلى الشرق.

وفي أيار 1271م، وصل ولي العهد الانكليزي الأمير إدوارد إبن الملك هنري الثالث على رأس حملة لا تتعدى الألف رجل، بعد أن خذله النبلاء الإنكليز وصاروا يعتذرون عن القدوم إلى الشرق واحداً بعد الآخر[6]. ولم يدعمه سوى شقيقه إدموند إذ أردفه لاحقاً ببعض القوى. ثم لحق به الملك هوغ والأمير بوهيموند للترحيب به، ويبرر "ميشود" أن إدوارد أمل أن يعوض عن صغر جيشه بضم فرق مدن الإفرنج في الشرق، وإعادة تنظيمها ثم المبادرة إلى دحر المماليك بالتعاون مع المغول [7]. بينما يؤكد رنسيمان أن إدوارد كان في نيته الانضمام إلى الملك لويس التاسع في تونس، ليتوجها معاً إلى الشرق لتحرير الأراضي المقدسة،

---

[1] ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة ص130.

[2] قرطاي، شهاب الدين، المصدر ذاته، ص148.وبيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ص143.

[3] إبن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص:102،103.

[4] المقريزي ، السلوك ج1 ص207-الجنيدي، السلوك حوادث سنة 672هـ.

[5] عاشور ، قبرص والحروب الصليبية، ص 49.

[6] Le Templier De Tyr, Op.Cit.,, P:1.

[7] MICHAUD, OP.CIT. Tome V, Livre VIII, P:51-52.

لكنه فوجيء بوفاة الملك الفرنسي في شمالي أفريقية، فتوجه إلى الشرق وحده آملاً التعاون مع المغول لتوجيه ضربة قوية لبيبرس[1].

لكن ربما نجد ما يبرر تخفيض الحملة الانكليزية إلى هذا الحد الرمزي في ما يذكره شهاب الدين قرطاي العزّي الخزنداري في كتابه "تاريخ مجموع النوادر" عن علاقات بيبرس بالملك الإنكليزي لتحييده عن معارك الإفرنج في الشرق، ولثنيه عن تلبية نداءات ملك قبرص في تجريد حملة صليبية جديدة على البلاد الإسلامية، وما في توجيهاته إلى رسوله بين يدي الملك الإنكليزي من دهاء سياسي وإلمام بطرق استعطاف الملوك الإفرنج واستمالتهم نذكرها بحرفيتها نظراً لأهميتها:

"وقال الملك الظاهر للرسول: إذا وصلت إلى الملك أقره (أقرئه) سلامي، فإذا سألك ما الذي يأمر به السلطان، قبّل يده عني وقل له: يسلّم عليك وما له إليك حاجة، ولكن قصده أن تكون أخاه وهو أخوك، ولا تقطع كتبك عنا، ولا تزيد ولا تنقص".

ويضيف الخزنداري أن الملك الانكليزي على الأثر لم يستجب كما ينبغي لطلب البابا بتجريد حملة ضخمة إلى الشرق لتحرير بيت المقدس[2].

فوجيء الأمير إدوارد، أول ما فوجيء، بالعلاقة القوية بين البنادقة وبين السلطان بيبرس، وتبين له أنهم يقومون بتزويد جيشه بما يلزمه من حديد وأخشاب، بينما تنافسهم الجنوية للحصول على امتيازات في أسواق الشرق العربي، وباحتكارهم المطلق لتجارة العبيد وسَوْقهم إلى مصر. ولما حاول إقناع الإيطاليين بخطورة أفعالهم، أظهروا له الأوذونات الصادرة عن المجلس الأعلى في عكا والتي تسمح لهم بذلك، فعجز عن ردعهم[3].

ومن العوائق التي واجهت إدوارد، ما لقيه من صد لدى نبلاء قبرص الذين رفضوا المشاركة الإلزامية في القتال خارج جزيرتهم، إلا لمن تطوع منهم ، ثم أفلح أخيراً في إلزامهم بالاشتراك في القتال لمدة أربعة أشهر في السنة، شرط أن يرافقهم ملك قبرص أو ولي عهده[4].

وعلى الرغم من نجاح إدوارد في الاتصال بالإيلخان أبغا عبر موفديه الإنكليز، فإن الدعم المغولي بعشرة آلاف جندي مغولي لم يكن كافياً لتحقيق أي نصر ضد جيش ضخم للمماليك قاده بيبرس من دمشق في أواخر عام 1271م/671هـ، يدعمه جيش من مصر مما أدى إلى تراجع المغول عن حلب. كما نجح بيبرس أثناء عودته، في صد الفرنج بسهولة بعد أن قاربوا أبواب بيروت وصفد[5].

---

[1] Runciman,. OP.CIT. VOL III, P:335.

[2] الخزنداري، المصدر ذاته ص 156-157.

[3] Runciman,. OP.CIT. VOL III, P:336.

[4] Ibid, vol III p.336.

[5] المقريزي ، السلوك، ج1 ص202 حوادث سنة 670هـ.

ومع حلول العام 1272م/671هـ، وبعد أن حاول احتلال قلعة قاقون الصغيرة في فلسطين[1]، أدرك إدوارد عجزه عن تحقيق أي إنجاز يذكر في الشرق، ولم يعد بمقدوره سوى ترتيب معاهدة مع السلطان بيبرس، قبل أن يغادر عائداً إلى إنكلترا، لضمان أمن ما تبقى من إقطاعات الفرنج في الشرق، وذلك بعد أن ضغط بيبرس على عكا بالإغارة عليها في 3 شعبان سنة 670هـ/ آذار 1272م، مما أسفر عن توقيع هدنة بينه وبين أسياد عكا[2] .

جرت المعاهدة في السهول بين قيسارية وأرسوف في 22 رمضان سنة 670هـ/نيسان 1272م[3]، أقسم عليها السلطان، ثم سيّر الأمير فخر الدين إياز المقريء إلى عكا حيث حلف عليها أسياد عكا ومقدم الأسبتارية.

سهلت المعاهدة على بيبرس تحييد الإفرنج، وانصرافه لقتال أبغا خان المغول، مطمئناً إلى سلامة خطوط جيشه الخلفية. كما استرد بيبرس عبر المعاهدة عدداً كبيراً من أسرى المسلمين [4]. ويلاحظ أن بيبرس جعل الاتفاق مع أسياد عكا، دون أن يتطلب قسماً أو عهداً من الملك القبرصي الضعيف هوغ الثالث، ولا الأمير الانكليزي إدوارد، غير معترفٍ بالأول ملكاً على بيت المقدس بل على قبرص فقط، ومعتبراً الثاني ضيفاً على المنطقة، وذلك على الرغم من موافقتهما المبدئية على الهدنة[5].

كانت الهدنة مفيدة لعكا وجوارها وللدساكر المحيطة بها، والتي كان الفرنج يستغلونها، وحفظت للفرنج الشريط الضيق من عكا إلى صيدا، كما ضمنت سلامة الحجاج المتوجهين إلى بيت المقدس عبر محور الناصرة المعزولة[6].

لم تكن هذه الهدنة إلا تجديداً لهدنة سبقتها بين بيبرس وأسياد عكا سنة 666هـ/1268م، بالمضمون ذاته، لكن الحصون والقرى والدساكر التابعة للإفرنج تقلصت هذه المرة بفعل قضم المماليك لها تباعاً[7].

ولم يمض وقت طويل حتى وجد بيبرس الظرف مناسباً للتخلص من إدوارد، عبر فدائييْن من الباطنية، فطعن أحدهما إدوارد بخنجر مسموم أنهك قواه لكنه لم يتمكن من القضاء عليه، وما أن تعافى من أثر الإصابة حتى قرر العودة إلى بلاده، فأبحر من عكا في صفر سنة 672هـ/ أيلول 1272م[8].

---

[1] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:200.

[2] AMADI, Op.Cit, P:212.79 -حطيط، قضايا من تاريخ المماليك،- ، ص

[3] المقريزي، السلوك، ج2، ص78- إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2 ص299.

[4] العيني، عقد الجمان ، ج1 ، ص176.

[5] بيبرس المنصوري الدوادار، المصدر ذاته ص 134.

[6] De Mas Latrie, Op.Cit, vol. I, chapitre XVI P.443-444.

[7] حطيط، المرجع ذاته، ص79.

[8] De Mas Latrie, Op.Cit, vol. I,, chapitre XVI P.443.

أما البابا غريغوري العاشر، الذي كان يرافق حملة الأمير إدوارد في الشرق قبل أن ينتخب كبابا، فقد كان على قناعة تامة بأن الملك هوغ الثالث ليس لديه نية حقيقية للقيام بعمل عسكري فاعل، لأن هوغ كان موجوداً في بلاد الشام حين دارت معركة، عام 673هـ/ 1273م، قرب بيروت، بين الفرنج والمماليك المحليين، مني الفرنج فيها بالفشل [1]، لذلك أمضى البابا بقية عمره يحث على إعداد حملة صليبية ضخمة تضم قادة من مختلف أصقاع أوروبا، وبوفاته عام676هـ/ 1276م، ذهبت كل المساعي سدىً، ففترت حماسة ملوك أوروبا وتقاعسوا عن إتمام ما وعدوا البابا به، وخاصة جاك ملك أراغون الذي ما أن وطئت قدماه أرض سوريا، حتى قرر العودة من حيث أتى بعد عاصفة بحرية هوجاء تشاءم منها، وذلك عام 672هـ/ 1273م[2].

واجه هوغ الثالث بعد ذلك متاعب من نوع آخر، فقد خرجت إيزابيلا إبنة حنا إيبلان الثاني صاحب بيروت ووريثته، عن طاعة الملك سنة 674هـ/ 1274-1275م، خاصة وأنها الزوجة "العذراء" للملك القاصر هوغ الثاني، الذي توفي قبل سن البلوغ. فقامت ببعض المغامرات، إحداها مع جوليان حاكم صيدا، وكانت أقواها مع فارس إنكليزي من مرافقي الأمير إدوارد، يدعى "إدمون الغريب" (EDMOND L'ÉTRANGER). ولما أجبرها الملك هوغ الثالث على العودة إلى قبرص، طلبت الحماية من السلطان بيبرس، وأيدها فرسان الداوية بعد أن أرسل بيبرس تهديداً إلى الملك القبرصي، فأعادها هوغ مضطراً إلى بيروت، حيث تولّت حامية مملوكية حراستها، ولم ينته الكابوس المملوكي في بيروت إلا بعد وفاتها عام 681هـ/ 1282م، فأعادت شقيقتها أشيفا ولاءها للملك هوغ من جديد[3].

كما واجه هوغ الثالث متاعب أخرى في الوصاية على إمارة طرابلس، حيث نازعه عليها الأرمن من أهل والدة الأمير القاصر بوهيمند السابع، فأرسلت سيبيلا الأرملة الأم ابنها إلى بلاط خاله الملك ليو الثالث في أرمينيا، وتولى إدارة طرابلس بارثولوميو أسقف طرطوس، مما أثار حساسية بول أسقف طرابلس ومعه النبلاء الرومان من سلالة حكام طرابلس، فتطورت الأزمة إلى حد إعدام عدد منهم، مما أثار حفيظتهم يدعمهم فرسان الداوية، ولم يكن نصيب الملك هوغ الثالث إلا معارضة الطرفين له، وخاصة كره الداوية ومناصبتهم العداء له، ولم يعد بإمكانه الاعتماد على الأسبتارية لموازنة القوى، فقد بات وضع فرسانها ضعيفاً بعد سقوط

---

[1] عاشور ، قبرص والحروب الصليبية، ص50.

[2] De Giblet, Henri ,Op.Cit,P: 180- Runciman vol III p.342.

[3] DE MAS LATRIE, Op.Cit, VOL I , P:449.

معظم قلاعها وخاصة قلعة الحصن. ولم يعد عددهم في الشرق يتعدى الثلاثمئة بعد أن بلغ الآلاف فيما مضى. لكن هوغ تمكن من إنقاذ اللاذقية حين طوقتها قوة للمماليك، فناشد بيبرس تطبيق المعاهدة عليها فوافق بيبرس شرط أن تدفع عشرين ألف دينار وأن تطلق سراح الأسرى المسلمين العشرين لديها[1].

زاد الداوية من تعقيد الوضع في فلسطين، فقد عمدوا في أواخر عام 1276م/676هـ، إلى احتلال قلعة صغيرة لأحد النبلاء الإفرنج، ولم يكترثوا لنداءات الملك هوغ الثالث. فوجد الأخير نفسه في أضعف موقف، فهو عاجز عن ضبط الجاليات الأيطالية، وصورته في عين عامية عكا غير جديرة بالاحترام، فقرر مغادرة عكا نهائياً وتركها وشأنها، دون أن يعين حاكماً لينوب عنه فيها، وانسحب إلى صور في طريق عودته إلى قبرص.

رحب الداوية والبنادقة بالخبر، وأصيب البقية بالصدمة لهذا الفراغ الطاريء، فأرسل الأسبتارية والتيوتون والجنوية ورجال الدين مندوبيهم إلى صور طالبين من الملك العدول عن رأيه، وأن يعين على الأقل نائباً عنه، فرفض في البدء الاصغاء لهم ثم وافق على تعيين باليان إيبلان إبن حنا صاحب أرسوف (bailli) بايل المملكة، كما عين قضاة لمحكمة المملكة، ومن قبرص كاتب البابا ليبرر له هذا التصرف.

وانتقل الهم إلى البايل الجديد، فعمت في شوارع عكا اضطرابات متنقلة بين تجار مسلمين من بيت لحم يتمتعون بحماية الداوية، وبين تجار نسطوريين من الموصل تحت حماية الأسبتارية. كما انفجرت الأعمال العدائية مجدداً بين البنادقة والجنوية، ولولا مساعدة البطريرك والأسبتارية لما صمد أي حكم في عكا.

وفي العام 676هـ/ 1277م، أصبح الوضع في المدينة مهترئاً لدرجة تجعله يتقبل أية حلول، وإذا بشارل أنجو ينصب نفسه ملكاً على بيت المقدس، بعد أن أتم الصفقة مع ماريا الأنطاكية المطالبة بالعرش المقدسي، وأوفد شارل الكونت روجيه دو سفرينو ليكون نائباً عنه في عكا[2]، فأظهر روجيه براءات تعيينه وتكليفه الصادرة عن شارل أنجو وماريا والبابا حنا الواحد والعشرين. ووجد البايل باليان دو إيبلان نفسه محاصراً ومضطراً للاعتراف بالوضع الجديد خشية مقارعته بالسلاح.

ولم يرُقْ الأمر لبارونات مملكة بيت المقدس، لأن القرار لم يمر بالمجلس الأعلى للمملكة، فاستمهلوا البايلي الجديد، وأرسلوا إلى هوغ الثالث في قبرص يسألونه أن يحلهم من قسمهم بالولاء له، وأمام رفض هوغ لطلبهم وتهديد البايلي روجيه لهم

[1] Runciman, Op.Cit, vol III p.344.
[2] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:206.

لم يجدوا بداً من الإذعان له مرغمين. ثم ما لبث بوهمند السابع أن اعترف بالوضع الجديد، وعين روجيه لمساعدته ثلاثة نبلاء فرنسيين لثلاثة مهام: سنسكال وكونستابل ومارشال[1] .

ولما ندم هوغ الثالث على فعلته فيما بعد، كان الأوان قد فات، وكان رجال شارل الأنجوي قد عززوا وجودهم وقوتهم في عكا، فتوجه عام678هـ/ 1279م، نحو صور على رأس جيش كبير، قادماً من بيروت[2] ، فاعترض فرسان الداوية سبيله، وحالوا دون سيره إلى عكا، فعاد أدراجه إلى قبرص ، ثم أعاد الكرة عام 683هـ/ 1283م، لكنه توفي في صور عام 684هـ/ 1284م، قبل أن يحقق مناه[3].

وافق الوضع الجديد في عكا هوىً في نفس بيبرس، إذ لا مانع من تمديد الوجود الإفرنجي الضعيف في الشرق لبضع سنوات، مقابل ضمان عدم تحرك أوروبي جدي في حملة صليبية كبيرة، خاصة وأن بيبرس قد نجح في فتح خط تواصل مع شارل أنجو الذي يسدد على القسطنطينية وليس على بيت المقدس.

وأتاحت الظروف الجديدة لبيبرس متسعاً من الوقت كي ينصرف لمواجهة إيلخانية المغول في فارس، إذ ذهبت محاولات أبغا سدىً في استقدام حملة صليبية جدية يمكن التنسيق معها لدحر الوجود المملوكي، بل على العكس، فلم يتلق الخان سوى الخطابات الواعدة والكلمات الطيبة من الإفرنج والأجوبة الغامضة على الرغم من مكاتبته للبابا ولملكي إنكلترا وفرنسا دون جدوى.

وجد بيبرس الفرصة سانحة لمتابعة مشروعه التوسعي، فبعد أن قاد جيشه في صيف 1275م/675هـ، باتجاه كيليكيا مجدداً، حاصر مدنها دون أن يدخل إلى العاصمة سيس، وقرر في العام 677هـ/ 1277م، أن يغزو أنطاليا في بلاد سلاجقة الروم ، فسلطانها كيخسرو الثالث لا يزال طفلاً والحكم الفعلي بيد وزيره سليمان البراوناه والحامية المغولية تؤكد خضوع السلطنة لإيلخانية المغول. وسرعان ما قضى جيش المماليك على الحامية المغولية في سهول الأبلستين (البستان) في11 ذي القعدة سنة 676هـ/ 18 نيسان 1277م،[4] ثم دخل إلى قيصرية وتربع على عرش السلطنة يتلقى التهاني بالنصر ثم انسحب إلى سوريا مع أخبار حشود المغول باتجاه السلطنة السلجوقية[5] وكانت هذه هي المعركة الأخيرة لبيبرس قبل وفاته في صفر 677هـ/ تموز 1277م، وكان من آثارها تدمير سلطنة السلاجقة ومقتل الآلاف من رجالها وعلمائها على يد المغول انتقاما ، كما

---

[1] Runciman, Op.Cit, vol III p.346.

[2] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:214.

[3] عاشور ، الحركة الصليبية، ج2 ص 917.

[4] إبن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص172.

[5] بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة ص 156.

عززت العلاقات بين المغول وبين النصارى المحليين في الشرق ومن تبقى من إفرنج الشرق.
والخلاصة من الفترة التي عاصرها بيبرس وهوغ الثالث معاً، أن الجهود الحثيثة التي بذلها ملك قبرص وبيت المقدس ، لم تكن لتجدي في وجه أمر واقع لا مفر منه، يتلخص في سلطان مملوكي نشيط محب للجهاد واسع الحيلة معبأ وراغب بالانتقام، يضاف إليه برود في الحماسة الدينية وصحوة أوروبية باتجاه النهضة، ويأس من نصر لم يأت رغم كل الجهود، وتفرق في الكلمة وصراع على النفوذ والعروش، وحليف مغولي جاد تارة ومشغول في جبهة ثانية تارة أخرى.

3- تجديد الهدنة-قبرص وقلاوون

عاش الملك هوغ الثالث سبع سنوات بعد وفاة بيبرس، أمضاها محاولاً استرداد مملكة بيت المقدس، واستقطاب النبلاء الإفرنج المنتشرين في مدن الشرق دون جدوى، فقد زاد من حراجة أوضاع الفرنج في الشرق، إنشغالهم في حروب أهلية استنزفت ما تبقى من قواهم بلا هوادة، فمنذ عام 676هـ/ 1277م، أخذ الخلاف يشتد بين "بوهيمند السابع" صاحب طرابلس، و"غي الثاني إمبرياتشو" صاحب جبيل، على الرغم من صلتي القرابة والصداقة بينهما، وذلك بسبب إقدام غي الثاني على خطف فتاة نبيلة من طرابلس وتزويجها بالقوة لأخيه حنا، مما أثار حفيظة بوهيمند وأسقف طرطوس، فاحتمى غي بفرسان الداوية، مما دفع بوهيمند إلى تدمير أبنية الداوية في طرابلس وقطع أشجار غابة أنفة التي كان الداوية يسيطرون عليها، واضطر رئيس فرسان الداوية "وليم دو بوجو" بدوره، إلى تجهيز حملة استعرضت عند أسوار طرابلس، ثم قامت بإحراق قلعة البترون[1].
غادر "دو بوجو" إلى عكا، تاركاً قوة من فرسانه لمؤازرة "غي" صاحب جبيل، وما لبثت الخلافات أن استعرت من جديد، فاشتبك الطرفان في معركة شمالي البترون لا يزيد عدد فرسانها على الأربعمائة، لكنها كانت شديدة الضراوة وأشبه بالمجزرة خسر فيها "بوهيمند" عدداً كبيراً من فرسانه وخسر معهم إبن عمه وصهره "باليان" صاحب صيدا، وآخر الكبار من عائلة "غارنييه"، وبعد هدنة هشة لم تدم أكثر من سنة بين الطرفين عاد "غي الثاني" والداوية إلى مهاجمة "بوهيمند" فهزموه ثانية، لكنه تمكن من هزيمتهم في البحر، فقد حطمت العاصفة 12 سفينة لصاحب جبيل كانت على مشارف طرابلس، كما نجح أسطول لبوهيمند في إحداث بعض الأضرار في قلعة الداوية بصيدا.
واستمر الصراع في التصاعد بين الطرفين إلى أن قبض بوهيمند على غي متخفياً في طرابلس، بينما كان ينفذ مؤامرته لاحتلال المدينة من الداخل، وكانت النتيجة أن

[1] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:207-208.

سمل أعين فرسانه المرافقين، ثم قام بدفن غي وأخويه حنا وبلدوين وابن عمهم وليام في التراب، حتى أعناقهم، وتركهم يموتون جوعاً وعطشاً وعذاباً[1].

ولم يكن حال الإفرنج في الجنوب أفضل من حالهم في الشمال، ولأن أصل عائلة الإمبرياتشو من جنوا، فقد عمّقت هذه الأحداث الخلافات بين الجنويين وبين إفرنج طرابلس، وانتقل الخلاف كذلك إلى "حنا دو مونفورت"، صاحب صور وحليف الجنوية.

كما كانت العلاقات فاترة بين نبلاء عكا وبين "روجيه دو سفرينو" وحكومته، وعلى الرغم من نجاح ملك بيت المقدس في ترميم العلاقات بين البنادقة وبين "حنا دو مونفورت"، وإعادتهم إلى صور مجدداً عام676هـ/ 1277م، بقي حنا على حذر من حكومة عكا.

في العام678هـ/ 1279م، وصل الملك هوغ إلى صور فجأة، في محاولة لاستقطاب النبلاء وجمعهم من حوله، والقيام بأي عمل عسكري ضد المماليك، ولكنه لم يلق تجاوباً إلا من حنا نفسه ، وانقضت مهلة شهور الخدمة الأربعة التي قضاها فرسان قبرص خارج الجزيرة، دون أي إنجاز فعادوا، هم والملك، إلى قبرص بخفي حنين.

وبالنتيجة فإن الإفرنج عامة والملك هوغ الثالث خاصة، عجزوا عن اغتنام الظروف التي تلت وفاة السلطان بيبرس، فقد أظهر إبنا بيبرس، بركة الشاب اليافع ثم الفتى سلامش عجزاً عن الإمساك بالحكم، إلى أن تمكن المنصور قلاوون، أحد أهم قادة المماليك، واليد اليمنى للظاهر بيبرس، من السيطرة على أخصامه من الأمراء، فاستولى على الحكم عام 678هـ/ 1279م، ونصب نفسه سلطاناً في العام التالي، وطارد منافسه سنقر الأشقر نائب دمشق في حزيران عام 1280م، وأجبره بالقوة على الانسحاب شمالاً حتى أعلن ولاءه لقلاوون.

تابع المنصور قلاوون إكمال مسيرة بيبرس، في تقويض الوجود الإفرنجي على طول الساحل، وما أن ابتعد المغول عن شمالي سوريا بعد غزوهم حلب، حتى دخل جيش قلاوون المدينة، ثم انقض على الأسبتارية، وهم في طريقهم لاسترداد حصن الأكراد، فألحق بهم هزيمة نكراء وخسائر فادحة [2]. لكنهم استردوا بعض معنوياتهم عندما تمكنوا من رد المماليك عن حصن المرقب بعد أن قتلوا حوالي مئتين من المهاجمين.

وجد كل من قلاوون والإفرنج مصلحة في هدنة طويلة الأمد، يسترد بها الإفرنج أنفاسهم، ويستعد قلاوون بذلك لدفع الخطر المغولي القادم إلى بلاد الشام، فعقد في

---

[1] Runciman, Op.Cit, VOL III P 388- 389.

[2] أبو الفدا حوادث سنة679هـ، ج2 ، ص346.

13 محرم عام 680هـ/ أيار 1281م صلحاً منفرداً مع الأسبتارية، ثبّت بموجبه مقدمهم "تقولا لو لورني"، (Nicholas Le Lorgne) وجود منظمته في حصن المرقب[1] وفي عكا، تبعته الداوية في طرطوس وفي نواحي الساحل الفلسطيني، بشخص مقدمها وليم دو بوجو، سنة 681هـ/1282م، وبوهيمند السابع أمير طرابلس، ثم مع مملكة بيت المقدس[2]. فقد وجدت حكومة عكا،أن قلاوون هو الأقوى بين المماليك وأن حكمه راسخ، وأن من مصلحتها توطيد علاقاتها به، فأخذت تسرب إليه أخبار بعض المماليك الظاهرية المناوئين له[3].

اتخذت هذه الهدنة أهمية خاصة في تلك الحقبة التاريخية الدقيقة، فقد سعى السطان قلاوون من خلالها إلى منع التحالف بين المغول وبين إفرنج الشرق قاطبة، وقد أغرى أسياد عكا بأن أعاد لهم بعض الأراضي التي كان قد انتزعها منهم، كما تعهد بضمانات للحجاج الوافدين من عكا إلى كنيسة الناصرة. وألزم قلاوون أمراء الإفرنج في الشرق بضرورة إخباره عن تحركات المغول وسواهم ممن قد يغزو البلاد الإسلامية من الشمال أو الشرق، وتعهد أسياد عكا بحماية فلول جيوش المسلمين، في حال انهزموا خلال معاركهم ضد المغول.

ووافق الإفرنج على إخطار قلاوون قبل شهرين من فسخ الهدنة، إذا اضطروا للانضمام إلى أية حملة صليبية مقبلة من الغرب[4].

وفي جمادى الثانية 680هـ /خريف عام 1280م، توجه جيش المماليك من مصر والشام إلى منطقة حمص، بقيادة السلطان قلاوون، لوقف زحف جيش المغول القادم من فارس بقيادة الخان أبغا، ثم انضم إلى أبغا جيش ثانٍ بقيادة شقيقه منكوتمر، وجيش أرمينية بقيادة الملك ليو الثالث. نجم عن المعركةً نصر ساحق للمماليك، وحلت بالمغول وبحلفائهم هزيمة نكراء[5] في رجب سنة 680هـ/ تشرين أول 1280م، انتهت بانسحاب المغول وبتعرض الجيش الأرميني لكمائن التركمان والأكراد بما يشبه الإبادة، ولم يعش أبغا ولا شقيقه منكوتمر طويلاً بعد هذه الهزيمة، حيث توفي الأخير متأثراً بجراحه، ثم توفي أبغا مغموماً بعد بضعة أشهر. وقد كتب أحد فرسان الأسبتارية الإنكليز الذين اشتركوا في المعارك إلى ملكه إدوارد الأول يصف ما دار من أحداث، وحاول تبرئة بوهيمند أمير طرابلس

---

[1] بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة ص 191.

[2] المصدر السابق ، ص210-229-232.

[3] المصدر السابق، ص 191.المقريزي، السلوك ج1 ص 230 - Runciman, Op.Cit, VOL III P 391

[4] MICHAUD, Op.Cit,Tome V, Livre VIII, P:113.
حطيط ، قضايا من تاريخ المماليك، ص 86و87.

[5] أبو الفدا،المصدر ذاته، ج2، ص347.

والملك هوغ من تهمة التقصير كونهما لم يدخلا المعركة إلى جانب الإفرنج والمغول ضد المماليك[1].

وفي طريق عودة قلاوون إلى القاهرة منتصراً ، وافاه "سان سفرينو"، نائب ملك صقلية "شارل الإنجوي"، من عكا، وقدم له الهدايا وهنأه بالنصر على المغول[2].

وفي ذي الحجة 681هـ/نيسان 1282م، حل تكودار مكان أخيه أبغا في إيلخانية فارس، وأعلن اعتناقه الإسلام، واتخذ اسم أحمد تكودار وهادن قلاوون، ما أتاح للأخير أن يستأنف قضم مناطق الإفرنج من جديد.

وفي العام681هـ/ 1282م أيضاً، تقوّض مُلك "شارل أنجو" في أوروبا بسرعة، حيث ثار عليه الصقالبة وذبحوا فرسانه عن بكرة أبيهم، وكان لذلك الحدث أثره السريع على كل المناطق التي كانت تتبع له ومنها مملكة قبرص ومملكة بيت المقدس في عكا ، فغادر روجيه دو سان سفرينو المدينة إلى إيطاليا لملاقاة مولاه، وأحل مكانه بوظيفة البايلي وكيله " أودو بوالوشيان"(Odo Poilechien)، ووجد قلاوون من مصلحته تجديد الهدنة مع "أودو" وحكومة عكا عام 682هـ/ 1283م، ليتفرد بسواها من مواقع الإفرنج، وكان نفوذ حكومة عكا في حينه يمتد إلى صيدا وضواحي صور الشمالية دون مدينة صور ومن ثم إلى نواحي الساحل الفلسطيني، كما أبقى قلاوون طرق الحج إلى بيت المقدس آمنة ومحروسة.

حاول الملك هوغ الاستفادة من الفراغ الذي أحدثه ضعف سلطة الملك شارل أنجو وخروج نائبه روجيه من عكا، ولاءمه ظرف وفاة إيزابيلا صاحبة بيروت وانتقال الإمارة إلى شقيقتها "أشيفا" زوجة "همفري دو مونفورت" الشقيق الأصغر لصاحب صور.

أبحر هوغ من قبرص، في ربيع الثاني سنة 683هـ/ تموز 1283م، على رأس جيش من الفرسان ومعه ولداه هنري وبوهيمند، قاصداً عكا لكن الرياح أجبرت سفنه على دخول ميناء بيروت، ومنها انتقل فرسانه براً على الطريق الساحلي باتجاه صور، بينما واكبهم هو بطريق البحر[3]. فتعرض الجيش البري لكمائن من المماليك في منطقة إقليم الخروب[4]، بتحريض من الداوية في صيدا، ووصل الجيش إلى صور منهكاً ومتشائماً ينتظر بفارغ الصبر انقضاء الأربعة أشهر لكي يعود إلى قبرص، وبينما كان الملك هوغ ينتظر قدوم نبلاء عكا وفرسانها لاستقباله دون جدوى، صدم الملك بوفاة ابنه الواعد بوهيمند، تلته وفاة صديقه وحليفه حنا دو مونفورت صاحب صور، فانتقلت الإمارة إلى شقيقه همفري صاحب بيروت لكنه

---

[1] المقريزي، السلوك ج1 ص 233وص238_ Runciman ,Op.Cit, VOL III P 392.

[2] Runciman ,Op.Cit, VOL III P 392.- Grousset, Op.Cit,Vol 3, P: 690.

[3] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:214.

[4] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص234.

توفي بعد أقل من عام فعادت الإمارة إلى مرغريت أرملة حنا، كما تزوجت أرملة همفري من غي الابن الأصغر للملك هوغ فانتقلت بذلك إمارة بيروت إلى ابن هوغ.

وبانقضاء مدة الخدمة خارج قبرص غادر فرسانها عائدين إلى الجزيرة وبقي الملك هوغ في صور يسعى لاستعادة مملكة بيت المقدس إلى أن وافاه الأجل في20 ذي القعدة سنة 681هـ/ 4 آذار 1284م[1].

خلف هوغ إبنه الأكبر حنا وكان في السابعة عشر من العمر، وتوج في قبرص ملكاً عليها في نيقوسيا في 21 صفر/ 11 أيار، ثم انتقل إلى صور ليتوج في كاتدرائيتها ملكاً صورياً لبيت المقدس، حيث أن سلطته لم تكن تتعدى صور وبيروت، لكنه لم يعش أكثر من عام واحد بعد ذلك، فتوفي في 11 ربيع الأول 685هـ/ 20 أيار 1285م. وفي16 ربيع الثاني سنة 685هـ/ 24 حزيران من العام نفسه، توج شقيقه هنري الثاني ملكاً على قبرص وهو في الرابعة عشر من العمر، ولم يجرؤ الملك الجديد على العبور إلى سوريا لينال التاج الثاني.

وحانت الفرصة لقلاوون عام 684هـ/ 1285م، لينقض على حصن الأسبتارية في المرقب[2]، فهو صلة الوصل بين المغول من الشرق والإفرنج من الغرب فهادن الأميرتين في بيروت وصور بناء على طلبيهما، إذ أن الهدنة الموقعة مع حكومة عكا لا تشملهما، ثم توجه إلى حصن المرقب، فحاصره واحتله في16 ربيع الأول سنة 685هـ/ 25 أيار 1285م [3]، وأخلى من فيه إلى طرطوس ومنها إلى طرابلس[4].

وفي بلاد فارس ثار قازان بن أبغا على عمه أحمد تكودار وتسبب بمقتله، وتسلم الحكم في جمادى الثانية 684هـ/ آب 1284م، فكاتب الإفرنج مراراً، وأرسل الحبر "صوما" مندوباً من قبله إلى البابا وإلى ملوك أوروبا، عارضاً فكرة القيام بعمل عسكري مشترك ضد المماليك، لكن جهوده باءت بالفشل. فأوروبا منشغلة بحروبها الخاصة وإمكاناتها الاقتصادية باتت محدودة، والكرسي البابوي لم يعد له تأثيره القديم على الرعايا، والكرادلة مشغولون بمواضيع تتعلق بالعقيدة، أكثر من الأوضاع السياسية التي تتفاعل في الشرق، في الوقت الذي استعد فيه المماليك للقضاء على آخر معاقل الإفرنج في الشرق[5].

---

[1] Runciman, Op.Cit, VOL III P 394.

[2] أبو الفدا، المصدر ذاته، ج2، ص 355.

[3] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:217.-بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص252.

[4] المقريزي، السلوك، ج1 ص246.

[5] Runciman, Op.Cit VOL III P 390 & 398&400.

اغتم إفرنج الشرق لسقوط حصن المرقب، وتداعوا لتوحيد صفوفهم تحت سلطة ملك واحد، وبعد عدة مداولات اشترك فيها "جوليان لو جون" (Julian Le Jaune)، مندوب الملك هنري الثاني في عكا، مع المنظمات والفرقة الفرنسية والحاكم أودو، رست سفينة الملك هنري في عكا في 7 ربيع الثاني 686هـ/ 4حزيران 1286م، واستقبلته العامة بحفاوة، لكن رؤساء منظمات الفرسان الثلاثة غابوا عن الاستقبال، وآثروا البقاء على الحياد، إلتزاماً بالهدنة. وأمام إصرار أودو والحامية الفرنسية على البقاء في القلعة حيث مقر الملك، احتشدت الجماهير وازداد غضبها، وأوشكت على مهاجمة القلعة، مما اضطر أودو لتسليمها إلى قادة الفرسان الذين سلموها بدورهم للملك هنري الثاني، وفي صور في 20 جمادى الثانية/ 15 آب، تم تتويج هنري ملكاً على بيت المقدس، وعمت عكا احتفالات لم يشهدها إفرنج الشرق منذ وقت طويل، ثم غادر الملك الفتى والوسيم عائداً إلى قبرص، بناءً لنصيحة خاليه فيليب وبالدوين دو إيبلان، دون أن يعرف العامة أن ملكهم مصاب بداء الصرع، وعيّن خاله بلدوين حاكماً لينوب عنه في عكا[1].

وما كاد الملك يغادر، حتى اشتعلت الحرب بين الجنويين والبيزيين، في بداية العام 1287م/ ذي القعدة 686هـ، فقد وصل إلى الشرق أسطول جنوي بقيادة الأميرال توماس سبينولا وأورلاندو أشيري ، وبينما كان الأول يقوم بواجب التحية للسلطنة المملوكية في الإسكندرية ويؤمن بذلك حياد المماليك، كان الثاني يهاجم سفن بيزا أينما كانت ويهاجم حتى الإفرنج الذين هم من أصل بيزي، ولولا تدخل فرسان الداوية لَبِيع البحارة البيزيون في أسواق الرقيق. وفي منتصف العام 1287م، ربيع الثاني 687هـ، كان الجنويون قد سيطروا على البحار على طول الساحل الشرقي وحاصروا سفن البنادقة والبيزية في ميناء عكا، ولم تنته تلك الجولة إلا بعد تدخل رؤساء المنظمات الأسبتارية والداوية، لإقناع الجنويين بالعودة إلى صور والسماح بالملاحة للجميع على الشواطيء الشرقية للمتوسط[2].

استغل المماليك حالة الضعف السائدة بين الإفرنج ، فتابعوا سياسة القضم بالاستيلاء على مدينة اللاذقية، التي أضحت معزولة عن كونتية طرابلس. فدخلها الأمير حسام الدين طرنطاي في صفر 687هـ/ نيسان 1287م، في الوقت الذي كانت الحرب مشتعلة بين الجنويين والبيزيين[3].

توفي بوهيمند صاحب طرابلس واللاذقية، في شعبان سنة 687هـ/ تشرين أول 1287م، دون أن يكون له ولد، ولما كانت شقيقة له تدعى لوسي متزوجة من أحد

---

[1] Runciman, Op.Cit , VOL III P 390 & 397.
[2] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:227-228.
[3] Runciman, Op.Cit VOL III P 403.

نبلاء الملِك البائد شارل أنجو، فقد كره نبلاء طرابلس وتجارها نقل مثل هذه الحساسيات من صقلية إلى مدينتهم في الشرق، فعرضوا الإمارة على الأميرة سيبلا الأرملة الأرمينية، التي أصرت على تعيين بارثولوميو أسقف طرطوس حاكماً "بايلي" عنها، وكانوا يكرهونه، فسحبوا عرضهم لها، وأعلنوا طرابلس منطقة ذات حكم مستقل "commune"، وعينوا صاحب جبيل "بارثولوميو امبرياتشو" رئيساً للكومون، وأعدوا للأميرة لوسي بياناً بتجاوزات شقيقها ووالدها وجدها، والمظالم والأذى والإجحاف الذي ألحقته سلالتها بالطرابلسيين. واستعانوا بالجنوية لحماية النظام الجديد، كما كاتبوا جنوا طلباً للمؤازرة، فأرسلت حكومة جنوا خمس سفن حربية بقيادة الأميرال بنيتو زكريا (Benito Zaccaria)، لتوقيع معاهدة بين جنوا والنظام الجديد، لكن شروط المعاهدة كانت أشبه بجعل طرابلس شبه مستعمرة جنوية. مما أدى إلى إثارة شكوك كل من فرسان المنظمات وقناصل البنادقة والبيزيين، كما وجد الطرابلسيون أن السيطرة الجنوية قد تفقدهم سيادتهم على المدينة، فوجهوا رسالة إلى الأميرة لوسي في عكا، يعرضون عليها تسلّم كونتية طرابلس مجدداً، بشرط تسليم الحكم للنظام الجديد، وإذا بها تفاوض الجنوية على منحهم الامتيازات التي يطالبون بها شرط قبولهم بها كونتيسة للمدينة، وهكذا كان، وكان الخاسر الأكبر هو صاحب جبيل الذي كان يحلم بالكونتية له ولعقبه من بعده، فأرسل إلى السلطان قلاوون وربما حذا البنادقة حذوه، ينذرونه من الخطر الآتي من طرابلس، ويحذرونه من أن ذلك سيؤدي إلى سيطرة الجنوية على تجارة الساحل الشرقي بكامله، وأن تجارة الإسكندرية سوف تصبح مهددة وتحت رحمة الاحتكار الجنوي.

كان هذا الإنذار بمثابة دعوة للسلطان قلاوون لاستغلال الوضع المستجد، فتحرك الجيش المصري في محرم 689هـ/ شباط 1289م، وسار إلى سوريا ليصل في شهر صفر/ أواخر آذار، إلى أسوار طرابلس[1]، رغم التحذيرات التي أرسلها رئيس الداوية وليام دو بوجو إلى المدينة، فقد علم مسبقاً بنية المماليك من خلال علاقته الخاصة بالأمير بدر الدين بكتاش الفخري، لكن أحداً لم يصدقه، واعتقد الفرنج أن رئيس الداوية اختلق هذه القضية لتعزيز وجوده في طرابلس[2].

ما أن تأكد الفرنج من وجهة جيش المماليك، حتى سارعت كل الأطراف إلى الاستعداد للدفاع عن المدينة، فوضع نبلاء طرابلس أنفسهم وحكومتهم بتصرف الكونتيسة لوسيا، وعزز الداوية وجودهم بإرسال قوة برئاسة الماريشال "جوفري دو فاندالك" (Geoffrey De Vendac)، وحذا فرسان الأسبتارية حذوهم بإرسال

---

[1] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص 266.

[2] Runciman, Op.Cit, VOL III P 405-406.

قوة بقيادة الماريشال "ماثيو دو كليرمونت" (Matthew De Clairmont)، وانطلقت القوة الفرنسية بقيادة "حنا دو غرايلي" من عكا إلى طرابلس براً، وكانت بعض السفن الإيطالية تؤازر في الدفاع عن المدينة بحراً، منها أربعة للجنوية وأثنان للبنادقة، إضافة إلى مراكب صغيرة متعددة الجنسيات بعضها للبيزيين. وأرسل الملك هنري من قبرص مجموعة من الفرسان، وعلى رأسهم شقيقه الأصغر عموري، الذي كان قد عين للتو "كونستابل" مملكة بيت المقدس أي قائداً لجيشها. وفي الوقت ذاته بدأ إخلاء المدنيين العزل من طرابلس إلى قبرص بحراً.

كان الفرنج يستندون إلى الجانب البحري في الدفاع عن المدينة، وكانوا على يقين من أن الدفاع في البر عند قلعة سان جيل لن يصمد طويلاً، فما أن انهار البرجان الجنوبيان للمدينة، من قبل أن تبدأ المعركة حتى انهارت معهما معنويات البنادقة، فانسحبوا بحراً ومعهم كل كنوزهم وثرواتهم، وبحجة أن البنادقة حاولوا الاستيلاء على مراكب الجنوية، أصدر الأميرال زكريا أوامره إلى الجنوية، بركوب السفن وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الثروات. مما أشاع في المدينة جواً من الإرباك والفوضى.

وفي صباح الأول من ربيع الثاني 689هـ/ 26 نيسان 1289م، أصدر السلطان قلاوون أمره بالهجوم العام على المدينة، وكان اقتحامها من جهة البرجين المنهارين جنوب المدينة من أسهل محاور الهجوم، فدب الذعر في صفوف الأهالي وهرعوا إلى المرفأ لركوب البحر، وكذلك فعلت الكونتيسة لوسيا والأمير عموري، وماريشالا الداوية والأسبتارية، حيث ركبوا إلى قبرص ووصلوها بأمان، بعد أن قتل قائد الداوية "بطرس دو مونكادا" وصاحب جبيل "بارثولوميو أمبرياتشو". ودخل المماليك المدينة فقتلوا كل رجالها وسبوا نساءها وأطفالها[1]. مما اضطر رهبان دير البلمند جنوبي طرابلس إلى اللجوء إلى جزيرة قبرص أيضاً[2]. كذلك قضى المماليك على مجموعة من الأهالي حاولوا الالتجاء بواسطة مراكب التجديف الصغيرة إلى جزيرة القديس توما (جزيرة الأرانب)، فتبعهم المماليك ولم ينج منهم أحد[3].

أمر قلاوون بتدمير القسم البحري من المدينة، وببناء المدينة الجديدة عند أسفل قلعة سان جيل بعيداً عن البحر[4]، وتابع المماليك احتلالهم لأنفه والبترون دون مقاومة تذكر، وأقر قلاوون "بطرس أمبرياتشو" على جبيل، ولكن تحت رقابة مملوكية

---

[1] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:236-237.

[2] القطار ، لبنان في القرون الوسطى، ج2، ص545.

[3] أبو الفدا، المصدر ذاته، ج2، ص358.

[4] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص267.

مشددة بعد أن أعلن بطرس ولاءه التام للسلطان، فأطال بذلك مدة وجود الإفرنج في جبيل لعشر سنوات أخرى.
فور سقوط طرابلس، أبحر الملك هنري الثاني إلى عكا، فوجد فيها موفداً للسلطان قلاوون ينتظره، ليعاتبه ويعاتب قادة منظمات الفرسان ، على نقضهم الهدنة المعقودة مع السلطان، كونهم آزروا إفرنج طرابلس في المعركة الأخيرة، فرد الملك هنري بأن المعاهدة تعني مملكة بيت المقدس في عكا وتوابعها، ولا تدخل فيها نواحي طرابلس، ولو كانت المعاهدة تشمل طرابلس لما كان ينبغي للسلطان أن يهاجمها، فجاء رده مقنعاً وجددت المعاهدة بين السلطان وبين مملكتي بيت المقدس وقبرص لعشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام جديدة [1].
كما سارع الملك الأرميني وأميرة صور، إلى طلب تجديد المعاهدة مع السلطان قلاوون، لكن الملك هنري كانت تراوده الشكوك في صحة مثل هذه المعاهدات بعد الذي جرى في طرابلس، وكانت مخاوفه أكبر فيما لو حاول الاتصال بالمغول، لأن ذلك سوف يدفع السلطان إلى الانتقام من مملكة بيت المقدس فور انحسار الهجمة المغولية، ولم يجد بداً من إرسال "حنا دو غرايلي" إلى أوروبا، لوصف الوضع المقلق واليائس للإفرنج في الشرق، ثم عاد إلى قبرص بعد أن عين أخاه عموري "بايلي" على عكا.
شكل سقوط طرابلس في أوروبا صدمة جديدة لحكامها، لكنهم كانوا أمام أزمات مباشرة في بلادهم تشكل أخطاراً أكبر على ملكهم ووجودهم، فالأزمة الصقلية جاثمة في أذهان حكام فرنسا وإيطاليا وألمانيا ودولة الفاتيكان. والملك الإنكليزي إدوارد يواجه حرباً إنفصالية في اسكوتلندا، مما يشغله تماماً، على الرغم من وعيه وإدراكه لضرورة القيام بحملة صليبية في الشرق. وأما البابا نقولا الرابع، فقد أخذ الأمر بمنتهى الجدية وعرف خطورته فكاتب كل الحكام في أوروبا، ونبّه إلى المآسي التي وقعت والتي ستقع، والحقيقة أن معظم نبلاء أوروبا كانوا يرون في الملك الإنكليزي إدوارد القائد الأكبر للحملة الصليبية القادمة، وكانوا ينتظرون تحركه للزحف تحت رايته، لكن إدوارد لم يتحرك.

زادت بعض الأحداث اللاحقة التي أقدم عليها الغرب، من تعقيد أوضاع مملكة بيت المقدس وفي تدهور الأمن فيها وحولها. فقد بات الأمر بيد السلطان قلاوون، وصار بإمكانه الرد على كل بادرة إفرنجية بما يناسبها، فحاول الجنويون مثلاً الثأر لما خسروه في طرابلس، بأن سطوا على سفينة تجارية مصرية بالقرب من أنطاليا ، ثم هاجموا ميناء التينة(الطينة) الصغير عند دلتا النيل، فأغلق قلاوون ميناء الإسكندرية بوجه التجار والسفن الجنوية، مما اضطرهم إلى إرسال سفارة

[1] Runciman, Op.Cit, VOL III P 408.

جنوية إلى القاهرة، وفوجيء الوفد الجنوي بوجود موفدين من الإمبراطورين البيزنطي والألماني في بلاط السلطان، ينتظرون الإذن للدخول عليه[1]، إشارة إلى قوة دولة المماليك في عهد قلاوون وتعاظم نفوذها.

كذلك أقدم الإفرنج على خطوة كان لها أثراً فادحاً على مجريات الأمور في عكا، إذ وافق البابا على إرسال مجموعة من الفلاحين والعاميين من شمالي إيطاليا (لومبارديا وتوسكانا) إلى عكا، بلغ عددهم حوالي الألف والستمائة ، ليس فيهم أمير أو نبيل أو فارس يقودهم أو يتفهم أوضاع اللاتين المزرية في الشرق، إذ لم يتطوع أحد غيرهم لتعزيز مملكة بيت المقدس[2].

لم يكن البابا راضياً عن مثل هذا النوع من التعزيز، لكنه أذعن للأمر الواقع وحاول تنظيم شؤونهم قدر الإمكان، فأمّر عليهم أسقف طرابلس، الذي كان قد لجأ بعد سقوطها إلى روما، آملاً في أن يتمكن هذا الخبير بأمور الشرق ومتاعبه، من أن يخفف من حمق عناصر هذه الحملة ومن تهورهم.

تحمّس البنادقة لهذه الخطوة رغبة منهم في تعزيز الدفاع عن عكا، المركز الرئيسي لتجارتهم في الشرق، ولأن سقوطها سيؤدي إلى خسارة أكبر من خسارة الجنوية في طرابلس. فوضعوا بتصرف الحملة عشرين سفينة، بقيادة "نيقولا تيوبولو" (Nicholas Tiepolo) إبن دوج البندقية، يعاونه بناء لطلب البابا، كل من "حنا دو غرايلي" و "رو دو سوللي" (Roux De Sully)، وزود البابا كلاً من الثلاثة بألف قطعة نقدية. لكن هذه الحملة بقيت تعاني نقصاً فاضحاً في الذخائر، ثم قام جاك ملك أراغون بتعزيز الحملة بخمس سفن إضافية[3].

وقبل أن تصل الحملة الإيطالية إلى شواطيء الشرق عام 690هـ/ 1290م، كانت عكا تستفيد من حسن تطبيق الهدنة المعقودة مع السلطان قلاوون، وتنعم بصيف هادىء زاهر تأتيها البضائع من كل مناطق المسلمين، تدب فيها الحياة وتنشط فيها التجارة، ويرتاد أسواقها تجار من كل الجنسيات والأديان والمذاهب، ويسودها الأمن والرخاء، على عكس الفوضى السياسية فيها.

إلى أن وصلت الحملة في شهر آب، لتقطع على عكا مواسمها، فقد أعجز عناصرها قادتهم عن ضبطهم إذ عجزوا عن دفع رواتبهم بانتظام، وكذلك وقفت السلطة في عكا مقيدة أمام سوء تصرفاتهم، فأكثروا من الشرب والفسق والتعديات على الناس بدءاً بالتجار المسلمين في عكا وبالفلاحين المسلمين الذين يقطنون في جوارها. وفي أواخر شهر آب حصلت بعض أحداث الشغب في إحدى حانات عكا،

---

[1] Runciman, Op.Cit VOL III P 409.

[2] Bustron, Op.Cit, P:118-930. عاشور ، الحركة الصليبية ج2 ص

[3] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:238.

تطور الأمر بعدها إلى ما لا تحمد عقباه، فخرج الإيطاليون إلى الشوارع ثم إلى الضواحي، وقتلوا كل من صادفهم من المسلمين حتى أنهم لفرط جهلهم جعلوا يقتلون كل من صادفهم من أصحاب اللحى حتى ولو كان مسيحياً، وعجز النبلاء وفرسان المنظمات عن ضبط الأوضاع، فحاولوا إنقاذ بعض المسلمين الموجودين في عكا بإيوائهم إلى قلاعهم، وتمكنوا من توقيف بعض المشاغبين بصعوبة[1].

طارت أنباء المجزرة إلى أصقاع بلاد المسلمين، واعترت السلطان قلاوون سَوْرَةٌ من الغضب[2]، قرر بعدها أن الوقت قد حان لإجلاء الفرنج من سوريا نهائياً، ولم يفلح الموفدون من عكا في تطييب خاطره والاعتذار له، بل أصر عليهم أن تقوم سلطات عكا بتوقيف المسؤولين عن المجزرة وسوقهم إلى القاهرة للاقتصاص منهم.

وصلت بعثة السلطان قلاوون إلى عكا، واجتمعت بحكومتها التي انعقدت برئاسة عموري شقيق الملك هنري والكونستابل فيها، وطرحت مسألة تسليم القتلة للقاهرة، فوافق رئيس الداوية على ذلك، لكن الرأي العام لم يكن ليوافق مطلقاً على توقيف أي مسيحي كان، وتسليمه إلى المسلمين، لأن عقوبته ستكون القتل حتماً، فعادت بعثة السلطان دون تحقيق تقدم يذكر، خاصة وأنها أسمِعت أن بعض المسلمين الذين كانوا في عكا هم الذين تسببوا ببدء الشغب.

لم يبق أمام قلاوون سوى الاحتكام إلى القوة، خاصة بعد أن أفتى مستشاروه بأن الفرنج هم الذين نقضوا الهدنة، وأنه معذور شرعاً بلجوئه إلى الحرب. فبدأت الاستعدادات للحرب في كل من القاهرة ودمشق، وبدأ تجهيز آلات الحصار جنوبي فلسطين، على أن وجهة المماليك سوف تكون أفريقية بقصد التمويه عن عكا، الوجهة الحقيقية.

لم تنطلِ حيلة المماليك على رئيس الداوية "وليم دو بوجو"، فأرسل رسوله إلى القاهرة، وسمع من السلطان اقتراحاً بتقاسم عكا بين الفرنج والمماليك، مما أغضب حكومة عكا، واتهم النبلاء رئيس الداوية بالخيانة، وثارت حفيظة الجماهير خارج قاعة الاجتماع، ولم ينج "بوجو" من شتائم الحشود عند خروجه[3].

وما أن خرج السلطان قلاوون بجيشه إلى ظاهر القاهرة، حتى اعتراه المرض وتوفي بعد ستة أيام في3 ذي القعدة سنة 690هـ/ 10 تشرين الثاني 1290م، تاركاً لابنه الأشرف خليل السلطان والحكم، ومهمة تحرير بقية المناطق التي لا تزال بيد الإفرنج[4].

---

[1] Runciman, . OP.CIT. VOL III, P:410.

[2] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص 270.

[3] Runciman , Op.Cit, VOL III P 411.

[4] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص:270.

4- سقوط مملكة بيت المقدس اللاتينية

تسلم الأشرف خليل السلطنة في أواخر الخريف، فاستفاد من الطقس الرديء لتوطيد حكمه والقضاء على خصومه من أمراء المماليك. وانتظر تحسن الأحوال الجوية ليستأنف الأعمال العسكرية ضد عكا مع أوائل ربيع العام 1291م/ صفر 691هـ. وفي تلك الأثناء، أمر الملك هنري الثاني بتحصين أسوار عكا المزدوجة، وتعزيز دفاعاتها وأبراجها الإثني عشرة، التي أنفق على بنائها في السابق عدد من أثرياء أوروبا، بمن فيهم الملك الإنجليزي إدوارد الأول والملك هنري الثاني نفسه وسلفه الملك هوغ الثالث.

ظهرت نوايا السلطان الأشرف خليل واضحة، حين أرسلت حكومة عكا أحد أهم وجهاء مملكة بيت المقدس، "فيليب مانبوف" (Philip Mainboeuf) إلى القاهرة، وكان يجيد اللغة العربية، يرافقه فارسان أحدهما من الداوية والآخر من الأسبتارية، لكن السلطان الأشرف خليل رفض استقبالهم وزج بهم في السجن وانقطعت أخبارهم بعد ذلك[1].

إنطلق الأشرف على رأس الجيش المصري من القاهرة في 2 ربيع الأول/ 6 آذار ، وأخذت القوات التابعة له تتوافد من كل المناطق، وكانت آلات الحصار الثقيلة قد بدأت تحركها من قبل ليتوافق وصولها إلى جوار عكا مع وصول الفرق العسكرية الخفيفة، ووصل السلطان إلى مشارف المدينة في الخامس من نيسان، ويقدر المؤرخون بأن عدد المجانيق فاق المائة، بينما قدرت أعداد الفرسان بستين ألفاً والمشاة بمائة وستين ألفاً وضرب الأشرف حصاراً نهائياً ومحكماً حول المدينة[2].

كان تفوق أعداد المماليك بارزاً وواضحاً، إذ لم يزد عدد المقاتلين والمدنيين المجندين في عكا على الثلاثين أو أربعين ألفاً، بمن فيهم حوالي ألف فارس وأربعة عشر ألف جندي من المشاة، وذلك على الرغم من وصول بعض التعزيزات من أوروبا خلال الشتاء المنصرم، ومن بينها قوة يقودها السويسري أوتو دو غراندسان (Otto De Grandson)، وفيهم فرسان إنجليز أرسلهم الملك إدوارد الأول. وكذلك عززت منظمتا الفرسان الأسبتارية والداوية وجودهما في عكا باستقدام المزيد من الفرسان من أوروبا، وبعد أن أقدم رئيس منظمة فرسان التيوتون الألمانية (Burchard De Schwanden) على تقديم استقالته اجتهد رئيس المنظمة الجديد كونراد (Conrad De feuchtwangen) في استقدام المزيد من الفرسان وإعادة الاعتبار للمنظمة في ذلك الوقت العصيب.

---

[1] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، ص279-280. Runciman, Op.Cit, Vol III p 412

[2] Bustron, Op.Cit, P:119.

كذلك أرسل الملك هنري الثاني عدداً من الفرسان القبارصة، ووضعهم تحت قيادة شقيقه عموري، ووعد بأن يصل هو نفسه إلى عكا لاحقاً مع المزيد من الفرسان، لقيادة معركة الدفاع عن عكا.

تولى الفرسان القبارصة مهمة الدفاع عن المنطقة الأضعف في الأسوار، عند الزاوية الحادة في القطاع الأوسط، وإلى يمينهم الفرسان الفرنسيين والانجليز، بينما يقوم فرسان التيوتون بدعم هذه الجبهة من الخلف، كما أوكلت مهمة الدفاع عن القطاع الجنوبي إلى البنادقة والبيازنة حتى البحر جنوباً يدعمهم فرسان عكا، وتقاسم القطاع الشمالي فرسان الأسبتارية إلى يسار القبارصة وفرسان الداوية حتى البحر شمالاً[1].

بالمقابل، قسم السلطان خليل جيوشه على ثلاثة جبهات، فأوكل الجبهة الشمالية إلى جيش حماة في مواجهة الداوية، وإلى جيش الشام في مواجهة الأسبتارية، وتولى الجيش المصري مواجهة الجيش القبرصي في الوسط ثم إلى الجنوب في مواجهة الفرسان الفرنسيين والانجليز ثم البنادقة والبيزيين وفرسان عكا حتى البحر جنوباً. وجعل مقر قيادته قريباً من البحر جنوباً، وفي مواجهة برج الموفد البابوي (Tower of the Legate) في الداخل، وقرر تركيز الجهد الرئيسي للمعركة على برجي الملك هوغ والملك هنري في القطاع الأوسط الداخل في البر حيث يصعب دعمهما من البحر[2].

سارع المدافعون إلى إخلاء اكبر عدد من النساء والأولاد من عكا إلى قبرص بحراً، وكان لا بد من فرار عدد من الرجال الأثرياء وبعض التجار الإيطاليين معهم، لكن البنادقة والبيازنة عامة أبلوا في المعركة بلاء حسناً، وقد سيطر الفرنج على البحر بلا منازع، مما أتاح للمدافعين التزود بالمواد الغذائية دون انقطاع. وأوقع منجنيق ضخم ركّب على سفينة بيزية خسائر كبيرة في صفوف المسلمين، ثم ما لبثت الأمواج العاتية أن حطمته [3]. وأخذ الدعم البحري للإفرنج يواجه صعوبات كبيرة بسبب ارتفاع البحر.

بدأت المعركة في السادس من نيسان، بقصف كثيف من المجانيق المملوكية وتنوعت قذائفها بين الحجارة الثقيلة والقذائف الحارقة، وغطت موجات من أسهم مشاة المماليك سماء عكا وطالت الجنود المكتظين على سطوح الأسوار وفي الممرات والشوارع خلفها. وقد روي أن السلطان خليل جمع أمام كل برج من الأبراج حوالي ألف من المهندسين لتدميره أو إحداث الأنقاب فيه.

---

[1] AMADI, Op.Cit ,P:225.

[2] Runciman, Op.Cit, Vol III p 414.

[3] أبو الفدا، المصدر ذاته، ج2، ص 360.

بقيت المقاومة في عكا شديدة ومتماسكة حتى مساء الخامس عشر من نيسان على الرغم من قلة الذخائر وعدم توفر اليد الخبيرة القادرة على سد الفرج التي أحدثها المماليك في الدفاعات الإفرنجية، فقرر الداوية، بدعم من الفرقة السويسرية، التسلل من السور والقيام بعملية إغارة أخذت الجيش الحموي على حين غرة أولاً لكنها ما لبثت أن انكشفت فتم أسر فرسان الداوية بينما عادت القوة السويسرية أدراجها بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح. ثم قرر الأسبتارية أن يحذوا حذو الداوية بعض بضعة أيام لكن الجيش الشامي كان مستعداً في الظلام فأضاء مشاعله فجأة ليقضي على المحاولة ويعود الأسبتارية من حيث أتوا بعد أن منوا بفشل ذريع، فاستبعد الإفرنج بعد ذلك أية عملية خروج وراء الأسوار خوفاً من خسارة المزيد من الفرسان وبدأت معنويات الإفرنج بعد ذلك تتأثر واصبحت كفة النصر عند المماليك تبدو راجحة.

وفي 2 جمادى الأولى 691هـ/ الرابع من أيار 1291م، بعد شهر من بدء الحصار، أرسى الملك هنري الثاني أسطوله في عكا قادماً من قبرص، ومعه مائة فارس وألفين من المشاة في أربعين سفينة، يرافقه رئيس أساقفة نيقوسيا[1]، فتسلم القيادة على الفور وأعطى بوصوله دفعاً مؤقتاً وآمالاً كبيرة للمدافعين [2], لكن سرعان ما أيقن الجميع أن التعزيزات التي وصلت لم تكن لتغير شيئاً من موازين القوى، إذ أن عكا كانت مكتظة بالمقاتلين لكن لا سبيل إلى المناورة. لذلك وجد الملك ضرورة للقيام بمحاولة أخيرة لإرساء نوع من الهدنة مع السلطان، فأرسل إلى معسكره موفدين، صدهما السلطان مباشرة بسؤالهما لماذا لم يأتوه بمفتاح المدينة، ثم فرض عرضاً واحداً على الملك هنري يقضي باستسلام المدينة مقابل الحفاظ على أرواح الموجودين فيها، وذلك تقديراً منه لشجاعة الملك هنري، الذي قدم لنجدة عكا على الرغم من مرضه[3]. لكن الموفدين أظهرا للسلطان عجزهما عن اتخاذ قرار بهذا الحجم، ولم ينجيا من غضب السلطان إلا بصعوبة حتى أذن لهما بالالتحاق بمعسكرهما.

ومنذ الثامن من أيار وحتى الخامس عشر منه، أخذت الأبراج الأمامية تتهاوى تحت تأثير الخرق ثم الحرق، وشدد المماليك هجومهم على زاوية الملك هنري وجوارها حتى تمكنوا من اجتياز خط الأسوار الخارجي (خط الدفاع الأول)[4] واحتلوا الممرات ما بين السورين، لتبدأ معركة اجتياز البوابات الرئيسية في خط الأسوار الداخلي (خط الدفاع الثاني)، وفي 16 جمادى الأولى /الثامن عشر من

---

[1] Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:246.
[2] Bustron, Op.Cit P:120.
[3] Runciman Op.Cit, Vol III p 416-417.
[4] Le Templier De Tyr, Op.Cit,, P:248.

أيار، أصدر الأشرف خليل أوامره بالهجوم العام على طول القطاعين الأوسط والجنوبي، وزج بكامل احتياطه عند زاوية القبارصة فنجح باختراق الدفاع الأخير، وتمكن المماليك من توسيع الخرق يميناً ويساراً حتى أصبح الدفاع عند الأسوار بلا فائدة وانتقلت المعركة إلى شوارع عكا حيث أيقن الجميع أن الدفاع عن عكا صار مستحيلاً.

عمت الفوضى في المدينة، وبدأ الفرار الكبير منها إلى البحر في الوقت الذي صمد فيه عدد كبير من الفرسان حيث قاتلوا بشجاعة وشراسة حتى الموت [1]، وكان رئيس الداوية وليم دو بوجو أول من أصيب من القادة بجرح بليغ تسبب بوفاته ، تلاه مارشال الأسبتارية ماثيو دو كليرمونت الذي قاتل حتى الموت، كما جرح رئيس الأسبتارية جان دو فيليه فنقله فرسانه إلى أحد المراكب رغماً عنه، وفر صاحب جبيل من عكا، وكان قد سبقه إلى ركوب البحر الملك هنري وشقيقه عموري[2]، مما دفع إلى اتهامهما بالجبن والانهزام، لكن واجبه كملك لقبرص كان يقضي بأن يحافظ على حياته وأن لا يقع في الأسر. ثم إن الوضع السيء في المدينة حدا بمعظم النبلاء إلى الانسحاب وتنظيم عملية الإركاب في البحر قدر الإمكان، فقد كانت السفن الكبيرة ترسوا بعيداً عن الشاطيء، وكان يجري النقل إليها بمراكب التجديف والمراكب الصغيرة، ثم عمت الفوضى التامة بعد ذلك، وكان لا بد من أن تتخلل ذلك أعمال سرقة وابتزاز بحق الركاب، قام بها بعض المغامرين والفرسان في ذلك الوقت العصيب [3].

وفي مساء 16 جمادى الأولى سنة 691هـ/ الثامن عشر من أيار، كان المماليك قد سيطروا على المدينة باستثناء برج الداوية، حيث تحصن من بقي من الفرسان وبعض الأهالي، فصمد هؤلاء لمدة عشرة أيام ، حتى الثامن والعشرين من أيار بعد مفاوضات وخدع انتهت بانهيار البناء على رؤوس المهاجمين والمدافعين معاً[4].

ثم أمر السلطان بتدمير المدينة وتخريبها، بعد أن صودرت ثرواتها ومخازنها، كي لا تصلح بعد ذلك لأي إنزال قد يقوم به الإفرنج لاستردادها.

وكانت حصيلة المعارك أن عدد القتلى من الإفرنج فاق عدد الأسرى والسبي منهم، إذ قضي على كل من صودف في الشوارع، ولم ينج سوى بعض الذين تم إيواؤهم في المنازل حتى وضعت الحرب أوزارها.

في اليوم التالي، جرد السلطان الأشرف حملة على طول الشاطيء، فوصلت إلى مشارف صور، حيث استسلمت المدينة بعد أن فر منها حاكمها" البايلي آدم دو

---

[1] MICHAUD, Op.Cit,Tome V, Livre VIII, P:139.

[2] حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، ص:87.

[3] Runciman Op.Cit Vol III p 418-419.

[4] بيبرس الدوادار، المصدر ذاته، 280- .Le Templier De Tyr, Op.Cit, P:255

كافران" (Adam De Cafran) إلى قبرص. ثم توجه الأمير الشجاعي إلى صيدا، حيث تحصن فرسان الداوية مع كنوزهم وثرواتهم، فهرب قائدهم إلى قبرص ثم تبعه رجاله فدخلها المماليك في 14 رجب/ 14 تموز، وأمر بتخريب قلعتها أسوة ببقية القلاع الساحلية. ثم ظهر الأمير الشجاعي بعد أسبوع على مشارف بيروت، ولم تنفع معه الهدنة التي كانت قد أقرت سابقاً مع المماليك، فأقدم على اعتقال أمرائها، الذين جاؤوا لتقديم واجب الطاعة وساقهم أسرى، مما حدا بالبقية إلى ركوب البحر والفرار إلى قبرص أيضاً، فدخل المماليك إلى بيروت في 1 شعبان/ 31 تموز، وأزالوا معالم قصور عائلة إيبلان عن بكرة أبيها[1].

وهكذا، أخذت بقية مدن الإفرنج وقلاعهم تتساقط، من حيفا إلى عتليت إلى طرطوس[2]، ولم يبق للإفرنج وجود، لا على الشاطيء الشرقي للمتوسط، ولا في بره، إلا في جزيرة أرواد حيث تمركز بعض فرسان الداوية، وبقوا فيها لاثني عشرة سنة إضافية [3]. بينما بقيت جموع كثيرة من فلاحي النصارى بسبب ارتباطهم بالأرض، ولعدم تورطهم مع الفرنج في المدن[4].

ثانياً–مرحلة الصراع المركّز

1–قبرص اللاتينية وريثة بيت المقدس

على أثر زوال مملكة بيت المقدس، اجتمعت عوامل عدة لمصلحة المملكة القبرصية اللاتينية، فقد أقفلت الرمال جزءاً من ميناء طرطوس الأرمني، وصار الرسو فيه صعباً، مما زاد في أوضاع التجار الأوروبيين تضييقاً، وكان الأشد على هؤلاء، هو حالة الحرب والقلق المستمرة في المناطق المتاخمة للسلطنة المملوكية شمالاً ، إذ كانت مملكة أرمينية الصغرى تعاني من حالة حرب مستمرة مع جيرانها ومن مناخها السيئ والأوبئة التي تضربها باستمرار.

أما في أقصى الشمال فلم تكن المناطق التي يسيطر عليها مغول القفجاق ملائمة، لأسباب دينية، وبسبب سوء تصرف التجار الإيطاليين واستعلائهم على أهل البلاد، فعلى سبيل المثال، قام "طقطاي" زعيم مغول القفجاق بمطاردة الإفرنج الجنوية عام 707هـ/1307م [5]، ثم نهب أموالهم وممتلكاتهم في مدينة سراي وما حولها. كما أقفل الزعماء القفجاق البحر الأسود في وجه السفن الأوروبية طيلة القرن الرابع العاشر للأسباب ذاتها[6]. ولم تكن أوضاعهم مع مغول الشرق أحسن حالاً إذ كانت

---

[1] Bustron, Op.Cit P:126.

[2] أبو الفدا، المصدر ذاته، ج2، ص361.

[3] AMADI, Op.Cit ,P:238.

[4] الياس القطار، لبنان في القرون الوسطى، ج2، الفرنج-الصليبيين ص308.

[5] العيني، عقد الجمان، ج4 ص 226 وص462 و463.
(ورد في الصفحتين الأخيرتين "طقطا" بدلاً من طقطاي).

[6] هايد، المرجع ذاته،ج3 ص299.

بضائعهم وأرواحهم عرضة للخطر بسبب النفور بينهم وبين السكان لأسباب دينية، رغم كل التسهيلات والحماية التي كان إيلخانات فارس يقدمونها لهم[1] فقد كانت أقصر رحلة للتجار الأوروبيين عام 705هـ/ 1305م متجنبين المناطق الخاضعة للسلطنة المملوكية من آياس الأرمنية إلى الصين تستغرق ستة أشهر[2].

فجاء موقع قبرص المميز من الناحية الجغرافية والأمنية موافياً لمتطلبات التجار الإيطاليين، والمهجرين والمهاجرين الآتين من مدينة عكا وأخواتها على طول الساحل الشرقي للمتوسط، والمقاتلين التابعين للفرق والمنظمات الغربية. فازدحمت في مدن قبرص وشوارعها جماعات من كل الطبقات ومن كل الجنسيات ومن كل المهن. وبين ذهول القادمين وترتيبات التلقي التي اتخذتها السلطات القبرصية على عجل، ظهرت مملكة قبرص اللاتينية كحاجة وكنتيجة للتطورات الخطيرة والتغيرات الجذرية التي عصفت بالإفرنج في الشرق.

وما اعتبر أزمة ومشكلة وكارثة لدى الإفرنج، كان ينعكس انفراجاً وفرحاً واحتفالاً في أوساط العرب والمسلمين على أثر سقوط عكا وبقية المناطق الساحلية بيد المماليك. وانفرط عقد الحصار المضروب على بلاد المماليك، وعاد هؤلاء إلى التحكم منفردين بتجارة الشرقين الأقصى والأدنى.

وأمام التردي في ضبط الحصار الغربي على السلطنة المملوكية، كان لا بد من اتخاذ إجراءات أكثر ضبطاً وأشد صرامة، ومثل تلك القرارات لا تصنع ولا تسمع إلا إذا صدرت عن الكرسي الرسولي.

أ- حلف "الإتحاد المقدس" (733هـ/1333م)

لم تتوقف الهجرة التركية إلى آسية الصغرى طيلة القرن الثالث عشر، على الرغم من دخول المغول على خط الصراع في الشرق الأدنى، وبصرف النظر عن إحتدام المعارك فيه بين المسلمين والإفرنج. وقد ساعد على استيطانهم في تلك المنطقة ذلك الضعف الذي حل بالإمبراطورية البيزنطية جراء الحملة الصليبية الرابعة التي استهدفتها وجعلت منها مملكة ضعيفة قلصت أراضيها وشتتت رعيتها ودمرت إقتصادها، وأدخلتها في صراعات داخلية اضطرتها لتطويع العنصر التركي في مرتزقتها، فكان الترك داخلها وخارجها.

ومع حلول القرن الرابع عشر، لمس الترك أهمية التجارة وأهمية المرافئ التجارية على سواحل آسية الصغرى، ومنذ العام 717هـ/ 1318م، أولوا عنايتهم ببناء السفن وخوض البحار القريبة، ثم أخذوا يهددون جزر بحر إيجة الإغريقية[3].

---

[1] هايد، المرجع السابق ، ج2 ص306.

[2] المرجع ذاته ، ج3ص75.

[3] Setton K. The Papacy & the Levant Vol I P: 177.

كما تنامى الوجود التركي في آسية الصغرى في غفلة من البابوات وملوك أوروبا، المهتمين بتحرير بيت المقدس وباستهداف الموانئ المملوكية الشامية والمصرية، والمنشغلين بهجرة البابوات من روما إلى أفينيون في فرنسا 709هـ/ 1309م، بسبب ضغط العائلات الإيطالية النافذة.

وغاب عن نظر المدن الإيطالية توسع الأتراك من بر الأناضول إلى سواحله، ولم يستفيقوا إلا بعد أن سيطر الأمير عثمان (ت 727هـ/ 1326م) على مساحات واسعة شملت المناطق الشمالية من آسية الصغرى حتى بحر مرمرة وغطت قسماً كبيراً من سواحلها الشمالية والشرقية، ثم قام إبنه أورهان من بعده باحتلال نيقية عام 730هـ/ 1329م، ونيقوميديا عام 738هـ/ 1337م، وإلى جانب إمارة عثمان إنتشرت عدة إمارات تركية على السواحل الجنوبية كانت من أكثرها نشاطاً إمارة عمر بن محمد صاحب أيدن التي تضم مرفأ إزمير الهام، وكان عمر باشا من السباقين في اكتشاف أهمية التجارة وفي أهمية حمايتها بأسطول بحري يحمي المرفأ وتجارته ويخوض في بحر إيجه للتجارة تارة وللقرصنة تارة أخرى[1].

ثمة ضعف آخر حل بأوروبا الغربية وهو عجز ملوك فرنسا بعذر أو بدون عذر عن الإنطلاق في حملة صليبية ضخمة موعودة لم تأتِ أبداً. فقد أظهر ملوك فرنسا على التوالي عجزاً أو تقصيراً لتولي هذه المهمة بدءاً من جشع الملك فيليب الجميل وتسويفه، إلى وعود الملك فيليب الطويل، إلى الملك شارل الجميل الذي توفي عام 728هـ/ 1327م، تاركاً في وصيته مبلغاً من المال للمساهمة في تمويل الحملة المقبلة معتذراً عن تقصيره في تولّيها[2].

فرص كثيرة ضاعت ولم يغتنمها الإفرنج في الوقت المناسب، كان منها إستعداد المغول لعمل عسكري مشترك مع أوروبا يستهدف بلاد المسلمين، ووعْد بتسليم بيت المقدس والمناطق المحيطة به إلى اللاتين بعد تحريرها. لكن الكرسي الرسولي كان يخشى أن يجتاح المغول الشرق الأدنى ثم يتابعوا باتجاه أوروبا. وباعتناق المغول للدين الإسلامي ضاعت الفرصة من يد الإفرنج إلى الأبد. ويزيد عامل آخر في تأخر الدعوة إلى الحملات الصليبية والتبشير بها، وهو الوفيات المتتالية للبابوات بسبب إختيار بابوات طاعنين في السن تنقصهم الحيوية والمبادرة، وبسبب التأخر في انتخاب الخلف للبابا المتوفي بسبب خلافات الكرادلة وتأثر بعضهم بالنفوذ السياسي للملك الفرنسي[3].

---

[1] Runciman, Op.Cit. VOL. III, P: 453.

[2] Michaud, Op.Cit, T. V, chap XIX, P: 155.

[3] Ibid, Op.Cit, P: 169 – 177.

شغر الكرسي الرسولي لمدة 27 شهراً عام 1292م وسنتين عام 1314م وسنتين عام 1415م.
(راجع لائحة الباباوات المتعاقبين في آخر البحث- ملحق رقم خمسة).

تعود فكرة القيام بعمل موحد لمواجهة الأتراك، إلى أواسط العشرينات من القرن الرابع عشر، لكن المباحثات بين الأطراف كانت تستغرق وقتاً ونقاشاً طويلاً، وكانت المبادرة أولاً من البندقية، التي أضحت مصالحها في بحر إيجة متضررة وخطوطها البحرية إلى البحر الأسود مهددة، ففكر البنادقة بتشكيل "رابطة مسيحية بحرية بالتحالف مع رودس وبيزنطة"[1].

وفي 13 ربيع الأول 733هـ/ 17 كانون الأول 1331م، تلقت حكومة البندقية رسالة من الملك الفرنسي فيليب السادس، يطلب منها أن توفد له رجال خبرة وثقة من البنادقة لإفادته عما يلزم لتخطيط وتنفيذ حملة إلى الشرق وتقدير كلفتها، وعن استعداد البندقية لدعم وتموين هذه الحملة، وعن الخطة التي تتصورها حكومة البندقية لتنفيذ الحملة.

جاء الرد من البندقية متأخراً في 10 شعبان / 11 أيار من العام التالي، يحمله الموفدون البنادقة ومفاده، أن نجاح الحملة يتوقف على دعم البابوية لها، وعلى إحلال السلام في أوروبا قبل الشروع فيها.

وأما القوة المطلوبة لتحرير الأرض المقدسة، فتقدر بعشرين ألف فارس وخمسين ألف راجل. وفي حال وافق الملك على تمويل مصاريف الحملة فإن البندقية على استعداد لتأمين مئة سفينة كبيرة، وسفن قادرة على نقل الحملة بكاملها على دفعتين إلى الشرق. ويقتضي تخزين مواد التموين مسبقاً في نابولي وصقلية واليونان والبحر الأسود وجزيرة كريت. وتتعهد البندقية عندما تتأكد من جهوز الحملة بتأمين أربعة آلاف مقاتل والسفن اللازمة لنقلهم إلى الشرق، ويجب أن يستمر الدعم لمدة الأشهر الستة التي يكون البحر فيها صالحاً للملاحة، على أن يخفض عدد السفن الجاهزة للدعم خلال فصل الشتاء[2].

على الأثر وبعد عودة بطريرك أورشليم بطرس دو لا بالو Pierre de la Palu من زيارة إستطلاعية إلى الشرق، قدم تقريره إلى الملك الفرنسي فيليب السادس، ثم أعد المجلس الإستشاري الخاص بالملك سنة 733هـ/ 1332م، دراسة من ثلاثة وثائق، تضمنت الوثيقة الأولى، تعداد لأنواع الضرائب والإعفاءات والتقديمات التي يجب أن يمنحها البابا للدول والإمارات التي ستساهم في الحملة المقبلة.

وتضمنت الوثيقة الثانية، دراسة علمية وعملية لاختيار المحور الأسلم الواجب إتباعه من أوروبا إلى الشرق، واقترح المجلس إعتماد المحور البحري لقصره ولقلة أخطاره، ولأنه "يبقي المسلمين غير مطلعين على زمان الحملة ووجهتها النهائية" وتنقسم الحملة إلى قسمين، العظيم الأكبر يتابع مباشرة باتجاه الشرق،

---

[1] MICHAUD, Op.Cit,Tome V, Livre VIII, P:175.-.131 إدبوري ، قبرص والحروب ص

[2] Setton,, Op.Cit, P: 179.

والأصغر الذي لا يثير ريبة أمراء المدن الإيطالية، بقيادة الملك الفرنسي، يتوقف في إيطاليا، ويزور الصرح البابوي والأضرحة المقدسة، ثم يزور الملك خاله روبير أنجو ملك صقلية، ويستعطف المدن الإيطالية لكي تساهم في الحملة.
وفي الوثيقة الثالثة، عرض لخطوط التقدم البري داخل المناطق الإسلامية بعد النزول إلى الساحل، والتي سلكها أمراء الإفرنج من قبل.
بعد ذلك، حضر الملك فيليب السادس قداس الحملة الصليبية في 16 محرم 735هـ/ 1 تشرين أول 1333م، برئاسة رئيس الأساقفة في روان الذي صار إسمه البابا كليمنت السادس فيما بعد، وأخذ صليب الحملة، بحضور كبار الأساقفة وكبار بارونات فرنسا، لكن حرب المائة عام اشتعلت وتوقف المشروع[1].
ولما صارت مستعمرات البندقية وتجارتها وسفنها هي المهددة في بحر إيجه، أخذت حكومتها ترسل إلى حكام المستعمرات وإلى الأمراء الأوروبين تنذرهم بالخطر التركي القادم وبضرورة التحرك السريع لمواجهته. وبدأت خطوات التشاور تتسارع فأبدى رئيس الأسبتارية في رودس، "هيليون دو فيلنوف"، (Helion de Villeneuve) ، إستعداده للمشاركة، لأن الخطر بدأ يحوم حول جزيرته، وبين تموز وآب 1332م /ذي القعدة 733هـ، وافق الإمبراطور البيزنطي أندرونيق على الإشتراك في الحملة "لمطاردة الترك وحفاظاً على إيمان الأرثوذكسيين"[2].
وفي 26 ذي القعدة 733هـ/ 23 تموز 1332م، كتب البابا يوحنا الثاني والعشرين إلى دوق البندقية يلوم سياسة البندقية في "التعامل مع الأعداء". لم ترد البندقية على الرسالة واكتفت بالسعي الحثيث لعقد أي تحالف ممكن لإنقاذ الوضع الخطير في بحر إيجه، وهكذا كان ففي 6 أيلول 1332م/ 10 ذي الحجة 733هـ، عقد بطرس دي كانالي (Pietro da Canale) ممثل البندقية وبيزنطة معاً إجتماعاً مع رئيس الأسبتارية في مقر الأخير، وشكلا معاً نواة التحالف الأولى، ومضمونه تأليف أسطول بحري مشترك ثقيل التسليح، تشارك فيه بيزنطة بعشر سفن والبندقية بست والأسبتارية بأربع، وعلى الأسطول أن يتجمع في جزيرة نيغروبونتيي في 24 رجب 734هـ/ 15 نيسان 1333م، وأقسم الطرفان على أن يستمر العمل المشترك لمدة خمس سنوات[3].
في ذلك الوقت، كان البابا يوحنا الثاني والعشرون يعمل على تحفيز كافة القوى المسيحية القادرة على التحرك بدءاً من القوى المهددة بالخطر التركي. فالخطتان،

[1] De Mas Latrie, Op.Cit.,Vol III P: 725 – 726.
[2] Setton, Op.Cit ,Vol I P: 179.
[3] Ibid, Op.Cit, Vol I P: 180.

الفرنسية التي تستهدف المماليك، والبندقية التي تستهدف الترك في آسية الصغرى، تتعارضان لأن تنظيف البحر من سفن الترك ضروري لتأمين إنتقال آمن للأساطيل الأوربية التجارية في بحر الأدرياتيك، وبحر إيجه، والبحر القرماني، ولتأمين خطوط مواصلاتها وتموينها.

بقيت رسائل الملكين الأرمني والقبرصي وموفديهما تتردد إلى أفينيون منذرة بخطر شديد، لافتين إلى أن الخطر العاجل المحدق بهما لم يعد يأتي فقط من السلطنة المملوكية بل من حلفائها الترك الذين ينتشرون بسرعة على سواحل الأناضول، وبعد أن ملأوا البر بدأوا يتوسعون بحراً وبإتجاه المملكتين المسيحيتين الأخيرتين في الشرق[1].

وعلى الأثر دعا البابا يوحنا الثاني والعشرون الدول المتضررة إلى إجتماع عاجل في 15 جمادى الثانية 734هـ/ 8 آذار 1333م، في أفينيون مقر الصرح البابوي، حضره ملك قبرص وممثلون عن البندقية ورئيس الأسبتارية وترأسه البابا يوحنا، وتم الإتفاق على إنشاء حلف دعي "الإتحاد المقدس" (La Sainte Union)، ويضم أولاً الدول المتضررة من الخطر التركي في بحري إيجه ومرمرة والبحر الأدرياتيكي وهي قبرص ورودس والبندقية[2].

وكان ممثلو البندقية يمثلون بيزنطة في الوقت ذاته، بتفويض من إمبراطورها أندرونيق الثالث، ثم انضم إلى الحلف ملك فرنسا وملك نابولي في العام التالي[3].

توافق المجتمعون على تعزيز أسطول التحالف الثلاثي السابق (البندقية – بيزنطة – الأسبتارية) ليصبح قوامه أربعين سفينة بدلاً من عشرين، وتعهد ملك قبرص هوغ الرابع بتقديم ستة منها.

وحدد أعضاء الحلف المقدس أهدافهم، بتجريد حملتين بحريتين الأولى تمهيدية تخرج في العام 735هـ/ 1334م، ومهمتها تطهير البحار التي لم تعد آمنة من خطر إعتداء السفن التركية، على أن تتبعها لاحقاً حملة ثانية تضم سفناً لنقل المقاتلين، وفيهم ثمانماية محارب للقيام بعمليات الإغارة على بعض الموانئ، لتدمير السفن التركية الراسية وقواعدها التي تنطلق منها[4].

صدق مجلس شيوخ البندقية القرار في صفر 735هـ/ تشرين ثاني من عام 1333م، وحددت جزيرة نيغروبونتي التابعة للبندقية مركزاً لتجمع الأسطول ولانطلاقه في عملياته الحربية[5].

---

[1] Michaud , Op.Cit, P: 200.

[2] Setton, Op.Cit ,Vol I P: 186.-حطيط ، قضايا، ص178.

[3] هايد ، المرجع ذاته، ج2 ص 208.

[4] عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ص 135.

[5] De Mas Latrie, Op.Cit وVol II P: 218. Les documents.

كان من الطبيعي أن تكون رئاسة الحلف للكرسي الرسولي، وكذلك المرجعية وذلك لأسباب روحية ولوجستية، فالكرسي الرسولي كان دوماً يتكفل بقسم هام من نفقات الحملات الصليبية.

وللكرسي الرسولي أهمية أخرى، فموقعه ومكانته في العالم المسيحي هما اللذين يتيحان له التنسيق بين الملوك والأمراء الأوروبيين خوفاً من أن تؤدي الحساسية بينهم إلى التأثير سلباً على المشاركة في الحملات وعلى استمرار الزخم في دعمها ومتابعة عملياتها[1].

ولدى الإستعداد للتنفيذ إعترضت البنادقة بعض الصعوبات التي أخرت في تنفيذ المقررات، فقد ثار أهل جزيرة كريت على المستوطنين البنادقة وعمت الحرب الأهلية الجزيرة خلال صيف عام 1333م وخريفه/محرم 735هـ، وأخذ البابا يوحنا يستعجل البنادقة في تنفيذ ما اتفق عليه.

وانطلقت سفن الحلف تجوب مياه بحر إيجه وتطارد السفن التركية، مسجلة إنتصارات صغيرة، وخاصةً في خليج "أدراميتيوم" (Adramyttium). كان أهمها مطاردة الأمير التركي "يخشي" صاحب إمارة "كرازي" فدمروا بعض سفنه قرب جزيرة كاسندرا، وتعقبوه حتى تساليا، والتقى الأسطولان في 10 محرم 736هـ/ 14 أيلول 1334م، وتم تدمير الأسطول التركي بأكمله، ثم دخلت سفن التحالف إلى خليج إزمير فلم تلق مقاومة تذكر فدمرت السفن الراسية في الميناء ونزلت إلى المرفأ وأحرقت قلعته قبل أن تعود السفن من حيث أتت. لكن قوة عمر باشا صاحب إيدن بقيت سليمة كما هي[2].

ولما حل موعد الحملة الثانية للحلف المقدس، كان الحظ العاثر يصادفها، فاندلعت شرارة حرب المائة عام بين فرنسا وإنكلترا، حيث اضطر البابوات في أفينيون إلى متابعتها ومحاولة إطفائها، كما توفي قائد الحلف المقدس البابا يوحنا الثاني والعشرون في 2 ربيع الثاني 736هـ/ 4 كانون أول 1334م، وبذلك تجمدت نشاطات الحلف إلى أجل غير مسمى. وذلك على الرغم من الجهد الذي بذله البابا الجديد بنيديكتوس الثاني عشر (735-743هـ/1334م - 1342م)، إذ حاول تنظيم رابطة مماثلة بعد ذلك، ولكن دون جدوى وبقيت مطاردات السفن التركية تجري ببادرة من بعض الأمراء الأوروبين، إنما دون نتائج حاسمة وباهرة.

كما حافظ البابوات المتعاقبون يوحنا الثاني والعشرين ثم بينديكت الثاني عشر ثم كليمانت السادس، على تواجد أسطول بابوي صغير في بحر إيجه قوامه أربع سفن

---

[1] Setton,K. Op.Cit P: 184 & 186.

[2] إدبوري ، المرجع ذاته ص 131.- عاشور ، سعيد ، قبرص والحروب ص 136.
Setton Op.Cit Vol I P: 182.-

بقيادة المغامر الجنوي مارتينو زكريا، والذي استمر يطارد السفن التركية، مع ما يتطلب ذلك من نفقات باهظة تكفل بها الصرح البابوي لعدة سنوات[1].

ب_ حملات الإتحاد المقدس على سواحل آسية الصغرى

كان الشعور العام في أوروبا يعتريه بعض الإحباط طوال النصف الأول من القرن الرابع عشر، إذ لم تحقق أوروبا أي إنتصار في الشرق منذ سقوط عكا عام 691هـ/ 1291م، وكانت الظروف السلبية تقف للجهود البابوية بالمرصاد.

لكن البابا كليمنت السادس عزم منذ توليه الكرسي الرسولي في26 ذي القعدة 743هـ/7 أيار1342م، على إحياء "الحلف المقدس" مجدداً وعلى إتخاذ إجراءات صارمة ضد الترك في بحر إيجه وآسية الصغرى.

أخذت الأساطيل التركية تتوغل بعيداً في بحر إيجه، حتى أضحت على مشارف جزيرة كريت، وعند ذلك أيقن البنادقة بضرورة إحياء الحلف من جديد، فقد أوشكت كريت أن تقع في أيدي الترك فتنهب وتحرق كما كان يحصل لكل جزر بحر إيجه.

وكان من اللافت أن عمر باشا صاحب أيدن، كان لا يمس المناطق التابعة للإمبراطور البيزنطي، وكأن ثمة إتفاق ضمني بين الطرفين يعود إلى أيام الأمير محمد والد عمر باشا مع الإمبراطورية البيزنطية، إذ كان الأمير عمر لا يستهدف إلا الجزر التي سيطر عليها اللاتين. ولأنه كان يقسم الغنائم بين أتباعه فقد صارت أعداد هؤلاء تتعاظم حتى أن عملياته بلغت بلغاريا وصربيا[2].

كان الخطر الأكبر في ذلك الوقت يحوم حول قبرص التي بدأت تشعر بالحصار البحري الوشيك عليها، فأوفد الملك هوغ الرابع أسقف ليماسول البولوني الأصل" لمبرتينو ديلاسيكا" في العام 742هـ/ 1341م، إلى رودس ثم إلى البندقية ثم إلى أفينيون لإحياء الحلف القديم[3].

وبالتشاور بين البابا كليمنت السادس ومجلس شيوخ البندقية قدم المجلس دراسته للبابا في 26 ذي القعدة 743هـ/ 7 أيار 1342م، حول الحملة الواجب إطلاقها ضد الترك في آسية الصغرى، وقوامها ستون سفينة لنقل الجياد تحمل كل منها 120 مجدفاً و20 خيالاً مع كامل الأسلحة والأعتدة بما مجموعه 1200 فارساً، يضاف إليها ثلاثون سفينة كبيرة تحمل كل منها 200 مقاتل بما مجموعه 6000 مقاتلاً، وإذا أضيف إليهم عدد الجدافين المقدر بسبعة آلاف ومئتين فإن الحملة قادرة على الإنتصار في أي من المرافئ التركية[4].

---

[1] Setton,K. Op.Cit P: 186.

[2] Ibid. Op.Cit P: 182.

[3] De Mas Latrie, Op.Cit , Vol II P: 181. Les documents. .133 إدبوري ، المرجع ذاته ص

[4] Setton. Op.Cit P: 183.

في الثاني من تشرين الثاني 1342م/ 28 جمادى الأولى 744هـ، كتب البابا كليمنت إلى دوج البندقية يحضه على اتخاذ الإجراءات اللازمة لوقف الخسائر بالأرواح التي يتعرض لها المسيحيون عامة والبنادقة خاصة في بحر إيجه، وحملها لمبعوثه الخاص هنري آستي Henri d'Asti البطريرك اللاتيني للقسطنطينية، والذي كان قد نجح في عقد حلف بين الملك القبرصي هوغ الرابع ورئيس الأسبتارية وتضمنت رسالة البابا تشجيعاً للبندقية على الإنضمام إلى الحلف.

في الحادي عشر من كانون الثاني عام 1343م/ 9 شعبان 744هـ، وافق مجلس الشيوخ في البندقية على اقتراح رئيسها الدوج، وجاء في المذكرة أن البندقية تذكر الموفد البابوي بعدد المرات التي خوطب فيها البابا الراحل حول الخطر التركي دون أن تلقى جواباً شافياً، وأن قوام الحملة اللازمة يجب أن يتضمن 40 سفينة كبيرة في كل منها 200 مقاتل و50 سفينة نقل جياد في كل منها 120 جدافاً و20 خيالاً أي ما مجموعه ألف فارس.

وبما أن المجلس لا يعتقد بأن هذه الإمكانات متوفرة حالياً لدى الحلف، فإن الحد الأدنى المعقول لمثل هذه العملية يجب أن لا يتدنى عن 25 سفينة كبيرة. وأبدى المجلس إستعداده للمشاركة الفعلية بربع هذه القوة عندما يضعها البابا موضع التنفيذ، وعلى هذه القوة أن تستمر في الحرب طيلة ثلاث سنوات أو على الأقل لسنة كاملة صيفاً وشتاءً، لكي تتمكن من دحر القوى التركية[1].

كانت هذه المذكرة تعني أن على البابا أن يخصص لها مبلغاً كبيراً من المال، في وقت كانت الأوضاع المادية في كل أوروبا سيئة، وكانت بنوك فلورنسا على شفير الإفلاس. وحدها البندقية كانت هي المقتدرة مادياً، فأرسل البابا يطلب منها مشاركة أوسع في الحلف لكن البنادقة كانوا صارمين فيما يتعلق بالنفقات المادية.

وأرسل البابا كذلك، في 8 آب 1343م/12 ربيع الأول 745هـ، إلى بضعة عشر أميراً في أوروبا رسائل يطالبهم فيها بالمشاركة أو المساهمة في هذه الحملة.

وأخيراً تم الإتفاق على تجميع قوى التحالف في جزيرة نيغروبونتيي التي تتوسط خطوط الملاحة البحرية في بحر إيجه والتي يسيطر عليه البنادقة على أن تنطلق العمليات البحرية في 1 تشرين الثاني 1343م/8 جمادى الثانية 745هـ.

كذلك تبلغ الملك القبرصي هوغ الرابع رسالة الثامن من آب من البابا، ورد عليها بالإستجابة الكاملة، وأن سفنه الأربع سوف تكون جاهزة في نيغروبونتي مع بقية الأسطول في الأول من تشرين الثاني القادم.

وكذلك فعل الأسبتارية في رودس بعد أن تلقى سيدهم الكبير Helion de Villeneuve رسالة لاذعة من البابا حول البذخ والإسراف وحياة الترف التي

[1] Setton. Op.Cit P: 184.

يعيشها فرسان الجزيرة، وحول ضرورة إجراء الإصلاحات الجذرية، والعودة إلى حياة أكثر تقشفاً، خاصة وأن ثمة شكوك كبيرة يصل صداها إلى الكرسي الرسولي مفادها أن الأسبتارية هم أغنى هيئة في العالم المسيحي في ذلك الوقت، وأن بإمكانهم تمويل الحملة المطلوبة دون مساعدة من أحد. وكان ذلك حافزاً لكي يستبسل الأسبتارية في المعركة القادمة للحلف، دفاعاً عن كرامتهم ودحضاً للأقاويل التي قيلت بحقهم.

وفي 31 آب 1343م/5 ربيع الثاني 745هـ، عين البابا رسمياً البطريرك هنري آستي المذكور موفداً بابوياً عاماً في مناطق العمليات براً وبحراً وأبلغ ذلك للأسقفيات العديدة المنتشرة في المنطقة، وعين مارتينو زكريا نقيباً عاماً للسفن البابوية الأربع إعتباراً من 16 أيلول/ 21 ربيع الثاني، وأعطى الصلاحية لموفده آستي بعزل زكريا وتعيين بديل عنه إذا دعت الحاجة.

مدد البابا فترة بقاء هذه السفن في بحر إيجه للسنتين المقبلتين، وبلغت نفقات هذه السفن خلال ولاية كليمنت السادس حوالي 200 ألف فلورين، إذا عرفنا أن مجموع النفقات البابوية خلال ولاية البابا يوحنا الثاني والعشرين، لم تزد على 420 ألف فلورين في مدة 18 عاماً[1].

كما كتب البابا إلى كل ملوك وأمراء البلاد المسيحية دون استثناء، يحثهم فيها على المشاركة والمساهمة فاستجاب بعضهم بتقديم سفينة أو بضع عشرات من المقاتلين ثم نقلهم إلى جزيرة نيغروبونتي لتحملهم سفن الأسبتارية معها.

ولم يغب عن بال البابا كليمنت السادس أن يوجه إلى الجنوية نداءً للمشاركة في الحملة، وأن يكفوا في الوقت نفسه عن الأعمال العدائية ضد الملك هوغ الرابع في قبرص ، للتمكن من توحيد الصف المسيحي وتركيز إهتمام القوى كافة ضد الخطر التركي.

وفي الثلاثين من أيلول 1343م/6 جمادى الأولى 745هـ، وجه البابا رسالةً إلى المشتركين في الحملة، يمنحهم فيه الغفران لمشاركتهم في إنقاذ العالم المسيحي ويصف لهم مشاهد الهجمات التركية البشعة على المناطق المسيحية وطريقة النهب والسلب والحرق والإستعباد وسوء معاملتهم للأسرى، "وكأنهم بهائم"، وأن هذه الإغارات باتت كوابيس من الحرق والذبح تستهدف كل من يصادفه الأتراك في غزواتهم[2].

ثم أعلن البابا أنه خصص ضريبة العشر التي تجمع من 60 مقاطعة مسيحية في أوروبا والشرق لتمويل هذه الحملة ولمدة ثلاث سنوات. وبدأت إستعدادات الحملة

[1] Setton, Op.Cit P: 185 – 187.
[2] Ibid, Op.Cit P: 188-190.

تنشط في البندقية ورودس وقبرص خلال موسم الشتاء، بينما دخلت السفن البابوية الأربع بقيادة زكريا إلى مرفأ جنوا للغاية نفسها، مع أن الجنوية لم يتقدموا للحملة بأية مساعدة مباشرة حتى أن عدداً من البحارة الجنوية في السفن البابوية فروا من الخدمة ما أن قبضوا رواتبهم[1].

وانطلق الأسطول، في ربيع العام 1344م/ ذي القعدة 745هـ، يطارد السفن التركية في بحر إيجه، وحتى الثالث عشر من أيار 1344م/24 ذي الحجة 745هـ، كان الأسطول المؤلف من 24 سفينة كبيرة قد نجح في مطاردة 52 سفينة ومركباً تركياً وإغراقهم. ثم انتقلت المطاردة من عرض البحر إلى السواحل والخلجان فتمكن الأسطول من العثور على ستين سفينة راسية هجرها البحارة الأتراك في مضيق يقع عند شبه جزيرة قلقيدونيا فأحرقها جنود التحالف.

في 25 تموز 1344م/ 9 ربيع الأول 746هـ، هنأ البابا كليمنت السادس، رئيس الأسبتارية على الدعم الذي قدمه للموفد البابوي آستي في المعارك، وكذلك أرسل يهنئ دوج البندقية ويشكره ويتمنى أن يصل الأسطول قريباً إلى مملكة شواطئ أرمينية ليقدم لهذه المملكة التي تعاني الأمرّين من الترك[2].

ثم توجه أسطول الحلف المقدس إلى ساحل الأناضول مستهدفاً مرفأ إزمير (SMYRNA)، وضم من 24 إلى 27 سفينة، بما فيها سفن القبارصة والروادسة والسلامينيين (النيغروبونتيين) والبنادقة كما شاركت جنوا في الحملة هذه المرة.

تقع مدينة إزمير، بمرفئها الزاهر على الساحل الغربي لآسية الصغرى، وهي جزء من إمارة تركية أسسها الأمير أيدن من أسرة تركمانية تدعى "ديادش" (Diadche) مكان إقليم أيونية الإغريقي، وحملت إسمه منذ مطلع القرن الرابع عشر.

ثم تولاها إبنه محمد من بعده، وقرر الأمير محمد أن يقاسم أولاده الثلاثة الإمارة فأعطى إمارة أفسس (Ephese) لإبنه خضر باشا وسلم مدينة إزمير وضواحيها لإبنه عمر باشا.

كان هجوم أسطول "الحلف المقدس" في 28 تشرين أول 1344م/15 جمادى الثانية 746هـ، على إزمير صاعقاً مما ساعد على احتلال المرفأ بسرعة ثم سقطت قلعة المرفأ حيث يسكن الأمير عمر، الذي شارك في القتال، وسرعان ما احترقت السفن التركية الراسية في المرفأ واضطر الأمير عمر ومن تبقى من جنوده إلى الإنسحاب من جوار المرفأ إلى قلعة حصينة تقع على مرتفع يشرف على المرفأ ومن هناك

[1] Setton. Op.Cit. P: 190.
[2] Ibid. Op.Cit. P: 191.

بدأ الترك بمحاصرة منطقة المرفأ لمنع الحلف المقدس من توسيع رأس الجسر والتوغل في عمق أراضي الإمارة[1].
أبلغ البنادقة خبر الإنتصار إلى البابا الذي رد على الدوج بالتهنئة وكتب إلى عدد من ملوك أوروبا وأمرائها يبلغهم الخبر السعيد ويهنئ الذين ساهموا فيه، وهلل العالم الغربي لهذا النصر الساحق.
لكن الوضع في إزمير لم يكن مريحاً ولم يشهد يوماً واحداً من الهدوء، ففيما كان الموفد البابوي هنري آستي يحاول أن يوسع الثغرة، بناءً على إلحاح البابا كليمنت السادس، كانت محاولات جنوده تبوء بالفشل بسبب الضغط اليومي للترك على المدينة. فمن قلعة عمر الحصينة على المرتفع، صار الترك يقصفون المرفأ والسفن بالمنجنيق، مما اضطر جنود الحلف إلى القيام بعملية خاطفة لتدميره، ثم استقرت الجبهة عندما بنى جنود الحلف جداراً عازلاً يحيط بالمنطقة التي احتلوها، وتفصلها عن قلعة عمر باشا منطقة سكنية باتت مهجورة.
ولمناسبة عيد القديس أنطوان، أصر البطريرك هنري آستي على إقامة قداس الشكر في كنيسة كبيرة مهجورة تقع في المنطقة العازلة. ولم يستمع البطريرك لنصح القادة العسكريين الذين اضطروا لاتخاذ تدابير الحماية خارج الكنيسة أثناء القداس.
وفي 17 كانون الثاني 1345م/ 8 رمضان 746هـ، ترأس البطريرك القداس بحضور مارتن زكريا وعدد من الشخصيات والقيادات الهامة التي شاركت في عمليات الأسطول.
وكانت المفاجأة الصاعقة عندما كرّ عمر باشا وجنوده، وهاجموا مكان الإحتفال من كل ناحية فأصيب جنود الحماية بالذعر، وفروا إلى منطقة المرفأ، وتعرض كل الذين حضروا القداس للإبادة، كان من أول الضحايا البطريرك ومارتن زكريا والقائد البندقي بطرس زينو (Pietro Zeno) وشخصيات هامة أخرى[2].
إنقلب الفرح بتحرير إزمير إلى حزن، وهرع البابا إلى طلب النجدة من بعض الأمراء الأوروبين فلباه بعضهم، وهرع المئات من المتطوعين من مختلف أنحاء أوروبا للسفر إلى البندقية حيث نقلتهم سفنها إلى إزمير للمشاركة في الدفاع عنها.
على الأثر أصدر البابا كليمنت السادس قراراً بتعيين ريموند ساكيت (Raymond Saquet) الأسقف، موفداً بابوياً مكان البطريرك آستي واللورد برتراند دي بو (Bertrand des Baux) قائداً بحرياً للسفن البابوية الأربع مكان مارتن زكريا.
كما أرسل البابا إلى إزمير حملة صغيرة بقيادة همبرت الثاني ولي عهد فيينا لدعم الوجود اللاتيني فيها وفي محاولة لتوسيع الثغرة واحتلال المزيد من الأرض. ودعم

---

[1] هايد ، تاريخ التجارة ج2 ص 203 – 204 – 208 – 209.

[2] Setton, Op.Cit P: 192.

البابا الحملة بعدد من الكهنة والفرسان فأبحرت من مارسيليا عام 1345م/ 746هـ، وانضم إليها بعض المتطوعين في إيطاليا، ووصلت إزمير عام 1346م/ 747هـ، ثم عاد قائد الحملة من حيث أتى بعد عام واحد وبعد أن سجل إنتصاراً محدوداً ووحيداً على الترك في ضواحي إزمير[1].

عهد البابا إلى الأسبتارية بتولي شؤون إزمير، بعد أن أظهر رئيس فرسانها مهارة وكفاية في استدراك الإنهيار الذي أسفرت عنه المجزرة وفي معالجة ذيولها.

عززت الأسبتارية حراسة المدينة وجهازها الدفاعي، حيث بقيت تتعرض لإغارات الترك بقيادة الأمير عمر محاولاً استردادها مراراً حتى لقي حتفه في المحاولة الأخيرة، فلفظ أنفاسه شاهراً سيفه، في أيار سنة 1348م/صفر 750هـ.

على أثر سقوط إزمير ومقتل الأمير عمر، قويت شوكة التحالف واغتنم الملك القبرصي هوغ الرابع هذه الفرصة لترويض الإمارات التركية الواقعة على الساحل الجنوبي للأناضول قبالة جزيرته.

فتوقفت أعمال القرصنة التركية في البحر الذي يفصل بين الطرفين وتمكنت القوات القبرصية من فرض نفوذها على تلك الإمارات ويؤكد السائح الكاهن الألماني لودولف سوذهايم في وصفه عام751هـ/ 1350م، لجزيرة قبرص، أن الإمارات التركية ومنها العلايا وأنامور وسيق وساتاليا، كانت تدفع الضريبة للملك هوغ الرابع[2].

لكن إزمير يقيت مهددة بهجمات الأتراك، وعجز الحلف عن توسيع رقعتها، ولم تتمكن المدينة من التقدم والإزدهار بسبب الطوق البري الذي ضرب حولها وحال دون مزاولة التجارة مع جوارها البري، وبدلاً من أن تصبح مرفأً مزدهراً مادياً يعود على بعض دول الغرب وهيئاته بالربح، أصبحت إزمير عالة على هذه الدول وعلى الكرسي الرسولي، على الصعيدين المادي والعسكري.

وما أن انتهت مدة "الحلف المقدس" حتى عاد الترك إلى عمليات الإغارة على الجزر اليونانية إنطلاقاً من موانئ أخرى، وباتوا يهددون مياه البحر الأدرياتيكي، وليس بعيداً عن نابولي على الرغم من ثبات الإحتلال اللاتيني لمرفأ إزمير.

وفي 11 آب سنة 1350م/ 2 جمادى الثانية 752هـ، نجح البابا كليمنت السادس في عقد معاهدة تحالف جديدة برعايته ضمت مملكة قبرص وفرسان الأسبتارية في رودس وجمهورية البندقية للقيام بالحرب ضد الأتراك. وقع المعاهدة في الصرح البابوي في أفينيون ممثلون عن الدول الثلاث وجاء فيها:

---

[1] عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ص 89.

[2] إدبوري ، قبرص والحروب الصليبية ص 132.

1–يبدأ التحالف أعماله في الأول من كانون الثاني القادم، وتسري المعاهدة لمدة 10 سنوات.
2–خلال هذه الفترة تبحر ثماني سفن مسلحة دون توقف بالقرب من السواحل التركية، تقدم قبرص سفينتين منها، ومن رودس ثلاثة سفن، وثلاثة من البندقية.
3–توضع هذه السفن تحت قيادة الموفد البابوي الجديد، أو تحت قيادة القائد البحري الذي يسميه الموفد البابوي. لكن خطة الإبحار يجب أن تعرض على قادة السفن الثمانية أولاً وتقر بأكثرية الأصوات، وعندما تقر الخطة تصبح الأوامر ملزم لجميع القادة.
4–على قادة السفن والمقاتلين بالتالي أن يطيعوا أوامر الموفد البابوي أو القائد البحري في كل ما يتعلق بمهمة هذا التحالف.
5–على السفن أن تلتقي في 1351/1/1م(20 ذي القعدة 754هـ)، في جزيرة نيغروبونتيي.
6–يتمتع قائد كل سفينة بصلاحية محاكمة الجنود الذين تقلّهم سفينته ومعاقبتهم.
7–يرجو المجتمعون من قداسة البابا أن يصادق على التحالف ويرسل كتبه بعد ذلك إلى الأطراف المشاركة للإسراع في تصديق المعاهدة[1].
لكن عقد التحالف هذا، إنفرط بعد عام واحد، ثم حاول الكرسي الرسولي تجديده خلال الأعوام (1353م/755هـ) و(1356م/758هـ) و(1357م/759هـ)، لكن بصعوبة ودون جدوى بسبب حرب المائة عام بين فرنسا وإنكلترا من جهة، وبسبب الحرب التي نشبت بين جنوا والبندقية عام 1380م/782هـ، وبسبب صعوبات مادية إعترضت كافة الأطراف.
أمضى البابا كليمنت السادس بقية عمره يكافح لوقف حرب المائة عام، ولدعم صمود مملكتي قبرص وأرمينية، كما تدخل بقوة لوقف الحرب بين جنوا والبندقية ولتمهيد الأجواء لإعداد حملة جديدة على آسية الصغرى، ولإنقاذ إزمير المهددة دائماً.
ثم اضطر البابا الجديد إنوسنت السادس (754–764هـ/1352م – 1362م)، لإيقاف العمل بالتحالف المعقود بسبب إنشغال البندقية بحربها مع جنوا (751–757هـ/1350م – 1355م)، ولأسباب مادية، لكن النداءات الملحة التي كانت تأتيه من إزمير جعلته في 3 تشرين الثاني 1353م/ 1 شوال 755هـ، يوجه رسائل إلى كل من دوج البندقية وملك قبرص ورئيس الأسبتارية، حول "الوضع الخطير في إزمير وضرورة حمايتها من الأخطار المحدقة بها دون أن ننسى الدم

[1] De Mas Latrie, Op.Cit - Vol II P: 217. Les documents.

المسيحي الذي أهرق لإحتلالها وللدفاع عنها"[1]. ويطلب منهم أن يصرفوا المبالغ التي تعهدوا بدفعها سنوياً لصالح المدينة، مسبقاً وقبل موعد استحقاقها، نظراً لحاجة المدينة إليها.

ويتضح من هذه الرسالة أن الكرسي الرسولي، كان قد تعهد بدفع ثلاثة آلاف فلورين سنوياً لصالح المدينة كما تعهدت البندقية بدفع مبلغ مماثل، وكذلك فعلت كل من قبرص ورودس.

وفي العام 1353م/755هـ، تلقى البابا نداء إستغاثة من إزمير يعلن عن نقص كبير في المؤن، مما دفع البابا إلى كتابة رسائل جديدة إلى الأطراف المعنية بوجوب نقل المؤن في أسرع فرصة على متن سفينتين بندقيتين على حساب الصندوق المشترك لأطراف التحالف الأربعة.

ثم كرر البابا أنوسنت الطلب إلى أعضاء الحلف، بتاريخ الأول من نيسان عام 1356م/ربيع أول 758هـ، بضرورة إرسال سفن النجدة من كل من البندقية والقبارصة والأسبتارية، لإنقاذ إزمير من خطر داهم على أن تصل إليها قبل الأول من تموز.

وإزاء الخطر المستمر على إزمير، إجتمع مندوبو الدول الثلاث في الصرح البابوي في أفينيون في 20 آذار 1357م/ 23 ربيع أول 759هـ، وأقروا بعض التعديلات على المعاهدة المعقودة سابقاً بينهم، وأهم ما جاء فيها:

-تمدد المعاهدة للسنوات الخمس القادمة.

-يجب أن يتوفر بصورة دائمة، أسطول جاهز عند سواحل آسية الصغرى قوامه 6 سفن بمعدل سفينتين من كل دولة. وعندما يرسل الأسبتارية سفينة ثالثة تتعهد البندقية بإرسال سفينة ثالثة هي الأخرى، بينما يتعهد ملك قبرص بزيادة عديد قواته المشتركة في الأسطول.

وعندما ذهب الموفدون لأخذ مصادقة ملوكهم على المعاهدة، تلكأ الملك هنري الرابع في تصديقها وكذلك فعل سواه لاحقاً. حتى أن الكرسي الرسولي إنشغل في تلك الفترة مما جعل مفعول هذه المعاهدة يتلاشى بمرور الزمن.

إستمر عزوف الملك القبرصي هوغ الرابع عن الحرب حتى نهاية عهده، ويبدو أن السبب يعود إلى إستقرار علاقاته مع الإمارات التركية المجاورة وحتى مع سلاطين المماليك، بينما كان وضعه الداخلي مع الجنوية هو الذي يقلقه[2].

والحقيقة أن الذي جعل أوضاع إزمير والمنطقة تستقر نسبياً هو الهدنة التي صارت تقر ميدانياً بين الأطراف المتصارعة على الأرض فعلى أثر مصرع الأمير عمر

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. Vol II P: 221. Les documents.

[2] Ibid, Op.Cit, Vol II P: 219.

سنة 749هـ/ 1348م، وقّع شقيقه خضر صاحب إمارة أفسس، هدنة بينه وبين اللاتين، أتبعتها إمارة أيدن بهدنة مماثلة سنة 752هـ/ 1350م، توافق فيها الطرفان على أن تبقى قلعة إزمير بيد الأتراك على أن يحتفظ اللاتين بالمدينة والمرفأ، واستمرت بعد ذلك فعلاً بيد اللاتين إلى أن اجتاحها القائد المغولي تيمورلنك سنة805هـ/ 1402م، وطردهم منها [1].

وعلى أي حال يمكن الإستنتاج بأن عهد هوغ الرابع شهد مساهمة قبرصية فعالة في الحروب الصليبية على جبهة آسية الصغرى، سواء فيما يتعلق بإمداد أسطول التحالف بالمعونة اللازمة في البر والبحر لتنظيف بحر إيجه ومهاجمة الشواطئ التركية، أو عن طريق المعارك المباشرة التي قامت بها سفن قبرص التي تراوح عددها بين الست والثماني والتي تمكنت بلا شك من تنظيف البحر الواقع بين قبرص وبين الشواطئ الجنوبية لآسية الصغرى، مما أخضع الإمارات التركية في ساحل الأناضول الجنوبي لنوع من التبعية للملك القبرصي، وأتاح التجارة من وإلى قبرص بحرّية كاملة في كافة الإتجاهات. وما يؤكد ذلك هو فترة الإزدهار والرخاء التي عرفتها قبرص في عهد هوغ الرابع في الخمسينات، ويكفي للدلالة على الترف والغنى في قبرص أن قائد الأسطول البحري للقبارصة في ذلك الوقت ويدعى "أنجيليو أريزو" تبرع بمبلغ ضخم مساهمة شخصية منه للدفاع عن إزمير.

وأما ما يفسر عزوف الملك القبرصي هوغ الرابع دو لوزينيان عن الحرب في آخر أيامه فمرده تعرض المنطقة بأسرها للوباء الأسود، وارتفاع نسبة الوفيات في قبرص، ورغبة الملك القبرصي في عدم إستثارة السلطان في مصر. بعد أن حقق كل طرف في المنطقة نوعاً من التوازن والإستقرار. كان الجميع بحاجة إليهما. ما حدا به إلى أن يطلب من البابا إنوسنت السادس سنة 758هـ/ 1356م، وقف الدعوة للحملة الصليبية في الجزيرة[2]، كي لا تفرغ الجزيرة من الرجال القادرين على حمايتها [3].

في الرابع والعشرين من تشرين الثاني 1358م/ 17 ذي الحجة 760هـ، نصب الملك هوغ الرابع إبنه بطرس الأول ملكاً على الجزيرة وعلى بيت المقدس وهو لا يزال على قيد الحياة[4]. ولم تكن هذه العادة مألوفة من قبل في الجزيرة لكن لها سابقة واحدة من قبل في مملكة بيت المقدس عام 1183م/ 579هـ، وأخرى في فرنسا قبل بضعة قرون.

---

[1] Edbury, Op.Cit , P: 159 – 160.

[2] إدبوري ، قبرص ، ص 136 و137.

[3] Setton, Op.Cit, p 223.

[4] Bustron, Op.Cit, P:257.

ويعود السبب إلى ان بطرس الأول لم يكن الوريث الشرعي لمملكة أبيه بوجود هوغ إبن شقيقه الأكبر "جي" والذي توفي قبل أبيه الملك عام 744هـ/ 1343م. ويروي النويري الاسكندري سبباً شخصياً ربما كان الدافع لتنصيب بطرس الأول[1]. وكان بطرس الأول يحمل منذ شبابه لقب كونت طرابلس في أواسط الأربعينيات، كما أسس منظمة "فرسان السيف"، غايتها استعادة الأراضي المقدسة، مما دلّ على ولعه بالأعمال والمغامرات الحربية[2].

وزاد من اندفاعه في الأعمال الحربية تأييده المطلق من قبل الموفد البابوي بيتر توماس، فما أن توفي هوغ الرابع في 10 تشرين أول سنة 1359م/13 ذي القعدة 761هـ، حتى سارع توماس للنزول في قبرص، للمشاركة في حفل التنصيب[3].

وفيما غادر بيتر توماس قبرص لتفقد أحوال منطقة بحر إيجة وبحر مرمرة، أطلق سكان مدينة قرياقوس (Gorhigos) الأرمنية، نداء استغاثة، بعد أن أوشكت المدينة على السقوط تحت الحصار التركي، وبعد أن عجز ملكهم الأرميني عن نجدتهم[4].

ولمرفأ قرياقوس أهمية تجارية واستراتيجية، وهو آخر المواني الأرمنية الصالحة لرسو السفن غرباً، وأبعدها عن سطوة المماليك، كما أن قرياقوس تجمع إلى تجارة كيليكيا تجارة السواحل الجنوبية لآسية الصغرى. وكان سكانها قد عرضوا على هوغ الرابع والد بطرس أن يسلموه المدينة لكنه رفض بحجة أنها من أملاك إبن أخيه ملك أرمينية[5].

وفي كانون الثاني سنة 1360م/ صفر 762هـ، وعد سكان قرياقوس الملك القبرصي، بالخضوع التام لسلطته إذا قدم لنجدتهم، فاستدعى السفينتين القبرصيتين المخصصتين للحلف المقدس، وحمّلهما بالفرسان ونزل في مرفأ قرياقوس سلماً ، فتسلم الفرسان القبارصة حامية المدينة من الفرسان الأرمن، وبذلك كرّس الحلف المقدس موطيء قدم ثانٍ في السواحل الجنوبية لآسية الصغرى[6].

وعلى أثر احتلال قرياقوس أهدى بطرس المدينة إلى البابا، وتلقى بيتر توماس من البابا على الأثر تهنئة وتفويضاً عاماً لاتخاذ القرارات التي يراها مناسبة ميدانياً، مما أتاح له حرية المبادرة والقرار في العمليات الحربية اللاحقة ضد الأتراك.

---

[1] النويري، المخطوط ، ج1، ص 79 (و). روى أحد رجال الدين القبارصة لأسير من المسلمين أن هوغ الرابع رأى في منامه قائلاً يقول له :"يخرج من صلبك ولد يظفر بالإسكندرية". مما جعله يعدل عن تنصيب حفيده.

[2] Edbury Op.Cit P: 147.

[3] STRAMBALDI, Op.Cit, P: 39.

[4] AMADI, Op.Cit ,P:410.

[5] MACHERAS, Op.Cit ,P: 62-64

[6] Bustron, Op.Cit, P:259- Setton, Op.Cit, P238.

قام بطرس الأول بعد ذلك بعمليات حربية محدودة في شمال شرق البحر المتوسط، وشعر أمير تكة بخطر الملك الجديد في قبرص، فأرسل له ثلاث سفارات ليثنيه عن عزمه على مهاجمة إمارته، لكن دون جدوى، فقاد بطرس أسطوله بنفسه في 23 آب عام 1361م/16 شوال 763هـ، باتجاه أطاليا (ستاليا) عاصمة إمارة تكة عند شواطئ آسية الصغرى، وذلك بدعم من الجنوية وفرسان الأسبتارية. نزلت قواته في اليوم نفسه في تتراميلا وسارت إلى ساتاليا براً وحاصرتها ثم احتلتها في اليوم التالي[1].

لم تظهر خلال هذه المعركة أية آثار إيجابية للتحالف القرماني السابق، بزعامة قرمان شاه المتمركز في قونيه منذ سنة 736هـ/ 1335م، ومعه أمراء تكة والعلايا (Candelore)، وغيرها(Monovgat)...

بل على العكس، إذ أخذ الأخيران بالتودد لدى الملك القبرصي والتعهد له برفع راية دو لوزينيان على أسوارهم ودفع الضريبة السنوية للملك مقابل عدم مهاجمته لأراضيهم[2].

نجح بطرس في الإستيلاء على المدينة بسرعة ونصب لها حاكماً وحامية من الفرنج. وذاع صيت الملك القبرصي في كل أنحاء أوروبا، فقد كان الرأي العام الأوروبي بحاجة إلى أخبار أي نصر يأتي من الشرق بعد طول غياب[3].

حاول الترك استرداد المدينة بعد ذلك خلال الأعوام 763هـ/ 1361م و764هـ/1362م و772هـ/1370م، دون كلل، رد القبارصة بالهجوم على مدينة ميرا التركية وأحرقوها، وفشلت عروض أمير تكة على قائد الحامية بالرشوة، لقاء التخلي عن المدينة[4]. حتى إذا حل العام 775هـ/ 1373م، تسلم الترك المدينة من القبارصة سلماً، خلال اجتياح الجنوية للجزيرة القبرصية، ورضوا بالمقابل، بدفع ضريبة سنوية للقبارصة.

ضغط الأتراك على الجزيرة القبرصية خلال الأعوام التالية، وخاصة أثناء غياب الملك القبرصي في أوروبا، وقام أسطول تركي مؤلف من 12 سفينة بقيادة "الريس محمد" بغزو بعض الشواطيء القبرصية، وأخذ عدداً من الأسرى وفرّ عائداً إلى آسية الصغرى دون أن يتمكن الأسطول القبرصي منه، وبعد أن أخبر الريس المذكور قومه أن الشواطيء القبرصية ضعيفة الحراسة، قام أسطول تركي صغير قوامه ست سفن، بتكرار الغزو، فهاجم شواطيء كارباسو (CARPASO)، وأعمل رجاله النهب والتدمير واقتادوا بعض الأسرى إلى آسية الصغرى. مما دفع

---

1 MACHERAS Op.Cit,,P:68.

2 AMADI, Op.Cit,P:411.- STRAMBALDI, Op..Cit ,P:48.

3 Setton, P:240.

4 MACHERAS, Op.Cit ,P:70.

الأسطول القبرصي إلى تكثيف رحلاته حول الجزيرة، فصادف سفينة قرصنة تركية فاعتقل ركابها، وعلق القبارصة مشانقهم في الجزيرة، واتخذ شقيق الملك قراراً بالتعامل بالمثل مع الأتراك، فخرج الأسطول القبرصي وهاجم العلايا (كانديلور) وأحرق المدينة، واقتاد منها بعض الأسرى، ثم حاول تكرار العملية في مناطق سيس التي احتلها الأتراك فقاموا بصده، ثم طارد مركب الريس محمد الذي التجأ إلى طرابلس لدى نائبها، فاعتذر الأخيرعن تسليمه بدون إذن السلطان وعاد الأسطول خائباً[1].

أدت العمليات الحربية على شواطئ آسية الصغرى في النهاية، إلى توقف أعمال القرصنة التركية تماماً، وزوال الخطر التركي مؤقتاً على الجزيرة القبرصية، بينما راح الملك القبرصي بالتحضير لغزو الإسكندرية.

2- حملة الإسكندرية

أ- دوافع الحملة

لم تعد أوروبا، بعد سقوط عكا، هي أوروبا ذاتها التي ثارت قبل مائة عام لنصرة مدينة بيت المقدس حين سقطت بيد صلاح الدين، فكل شيء قد تغير، وكان إفرنج الشرق أول من شعر بهذا التغيير، فمنذ أن أخذت مساحات المناطق التي كان الفرنج يسيطرون عليها تضيق وتنحصر، كانت التعزيزات التي تأتيهم من أوروبا تتناقص تباعاً، وكانت أخبار الهزائم والقتل المستمرين، تخفف من اهتمام نبلاء الغرب بالمغامرة من جديد في الشرق الملتهب، كما خبت نار التعصب الجامح التي كانت تجتاح أوروبا من قبل، وخبا معها الشعور الأوروبي الأممي للاتحاد تحت لواء إمبراطورية واحدة وجامعة، فتطور الوعي السياسي والقومي عند الأفراد، لتشكل كل دولة أوروبية كياناً مستقلاً، يجمع أبناءها شعور قومي متمايز، عدا عن التطور الاقتصادي ذي الانعكاسات الاجتماعية، فقد خفت نسبة الرقيق ونسبة أقنان الأرض وضعف النظام الإقطاعي القديم بسبب ذلك، وكثر النزوح إلى المدن وتغير النظام الاقطاعي مضطراً إلى اعتماد الأجراء في الزراعة بدلاً من الأقنان [2] ، وارتفع مستوى الفرد الأوروبي أكثر مما كان عليه أسلافه عند بداية الحروب الصليبية، فصار يتمتع بشيء من الرخاء والرفاه، ولم يعد ينظر إلى بلاد الشرق بعين الطمع والمكسب .

ولم يقصّر الكرسي الرسولي في الدعوة لنصرة عكا، تماماً كما فعل البابوات بالنسبة لبيت المقدس، لكن الذي تغير هو العلاقات بين البابا وبين ملوك أوروبا، بعد أن دخل الفاتيكان طرفاً في النزاعات السياسية، وخاصة على الأراضي

[1] MACHERAS, Op.Cit, P: 78.

[2] عاشور ، الحركة الصليبية ج2، ص 940-941.

الإيطالية ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة. فتعرض الفاتيكان لأزمتين هامتين في تلك الفترة أنقصتا من هيبة الكرسي الرسولي، وهما الأزمة التي أطلق عليها لقب "السبي البابلي" (705–779هـ/1305–1377م)، حيث هجر البابوات روما، وانتقلوا إلى أفينيون في فرنسا مما أخضعهم لنفوذ ملوك فرنسا. وانقسم الكرادلة إلى فريقين أحدهما في روما والآخر في أفينيون، تلتها أزمة الانشقاق الديني (780–821هـ/1378–1417م)، كذلك تغيرت نظرة العامة في أوروبا بالنسبة لدور الدين، وازدياد الرغبة في محاربة الفساد وفي إدخال بعض الإصلاحات إلى الجسم الكنسي، علاوة على بدء الصحوة، وظهور ميول الرأي العام الأوروبي نحو القوميات. وقد ولدت أخبار المعارك ضد المسلمين في الشرق خلال المائتي سنة الماضيتين، شعوراً باطناً لدى العامة بأنها معارك لم تخل من الهلكة ولا من أعمال السطو، ولم يتردد المؤرخ ريتشارد ميلز في أن يعزو أحد أسباب فشل الحملات الصليبية إلى "بخل الباباوات" وتقصيرهم في دعم الحملات الصليبية بالمال، على الرغم من الثراء الهائل للكنيسة[1]. ويضيف إلى ذلك سبباً آخر اقترفه البابا كليمنت الرابع حين حوّل جموعاً من الحجاج إلى جيش بابوي أقحمه في الصراع على الصقليتين بين مانفرد الألماني وشارل أنجو الفرنسي. ولا يخفى أن مئات الآلاف من الحجاج قصدوا روما بدلاً من بيت المقدس للحصول على غفران من البابا على معاصيهم السالفة، مما قطع الطريق على إمداد الحملات الصليبية بأعداد غفيرة من المقاتلين الحجاج كما كان يحصل من قبل. حتى أن البابا يوحنا الثاني والعشرين أصدر في عام 732هـ/ 1331 مرسوماً أباح فيه للملك الفرنسي فيليب السادس أن يبيع صكوك الغفران لصالح إعداد حملة صليبية[2].

ويضاف إلى هذا التقصير، أن عدداً من باباوات روما لم يجروء على استغلال إمكانات المغول في حروبهم ضد المماليك، ولم يضعوا العروض المغولية للتحالف معهم موضع التنفيذ، فقد كانوا يتوجسون منهم خيفة، من أن يؤدي انتصارهم إلى متابعة تقدمهم باتجاه أوروبا كما فعلت جحافلهم الأولى التي اجتاحت روسيا وبولندا وهنغاريا[3].

وبتواتر الأنباء من الشرق على مر العقود الماضية، تولدت لدى النبلاء في أوروبا قناعة راسخة، اعتباراً من نهاية القرن الثالث عشر، أن المعارك المقبلة في الشرق إذا وجدت فإنما هي حروب كبرى لا يمكن القيام بها إلا على مستوى الدول. ولا يمكن لحفنة من النبلاء أن يتولوا منفردين أو مجتمعين مهمة بهذا الحجم. كما أن

---

[1] Mills, Op.Cit, p. 283-286.

[2] عاشور، الحركة الصليبية ، ج2 ، ص945.

[3] Mills , Op.Cit p. 283.

بعض الفرسان المتوجهين إلى الشرق الذين وضعوا أملاكهم تحت إشراف الكنيسة خلال غيابهم، وجدوا هم أو من ورثهم صعوبة في استعادة هذه الأملاك أو عائداتها بعد عودتهم.

ولمثل هذه الأسباب وغيرها لم تعد نداءات البابا إنوسنت الرابع تلقى آذاناً صاغية لدى حكام أوروبا، وزاد في عدم الاكتراث لما حصل في الشرق، تفاقم النزاعات فيما بين الدول الأوروبية وداخل كل دولة.

فقد انهمكت كل الدول الأوروبية بقضايا اعتبرَت مصيرية ولها الأولوية، قبل الشروع بحملة صليبية ضد المماليك، حتى الأمير إدوارد العائد حديثاً من الشرق والمتحرق للعودة إليه بحملة جديدة، واجه، حين أصبح ملكاً على إنكلترا، أزمة في اسكوتلندا ألهته عن كل قضية أخرى. وقد عبّر كثير من ملوك إنكلترا بعد ذلك، عن سلامة نواياهم في التحضير لحملات صليبية لتحرير بيت المقدس وتحصين أسوار المدينة المقدسة "لو أن الهدوء يسود لفترة معقولة في المملكة الإنكليزية"[1]. إذ خاضت إنكلترا حرباً ضد اسكتلندا كما أن وضعها الداخلي لم يكن مستقراً بسبب الصراع على الدستور.

وخرجت الإمبراطورية الرومانية المقدسة منهكة من أثر الصراع الذي خاضته في إيطاليا ضد الفاتيكان طوال ثلاثة عهود، أوصلها إلى عجز مادي وبشري وسياسي، حتى أن الاقتصاد الألماني وصل إلى حالة مزرية لم تمكنه من تحمل أعباء أية حملة صليبية مجدية.

وأما ملوك فرنسا فقد راوحوا بين مدعٍ لحمل لواء حملة صليبية مزعومة كالملك فيليب الرابع (684–714هـ/1285–1314م)، لم تتكشف حقيقة زعمه إلا بعد أن غلّ مساعدات مالية كبيرة من الكنيسة، وبعد أن صادر أموال منظمة فرسان الداوية في فرنسا، وبين ملوك أثبتوا صدق نواياهم مثل الملك فيليب السادس (729–751هـ/1328–1350م)، ومن أتى بعده إذ أدت الأوضاع الداخلية إلى التوجه بالكلية لمعالجتها ولو على حساب إهمال الأوضاع في الشرق[2]. فقد خاضت فرنسا حربها ضد الفلاندرز، وواجهت ثورة الفلاحين سنة758هـ/ 1357م، وعانت من مشكلة الوصاية على الملك شارل السادس. وفي الوقت ذاته كانت الدولتان الفرنسية والانكليزية تخوضان مواجهة دامية ومرهقة وطويلة الأمد عرفت بعد ذلك بحرب المائة عام. تلك الحرب التي سوف تستنفد طاقات الدولتين معاً [3].

---

[1] Mills , Op.Cit, p. 291.

[2] عاشور الحركة الصليبية ج2 ص944.

[3] المرجع السابق ، ج2 ص 939.

وكان على إسبانيا المتفرقة في دويلات أن تنصرف إلى حربها الصليبية الخاصة بها في الأندلس، ولم يكن توحيد جهودها ممكناً لاستخراج حملة صليبية إلى الشرق، لاستعادة بيت المقدس أو عكا على الأقل. وكان الصراع على صقلية لا يزال مستعراً بين حليف البابوية شارل الثاني صاحب نابولي وبين جيمس الثاني ملك أراغون يعاونه شقيقه فردريك. وفي الوقت ذاته كانت الإمبراطورية البيزنطية تصارع على جبهتين، الأولى ضد الترك شرقاً، والثانية ضد البلغار والصرب غرباً [1]، ولم يعد هناك أية إمكانية لعمل حربي مشترك بين البيزنطيين واللاتين بعد الذي جرى من غزو اللاتين للقسطنطينية واحتلالهم لها من عام 1204م/601هـ ،حتى العام 1264م/663هـ.

أما المدن الإيطالية المستقلة فقد كانت لها تحالفاتها السياسية الخاصة الناجمة عن مصالحها الاقتصادية، مما جعلها تضع علاقاتها التجارية فوق كل اعتبار، وكان التنافس فيما بينها على أشده لنيل ود المماليك ولتحسين الامتيازات التجارية الإيطالية في المرافيء والمدن التابعة للسلطان.

وأما مملكتا أرمينية وقبرص فقد كان يكفيهما ما تعانيان من مصاعب، فالملك الأرمني بات يتوقع هجوماً برياً كاسحاً، على بلاده من الترك شمالاً ومن المماليك جنوباً في أية لحظة، ولم يجد بداً من السعي إلى تحسين علاقاته مع الطرفين الخصمين.

بينما كان الملك القبرصي يواجه مشكلة النازحين من كل مكان، وكان عليه أن يهادن المماليك بانتظار قدوم أية حملة صليبية جديدة سوف تكون قبرص محطتها الأخيرة قبل الانقضاض على الشرق من جديد، وعلى الرغم من تلك الأعباء أخذت المملكتان تعانيان من صراعات داخلية فيما بين عائلات النبلاء ومن حروب أهلية جاءت في الوقت غير المناسب[2]، أشعلتها جنوا في مملكة قبرص، والبندقية في مملكة أرمينية الصغرى [3].

إلا أن كل ذلك لا يعني أن روح الفروسية في أوروبا قد توقفت فجأة، لكن الواقع أن المسؤولين الدينيين والزمنيين في أوروبا قد أهملوا توظيف هذه الروح، لا بل أساؤوا استغلالها كما يرى "ميلز"، فعلى سبيل المثال، اتخذ فرسان التيوتون الألمان قراراً حاسماً باجتياح بروسيا قبل بضع سنوات من سقوط عكا، وكان شغفهم بالحرب ليس له حدود، فأدخلوا السيف والإنجيل معاً إلى مقاطعة بوميرانيا. ثم أصبح القسم الشرقي من ألمانيا تحت سلطتهم بموجب معاهدة عام 1343م/

---

1 Runciman, Op.Cit, p 428.
2 Ibid, Op.Cit,p429.
3 STRAMBALDI, Op.Cit, P: 56.

744هـ. وصارت مدينة دانتزيغ عاصمة مقاطعة الفرسان وأهم مدينة صناعية على بحر البلطيق منذ تلك الفترة[1]. ولم يبق من المنظمات المهتمة بتحرير بيت المقدس سوى فرسان الأسبتارية والداوية، فآثروا الإقامة في قبرص مما أقحمهم في الصراعات الداخلية للجزيرة. وصارت أملاكهم العديدة المنتشرة في أوروبا مصدر حسد وقلق، فقضي على منظمة الداوية في مطلع العقد الثاني من القرن الرابع عشر، ولم يبق أمام فلول اللاتين في الشرق من حل سوى المناورة بانتظار قدوم أية حملة صليبية جديدة، خاصة وأن أعدادهم لا تسمح لهم بالقيام بتحمل مثل هذا العبء منفردين.

لذلك، وجدت البابوية نفسها، إزاء تقصير سواها وإهماله، أن عليها أن تتخذ المبادرات اللازمة لرأب الصدع بين الدول المتصارعة واستدراك التدهور الحاصل في الشرق لحماية المملكتين القبرصية والأرمنية، ولوقف الزحف التركي المتنامي في آسية الصغرى والذي بدأت أساطيله النامية تمخر عباب القسم الأوروبي من البحر المتوسط .

ب- الظروف الداخلية لطرفي الصراع

لعل خوف بطرس الأول من أن يخلع عن عرشه المغتصب يوماً ما، هو الذي جعله يغالي في عدائه للبلاد الإسلامية، ويتصف بالمدافع الأول عن مواقع الفرنج في الشرق، والممثل الأول للبابوية في هذه المنطقة، وذلك على الرغم من تعاطف البابا والملك الفرنسي مع أحقية هوغ إبن شقيقه "جي" في الملك. فما أن وصل إلى أفينيون عام 1362م/764هـ، حتى انخرط في صميم النشاطات البابوية تحضيراً لحملة صليبية جديدة مع السلطنة المملوكية، وبذلك ضمِنَ دعم الكرسي الرسولي لحكمه، وتخلي البابا نهائياً عن دعم منافسه (إبن شقيقه) [2] بعد أن عرض ممثلو الملك مبلغاً سخياً من المال لضمان تخليه عن المطالبة بالعرش ولأن بطرس لم يكن في وارد السماح لأحد بالتدخل في شؤون مملكته حتى ولو كان البابا شخصياً[3].

كما كان بطرس يهوى السفر إلى أوروبا منذ الصبا، فقد سبق له أن غادر الجزيرة مع شقيقه حنا دون إذن والدهما الملك هوغ الرابع، مما دفع الأخير إلى بذل أموال طائلة لاستردادهما، ووضعهما تحت الإقامة الجبرية مدة من الزمن [4]. كما كان بطرس يهوى الظهور بالمظهر العريق للنبلاء على الطريقة الفرنسية منذ صباه[5].

---

1 Mills, Op.Cit, p. 292-294.
2 MACHERAS, Op.Cit,P: 72.
3 De Giblet, Op.Cit,P:387.
4 AMADI, Op.Cit ,P:407..
5 DE MACHAUT, Op.Cit. Page : 11.

كما أن من دواعي تطرف بطرس الأول كان تدهور الأحوال الإقتصادية في الجزيرة على أثر تفشي الموت الأسود فيها، بمعدل وفيات يومية من 30 إلى 40 شخصاً من خريف عام 1361م/763هـ، حتى صيف 1363م/شعبان 765هـ[1].

وبسبب سيطرة المماليك على آياس وسقوط معظم الأراضي الأرمينية بأيديهم، توقفت طرق التجارة في شمالي البحر المتوسط، وازداد تردد تجار الغرب على الإسكندرية بسبب هدوء الأحوال الأمنية براً وبحراً في جنوب المتوسط.

وزاد في طين التجارة القبرصية بلة، أن التجار الأوروبين تمكنوا من الإستحصال على أذونات بابوية للسفر بسفنهم الضخمة إلى بيروت والإسكندرية، دون الحاجة إلى التوقف في الموانىء القبرصية او التخزين في مستودعاتها[2].

ولم يجد بطرس الأول بداً من التنبيه إلى الخطر المملوكي، والتحذير منه وإشعار الغرب كله أن الجزيرة وهي آخر معقل إفرنجي وآخر موطىء قدم لأوروبا على اليابسة في الشرق، باتت تحت الخطر المملوكي المباشر، وأن على الغرب أن يقدم للجزيرة كل أنواع الدعم الإقتصادي والحربي.

أخذ التبادل التجاري عند شواطئ الجزيرة يتضاءل شيئاً فشيئاً، بينما كانت الجمهوريات الإيطالية لا تشبع من التنازلات التي يقدمها ملوك قبرص وكانت في كل مرة تطالب بالمزيد من الإمتيازات.

ولم تجد هذه الجاليات صعوبة في افتعال الأزمات وإثارة الفتن، مما يدفع بالسكان المحليين إلى التعدي عليهم بالضرب والكسر والخلع، ليتخذها الإيطاليون حجة فيطالبون الملك بالتعويض لهم وبإطلاق أيديهم في الجزيرة[3].

لم يكن للتجارة دين ولا عقيدة، وكان تجار المدن الإيطالية والفرنسية الساحلية، لا يترفعون عن أية مغريات تجارية تعرض لهم، وخاصة تجار جنوا وبيزا، فقد شملت تجارة البيزيين كافة البضائع المنتجة محلياً والمستوردة من الشرق الأقصى والهند ، كما كان البيزيون يقومون بتهريب الأخشاب والمعادن من سواحل آسيا الصغرى إلى مصر، كلما سنحت الظروف برغم التحريمات والقرصنة المشرعة على مثل هذه العمليات[4].

وكانت إغراءات تجارة الرقيق في عهد المماليك لا تقاوم وقد راجت لدى التجار من كافة الجنسيات والأديان وضرب بعض التجار الأوروبيين عرض الحائط بالتحريم البابوي لبيع الرقيق فباعوا الرقيق من كل الأقوام حتى المسيحيين إلى المماليك. وكان غضب البابا شديداً ومكلفاً، وكانت أسواق القسطنطينية وما وراءها

---

[1] STRAMBALDI, Op.Cit, P: 53.

[2] EDBURY , Op.Cit, P: 152.

[3] Ibid, Op.Cit, P: 154.

[4] هايد، المرجع السابق ، ج2 ص 37و47و322

من السواحل الشمالية للبحر الأسود مصدراً أساسياً لهذه السلعة، التي بدأها البنادقة وتبعهم فيها الفرنسيون ثم تفوق فيها الجنويون[1]. وكانوا يجوبون أنحاءً مختلفة من العالم لجمع الفتية الصغار وبيعهم إلى مصر[2].

أما ملوك أراغون فقد أعاروا الحظر أهمية أقل، حين ضاقت أحوال رعاياهم الاقتصادية، وتعرضوا للضغوط من قبل مواطنيهم ومؤسساتهم، فأوقف الملك بطرس الرابع عام 1338م/739هـ، وبناء على طلب بلدية برشلونة، كل المحاكمات بحق التجار الذين خرقوا الحظر مع البلاد التابعة للسلطان[3]، ورخص ملوك أراغون لبرشلونة إعادة علاقاتها مع مصر، فحصل تجار برشلونة على تسهيلات جمركية مصرية، مماثلة للتي حصل عليها الجنويون والبنادقة .

فتح السلاطين أبوابهم أمام القناصل والسفراء وموفدي ملوك أوروبا. ولا ينبغي الاعتقاد أن الوفود الأوروبية إلى القاهرة كانت تتجشم عناء السفر، فقط لإلقاء التحية وتبادل عبارات المجاملة، فهي التي تسهل الأعمال التجارية وتفتح لها آفاقاً جديدة ، ودائماً تحت شعارات مبررة أمام الكنيسة الرومانية، مفادها، حث السلطان المسلم على منح رعاياه المسيحيين مزيداً من الحماية وحرية أكبر في ممارسة الطقوس الدينية وارتياد الكنائس.

كانت المقاطعة الأوروبية للسلطنة المملوكية فعالة في كثير من الأوقات، ولولا حنكة سلاطين المماليك وجشع التجار الأوروبيين، لكانت السلطنة عاشت في عزلة حقيقية ولكانت مواردها الاقتصادية اقتصرت على ما تنتجه وما تستهلكه وما تستورده من الهند والشرق الأقصى ولكانت تجارة العبور الرابحة شبه معدومة فيها.

وفيما كانت أوروبا تمر بخلافات سياسية حادة وكانت أساطيل المدن الإيطالية تخوض حروباً طاحنة فيما بينها على مشارف القسطنطينية وضد الإمبراطورية البيزنطية في آن معاً، كانت تجارة المدن الإيطالية والفرنسية والإسبانية ناشطة جداً وفي كل اتجاه، من بحري قزوين والأسود إلى شمال إفريقيا، وعبر بلاد فارس وعبر آسيا الوسطى بحثاً عن موارد وطرق قوافل بعيدة عن سيطرة السلطنة المملوكية .

وتضاف إلى خروقات الحظر التي انتهجها التجار الأوروبيون، الأذونات الخاصة التي استحصلوا عليها من البابا بسبب الضائقة المادية، والتي كانت كافية لصمود السلطنة المملوكية في النصف الأول من القرن الرابع عشر أمام الحظر،

---

[1] CAHEN C. Orient et Occident.. p202

[2] هايد، المرجع السابق ، ج3 ص317.

[3] المرجع ذاته،ج2 ص 262و264.

ويزيدها عامل الفطنة والحيلة لدى التجار الأوروبيين في طلب الرزق بعيداً عن بلادهم الأم أي في نقل البضائع إلى البلاد المصرية من مناطق أخرى من المتوسط وعبر سفن وموانئ مختلفة وبأساليب متنوعة مثل تقطيع الخشب الآتي من كريت وقبرص وآسيا الصغرى.

واستمرت المملكة القبرصية وحلفاؤها في لعب دور الخصم المباشر والقريب، خلال اتباع الغرب سياسة المد والجذر التجارية مع المماليك، في وقت ثابرت الدول الأوروبية على اهتمامها بالسواحل والبلاد شرقي المتوسط، واستمر الصراع الخفي حيناً والظاهر أحياناً بين الدول الأوروبية وبين المماليك، إلى أن تأكدت قبرص ومعها الغرب الأوروبي أن سياسة إضعاف المماليك إقتصادياً قد أعطت أقصى إمكاناتها دون جدوى، وأن الأوان قد حان للقيام بعمل عسكري مباشر كبير لاحتلال مصر، تمهيداً لاسترداد الأراضي المقدسة.

ومن أسباب استهداف الإفرنج وبطرس الأول للإسكندرية كذلك، أن هذه المدينة شهدت ازدهاراً لا مثيل له على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط، خاصة بعد سقوط عكا، بحيث اتصلت المدن الإسلامية الساحلية والداخلية ببعضها البعض وعادت إلى سابق عهدها المزدهر كما كانت قبل الحروب الصليبية. فاتصلت دمشق وحلب بالمواني‌ء الشامية والمصرية، وعادت طرق التجارة البرية بين مصر والشام حرة تماماً[1].

ويصف الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الازدهار الاقتصادي في الاسكندرية، حيث يخبر بأن أسواقها تتسع لجميع الأمم، ويقول: " فيأتيها التجار من بلنسية وتسكانيا، ولومبارديا، وأبوليا، وأمالفي، وصقلية، وقطالونيا، وإسبانيا، وألمانيا، وسكسونيا، والدانيمرك، وإنكلترا، وفنلندرة، وفرنسة، ونورمنديا، وبرغنديا، وجنوة وبيزا وغسقونيا، ونافار. كذلك يأتيها تجار المسلمين من الأندلس وأفريقيا، وبلاد العرب، وأقوام من الهند، والحبشة، والنوبة واليمن، والعراق، وتستورد من الهند جميع أنواع التوابل التي يبتاعها التجار الأوروبيون، ولكل أمة في المدينة فندقها الخاص بها "[2].

ومع منتصف القرن الرابع عشر (748–749هـ/1347 – 1348م)، حل الموت الأسود بالبلاد. فضرب وباء الطاعون الجزيرة القبرصية والمنطقة بقسوة، أدت إلى وفيات هائلة أطاحت باليد العاملة الزراعية منها والصناعية، وأدخلت البلاد تدريجياً في مرحلة من الكساد والفقر والتقهقر.

---

[1] نقولا زيادة ، متوسطيات، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ص 107، 2002.

[2] Benjamen of Tudela ,Alexendria, Op.Cit, (75), page 106.

ويعزو النويري الاسكندري الأسباب المباشرة للحملة على الإسكندرية، ما تعرض له المواطنون النصارى من اضطهاد في أرجاء السلطنة المملوكية وإلى عدة محاولات تحرش قامت بها مراكب الإفرنج على الموانئ المصرية دون أن تلقى مقاومة تذكر مما أغرى الملك القبرصي بغزو الإسكندرية، كما يذكر النويري الاسكندري أن التجار البنادقة تعرضوا مرة لإعتداء من "عوام المسلمين" في الإسكندرية فكان ذلك سبباً لتبرع البنادقة بنقل الحملة بحراً إنتقاماً[1].

ويضيف النويري الاسكندري أن الملك القبرصي كان يعلم من خلال جواسيسه أن ليس في المدينة مقاتلين أشداء، وأن سيوفهم كانت للزينة أكثر منها للقتال وأن دفعات الحراسة عند الميناء كانت تهتمّ بالثياب المزركشة وبألعاب النفط أكثر منها بالقتال الضاري[2]. ويزيد النويري الاسكندري أنه سمع بأن "صاحب قبرس أتاها (الإسكندرية) قبل الموقعة في زي تاجر... فصار يتمشى بالبلد من جملة الفرنج التي بها تجاراً وهو يكيّفها وينظر أحوال الناس بها "[3].

وبقدر ما اتخذت هذه الحملة أهمية كبيرة لدى الإفرنج، بقدر ما كان للإسكندرية أهميتها في العالم الإسلامي، فقد كان يُظَن بأنها منيعة الأسوار وأن أحداً من الإفرنج لا يجرؤ على مهاجمتها، خاصة وأنها استعصت على كل غازٍ من يوم أن فتحها العرب في سنة 19 للهجرة إلى حين دخلها الملك القبرصي سنة 767 هـ[4].

وكانت السياسة التي أرساها الناصر محمد بن قلاوون على مر سني حكمه الطويلة (710–742هـ/1310–1341م)، قد أرست في أذهان العامة والخاصة أن الدبلوماسية بين الشرق والغرب تحقق ما تعجز عنه الحروب. لكن الحال في مصر تغير بعد الناصر محمد فقد خلفه خلال السنوات الإثنين والأربعين بعده 12 سلطاناً من سلالته منهم ثمانية أبناء وحفيدين واثنين من أبناء حفدته. ومعظمهم من الأطفال والأحداث. وكان السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد يبلغ من العمر 11 سنة عندما هاجم بطرس الاسكندرية، وعلى الرغم من أن عهده كان نسبياً من أطول عهود السلالة الناصرية، إلا أنه بقي كغيره ألعوبة بيد أمراء المماليك المخضرمين، وخاصة الأتابك يلبغا الخاصكي[5].

---

[1] الاسكندري، المخطوط، ج1، من ص 93ظ حتى ص 96ظ.

[2] المصدر السابق، ص 97ظ وص 100ظ وص 102و.

[3] المصدر السابق ، ص 105ظ ، لم أعثر في المصادر الغربية على أية زيارة سرية قام بها بطرس إلى بلاد المسلمين.

[4] المصدر السابق ، ص 96ظ وص 147ظ.

[5] يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري، بدأ عند السلطان الناصر حسن بأمرة تقدمة ألف، ثم صار أتابك السلاطين الصبيان، وإليه ينتهي الأمر وبيده الحل والربط، وصار يدخل إليه في كل يوم من الدنانير ألفان، وبلغ عدد مماليكه ثلاثة آلاف. بعد غزوة الفرنج للإسكندرية قام بمصادرة أموال المواطنين النصارى في مصر والشام ظلماً وجمع من ذلك ثروة عظيمة إلى أن أفتى الفقهاء بعدم جواز ذلك وبرد المظالم، شرع بعمارة السفن لغزو قبرص، لكن اختلال الأوضاع داخل السلطنة شغلته عن ذلك. حاول خلع السلطان الأشرف فعجز وانقلب

لم يكن الأتابك[1] "يلبغا"، يرى فائدة من تحصين سواحل السلطنة بعد الذي جرى لحملة الملك لويس التاسع قبل قرن من الزمان [2]. مع أن الثغور المملوكية كانت في عهده عرضة لأعمال قرصنة عديدة وقف منها موقف العاجز.

فقد دأبت سفن الإفرنج على مهاجمة الثغور والشواطئ المملوكية قبل هذه الحملة بعشر سنين، فقصدوا طرابلس الشام سنة 757هـ / 1355م، في عدة مراكب وعاثوا فيها فساداً، ثم عادوا في العام نفسه إلى صيدا فنزلوا فيها وقتلوا وأسروا عدداً من أهلها قبل أن يعودوا إلى البحر[3].

ج- تجهيز الأسطول الفرنجي

في كانون الأول 1362م/ صفر 765هـ، زار الملك بطرس الأول البندقية ثم عاود زيارته لها في أواخر عام 1364م/767هـ، حتى أوائل عام 1365م/ربيع الثاني 767هـ، حيث أمضى وقتاً طويلاً وأجرى محادثات مكثفة طمأنت البنادقة وأعادت الثقة بين الطرفين، ما دفع بالبنادقة إلى التعهد بنقل حملة بطرس الأول بحراً إلى الإسكندرية خلال الحملة القادمة.

وكان بطرس قد أخذ منذ معركة ساتاليا يرسل السفن إلى الأحواض الجافة في فماغوستا للتجهيز والصيانة وليعدّها لمهمة لم يفصح عنها لأحد[4].

شكّل الملك بطرس الأول والمندوب البابوي بيتر توماس والمستشار الفرنسي فيليب دو ميزيير فريقاً متحمساً ونشطاً لاستثارة الغرب وحثه على حرب مقبلة وحتمية مع المسلمين، وكان المستشار دو ميزيير ذا أسلوب مميز ومثير في الكتابة، فوجّه باسم الملك القبرصي بطرس الأول، رسائل مثيرة للعاطفة الدينية " لأن مشاهد وآثار السيد المسيح بدأت تزول معالمها على يد المسلمين" ، وذلك إلى معظم ملوك أوروبا وأمرائها، يحثهم فيها على مساعدته لإنقاذ الأراضي المقدسة من " الكفرة"، خاصة وأنه هو صاحب الحق الشرعي في استرداد مملكته في بيت المقدس [5].

وحدد بطرس في أول رسالة له كتبها إلى فلورنسا بأن موعد الحملة سيكون في آذار من عام 1364م/ جمادى الأولى 766هـ.

غادر بطرس الأول قبرص في تشرين الأول 1362م/ ذي الحجة 764هـ، تاركاً شقيقه حنا لإدارة شؤون المملكة، وأبحر غرباً لحث أوروبا على دعمه في الحملة

عليه مماليكه وانحازوا إلى الأشرف ففر ثم اعتقلوه ثم قتلوه، وذلك في ربيع الآخر سنة768هـ. (إبن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي بيروت.ج4 ص:438.-إبن كثير، البداية والنهاية ج14 ص324).

[1] معنى "أتابك": الوالد الأمين، راجع أبو الفدا، المصدر ذاته،ج1 ص548.

[2] Setton,Op.Cit.. P: 266.

[3] المقريزي، السلوك ج 4 ص 227.

[4] Setton, Op.Cit. P240.

[5] Ibid , P242.

الصليبية المقبلة على المماليك. رافقه مستشاره "فيليب دو ميزيير" والمندوب البابوي "بيتر توماس" وعدد من النبلاء والخدم.
وصل أولاً إلى البندقية في شهر كانون الأول، حيث استُقبل استقبالاً لائقاً. وناقش مع "دوج" البندقية، الخطر المحدق بالمصالح الأوروبية في الشرق، وأبلغه دوج البندقية أن مجلس الشيوخ قد وافق لتوه على تسليح اثني عشرة سفينة كبيرة، ست منها في جزيرة كريت، وست أخر في البندقية، كما تعهد الدوج بنقل نصف الحملة مجاناً وتأمين تموينها شرط أن يبقى أمر هذه المساعدة سراً[1].
وبناءً على طلب بطرس الأول وافقت البندقية على استبقاء موفديها لدى البابا في أفينيون، كي يدخلوا معه إلى الصرح، إشارة إلى توافق البنادقة والقبارصة على تنفيذ الحملة المقبلة[2].
سبق بيتر توماس الملك القبرصي إلى أفينيون، لتحضير الأجواء مع البابا وكبار الكرادلة، فقد كان البابا إنوسنت السادس قد توفي في أيلول سنة 1362م/ ذي القعدة 764هـ، وحل مكانه أوربان الخامس، وكان ابن أخ الملك المطالب بالعرش القبرصي لا يزال مرابطاً في الصرح البابوي. في تلك الأثناء انتقل الوفد الملكي إلى جنوا عبر ميلان حيث جدد الإمتيازات التي منحها هنري الثاني للجنوية.
ثم وصل إلى البلاط البابوي في أفينيون في 29 آذار 1363م/9 جمادى الثانية 765هـ، ومن حسن حظه كانت المراسم تعد لتسليم الملك الفرنسي بعد يومين صليب الحملة الصليبية المقبلة، فحضر بطرس الأول المراسم، وحمل الصليب هو أيضاً، واكتسب بذلك شرعية التحضير والمشاركة في الحملة الفرنسية المزمع انطلاقها في الأول من آذار عام 1365م/ 2 جمادى الثانية 767هـ[3].
وفي أيار 1363م/ رجب 765هـ، أعلن البابا أوربان أن الملك القبرصي سوف يقود مقدمة الحملة الفرنسية ويتقدمها، وكان بطرس قد تمكن حتى ذلك الوقت من أن يجمع حوالي 200 من النبلاء وألفين من الجياد وستة آلاف من جنود المشاة الراجلة، لكن أحداً من هؤلاء لم يكن يعلم بعد إلى أين ستكون وجهة هذه المقدمة[4].
أقام بطرس الأول في البلاط البابوي حتى نهاية شهر أيار، ثم بدأ يجوب أوروبا للترويج للحملة ولحشد المتطوعين. فعبر من فرنسا إلى إنكلترا والتقى بملكها إدوارد الثالث في تشرين الثاني، ثم أمضى الميلاد في باريس. ومع بداية العام 1364م/ربيع الأول 766هـ، بدأ يجوب المقاطعات الفرنسية بحثاً عن متطوعين، وكان عدد من المحاربين المرتزقة، قد وجدوا أنفسهم بلا مورد رزق، بعد أن

---

1 Machaut, Op.Cit,P: 49.
2 Setton, Op.Cit. P242
3 Machaut, Op.Cit,P: 22.
4 Edbury , Op.Cit, P: 165.

هدأت الحرب بين فرنسا وبريطانيا، فبدأوا يتسببون بأعمال عنف وإرهاب، وكان من شعاراتهم، "أصدقاء الله وأعداء الجميع".[1]

فكر البابا أوربان بأن يشغل هذه الوحدات الخارجة عن القانون، عبر تطويعها في الحملة الصليبية. لكن محاولاته باءت بالفشل نظراً للفوضى العارمة التي كانت تسود صفوف هؤلاء، على الرغم من حثه لهم بمنحهم الغفران إذا انضموا إلى الحملة[2].

في نيسان 1364م/ جمادى الثانية 765هـ، توفي الملك الفرنسي جان، مما جعل انضواء النبلاء الفرنسيين في الحملة الصليبية يزداد صعوبة. وحضر بطرس مراسم دفن الملك كما حضر مراسم تنصيب خلفه شارل الخامس، والذي لم ير البابا فيه أية مؤهلات لقيادة الحملة إلى الشرق. فازدادت حظوظ الملك القبرصي لقيادتها، ثم غادر بطرس الأول بعد ذلك إلى البر الأوروبي من ألمانيا إلى بوهيميا إلى بولندا، ثم عاد إلى البندقية في الحادي عشر من تشرين الثاني[3]. بعد أن تمكن من إقناع عدد من النبلاء الفرنسيين والألمان بالانضمام إلى الحملة.

حادثتان في الشرق أدتا إلى مزيد من التأخير في انطلاق الحملة:

الأولى: عصيان المستوطنين البنادقة في جزيرة كريت ضد مواطنيهم في بلدهم الأم وذلك صيف 1363م/764هـ. مما أخر الحملة بضعة أشهر ريثما تمكنت جمهورية البندقية من إخضاع الثوار، بجيش يضم ألف فارس وألفي راجل، على أن ينضموا بعد ذلك إلى حملة بطرس الأول.

استجاب بطرس الأول لطلب البندقية، وعرض أن يشارك في قمع العصيان، وكاتب زوجته وشقيقه النائب، يطلب منهما قطع العلاقات التجارية مع جزيرة كريت ريثما يتم قمع العصيان فيها، وفي طريق عودته إلى رودس قبيل الحملة على الاسكندرية عرج بطرس الأول بالفعل على جزيرة كريت، لكن العصيان كان قد انتهى فأمضى فيها بعض الوقت.[4]

والثانية: حصلت في فماغوستا بين الجنوية والقبارصة، بسبب سوء معاملة اثنين من البحارة الجنوية " البيض"[5] ،على متن إحدى السفن القبرصية. ولم تهدأ ثائرة

---

[1] "Les amis de Dieu et les ennemis de tout le monde ", MICHAUD, Op.Cit, Tome V, Livre VIII, P:187.

[2] Setton, Op.Cit., P 248.

[3] Machaut, Op.Cit,P: 44.

[4] De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:251- Setton, Op.Cit., P: 251.

[5] "البيض" تعبير يطلق على رعايا المستعمرات التي احتلتها جنوا أو البندقية، وهم ليسوا جنويين او بنادقة في الأصل. وقد قام الحاكم القبرصي بقطع أذان البحارة الفارين. ورد البوديستا الجنوي في فماغوستا باعتقال فارس قبرصي بيزي الأصل وقطع لسانه علناً. راجع: De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:260-264.

الجنوية إلا بعد أن رضخ بطرس الأول لمطالبهم المذلة والمكلفة في نيسان من عام 1365م/رجب 766هـ[1].

حث البابا أوربان الخامس الملك القبرصي على الإسراع بالعودة إلى الشرق، فقد بدأ الترك يعيثون في بحر إيجه قرصنةً وتوسعاً، ففي تشرين الثاني سنة 1363م/ محرم 766هـ مثلاً، كانوا يستعدون لمهاجمة مناطق السيطرة القبرصية على شواطيء آسية الصغرى، ويحاصرون ساتاليا. مما حدا بالوصي شقيق الملك إلى إرسال حملة رادعة على شواطيء آسية الصغرى [2].

كذلك خشي بطرس والبنادقة من طول الانتظار، حتى أن عدداً من النبلاء الأوروبيين الذين طال انتظارهم في البندقية عدلوا عن رغبتهم بالمشاركة وعادوا إلى أوطانهم [3]. وهكذا يكون بطرس الأول قد أمضى عامين ونصف متنقّلاً في أوروبا قبل أن يتمكّن من تجهيز الأسطول والرجال.

ضم القسم الأول من الحملة ستمائة رجلاً مسلحاً وخمسمائة من الجياد، معظمها على نفقة الملك القبرصي، وانتظرت في جزيرة رودس حتى انضم إليها بقية الأسطول القادم من قبرص بقيادة أمير أنطاكية حنا، شقيق الملك وذلك في 25 آب/ 2 ذي الحجة [4]. ومع ما وضعه فرسان الأسبتارية من إمكانات بتصرف الحملة، يجمع المؤرخون الغربيون على أن عديد الحملة بلغ عشرة آلاف رجلاً وألف وأربعمائة من الجياد ووصل عدد فرسان النبلاء فيهم إلى الألف تقريباً.

وأما سفن الأسطول، فقد بلغت حوالي 165 سفينة ومركباً من مختلف الأحجام حشد لها بطرس كل أنواع المراكب والسفن من المرافئ القبرصية والتي بلغ عددها 108 منها 33 سفينة مخصصة لنقل الجياد[5].

ومن بين هذه السفن ستة عشر سفينة ضخمة تابعة للبندقية، ضمت إليها في رودس أربعة سفن تابعة لفرسان الأسبتارية[6]. لكن المؤرخين العرب قدروا عدد المراكب الإفرنجية بما بين السبعين والثمانين مركباً كبيراً [7]. ويذكر النويري الاسكندري أن عدد سفن البنادقة كانت أربعة عشر، ومعها سفينتين للجنوية وعشرة لأصحاب جزيرة رودس (الأسبتارية)، كما ضمت خمسة للفرنسيين وأما الباقي فكان للقبارصة وكان عددها الإجمالي "سبعين غراباً ".[8]

---

[1] MACHERAS, Op.Cit ,P:83.
[2] STRAMBALDI, Op.Cit, P:58.
[3] Machaut, Op.Cit ,P: 58.
[4] Ibid. P: 56.
[5] MACHERAS, Op.Cit,P: 91.
[6] Edbury, Op.Cit. P: 166.
[7] المقريزي، السلوك، ج 4 - ص:283 .
[8] النويري، المخطوط، ج1، ص 122ظ .

د- وقائع الحملة، وصورتها في المصادر التاريخية

إنطلقت بوادر حملة بطرس الأول من البندقية في حزيران. دون أن يعلم الجنوية أو البنادقة عن وجهتها النهائية شيئاً. ويكاد المؤرخ "ساتون" يجزم بأن البابا نفسه لم يكن يعرف تلك الوجهة تحديداً، بدليل أنه أعطى البنادقة إذناً لست سفن بالاتجار مع المماليك في الوقت الذي أطلق فيه الحملة إلى الشرق، ويؤكد المؤرخ المذكور أن بطرس الأول وعد البنادقة بعدم مهاجمة الاسكندرية قبل شهر تشرين الأول من سنة 1365م/ محرم 767هـ، إلا أنه حنث بوعده[1].

ما أن أبحر بطرس الأول من ميناء البندقية، حتى أرسل الدوج فيها إلى أمير البحر وإلى حاكم كريت، أن يرقبوا الملك القبرصي حيث يحل وأن يفيدوه عن تحركاته أولاً بأول. كما أمر الدوج البندقي قناصله المتعاملين مع أمراء الدويلات التركية أن يؤكدوا للأمراء الأتراك عدم علم البندقية بالعمليات العسكرية التي سيقوم بها بطرس وبعدم موافقتهم عليها[2].

ولمجرد أن رصد أمراء الترك في الأناضول الحركة البحرية للقبارصة، أعلنوا خضوعهم التام لبطرس وهو في جزيرة رودس، وتعهدوا بدفع الضريبة التي يقررها مقابل عدم تعرضه لهم بمثل هذا الاسطول الضخم[3].

قبل تحركه من رودس، أشاع الموفد البابوي بيتر توماس أن الحملة تستهدف الشواطيء السورية، مما أحزن بحارة سفن فماغوستا لحسن صلاتهم بالتجار السوريين، وجعل بطرس يرغبهم ويشجعهم، كذلك أعمت هذه الشائعة عيون البنادقة والسلطان المصري معاً عن الوجهة الحقيقية للحملة، لكن الملك القبرصي بطرس كان في ذلك الوقت يستمع إلى ياوره "برسيفال دو كولوني" (Percival de Cologne)، الذي سبق له أن أمضى سنوات معتقلاً في سجن الاسكندرية[4]، ويعرفها جيداً، وهو يقول له: "إذا أردت نصيحتي توجه مباشرة إلى الاسكندرية" فهي مورد الرزق الأساسي لحكام مصر ولتكن الضربة في الرأس وليس في الذيل[5].

إنطلقت الحملة من جزيرة رودس يوم الرابع من تشرين الأول عام 1365م/ 17 محرم 767هـ، بسرية تامة رغبةً في مفاجأة المماليك في زمان الحملة ومكانها. وقف الموفد البابوي على مكان مرتفع من مقدمة السفينة الملكية عند الانطلاق من

---

1 Setton, Op.Cit. P262.

2 De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:749-752.

3 Setton. Op.Cit. P 265.

4 ربما دعت معرفة "برسيفال" للاسكندرية، بالنويري الاسكندري إلى الظن بأن الملك بطرس هو الذي زار الاسكندرية من قبل متخفياً ، المخطوط،ج1، ص105ظ. ولم يثبت ذلك في المصادر الغربية.

5 Machaut, Op.Cit ,P: 61.

رودس، حيث ارتفعت الراية البيضاء وعليها الأسد الأحمر شعار سلالة لوزينيان، وإلى جانبه الملك القبرصي بطرس الأول، والسفن الأخرى تحيط بها من كل مكان، وأخذ يرتل ويصلي ويبارك المقاتلين والبحر الذي سيحملهم في مهمتهم، ثم أخذت الأبواق تصدح وارتفعت أصوات آلاف الجنود "ليحيا بطرس وليسقط المسلمون الكفرة"، وكان الهدف لا يزال مكتوماً.

ما أن أصبح البر بعيداً، وصار الأسطول كله في عرض البحر حتى صاح بطرس: "الإسكندرية" وردد الجند الصيحة بعده منتشين فرحين، على حد قول ميزيير ووصفه[1].

لكن هذا الإعلان سبب أيضاً بعض القلق في نفوس المقاتلين والبحارة الذين يعرفون الاسكندرية من قبل، ويعلمون أن قائد حاميتها قادر على استنفار آلاف الجند في ساعات قليلة، طمأن بطرس مقاتليه وعمل توماس على وعظهم، فإذا كان لا بد من الموت في الاسكندرية فالغفران أمامهم ونفوسهم بحاجة إليه[2].

كان بطرس الأول قد عيّن تاريخ الحملة حين يكون النيل مرتفعاً فيغمر كثيراً من الأراضي مما يعيق حركة النجدة المصرية من القاهرة [3].

ساعدت الرياح على الإبحار بسرعة إلى السواحل المصرية، ووصلت طلائع الأسطول إلى مياه الإسكندرية بدءاً من ليل الأربعاء في الثامن من الشهر ذاته. ثم استكمل الأسطول وصوله يوم الخميس (22 محرم سنة 767 هـ/ 9 ت1 1365م)، ومع أن البحر فرّق أرتال السفن أثناء الرحلة، فقد أعاد الأسطول تجمّعه من جديد أمام المرفأ القديم، خلال ذلك اليوم، الذي صادف يوم عيد ميلاد الملك بطرس السادس والثلاثين.

تجمع الأسطول وتقاربت السفن، وشكلت طوفاً ضخماً عائماً قبالة بحر السلسلة أي الميناء الشرقي المخصص لرسو سفن الفرنج التجارية [4]، ولكن بعيداً عن شاطيء الإسكندرية حذراً من أي هجوم بحري مفاجيء للمماليك، وبحيث لا تطاله رمايات المسلمين. وبعد أن تأكد المراقبون الإفرنج من أن المدينة قد خلت من أية قوة عسكرية كبيرة سوى من الحامية العادية، باتوا مطمئنين، وخاصة لمّا رأوا الصبية من أهل الإسكندرية يتجمهرون دون مبالاة والباعة ينتشرون كالمعتاد.

كانت حامية المدينة بقيادة أمير عشرة من المماليك يدعى جنغرا، تنقصه الحنكة والخبرة، وهو نائب والي الإسكندرية، صلاح الدين عرام، الذي سافر لأداء فريضة

---

[1] Machaut. Op.Cit. P: 64.

[2] Setton, Op.Cit, P:267.

[3] النويري الاسكندري المخطوط، ج1، ص 101و.

[4] المقريزي، المصدر ذاته ج 4، ص 284 ، حوادث سنة 767هـ، -عاشور ، قبرس والحروب الصليبية، ص63.

الحج. وكان المدافعون كما المهاجمين، واثقين من أن الاسكندرية كانت المدينة الإسلامية الأكثر تحصيناً، لكنهم كانوا يعرفون أيضاً أنه قد مر عليها وقت طويل دون أن يعنى أحد بترميمها وبتعزيز حصونها، كما أن شواطئها الرملية تسمح ببعض المناورة خارج الأسوار، للمهاجمين من رجالة وخيالة.

طمأن برسيفال الياور ملكه بطرس، أن لا يخشى من كثرة الأعداد التي يراها على الشاطيء فهم من العامة، وأغلبهم لا يحمل سلاحاً وأنهم سيفرون عند الصدمة الأولى كالغنم. كما نصحه أن يبدأ الهجوم يوم غد الجمعة، فلعله وقت صلاتهم، وأن أهل الإسكندرية يتناقلون تنبوءاً بأن مدينتهم تؤخذ في يوم جمعة[1].

أوجس المسلمون خيفة من هذا الجمع الضخم من السفن، وأخذوا حذرهم من السفن الراسية المتراصة التي لم ينزل منها أحد، واستنفر الأمير جنغرا حاميته والعربان، فأبقوا مشاعلهم مضاءة طيلة ليلة الخميس الجمعة، بينما كان المهاجمون يتحضرون للإنقضاض غداة اليوم التالي[2]، فيما أنزلت سفينة إفرنجية سراً، مجموعة من الخيالة القبارصة خلال الليل إلى منطقة المقابر، على الشاطيء غربي المدينة، حيث كمنوا فيها حتى موعد الهجوم.

مع ساعات الصباح دقت الأبواق الملكية، وصاح توماس بالمقاتلين :"ها قد فتحت لكم أبواب الجنة"، وتحركت طلائع سفن الإفرنج لتقترب من الأرصفة، وبدأ الجنود بالنزول على السلالم من جوانب السفن بينما انهمرت السهام من البر كالمطر، لكن دون جدوى ومن مسافات لا تطال المهاجمين. وانقسم المدافعون أمام الأسوار إلى مجموعتين، الأولى، عند المنار[3]، وفيها العربان، يقودها الأمير المملوكي جنغرا، وكانت مهمة هذه المجموعة التصدي للإبرار الأول للإفرنج عند المنار خارج المرفأ، والثانية على رصيف بحر السلسلة شرقاً لتحول دون إبرار طليعة الإفرنج في الميناء.

تمكن المدافعون عند المنار من مقاومة الإفرنج ومنعهم من الإبرار لأول وهلة، إلى أن ظهر كمين الفرسان القبارصة المختبيء في المقابر، وهاجم المدافعين من الخلف، فشتت شملهم وأردى أغلبهم قتلى، وتراجع من نجا منهم إلى خلف الأسوار، وحوصر بعضهم عند المنار ومنهم الأمير جنغرا وبعض رجاله. مما سمح لقوات الافرنج الأولى بالإبرار بعد ذلك إلى أرض المنار بأمان[4].

---

[1] النويري الاسكندري المخطوط ، ج1 ، ص74ظ-
Machaut, Op.Cit ,P: 61. -De Mas Latrie , Op.Cit. VOL II P: 280

[2] Setton, Op.Cit. , P:267

[3] مكان قلعة قايتباي حالياً.

[4] المقريزي، المصدر ذاته ج 4 ص 284 ، حوادث سنة 767هـ.

أما المدافعون أمام السور الشرقي للمدينة، فقد استمروا صامدين، إلى أن خاضت قوة من فرسان الأسبتارية مياه الشاطيء شرقي المدينة، وقامت بحركة التفاف واسعة، وهاجمت بخيولها ودروعها الثقيلة مجنبة المدافعين الشرقية (اليمنى)، وأبادتهم عن بكرة أبيهم، ويصف ماشو المشهد، فيذكر أن عدد المهاجمين بلغ ثمانية آلاف وأن دماء المسلمين المتصدين قلبت لون البحر إلى الأحمر[1].

واعتباراً من ضحوة يوم الجمعة ، اقتربت بقية السفن من الميناء وأخذت فرق الفرسان بدروعها الثقيلة تنزل إلى البر، وتقوم بتغطية القوات الراجلة المتقدمة خلفها. وتقدم الغزاة بعد ذلك إلى الأسوار بسرعة وبدون مقاومة تذكر.

كان القضاء على الحامية المتقدمة إلى الأمام سهلاً بسبب قلة عددها، فقد استهان مقدم الجيوش الأمير يلبغا الخاسكي، من قبل، في تعزيز الدفاع عن المدينة بالعدد والعدة[2]، وخاصة بالمنجنيقات القادرة على تدمير السفن المهاجمة وحرقها بمن فيها. انتهت عملية الإبرار على الشاطيء ظهر الجمعة بنجاح وسرعة، ودون أن يتكبد الجيش المهاجم أية خسائر تذكر، لكن اقتحام المدينة فشل ووقف المهاجمون بعد ذلك حائرين أمام أبوابها الموصدة وأبراجها العالية المحروسة، ولو كان المدافعون على أتم الاستعداد فوق الأسوار، لقتلوا وأحرقوا المئات من المهاجمين عندها.

دقت الأبواق الملكية إيذاناً بالتراجع والانتظار، وأمر بطرس الجند أن يريحوا جيادهم بعيداً عن الأسوار، وطلب المشورة من النبلاء المجربين، فأخبروه أن المدينة لن تؤخذ بالحصار، الذي سيدوم طويلاً ودون جدوى، وأشاروا عليه بالانقضاض مهما كلف الثمن وخاصة عبر نقب بعض الجدران أو اختراق المناطق الضعيفة[3].

وبعد أخذٍ ورد، أجمع النبلاء على التقيد بأوامر الملك مهما تكن، دفاعاً عن الدين وعن شرف بطرس الأول، وأمر الملك القبرصي بالانقضاض، وأعلن أن أول مخترق للجدران سينال مكافأة قدرها ألف فلورين والثاني خمسمائة والثالث ثلاثمائة، وأخذ بطرس بمشورة ياوره "برسيفال"، بأن باب الجمرك حيث تمر البضائع هو أوهن الأبواب.

عند ذلك استدعى الملك الكونستابل والمارشالين، وأخبرهم بأن الهجوم سينطلق في الحال، وأن الياور سيقود الهجوم عند النقطة الأضعف في الأسوار عند الطرف الشرقي من السور الشمالي للمدينة.

---

[1] Machaut, Op.Cit,P: 76.

[2] النويري الاسكندري ، المخطوط، ج1، ص96ظ- 103و .

[3] Machaut, Op.Cit,P:78.- De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:279.

بدأت المعركة باختراق فرسان الافرنج باب الديوان (مدخل الجمارك) عبر نقبه وتحطيمه، وقد أدى إقفال مسؤولي الجمارك المصريين للمعبر من الداخل باتجاه باب الديوان، إلى تعذر وصول النجدة إليه من داخل المدينة للدفاع عنه، مما جعل الافرنج يعلون فوقه دون مقاومة، ثم أحرقوه ودمروه واخترقوه.

وهكذا تمكن الإفرنج من إحداث الثغرة الأولى في سور المدينة، ودخلوا بجموعهم منها، والتفوا خلف الأسوار، ثم عالجوا بقية الأبواب الثقيلة المدرعة ، وتخلّى المدافعون عن الأسوار، وفروا إلا قلة منهم استمروا في القتال حتى الاستشهاد.

كان الأمير الشاب جونغرا، قائد الحامية المملوكية، يقاتل في موقع المنار عند رأس شبه جزيرة فرعوس، حيث جرح بسهم فانعزل مع جنده عن المدينة وفصله عنها جمع هائل من جنود الإفرنج، لكنه تمكن من عبور الفاصل المائي إلى الشاطيء ودخل المدينة عبر الباب الوحيد لجدارها الغربي، وأسرع بجمع الأموال والذهب، وأرسلها إلى القاهرة عبر البوابات الجنوبية للمدينة، ثم قامت شرطة المدينة على عجل باعتقال كل الافرنج الذين صادف وجودهم فيها ، فسيقوا موقوفين عبر الباب المؤدي إلى مدينة دمنهور، وأعدموا أحد المتلكئين لحث الباقين على الانصياع والخروج بسرعة من المدينة[1].

أعمل الإفرنج القتل في المدينة من ظهر الجمعة حتى مساء اليوم التالي. وتمكن الإفرنج من القضاء على المجموعات المتفرقة التي حاولت التصدي لهم ومنها قوة صغيرة حاولت الهجوم عند باب البهار صباح السبت، ردها فرسان الافرنج على أعقابها.

ثم أضرموا النار في المخازن، وعاثوا في المدينة قتلاً ونهباً وفساداً وحرقاً وتدميرا. حتى أن بعض فنادق الفرنج وممتلكاتهم لم تسلم من أعمال السلب والنهب ومنها فنادق "الكيتلانيين والجنويين والمرسيليين"[2].

ولاذ أهل الإسكندرية عند ذلك بالفرار في ازدحام شديد عند أبوابها المؤدية إلى البر، فقتل المتأخرون منهم بسيوف الإفرنج كما قتل آخرون جراء التدافع والزحام عند أبواب البر[3].

قتل الإفرنج حتى أولئك الذين لجأوا إلى المساجد، وارتكبوا جرائم بشعة بحق النساء والأطفال دون رحمة ولا شفقة، ولم يوفروا شيئاً ذا قيمة من جواهر وحرائر، كما دمروا وأحرقوا ما عجزوا عن نقله إلى السفن من أمتعة وأغذية[4].

---

[1] النويري الاسكندري المخطوط ، ج1، ص: 105و - Setton ,Op.Cit P:269.

[2] المصدر السابق، ص 108ظ.

[3] المصدر السابق،ج1 ، ص 106و.

[4] المصدر السابق ، ج1، ص107ظ.

ثم أحرقت الأبواب الخشبية الضخمة للأسوار البحرية والبرية. وعند ذلك ترجل الملك القبرصي ومعاونوه بعد أن حسمت المعركة مع ساعات الليل الأولى، ولم يبق سوى الإجهاز على الفلول المتفرقة التي كانت تتصدى لهم[1].

إستغرقت عملية الاقتحام من عصر الجمعة إلى مساء السبت، واستمر الأسر إلى يوم الأحد[2]، بعد ذلك شرع المهاجمون بنقل الغنائم الثمينة والبضائع النفيسة على الدواب وعلى ظهور الحمالين الأسرى إلى مراكب النقل الكبيرة، وكان عددها نحو السبعين حتى إذا ما غصت بأثقالها، قتل الافرنج الدواب، وألقوها عند الميناء حتى صارت جيفاً كريهة الرائحة، كما اضطروا إلى إلقاء بعض الحمولات من السفن إلى الماء خوفاً من بطء إبحارها أو غرقها بسبب الحمولات الزائدة. ويذكر النويري الاسكندري أن عدد الأسرى فاق الخمسة آلاف، وفيهم بعض اليهود والنصارى وفيهم الأطفال والنساء والفتيات الحسان وأغلبهن من المسلمات، أما عدد القتلى فكان بالآلاف وتعذر التعرف عليهم لتحللهم فدفنوا بعد ذلك في أماكنهم.[3]

ومما يؤسف له أن المدينة كانت تعاني من الفرنج نهاراً، حتى إذا غابت الشمس خرجوا إلى مراكبهم ليبيتوا فيها بأمان ليلاً، ليعود العربان إلى المدينة، فيعملوا فيها السلب والنهب إلى الصباح [4].

توغلت صباح الأحد، قوة من الفرسان يقودها بطرس بنفسه، إلى مسافة45 ميلاً جنوبي الاسكندرية، عند بلدة "فوّة"، لتدمير جسرها القائم على النيل، أملاً في قطع الطريق على قوات النجدة القادمة من القاهرة، وفي رفع معنويات الغزاة، لكنها فشلت في تدمير الجسر المتين، وفي طريق العودة، واجهت مقاومة ضارية رغم تفوقها العددي، حيث قطع المماليك عليها طريق العودة إلى الاسكندرية[5]، مما اضطر الملك لإعادة حساباته ولجمع كبار قادته واستشارتهم حول طريقة مسك المدينة والدفاع عنها.

كما حاول بتجواله على مواقع جنوده في المدينة، أن يرفع من معنوياتهم ويعدهم بضرورة الصمود بانتظار التعزيزات التي ستأتي من أوروبا، لكنه واجه، بما يشبه الاجماع، رغبة بالانسحاب من المدينة، ورأياً عاماً بأن لا قدرة للمهاجمين على الصمود إذا وصل التعزيز المصري من القاهرة وأن لا بد من الاستعداد للانكفاء إلى البحر قبل وصول هؤلاء. لدرجة أن بعض الفرسان وعلى رأسهم الإنكليز

---

[1] Bustron, Op.Cit, P:262.

[2] النويري الاسكندري ، المصدر السابق، ج1 ، ص107و-128ظ.

[3] المصدر السابق ، ج1، ص 108ظ-109ظ.

[4] المصدر السابق، ج1، ص132و.

[5] Machaut,OP.Cit.P: 91.

تركوا مواقعهم عند أبواب البر ودخلوا المدينة ثم اتجهوا نحو سفنهم قبل أن يتخذ الملك القبرصي قراره النهائي[1].

وبقدر ما كانت الحملة سهلة التنفيذ وافرة الغنائم، بقدر ما كان الاستمرار في احتلال الاسكندرية صعباً ومحفوفاً بالمخاطر. فقد وصل الخبر إلى القاهرة، وتلقاه الأتابك يلبغا بحذر ظناً منه أنها مكيدة دبرها أخصامه للإيقاع به، لكن ما أن تيقن من صحة الأنباء حتى انطلق الجيش المصري كله تباعاً ودون انتظار، وأرسلت الطلائع الخفيفة بسرعة إلى الأمام للنجدة.

عجز بطرس الأول عن تدمير الجسور التي تعبر النيل إلى الإسكندرية، ولم يجد طريقة لقطع الطريق الصحراوي المؤدي إلى القاهرة، ولم يخفِ القادة الإفرنج عنه رغبتهم بالاكتفاء بما قاموا به من قرصنة وقتل وتدمير وبالعودة بالغنائم من حيث أتوا، فبدا لبطرس عجزه عن ضبط رجاله وخاصة الأوروبيين منهم، وكذلك البحارة البنادقة و فرسان الأسبتارية ، حتى أن شقيقيه وقفا إلى جانب خيار المغادرة قبل وصول نجدة القاهرة. ولم يجد الملك من يوافقه على الاحتفاظ بالمدينة إلا مرافقاه ومستشاراه فيليب ميزيير وبيتر توماس[2].

وما أن تأكدت أخبار وصول طلائع التعزيزات المصرية من القاهرة إلى مشارف الاسكندرية، حتى كان بطرس الأول قد أعطى للفرق الغازية إشارة الانسحاب إلى السفن، ومن على متنها رأى الإفرنج أعلامهم تنزع عن أسوار المدينة، وبيارق المماليك تعود إليها [3]، فأعطى بطرس إشارة الإقلاع إلى قبرص, وذلك في السادس عشر من ت1 1365م الموافق ليوم الخميس في 29 محرم سنة 767هـ[4].

ويورد النويري الاسكندري في مخطوطه أحداثاً متفرقة كثيرة تصف الأهوال المؤثرة التي عاناها أهل الإسكندرية العزل، ومشاهد الصمود والمآسي التي حصلت، كقتل الأطفال والتمثيل بهم أمام أعين أمهاتهم، والتي يقول "ماشو" فيها أن التاريخ لم يشهد مثل هذه المجزرة البشعة منذ أيام الفراعنة[5].

هـ-نتائج الحملة

كان الإهمال سبباً رئيساً في نجاح الحملة على الإسكندرية، فقد كان السلطان شعبان بن حسين بن الناصر محمد قد نصب سلطاناً عام 764هـ/ 1362م وعمره عشر سنوات أي أنه كان وقت الغزوة لا يزال صبياً، وكان ألعوبة بيد الأتابك الوصي الأمير يلبغا الخاصكي الذي أهمل حماية الثغور وعمارة المراكب، لانشغاله بتثبيت

---

[1] Machaut,OP.Cit.P:103,107.

[2] Ibid. Op. Cit. P: 108.- Bustron. Op. Cit., P:263.-180 حطيط، قضايا، ص

[3] النويري الاسكندري، المصدر السابق، ص 185و.

[4] STRAMBALDI,Op.Cit. P: 69.

[5] Machaut,Op.Cit. P: 91.

دعائم حكمه ولإقدامه على تغيير السلاطين كلما اقترب سلطان من بلوغ سن الرشد ومن حد الاستغناء عن الوصي، وأخذ يسلم مقاليد السلطنة تباعاً للصبية من أحفاد الناصر محمد، على الرغم من وجود آبائهم أو أعمامهم على قيد الحياة وفي ريعان الشباب[1].

ومن الملفت أن قصر السلاح في الاسكندرية قد نجا من الغزو، ولم يكن الإفرنج على علم بمكانه، وكان فيه من السلاح وعدة الحرب بالآلاف [2]، ولو كان المماليك يثقون بعامة الشعب، لكان أهل الإسكندرية وحدهم كفيلين بالدفاع عنها.

لم يقصر النويري الإسكندري في رواية تفاصيل مأساوية كثيرة، نقلها عن شهود عيان، تخللتها بطولات فردية ومواقف مبكية، وفظائع ارتكبها الفرنج بحق الأطفال والعزّل من الشيوخ والرجال.

واعتبر المؤرخون العرب هذه الحملة بمثابة غزوة أو عمل من أعمال القرصنة لعجز الملك القبرصي بطرس الأول عن الاحتفاظ بالمدينة، كتب النويري الإسكندري وكأنه يخاطبه:" إن الذي فعلتَه فعل اللصوص لا فعل الملوك، كنتَ لما ملكتَها أقمتَ بها وناضلتَ عنها كما فعلت الجنوية بطرابلس الغرب، ولكن دخلتَها لصاً وخرجتَ منها لصاً، وذلك لعدم قدرتك على مقابلة سلطان مصر..." [3].

ويرى معظم المؤرخين الأوروبيين أن أسوار المدينة كانت قد أصبحت غير مؤهلة للدفاع عنها من جهة البر، بعد أن قام الإفرنج بتدميرها، ويؤكد النويري الاسكندري أن القبارصة لو تحصنوا وراء أسوارها لتمكنوا من الصمود طويلاً في وجه القوات المملوكية الآتية من القاهرة[4]. ويؤيد ذلك وصف خليل بن شاهين (ت893هـ/1487م)، تحصين الاسكندرية بأنه " أجلّ ثغور الإسلام وأعظمه، يشتمل على سورين محكمين بها عدة أبراج يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة، وللثغر عدة أبواب محكمة على كل باب منها ثلاثة أبواب من حديد وبأعلى الأبراج مجانيق ومكاحل"[5].

وعلى سبيل المقارنة بين حكم وحكم، وبين حاكم وحاكم آخر، نذكر أن بيبرس لم يغفل أمر الثغور في عهده وخاصة ثغر الإسكندرية فقد رمم أسوارها وسلحها بمئة منجنيق تقذف باتجاه البحر، لمجرد أن ورده خبر "حركة الفرنج لقصد ثغور ديار

---

[1] المقريزي، السلوك، ج4، ص254-267-272.

[2] النويري الاسكندري، المخطوط، ج1، ص:108ظ، 109و.

[3] المصدر ذاته ، ج1، ص165ظ.

[4] المصدر ذاته، ج1، ص93و -98و – Edbury, Op.Cit., p167.

[5] خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص36-37، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1997.

مصر"[1] ، كما أنه كان يشجع أمراء الثغور على إيلاء أخبار الفرنج ما تستحق من اهتمام ومتابعة.[2]

واجه الأسطول الفرنجي في طريق العودة مخاطر جمة جراء العواصف والأمواج العاتية، ونزلت سفينة الملك في ليماسول، وتابعت سفن الغنائم إلى فماغوستا، وفي نيقوسيا اجتمع الملك والنبلاء وأقيمت قداديس الشكر والاحتفالات، ووزع بطرس الهدايا الثمينة على كبار الفرسان. كتب بيتر توماس في أوراقه التي كان يعدّها لمقابلة البابا:

" لم تكن هذه معركتنا بل معركة الرب، إنها قصة سوف تروى إلى الأبد، لمعركة دامت ساعة واحدة، لم يقتل فيها جندي واحد، وأدت إلى احتلال مدينة عظيمة للمسلمين، إقتحم أسوارها جنود عزّل، لقد سقطت بمعجزة، إنها مدينة ذات كثافة سكانية مثل باريس، ساحرة مثل البندقية، منظمة ومخططة مثل جنوا، إنها مملكة مصر الرائعة الغنية الخصبة، المركز التجاري لبضائع من كل الأنواع، ولو حافظ عليها المحاربون اللاتين لأضحت البوابة الشرقية للمسيحية ".

لكن بيتر توماس لم يعِشْ ليلقي هذا الخطاب أمام البابا، فقد توفي في 6 حزيران 1366م/رمضان 768هـ، قبل أن يغادر فماغوستا ، بعد صراع مرير مع المرض[3].

لم يتمكن بطرس الأول من تثبيت رأس جسر على الأقل في ثغر السلطنة المملوكية لكي يحرّض أوروبا ويغريها بالإسراع لنجدته ولاستغلال النصر وتوسيع الثغرة بغية متابعة التقدم لاحقاً لاسترداد بيت المقدس وفقاً للخطط والمقترحات العديدة التي سبق ذكرها. لكن صدى الغزوة هذه في الغرب لم يكن سلبياً أبداً، بل أدى إلى نشوة وتهانٍ ورغبةٍ في القيام بالمزيد من الأعمال الحربية على ثغور السلطنة المملوكية، وعلى المواني ء التركية في آسية الصغرى، كما سيأتي، واعتبرت أوروبا بطرس الأول فارساً نبيلاً من كبار فرسان الافرنج الذين أعطوا تلك الحقبة مجدها وفخارها. وبعد أن هلل الغرب لهذا النصر، كان لا بد من الانتظار لسنوات قليلة، حتى تتكشف للجميع مساوي ء تلك الحملة، ولعنتها التي جرّت الويل إلى جزيرة قبرص المنتصرة، وإلى جموع النصارى من أهل مصر والشام، الذين عانوا الكثير من الاضطهاد والتغريم بدءاً من رجال الدين فيهم، بحيث نكّل بهم وألزِموا بدفع المال لافتداء أسرى المسلمين في قبرص[4].

---

[1] المقريزي، المصدر ذاته، ج1 ، ص205، حوادث سنة671هـ.

[2] صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت، ص96.

[3] MACHERAS, Op. Cit., P: 95.

[4] المقريزي ، السلوك، ج4، ص 285.

أدت هذه المغامرة إلى عودة الصراع من جديد بين المماليك وبين ما تبقى من ممالك وقنصليات إفرنجية في الشرق، فقد أثارت نقمة عارمة لا تنسى وحزناً كبيراً وطويلاً في الأوساط الإسلامية، وتسببت بخلل كبير في الاستقرار التجاري بين الشرق والغرب، وبفوضى عارمة في الأسعار بعد الاعتداءات التي تعرضت لها مخازن الاسكندرية العائدة للتجار العرب والإفرنج على السواء.

وزاد في تعقيد الأوضاع، ازدياد أعمال القرصنة على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط، فقد استغل القراصنة الإفرنج من كل الجنسيات عدم توفر أسطول مصري متكافيء، يحمي سواحل السلطنة، ويرد على اعتداءات القبارصة بالمثل.

وعلى الرغم من ورود بعض التعزيزات المحدودة من أوروبا إلى قبرص على أثر الحملة على الإسكندرية، فقد نشطت السلطنة المملوكية في الضغط على المدن الإيطالية وعلى حضها للسعي بالوساطة بين مصر وقبرص وإقامة الصلح، خاصة وأن ملوك أوروبا وأمراءها لم يظهروا حماسة حقيقية للمتابعة بأية حملة صليبية جديدة وجدية على الشرق.

كانت ردات الفعل الأولى في أوروبا مهللة مرحبة بنتائج المعركة [1]، لا يماثلها إلا احتلال الفرنج لبيت المقدس قبل أكثر من قرنين من الزمان، لكن سرعان ما عادت خيبة الأمل إلى النفوس عندما وصلت أنباء الانسحاب السريع للحملة من الاسكندرية، وأخبار التنكيل الذي يتعرض له المسيحيون وخاصة التجار الأوروبيون في الشرق[2]. كما خبَت رغبة فرسان أوروبا بالالتحاق ببطرس بعدما شيّع البنادقة أن الملك القبرصي يستعد للتفاوض مع السلطان[3].

وبقدر ما كانت فرحة أوروبا عظيمة كان الحزن والسخط عاماً في البلاد الإسلامية وصارت فكرة الانتقام من قبرص تتعاظم في نفوس المسلمين قاطبة، لا يمحوها تعويض ولا يبددها اعتذار[4].

مرّت حوالي ستة اشهر قبل أن تتمكن المدن الأوروبية من عرض وساطاتها بين مصر وقبرص، فقد عارض الكرسي الرسولي بدايةً كافة أشكال الحوار مع مصر بعد الغزوة. وساءت بذلك الأحوال الاقتصادية والتجارية، وفُقِدَت بعض السلع من الأسواق الأوروبية، نتيجة المقاطعة الصارمة التي فرضها المماليك. وكان الجنويون أول من صالح السلطان بأن أعادوا إلى مصر ستين أسيراً من أصل 500 أسيراً مسلماً كان الملك القبرصي قد أهداهم إلى صاحب جنوا بعد الغزوة[5].

---

[1] STRAMBALDI, Op.Cit., P:69.

[2] De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:314.

[3] MACHERAS, Op.Cit., P:95.

[4] Setton, Op.Cit.,. P :272.

[5] النويري الاسكندري، المخطوط، ج1، ص:169و- المقريزي، السلوك، ج4 ، ص:294.

ولم يصبح بطرس جاهزاً للمفاوضة إلا بعد عدة أشهر لكن بشروطه هو، على أمل استقدام التعزيزات من أوروبا بعد أخبار انتصاراته، لكن الأمل بدأ يتضاءل شيئاً فشيئاً في الوقت الذي بدأ العالم الإسلامي يتكاتف ليرد الاعتبار، فقد استجاب الترك لإقامة تحالف مع السلطان في مصر، وعرضوا عليه أن تتوجه السفن التركية إلى السواحل المصرية، وأن تكف الإمارات التركية عن توريد المواد الغذائية إلى قبرص، مما دفع برئيس الأسبتارية ريموند بيرانجيه (Reymond Berenger) ، إلى إطلاق نداء استغاثة لأتباعه في جنوبي فرنسا يعلمهم فيه بأن السلطان في غاية الغضب وفي حالة عداء قصوى مع المناطق المسيحية في الشرق وأنه لن يرضى بأقل من احتلال قبرص ورودس وتدميرهما بالكامل[1]. إلى أن وافق بطرس أخيراً على تفويض الموفدين البنادقة والجنوية، بالذهاب إلى القاهرة ومفاوضة السلطان[2].

إنقسم أمراء المماليك بين ميالين للصلح، وراغبين بالثأر[3]، وقد ناور المصريون أثناء التفاوض المضني مع بطرس الأول بوساطة البنادقة وغيرهم[4]، وكان من مصلحة المصريين التواصل مع القبارصة عبر البنادقة خوفاً من قدوم حملة صليبية جديدة وتعزيزات أوروبية لدعم بطرس الأول، كما كانوا يهدفون إلى تحرير آلاف الأسرى المصريين [5] الذين سيقوا إلى قبرص، وتم توزيع عدد منهم كهدايا إلى أمراء البلاد الأوروبية. واشترطت مصر على الوسطاء أن لا صلح إلا إذا دخلت قبرص فيه[6].

واستفاد الوسطاء الأوروبيون من هذه الوساطة بكسر المقاطعة المفروضة عليهم فحصلوا على بعض الأذونات باستيراد وتوريد البضائع من وإلى مصر. وعانت أوروبا من نقص في القطن وفي البهار وغيرها من المواد الأساسية.

عزم الأتابك يلبغا الخاصكي على الثأر فقد كانت تهم التقصير موجهة إليه قبل أن توجه إلى السلطان الصبي، فأمر بعمارة المراكب الحربية وتجهيزها بالمعدات الحربية استعداداً لغزو قبرص، ثم قام باستعراض الأسطول الجاهز وقوامه مائة وخمسين مركباً أمام الوسطاء الكاتالونيين[7] . وأمرالأمير بيدمر الخوارزمي "بالتوجه إلى بيروت ليعمر من غابتها مراكب كثيرة، حمالات وشواني للدخول إلى قبرس. فحضر إلى بيروت وأحضر صناعاً كثيرين من سائر الممالك، فكانوا جمّاً

---

[1] Setton , Op.Cit., P:275.

[2] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL II, P: 302.

[3] MACHERAS, Op.Cit., P:125.

[4] المقريزي ، السلوك ج4، ص291و292.

[5] حطيط، قضايا، ص 180.

[6] MACHERAS, Op.Cit., P: 100
Edbury Op.Cit., P:168. - المقريزي، السلوك ، ج2 ص 252

[7] النويري، المخطوط، ج1، ص184و-192ظ.

غفيراً،...وعمّر بيدمر بظاهر بيروت مسطبة وعرفت به إلى الآن" ، فجرت عمارة المراكب على اليابسة بعيداً عن البحر، وأحضرت قوة من عسكر الشام خصيصاً لحراستها ومنع الإفرنج من مهاجمتها وإحراقها. وتكبد أمراء الغرب وأهل بيروت مشقة وعناء كبيرين، لتأمين متطلبات هذه الأعمال وتغطية نفقات الحراسة[1].

ثم تراخى يلبغا في تجهيز الجيوش لخوفه على نفسه، إلى أن قتل في 10 ربيع الاخر من العام 768هـ/ كانون الثاني سنة 1367م. فتوقفت صناعة السفن في الثغور، "وأبطلت العمارة المذكورة(في بيروت) ولم ينزل من المراكب إلى البحر سوى حمالتين كبيرتين...ثم بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا وكذلك تلفت بقية الشواني التي لم تنزل إلى البحر..."[2]

عقّد مقتل يلبغا الأمور وتعطلت المفاوضات، مما دفع ببطرس إلى التهديد باستئناف عمليات الغزو والتدمير. وذهبت الضغوط الإيطالية التي مورست عليه كي يقبل بالصلح بدون جدوى[3]. وكان من آثار تعاظمه، أن تابع مغامراته الحربية باتجاه السواحل الشامية، فقد جمع في أواخر تشرين الثاني 1366م/768هـ، 116 مركباً في ميناء فماغوستا ومنها 56 سفينة كبيرة ومتوسطة وفيها 4 سفن للاسبتارية أبحرت في 17 كانون الثاني 1367م.[4] باتجاه الشواطيء السورية لكن عاصفة هوجاء أطاحت بالأسطول وحالت دون وصول اكثر من 14 سفينة إلى طرابلس بقيادة الفارس الغاسكوني فلوريمون دو ليسبار (Florimont de Lesparre)، فغزا طرابلس وبقي فيها لبعض الوقت. وتمكن القبارصة خلال المعارك من أسر القائد البحري المملوكي" المقدم داود"[5].

باء عدد من حملات بطرس البحرية بالفشل بسبب سوء الأحوال الجوية، لكن أخبار الحصار القرماني في مطلع العام 1367م، حول غوريغوس، استدعت تدخلاً عاجلاً للأسطول القبرصي بقيادة أمير أنطاكية شقيق الملك، ودارت معارك طاحنة أدت إلى خسائر فادحة بين الطرفين حتى تمكن القبارصة من فك طوق الأتراك وتدمير قواعد انطلاقهم[6].

في صفر سنة769هـ/أواخر أيلول سنة 1367م عاود بطرس الهجوم على طرابلس، وتمكن من غزوها وأعمل فيها السلب والنهب،[7] لكن القبارصة منوا

---

[1] صالح بن يحيى، المصدر ذاته، ص52 و213.

[2] المصدر ذاته، ص53.

[3] MACHERAS,Op.Cit.,P:97 - STRAMBALDI, Op.Cit, P:70.

[4] Machaut, Op.Cit ,P: 111.

[5] المقريزي، السلوك، ج4 ، ص 311.-.MACHERAS, Op.Cit ,P: 105

[6] Machaut, Op.Cit ,P: 135-160. -. حطيط، قضايا، ص 181

[7] حطيط، قضايا، ص 183.

بهزيمة ساحقة لدى تعرضهم لكمين مفاجيء على طريق الميناء. ولدى انسحابهم من طرابلس خلعوا باب قلعتها الحديدي، ونقلوه إلى قرياقوس[1].
إنتقل بطرس إلى طرطوس، فاستولى عليها واجتاح ضواحيها وأحرق مزارعها، وأحرق كميات من الأخشاب فيها كانت معدة للشحن إلى مصر، لبناء المزيد من السفن، وألقى المهاجمون بالمسامير والقطع الحديدية في البحر[2].
ثم أحرق المهاجمون بانياس، لكنهم عجزوا عن النزول إلى اللاذقية بسبب العواصف. ثم توجه الأسطول إلى آياس حيث قتلوا عدداً من المسلمين دون التمكن من احتلال القلعة، وكان من المفترض أن يلتقي عندها بجيش يقوده الملك الأرمني الذي لم يأتِ، فاضطر بطرس للعودة بالأسطول إلى فماغوستا في 5 ت1 من العام ذاته [3]. وصارت المرافيء القبرصية منذ ذلك الوقت، ملجأً للقراصنة من كل مكان يقاسمون القبارصة الغنائم بعد كل إبحار.
وحين قصد بطرس أوروبا للمرة الثانية في أواخرعام 1367م/769هـ، كانت المدن الإيطالية التجارية تضغط لعقد الصلح بين مصر وقبرص[4]، وشكت للبابا الحروب العبثية التي يخوضها بطرس في الشرق، والتي لا تؤدي إلا إلى مزيد من التوتر والتدهور الاقتصادي على الجميع[5]. كان بطرس يضع البابا أولاً بأول في أجواء المفاوضات مع السلطان، وقام في أيار 1368م/770هـ، بإبلاغ البابا بأن السلطان رفض الشروط القبرصية[6].
وكان قد تأكد للبابا ولقبرص أن لا إمكانية لأية حملة صليبية في المستقبل المنظور وأن قبرص ورودس مهددتان بالسقوط في أية لحظة[7]، وصار من مصلحة الجميع عقد الصلح فقد استمرت أعمال القرصنة دون نتيجة حاسمة تذكر، ومنها قرصنة قبرصية بقيادة بارون قبرصي، على قرية الصرفند الساحلية جنوبي صيدا حيث قصفوا القرية واعتقلوا أهلها جميعاً، وساقوهم أسرى إلى سوق العبيد في فماغوستا، وذلك في يوم الفصح الأحد 9 نيسان سنة 1368م/769هـ[8].
وضع البابا وبطرس الأول بعد لأي شروطاً دقيقة للصلح أهمها:
-إمتيازات خاصة للقبارصة في الموانيء المملوكية.

---

[1] MACHERAS, Op.Cit ,P:115- Machaut, Op.Cit ,P: 209.
Edbury, Op.Cit, P:168-169.
[2] Bustron, Op.Cit, P:265.
[3] Machaut, Op.Cit ,P: 217.
[4] Ibid Op.cit,P: 119- MACHERAS, Op.Cit, P: 120-Setton Op.Cit,p: 279.
[5] MACHERAS, Op.Cit ,P:115- Machaut, Op.Cit ,P: 209.
Edbury Op.Cit ,P:168-169.
[6] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL II, P: 291.
[7] حطيط، قضايا، ص183.
[8] De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:319- Setton Op.Cit. P:280.

-ضمانات عالية لأمان الأفراد والبضائع القبرصية.
-تعهد السلطان بعدم التعامل مع الترك الذين يشنون حروباً على القبارصة.
-يسمح للمقربين من عائلة الملك القبرصي وموظفيه أن يزوروا الأماكن المقدسة بتأشيرة من ملكهم دون أن يعترضهم أحد.
-تسهيل الحج سنوياً لخمسين من المقربين من الملك دون دفع أية ضريبة أو بدل.
-السماح للقناصل القبارصة بالتواجد في أي مرفأ يتبع للسلطنة المملوكية.
-يتمتع القناصل بحقوق الإقامة والاتجار.
-يخصص القبارصة بفندق في الاسكندرية.
-ينطبق على الروادسة ما ينطبق على القبارصة
-لا يعني الاتفاق في أي حال من الأحوال تخلي بطرس الأول عن حقه في مملكة بيت المقدس.
- في المقابل يتعهد الملك القبرصي بعدم إيواء القراصنة الذين يغيرون على الشواطيء المملوكية.

وكان جل ما يريده السلطان من هذه المفاوضات هو موافقة الملك القبرصي على إطلاق سراح الأسرى المصريين المعتقلين والمباعين في أنحاء قبرص.

لكن الأمراء المصريين أفشلوا المباحثات مع المفاوضين الإيطاليين بسبب الشروط التعجيزية التي فرضها بطرس الأول[1]. وفي كل مرة تعثرت فيها المفاوضات، كان بطرس يرد بغزو السواحل السورية للسلطنة المملوكية، فإذا استجاب السلطان يوجه الحملة نحو سواحل آسية الصغرى التركية [2].

في 22 كانون الأول 1367م/769هـ، وصلت إلى مصر سفينتان للبنادقة لإعادة الأسرى الأوروبيين إلى بلادهم، والبالغ عددهم 48 معتقلاً، جلّهم من التجار [3]. ولم ولم يكن يفرِح المصريين سوى رؤية دفعات من الأسرى المسلمين، عائدين إلى الوطن[4].

بعد زيارته الثانية إلى أوروبا وأفينيون، إنطلق بطرس من البندقية إلى بلاده في23 أيلول سنة 1368م/770هـ، وفي نيته استئناف الحرب وإعلان نفسه ملكاً على أرمينية بعد أن رفض الأرمن تتويج ملكهم الأرمني، وفضل الأمراء الأرمن مبايعة

---

[1] النويري الإسكندري، المخطوط ج2 ص126ظ- Machaut, Op.Cit ,P: 113.، كان "جان دو ريمس" (Jean de Reims) يرافق المفاوضين الإيطاليين خلال المفاوضات مع السلطان، وهو المصدر الأساسي الذي استقى " وليام ماشو" المعلومات منه. De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:314 .

[2] Machaut, Op.Cit ,P: 120.

[3] النويري الإسكندري، المخطوط، ج1، ص 185ظ.

[4] Machaut, Op.Cit ,P: 189.

بطرس الأول ملكاً عليهم[1]، لكنه قتل في 17 ك2 سنة 1369م/770هـ، في غرفة نومه على يد بعض النبلاء[2].

بقيت الرحلات البحرية والتجارية بعد مقتل بطرس الأول، محفوفة بالمخاطر في شرق المتوسط، واستمر تبادل الغزوات التي كانت تستهدف سواحل بلاد الطرفين، إلى أن تم توقيع الصلح عام 1370م/772هـ، بين مصر وقبرص. وكانت الشروط بين الطرفين معقولة هذه المرة، أقسم عليها السلطان بالقرآن والقبارصة بالإنجيل دون سوء نية أو خداع[3].

وعاد عدد كبير من الأسرى المسلمين إلى ديارهم، وقابل السلطان البادرة بفتح كنيسة القيامة من جديد أمام االحجاج والمتعبدين المسيحيين[4].

إلا أن بنود المعاهدة لم تتطرق لا إلى غزو الاسكندرية ولا إلى الثأر لها، فالأمر لا ينسى ولا يغفر[5]. أما مسألة استرداد مملكة بيت المقدس، فقد كانت بعيدة المنال ولم يتم التطرق إليها خلال المفاوضات إلا من باب المزايدة[6].

في الحقيقة كانت استعدادات المماليك للثأر من قبرص، قد انطلقت عقيب حملة بطرس الأول على الإسكندرية عام 767 هجري/1365م. وكان الأتابك يلبغا الخاصكي وهو المسؤول الحقيقي عن الهزيمة، نظراً لصغر سن السلطان شعبان، قد شرع في عمارة السفن وتجهيز الجيش، وساد فيما بين أمراء المماليك والعامة إجماع بضرورة الثأر من قبرص وبأن لا يرضوا بأقل من غزوها وتخريبها[7].

ولم يكتف يلبغا ببناء السفن على الأراضي المصرية بل كتب إلى طرابلس وغيرها من نيابات الساحل لبناء المراكب الحربية كما أسلفنا.[8]

وتوصل يلبغا في أقل من سنة إلى جمع وتجهيز أسطول قوامه مئة وخمسين مركباً من مختلف الأحجام. لكن الأوضاع داخل السلطنة وتحديداً بين الأمراء في القاهرة لم تدع لأي منهم مجالاً للإطمئنان فقد كانت متقلبة لدرجة ألهت الجميع عن الحملة، وجعلت الشغل الشاغل لكل منهم كيف يحفظ رأسه ويحافظ على منصبه وإلى أي طرف سينحاز عند الأزمات[9].

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL II, P: 311.

[2] Setton, Op.Cit., P: 281.

[3] المقريزي، المصدر ذاته، ج4، حوادث سنة 772هـ، ص339.- Bustron, Op.Cit, P:277. وقد عجز دو ماس لاتري عن العثور على نص الصلح في الأرشيف الإيطالي، وأمل أن يجده أحد يوما ما في أرشيف التجار الإيطاليين. - De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:348.

[4] المقريزي، السلوك ج4، ص339 و340.

[5] Settonk Op.Cit. P:283.

[6] Edbury Op.Cit .,P:171.

[7] المقريزي ، السلوك، ج4 ص 292.

[8] المصدر السابق ج 4 ص 288.

[9] المصدر السابق ج 4 ص 289 – 290.

وكمثال على عدم الإستقرار في تلك المرحلة أحصينا أن والي الإسكندرية صلاح الدين خليل بن عرّام الذي كان غائباً عنها لأداء فريضة الحج وقت غزوة بطرس للمدينة، قد أعيد إلى الولاية ثم عزل عنها ثلاث عشرة مرة، أودع في إحداها السجن وصودر منه ألف درهم قبل أن يعاد إلى وظيفته مجدداً، وكانت نهايته أن أودع سجن القلعة حيث قتل بتهمة تصفية أمير في السجن، دون إيعاز من السلطان[1].

ولم يكن المماليك ولا أهل مصر فقط هم المتحمسون للنيل من قبرص ، فقد عظم الأمر في نفوس الناس وأثارت الهزيمة الرأي العام الإسلامي في كل مكان، ونظم الشعراء الكثير من قصائد الرثاء في ما حل بالإسكندرية وأهلها. وصارت بعض العروض للمشاركة في الثأر من قبرص تأتي من الأمراء والأفراد من داخل السلطنة وخارجها. فقد أرسل الملك التركي أرخان بن عثمان (حلّ مكان والده المتوفي عام 757هـ/ 1356م)، يخبر السلطان أنه جهز مئتي مركب لنجدة السلطان شعبان " فأجيب بالشكر والثناء وأنه لا يتحرك حتى تقدم الشواني (السفن) من ديار مصر"[2]. كما يخبر النويري الاسكندري أن وفداً من تجار الإفرنج قدم إلى إلى العراق وقابل السلطان أويس(ت776هـ/1374م)، "فلم يجبهم" وطلب إليهم العودة إلى السلطان في مصر لتسوية الأوضاع معه قبل أن يسمح لهم بالتجارة في بلاده[3].

واستدعى السلطان شعبان على صغر سنّه (765–778هـ/1363 – 1376م) أحد قباطنة البحر في الإسكندرية ويدعى "الريس إبراهيم التازي السكندري" الذي كان قد أبدى إستعداده لفتح قبرص بمئة سفينة، فاستجاب له السلطان، وأذن له بغزوة إستطلاعية قوامها مئة وخمسين مقاتلاً في سفينتن كبيرتين. وانطلق التازي من الإسكندرية في رجب سنة (769 هجري/آذار 1368م)، في أول سفينتين كان يلبغا الخاصكي قد أنجز بناءهما.

تمكن الريّس إبراهيم، وهو في طريقه إلى قبرص، من أسر سفينة للبنادقة برجالها وحمولتها وأرسلها إلى الإسكندرية. ثم تابع باتجاه قبرص فقام بمحاولة فاشلة للإغارة على فماغوستا بسبب كثرة سفن القبارصة فيها. وعاد التازي إلى مصر في آخر شعبان من العام ذاته وبصحبته بعض الأسرى والغنائم فكافأه السلطان، وأنعم عليه بجميع الغنائم التي أتى بها[4].

---

[1] المقريزي ، السلوك ج 4 ص 389 ج5 ص 19 و36 و46 و86 و92.

[2] المصدر السابق، ج 4 ص 293.

[3] النويري الاسكندري ، المخطوط ، ج2، ص82(و).

[4] المصدر السابق، ج2 ص 97- المقريزي ، ج 4 ص 317 و318.
- عاشور ، سعيد، قبرص: ص 790 وص 87.

لم تكن السلطنة المملوكية في ذلك الوقت تشكل خطراً جسيماً لا على قبرص ولا على الأساطيل الغربية التي تمخر عباب شرقي المتوسط بحرية تامة، لكن الخطر الحقيقي الداهم في الشرق الأدنى في ذلك الوقت، كان الخطر التركي المتعاظم والذي يحتل الأولوية على الخطر المملوكي، لأنه أخذ يقرع أبواب أوروبا من البر والبحر على السواء،[1] وكان قد بدأ يقطع على التجار الإيطاليين أبواب تجاراتهم وموارد حياتهم.

ومع ذلك فإن البابا وبطرس والأسبتارية اختاروا الاسكندرية هدفاً كبيراً بإمكانات متوسطة أقل بكثير من إمكانات الحملة الفرنسية الملكية التي قادها لويس التاسع من قبل على دمياط، والتي فشلت على الرغم من كل إمكانياتها، مما يوحي بأن الهدف كان يجمع بين الأولوية الاقتصادية والنظرة الدينية السياسية أكثر من معالجة الخطر الحتمي والستراتيجي الحربي. ولربما كان السبب الحقيقي هو الاعتقاد بأن الخطر التركي ليس كبيراً إلى درجة تفضيله على الخطر المملوكي وأن قبرص ستتمكن لاحقاً من معالجته بوسائلها الذاتية. وأن التفريق بين جماعات الأتراك وزرع بذور الفتنة بينهم أمر كاف وسهل[2].

لكن الأيام التالية سوف تثبت أن السلطنة المملوكية، بقياداتها الضعيفة المتناحرة لن تقوى على الأخذ بالثأر قبل ستين سنة، بينما كان الترك يقضمون آسية الصغرى ويتقدمون في أوروبا الشرقية يوماً بعد يوم.

[1] MICHAUD, Op.Cit,Tome V, Livre VIII, P:184.
[2] MACHERAS , Op.Cit , P181.

الفصل الرابع
سقوط مملكة قبرص اللاتينية

أولاً– العوامل الداخلية

ثانياً– العوامل الخارجية الأوروبية والمملوكية

ثالثاً– أفول مملكة قبرص اللاتينية

1– حملة السلطان برسباي

2– زوال مملكة قبرص اللاتينية

أولاً- العوامل الداخلية

يرى بعض مؤرخي الغرب أن عهد بطرس الأول شهد آخر محاولات الفرنج الرامية إلى اختبار قدرة أوروبا على استعادة مملكة بيت المقدس في الشرق، فقد بذلت السلطات الأوروبية، الروحية والزمنية، كل الجهود لدعم حملة بطرس على الاسكندرية لكن دون جدوى، وتبيّن أن حملة استرداد بيت المقدس باتت تحتاج إلى إمكانات مادية وبشرية لم يعد بمقدور أوروبا تأمينها، وكأن الملك القبرصي كان يعلم ذلك، فقد حاول من خلال العناوين الكبيرة التي أطلقها على حملته أن يجعل من قبرص اللاتينية رمزاً للحملات الصليبية ونقطةً لانطلاقها، ومركزاً تجارياً أساسياً لها في شرقي المتوسط.

لكن هذه الحملة وما تلاها لم تقدم شيئاً يذكر للجزيرة القبرصية اللاتينية، فقد تجاوزها على الصعيد التجاري كل من المماليك والمدن التجارية الإيطالية، وعادت الاسكندرية إلى تجارتها المزدهرة مع الجاليات الأوروبية، وفتحت البندقية خطاً بحرياً مباشراً مع بيروت [1]. فالمصالح التجارية تأتي في الصعيد الأول وتتجاوز كل الشعارات الدينية والعرقية. ومنذ ذلك الوقت دخل الوضع الاقتصادي للجزيرة في مرحلة من الذبول[2]. وتأكد لبطرس الأول بعد الحملة أن محاولة القضاء على الاسكندرية كمركز تجاري رئيسي واستبدالها بمدينة فماغوستا ليست ممكنة، فالجغرافيا الاقتصادية لا تزال تفرض نفسها على السياسة وليس العكس.

ولعل هذا التدهور الاقتصادي للجزيرة وتراجع الدعم العسكري والسياسي من أوروبا لبطرس الأول، كانا من العوامل التي أدت إلى تغيّر أخلاق الملك القبرصي وانحراف مزاجه وسوء تصرفاته، إذ انعكست كل هذه الأمور على وضعه داخل البلاط فتداخلت المشاكل العاطفية والفضائح الأسرية[3] ، مع قسوته في التعاطي مع كبار الفرسان والنبلاء [4]، فأقدم على سجنِ بعضهم وقتلِ بعضهم وإبعادِ آخرين منهم، حتى أدت الخلافات الحادة إلى درجة من الخصومة بينه وبين أخويه جان وجاك، بحيث تغاضيا عن عملية تصفيته التي قام بها عدد من نبلاء الجزيرة صباح الثلاثاء في 16 كانون الثاني سنة 1369م/771هـ، حين دخلوا صباحاً غرفة نومه فعرف مقصدهم وحاول أن يتناول سيفه قائلاً:

"أيها الخونة ماذا تريدون؟" [5]، حيث عاجله كل من فيليب إيبلان وهنري صاحب جبيل، وجان غوريل وأغمدوا سيوفهم في جسده ثم قام حنا غراب وجاك

---

1 De Mas Latrie, Op.Cit. VOL. II; P:403.
2 Edbury P:171.
3 Machaut,P: 248.- Henri de Giblet, Op.Cit.,P:440.
4 Bustron, Op.Cit, P:269-271.
5 Henri de Giblet, Op.Cit, P:456.

دو نوريس بالتمثيل بجثته لدرجة قطع أعضائه التناسلية انتقاماً من مغامراته مع نساء النبلاء وفتياتهم[1].

كان في اتهام "وليم ماشو" لشقيقيْ الملك بالتآمر في قتله شيء من المبالغة، ولعله تأثر بما تناقله الرأي العام الأوروبي في حينه أسفاً على الملك الفارس، وبما سمعه من فيليب ميزيير بأن الشقيقين شاركا في عملية الاغتيال، لكن سترامبالدي يصر على أن النبلاء المتآمرين حجزوا الشقيقين لحين انتهاء الجريمة، كما جمع دو ماس لاتري من عدة مصادر تاريخية معلومات تدافع عن الشقيقين وتبرئهم من تهمة الجريمة[2].

لم يبدِ مجتمع النبلاء القبارصة استغراباً ولا اعتراضاً على ما حصل، فقد كان بطرس الأول قد استنفد صبر الجميع، إذ كان يتجاوزهم عند اتخاذ القرارات المصيرية والصعبة كقرارات الحرب وقرارات تجنيد المزيد من المرتزقة واستقدام المتطوعين، وتقديم المكافآت السخية للنبلاء الأجانب ومنحهم قطاعات (des fiefs) في أنحاء الجزيرة وتكليفهم بمهمات دقيقة في أوروبا[3]، وكانت مداخيل الجزيرة أعجز من أن تفي بمصاريف الحروب والحملات التي قام بها الملك.

كما تجاوز بطرس الأول صلاحيات المجلس الأعلى للنبلاء، وعمد إلى زيادة الضرائب دون الأخذ برأي هؤلاء وهم أول المعنيين وأكثر المتضررين. وزاد في كره النبلاء له أنه احتكر إنتاج الملح في الجزيرة لصالحه الشخصي، كما أجرى تعتيماً كاملاً على ميزانية الملك وعلى طريقة صرفها، دون الرجوع إلى المجلس الأعلى[4].

وقد تبين للمجلس المذكور أن بطرس الأول قد استنفد كل الثروة التي اختزنها والده هوغ الرابع، فأنفقها في مطلع عهده على المعارك التي خاضها ضد الترك في آسية الصغرى، كما تبين لهم بعيد مقتله أنه كان مديناً بمبالغ طائلة تعجز الجزيرة عن أدائها[5].

ومن أسباب اغتيال الملك القبرصي أيضاً كان شعور نبلاء الجزيرة بالغضب والحسد لإقدام الملك على استقبال المزيد من النبلاء الأوروبيين وتسليمهم مناصب عسكرية عالية وإقطاعات غنية وحساسة بجوار العاصمة [6]، فشكل هؤلاء قوة عسكرية رادعة يستعملها الملك لقمع النبلاء القبارصة المعارضين في أي وقت.

---

[1] Bustron, Op.Cit, P:275.

[2] STRAMBALDI, Op.Cit. P: 113 - De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:343-344.

[3] Machaut, Op.Cit .P:110. De Mas Latrie, Op. Cit. VOL II P:273.

[4] AMADI, Op.Cit .P:424.

[5] النويري الاسكندري، المخطوط، ج1، ص 169و. وج2 ص 64 ظ.

[6] Machaut, Op.Cit .P: 254.

وكان التجار القبارصة الأساسيون من بين المتضررين، فقد تحولت المرافيء القبرصية إلى مواني‌ء عسكرية تعطلت فيها التجارة وكثر فيها المحاربون والمغامرون والمشاغبون، وزاد في حنقهم ما كانوا يرونه من حظوة يلقاها التجار الإيطاليون من الملك، ولم تكن تلك الحظوة إلا على حساب التجار القبارصة. وفي الوقت ذاته كان التجار الإيطاليون يستفيدون ولا يفيدون، فقد وجدوا أن بيروت هي المنفذ الأسرع للتجارة البرية الآتية من الشرق عبر أسواق دمشق، فسابقوا القبارصة إليها، مما أصاب التجار القبارصة بخسائر جسيمة وعطل دورهم التجاري كوسطاء بين الشرق والغرب. كما ساهمت البندقية في تقليص عدد المتطوعين الآتين إلى قبرص من الغرب الأوروبي بتسريبها شائعات عن صلح بين قبرص والمماليك، فأحجموا عن قصد الجزيرة. ولم يتأخر بطرس الرابع ملك أراغون من التنصل مما حصل في الإسكندرية وأعلن للسلطان المصري أنه اتخذ تدابير بحق رعاياه الذين اشتركوا في الحملة بغير علمه وبدون إذنه.

كانت حملة بطرس الأول على الاسكندرية فعلاً خطأً جسيماً عاد بنتائج سلبية كثيرة على كافة الأصعدة وكانت المملكة اللاتينية في قبرص أول المتضررين، فقد خاب أمل ملكها في أن تحصل قبرص بعد الحملة على أكبر حصة من التجارة الدولية في شرق المتوسط، وإذا بها تخسر ما جنته من قبل ، وإذا بوضعها الاقتصادي ينهار بسرعة. وبدلاً من أن تنشط التجارة القبرصية في فماغوستا، تغاضى بطرس عن تجاوزات الجنويين الأمنية والتجارية فيها، مما زاد في نفوذ هؤلاء على حساب القبارصة وتجاراتهم.

ثم جاءت رصاصة الرحمة على جزيرة قبرص بعد بضع سنين كما سنرى في عام775هـ/ 1373م، من جهة الجنوية، حين احتلوا فماغوستا بعد أن أمطروها بوابل من قصف شديد تسبب بهدم معظم مبانيها ومنشآتها.

وبعد بطرس الأول لم تشهد السواحل المملوكية خطراً حقيقياً يذكر، باستثناء بعض أعمال القرصنة المحدودة قامت بها سفن القراصنة الافرنج ومن بينهم عدد من القبارصة، وحتى تلك الحملة التي قادها المارشال بوسيكولت (Marshal Boucicault) على الشواطيء السورية عام806هـ/ 1403م ، لم يكن لها تأثير ملحوظ على الأوضاع السياسية والاقتصادية في المنطقة.

ويبقى أن المأخذ الأساسي للمؤرخين الغربيين المحدثين على حملة الاسكندرية أنها وجهت الاهتمام إلى السواحل المملوكية الآمنة وصرفت الانتباه عن الخطر الأعظم على أوروبا وهو الخطر التركي، فقد كانت القوة التركية تتعاظم في تلك الأثناء وأخذ الترك بعد ذلك يطرقون أبواب أوروبا الشرقية بلا هوادة[1].

[1] Runciman, Op.Cit. vol III P:452 -Edbury P. 179.

ومع نهاية عهد بطرس الأول بدأ أفول المملكة اللاتينية في قبرص، ففي اليوم الذي اغتيل فيه الملك بطرس الأول في 16 كانون الثاني 1369م/ 771هـ، أعلِن ولده ذي الثالثة عشر من عمره ملكاً على قبرص وبيت المقدس تحت إسم بطرس الثاني.

وقام المجلس الأعلى بتعيين عمه حنا دو لوزينيان أمير إنطاكية وصياً على العرش، بدلاً من والدته اليونور دو أراغون، ولعلّ السبب هو أن المتآمرين من كبار النبلاء خافوا من أن يؤدي تعيينها كوصية إلى قيامها بالثأر لزوجها والإنتقام من قتلته، فأصبحت منذ ذلك الوقت الرمز الجديد للمعارضة، ومعها النبلاء الموالين للملك المغدور، وفيهم النبلاء الذين قدموا من أوروبا حديثاً والذين خصصهم بطرس الأول بمناطق هامة من أرض الجزيرة.

واجه الوصي على العرش مشكلتين أساسيتين: الأولى كيفية وضع حد للحرب مع المماليك للتمكن من تخفيف الآثار الاقتصادية السلبية للحرب، وللتأكد من أن الجزيرة لن تكون عرضة لهجوم مملوكي مباغت. والمشكلة الثانية كانت في الإضطلاع بالأعباء المالية للمملكة المفلسة.

ووجد الأمير حنا الحل الخارجي في متابعة سياسة الضغط على موانئ السلطنة للإستحصال من السلطان على امتيازات إقتصادية وتوقيع معاهدة صلح تنهي الخطر المملوكي.

كما رأى الوصي على العرش في مصادرة أراضي النبلاء الأجانب واستعادتها وسيلة للتخلص منهم ولتخفيف عدد المناوئين لحكمه. ثم تابع سياسة المصادرات بإعطاء النبلاء المقيمين خارج الجزيرة مهلة سنة ويوم للعودة، وبات على كل غائب أن يأتي إلى قبرص، وأن يتقدم من الوصي خلال الفترة المحددة، ويعلن ولاءه للملك الجديد، حتى أن رسائل التوصية التي بعثها البابا إلى حنا بتمديد المهلة لبعض النبلاء لم تلق تجاوباً يذكر.

وقد زاد ذلك في إثارة المزيد من غضب البابا على الأمير حنا كونه المتهم الأول بالتغاضي عن قتلة أخيه الملك بطرس الأول. ولم ينفع الرسل والموفدون الذين أرسلهم الأمير حنا لتهدئة خاطر البابا وإقناعه بصواب طريقته في إدارة دفة الحكم في قبرص، مما اضطر الأمير حنا إلى تقديم أعذار واهية وإختلاق حجج ملفقة بأن المملكة مهددة بخطر إجتياح المماليك في أية لحظة ولأنه يطلب دعم البابا ومساندته في ذلك.

عند ذلك فقط استجاب البابا وأرسل إلى الأمير الوصي يطلب منه الإسراع في تنصيب الملك الإبن لتبديد المخاوف وتأمين الإستقرار الداخلي في الجزيرة[1].

[1] Edbury , Op.Cit. P: 198.

لكن ذلك لم يمنع الأمير حنا من تشديد المراقبة على الملكة الأم ونشاطاتها ورسائلها ورسلها إلى الغرب، فاعتقل أحدهم ويدعى نقولا دو ناون " Nicholas De Naoun" ثم قضى عليه بعد أن علم منه أن الملكة الأم تطلب من البابا ومن ملوك أوروبا أن يسارعوا في نقلها وإبنها الملك الصغير، تحت حراسة الجنوية إلى الصرح البابوي لكي تتمكن من مقاضاة المتآمرين على قتل زوجها. وما لبث البابا الجديد غريغوري الحادي عشر أن أرسل إلى الجزيرة موفدين من قبله أحدهما من فرسان الأسبتارية لتشديد الحراسة على الملك الصغير، وللإيعاز إلى الأمير الوصي بالإسراع في تنصيب الملك الفتى ملكاً على قبرص وعلى بيت المقدس. إذ ثمة من أقنع البابا الجديد أن الوصي على وشك خلع إبن أخيه والاستيلاء على الملك.

وفي كانون الأول 1371م/ 774هـ ، بلغ الملك الفتى سن التنصيب، فاضطر الأمير حنا إلى التخلي عن منصب الوصاية لكنه استمر في ممارسة السلطة بعد ذلك كحاكم فعلي للجزيرة[1].

وكلما حاولت الملكة الأم تخصيص بعض الأراضي لمحازبيها بإسم الملك الفتى كان الأمير حنا وأتباعه النبلاء يتصدون لها، بحجة أنه لا يحق للملك منح أراضي جديدة لأحد قبل بلوغه سن الخامسة والعشرين. وعلى الرغم من تفاقم الخلاف بين الملكة الأم وبين الأمير حنا العم، لم يجرؤ الأخير على سجنها او التخلص منها خوفاً من التاج الأراغوني الذي تنتمي إليه وخوفاً من بحرية الكاتالان بسبب أواصر القربى بين الملكة وبين الكاتالان[2].

كان تأثير كبار ضباط الجيش على الملك الفتى بالغاً، وكان تنازعهم فيما بينهم ينعكس على قراراته، حتى أنهم تدخلوا بشأن مشروع زواجه من إبنة الامبراطور البيزنطي كالوجان باليولوج،(Calojean Paleologue)، وأقنعوه أن يرد على سفارة الأخير برسالة دبلوماسية يفهم منها المماطلة والتأجيل[3].

تُوّج بطرس الثاني في كاتدرائية نيقوسيا ملكاً على قبرص في كانون الثاني 1372م/ 774هـ ، ثم في كاتدرائية فماغوستا ملكاً على بيت المقدس في تشرين الأول من العام ذاته. لكن التنصيب الثاني كان نذير شؤم على الملِك والمملكة فقد بدأت أعمال الشغب منذ ذلك اليوم وبدأ معها أفول نجم هذه المملكة اللاتينية. [4]

---

[1] STRAMBALDI, Op.Cit. P: 129.
[2] Edbury , Op.Cit P: 202.
[3] MACHERAS, Op.Cit. P:195.
[4] Edbury , Op.Cit. P: 199.

إذ دب الخلاف بين البنادقة والجنوية على "شرف" الإمساك باللجام الأيمن للجواد الذي يمتطيه الملك، ثم تطور الأمر إلى عراك بين الجاليتين انضم فيه سكان الجزيرة لمؤازرة البنادقة ضد الجنوية. فطاردوهم في كل مكان واعتدوا عليهم، فقتلوا وجرحوا عدداً منهم وحطموا ممتلكاتهم وسلبوا أرزاقهم[1].

غضب الملك الفتى، وحمّل القنصل الجنوي مسؤولية التسبب بالشغب أثناء حفل التنصيب، وطالبه بأجوبة واضحة حول الذي جرى، فاستمهله الجنوي للرد وخرج من القصر ليتابع الملك وضيوفه عشاء التتويج بكل بهجة وسرور، بعد أن أمر بنقل القتلى إلى كنيسة خارج فماغوستا ودفنهم بجوارها. وفي غضون بضعة أيام جرت المواجهة بين ضباط الملك وبين القنصل الجنوي بحضور ممثلين عن الجاليات الكتلانية والبروفانسالية والفلورنسية والنابوليتانية، حيث طالب الجنوي بالتعويض عن الخسائر ومعاقبة المسؤولين عما لحق من أذى بالرعايا الجنويين وممتلكاتهم. غضب الملك القبرصي وأمر بسجن الجنويين الذين حضروا احتفال التنصيب بأسلحتهم، واتهم ضباط الملك القنصل الجنوي "أنطوان دي نيغرو" (Antoine Dinegro)، بتدبير مؤامرة لقتل الملك خلال الاحتفال المذكور، استناداً لاعترافات السجناء الجنويين.

رفض الملك الإستجابة بدفع أية تعويضات للجنوية، لكنه عمم على المملكة وبناء لطلب القنصل الجنوي قراراً بعدم التعرض لأي من الرعايا الجنويين تحت طائلة قطع اليد اليمنى، كما أطلق السجناء الجنويين، لكن القنصل الجنوي لم يكتف بما فعله الملك فأعطى الجالية برمتها تعليمات بمغادرة الجزيرة، وتم ذلك على الفور في سفينتين كبيرتين أقلعتا من فماغوستا تضم كافة الرجال والنساء والأطفال والخدم وقدر القبارصة الثروة التي حملها هؤلاء معهم بملياري بيزنت على الأقل[2].

أخذت الهوة تتسع بين القبارصة والجنوية وصارت أطماع الجنوية بالجزيرة تزداد وكذلك شروطهم للصلح وارتفعت بذلك أرقام التعويضات التي طلبتها جنوا من المملكة القبرصية. فإما معاقبة قتلة التجار الجنويين أو دفع بدل قدره خمسة آلاف فلوران إضافة إلى مبلغ مئة ألف فلوران بموجب معاهدة767هـ/ 1365م، لعجز المملكة القبرصية عن حماية الرعايا الجنوية وممتلكاتهم في حينه، وكذلك إضافة مبلغ مئة ألف فلوران ثانية للتعويض عن الخسائر والأضرار التي لحقت بالرعايا

[1] Bustron, Op.Cit, P288.
[2] MACHERAS, Op.Cit. P:190-191.

الجنوية، بعيد حفلة التنصيب، ثم إضافة مئة ألف فلوران أخرى لتغطية نفقات الحملة البحرية التي تكبدها الأسطول الجنوي للإنتقال من جنوا إلى قبرص[1].
كما طالبوا الملك القبرصي بتخصيص الجنوية بحصن منيع أو بأحد القلاع أو القصور الحصينة في جوار فماغوستا يحتمي فيه الجنوية عند الضرورة، وعند شعورهم بعدم الأمان في الجزيرة، ومن هذا الطلب فاحت أول رائحة للنية الجنوية المبيتة لانتزاع فماغوستا من السيادة القبرصية .
كانت المطالب الجنوية تزداد تعقيداً بينما كانت المواقف القبرصية تزداد تشدداً ولم يكن الموقف القبرصي عاقلاً وواعياً للذي يجري ولا لما سيبني عليه الجنوية في المستقبل، فقد صار ميناء فماغوستا هو الهدف الحقيقي وراء تشديد المطالب ولن يتحقق هذا الهدف إلا عن طريق القوة نتيجة تصلب الفريقين.

ثانياً– العوامل الخارجية الأوروبية والمملوكية

استمر الوضع الداخلي في الجزيرة بالتدهور، إذ مال الفريق المعارض الذي تتزعمه الملكة الأم إلى الجنوية وعجز الملك الفتى عن الإمساك بدفة الحكم أو عن إتخاذ أي قرار جذري وحاسم بوجود ضباط متصلبين متغطرسين أغرتهم الثروة وأعمتهم قوتهم العسكرية عن مقارنتها بقوة الأساطيل الجنوية المتربصة بالجزيرة.
حاول الملك وضباطه منع الرعايا الجنويين من مغادرة فماغوستا لكن الفرقة العسكرية القبرصية وصلت إلى المرفأ بعد فوات الأوان، ثم قرر الملك أن يرسل إلى البابا سفارة تشرح له الموقف من وجهة النظر القبرصية لأن البابا كان قد شهد من قبل على توقيع اتفاق بين القبارصة والجنوية يدفع بموجبه من يبادر بالاعتداء مبلغ مئة ألف دوكا غرامة[2].
استمع البابا للطرفين، واقترح حلاً وسطاً يقضي بتوقيف الجناة ورد الممتلكات ودفع التعويضات عن الخسائر والأرواح، وأما الغرامات فتؤجل لينظر فيها بوقت لاحق. وفي تلك الأثناء كانت جنوا ترسل الرسائل إلى المدن الأوروبية تعلمهم بخطورة الوضع في قبرص وبأنها على وشك القيام بعمل عسكري لنجدة الملك الفتى وأمه، بناء لطلب الأخيرة، بعد أن أظهر والدها رسائل منها تخبره بسوء أوضاع الحكم في الجزيرة وبتعنت عم الملك الفتى واستئثاره بالحكم وبالثروة، وبأن قتلة زوجها الملك بطرس الأول لا يزالون أحرارا[3].
وعندما علم البابا أن الجنوية يستعدون لعمل عسكري كبير ضد قبرص اللاتينية أرسل إلى الطرفين رسلاً للتهدئة وطلب من القبارصة أن يجنحوا للسلم، وأوعز

---

[1] Edbury , Op.Cit. P: 200.
[2] MACHERAS, Op.Cit. P:192.
[3] IBID, Op.Cit. P:198.

إلى ملكة صقلية وإلى الأسبتارية في رودس ألا يقدموا المساعدة لتموين الأسطول الجنوي. بينما يؤكد الجنويون أنهم استحصلوا على إذن من البابا بهدف تأمين حماية الملك القاصر[1].

وفي آذار 1373م/ 775هـ، أطلقت جمهورية جنوا مقدمة أسطولها وقوامه سبعة سفن كبيرة بقيادة داميان كاتانيو (Damian Cattaneo) ، وزودته بتعليماتها بمحاولة إقناع القبارصة بالإستجابة للطلبات الجنوية وفي حال الرفض يدرس الدفاعات والإستعدادات القبرصية تمهيداً لوصول عظيم الأسطول الجنوي إلى المياه القبرصية[2].

ما كان من القبارصة إلا أن عارضوا المطالب، وتشدد الجنوية في الإصرار عليها، وبات واضحاً أن الطرفين يتجهان نحو المواجهة العسكرية.

في 12 أيار أرسلت البحرية إنذاراتها بقصف الحدائق المحيطة بفماغوستا ورد القبارصة بإحتجاز من بقي على الجزيرة من رعايا الجنوية[3].

على الأثر أخلى القبارصة ميناء ساتاليا الأناضولي، والذي كان بطرس الأول قد احتلّه عام763هـ/ 1361م ، وذلك خوفاً من قيام الجنوية باحتلاله واعتقال القبارصة المقيمين فيه وقاموا بتسليمه للأتراك بدلاً من تركه يقع في أيدي الجنوية.

فقد أرسل الملك بطرس الثاني الفارس "بادان مستاهل" (Sire Badin Mistahel) وأصله من الطبقة البورجوازية في فماغوستا يرافقه رجل دين لعرض الأمر على أمير تكة التركي، بشرط التبعية ودفع الضريبة السنوية لملك قبرص والتعهد بذلك باسمه وباسم ذريته من بعده، فطار الأمير التركي فرحاً ووافق على الفور وتم التسلم والتسليم يوم السبت في 14 أيار 1373م/ 16 ذي القعدة 775هـ[4].

أسِف البابا لسقوط ساتاليا في يد الترك وأطلق من جديد مساعيه للتهدئة ففشلت المساعي والوساطات التي اقترحها عبر رئيس منظمة فرسان الأسبتارية ودوج البندقية، لأن المبالغ المطلوبة كانت أكبر من أن تتحمّلها الخزينة القبرصية الفارغة كما كانت الشحناء والبغضاء في نفوس الفريقين تتعاظم بسبب الإعتداءات المتبادلة.

تبادل الملك مع قائد الأسطول رسائل عدة بقي مضمونها طي الكتمان، نقلها فرسان للملك من أصل جنوي، لكن قائد الأسطول تصرف بفظاظة وتعالٍ، وانهارت المحادثات.

عند ذلك، حاولت طليعة الأسطول الإنزال في فماغوستا فلاقت مقاومة عنيفة بمنجنيقات النفط والحجارة، وانطلقت سفن "دميان" السبع في عمليات سلب ونهب

---

[1] STRAMBALDI, Op.Cit .P:143.
[2] Bustron, Op.Cit., P:295.
[3] MACHERAS, Op.Cit. P:205 -AMADI, Op.Cit .P:440.
[4] Ibid, Op.Cit. P:204- Bustron, Op.Cit., P:296.

على طول الساحل الجنوبي للجزيرة، بعد أن أرسلت إحدى سفنها لاستكشاف الساحل التركي وخلوه من أية نجدة تركية تحضر لمؤازرة القبارصة[1]. استدارت السفن الجنوية نحو ليماسول فأحرقتها، ثم اتجهت نحو بافوس فاحتل الجنويون قلعتها، وتمكنوا هناك من جمع خليط من المرتزقة من كل الأعراق فجمع الأمير حنا عم الملك والوصي السابق جيشاً من ألف جندي محاولاً طرد المرتزقة دون أن يفلح، وكرر شقيقه جاك المحاولة لكنه اضطر للإنسحاب بعد أن علم بقرب وصول الأسطول الجنوي الرئيسي.

كان الأسطول الرئيسي بقيادة بطرس دي كامبو فريغوسو (Pierre De Campo Fregoso) ويتكون من 26 سفينة ضخمة غير سفن المقدمة السبع. وكان على متن الأسطول جيش يقارب عدده الأربعة عشر ألفاً .

وفي الأول من تشرين الأول نزلت قوة من الأسطول في فماغوستا وضربت حصاراً حول المدينة، فاستدعى الملك ألفين من المجندين في نيقوسيا وزج بهم عند فماغوستا لدعم الحامية المحاصرة[2].

في الثالث من تشرين الأول، نجحت هذه القوة الصغيرة في مواجهة القوات التي ترجلت من الأسطول فانكفأت القوة الجنوية إلى جزيرة البقر ولاحقها القبارصة وأجبروها على العودة إلى السفن[3]. وبعد مضي يومين نجح جاك دو لوزينيان العم الثاني للملك في دحر بعض الغزاة لكنه عاد بعد ذلك إلى نيقوسيا ليتولى الدفاع عنها وهبطت روح المقاومة عند القبارصة في فماغوستا.

لم تغير هذه النجاحات الصغيرة في المسار العام للمعركة فقد كانت القوة الجنوية متفوقة في البر كما في البحر، فتابعت عملياتها التدميرية على طول الشواطئ والأرياف[4].

واستمرت المفاوضات والعروض المتبادلة كان الجنويون خلالها يحاولون الإيقاع بالملك وكبار مساعديه، فاقترحوا أن تجري المفاوضات على متن إحدى السفن ثم اقترحوا أن يتم إخلاء قلعة فماغوستا من المحاربين والإبقاء على خمسة محاورين يحرسهم 12 رجلاً من كل طرف[5].

توافق الطرفان أخيراً على إجراء مفاوضات في قلعة فماغوستا، في وقت كان الجنوية قد أحضروا الملك البديل ويدعى هوغ دو لوزينيان أمير الجليل، وإبن عم الملك الفتى، وهو هوغ ذاته المطالب بالعرش منذ عام 1359م/ 761هـ.

---

1 MACHERAS Op.Cit. P:201.
2 AMADI, Op.Cit.,P:446.
3 MACHERAS, Op.Cit. P:202.
4 Bustron, Op.Cit., P:303.
5 EDBURY , Op.Cit. P:204.

وبعد أن انطوت الحيلة على القبارصة دخل الملك ووالدته وعمه إلى القلعة ليجدوا أنفسهم تحت الإقامة الجبرية بحجة تأمين سلامتهم ريثما يتم اعتقال النبلاء الثلاثة المتهمين بقتل بطرس الأول فيليب إيبلان وهنري صاحب جبيل وجان غوريل فأدينوا وأُعدموا على الفور[1].

على الأثر كان على جاك دو لوزينيان العم الثاني للملك، أن يأخذ المبادرة بالصمود والمحاورة في الوقت ذاته، فانطلق إلى قلعة كيرينيا بإيعاز من الملك المعتقل عبر رسالة وصلته سراً ، فتم تعزيزها وتموينها وتحصينها، ثم تمكن شقيقه الأمير حنا من الإفلات من معتقله وانتقل إلى قلعة القنطرة ومنها إلى قلعة سانت هيلاريون.

أفلت الزمام من يد الجنوية وتعقدت الأمور في وجههم ولم يعد بإمكانهم فرض الشروط التي يرغبون بها بلا حدود، فعادوا للحيلة من جديد، وأجبروا الملك على تحرير رسالة إلى عمه الأمير جاك، بضرورة تسليم القلعة للملكة الأم، التي كانت بحراسة جنوية مشددة. لكن الملك ووالدته نجحا في تسريب التعليمات الحقيقية إلى جاك بضرورة الصمود وحراسة القلعة وسفوحها، بعد أن عادت الحمية للملكة الأم وأحست بخطورة الإنزلاق في الخطة الجنوية[2].

على الأثر دارت في نيقوسيا وضواحيها معارك طاحنة شارك فيها الأهالي إلى جانب الفرسان الملكيين ضد الجنوية وحلفائهم. ولم تخل المعارك من عمليات سلب ونهب متبادلة طالت كل طرف وكل الممتلكات[3]. كما شارك جاك العم بعمليات اعتراض لقوافل النهب المتوجهة إلى الموانئ وهي تحمل الأسلاب إلى السفن الجنوية.

في مطلع كانون الثاني من العام الجديد قرر الجنوية الإستيلاء على قلعة كيرينيا بواسطة الخدعة أيضاً فتحرك موكب الملكة الأم بحراسة الجنوية إلى القلعة لكن الملكة إليونور نجحت مع فرسانها في الفرار إلى قلعة كيرينيا والإلتحاق بالأمير جاك[4].

شدد الجنويون الحصار حول القلعة وباءت كل محاولات الإقتحام بالفشل فقد عزز المدافعون مراكزهم بالنار الإغريقية التي أصابت الجنوية بخسائر جسيمة، واستمر الحصار حتى آخر شهر شباط دون جدوى في الوقت الذي كان فرسان قلعة سانت هيلاريون يغيرون على مؤخرة الجيش الجنوي وقوافله.

أنهكت المعارك الطرفين وصارا على استعداد للمفاوضة من جديد فتم توقيع الهدنة بينهما، ورفع الحصار عن قلعة كيرينيا في 15 آذار 1374م/ 776هـ، مقابل

---

[1] EDBURY .P:205.
[2] MACHERAS, Op.Cit .P:244.
[3] AMADI, Op.Cit .P:454.
[4] Bustron, Op.Cit., P:316.

موافقة الأمير جاك دو لوزينيان على تسليم قيادة القلعة إلى فارس قبرصي يدعى لوك دانتيوم (Luke D' Antiaume) وأن يذهب إلى المنفى.
وكانت الشروط الأخرى قاسية على قبرص وخاصة المالية منها، بحيث تعهدت بدفع ضريبة سنوية قدرها 40 ألف فلورين[1] إضافة إلى تعويضات قدرها مليوني فلورين تقسّط على 12 عاماً. يضاف إلى ذلك مبلغ 90 ألف فلورين تدفع لتغطية نفقات الأسطول الجنوي ولتعويض الخسائر التي مني بها الجنويون على الأراضي القبرصية. ولضمان استمرار دفع هذه المبالغ تستمر جنوا في احتلال فماغوستا وتستبقي عدداً من الوجهاء القبارصة كرهائن في جنوا[2].
ومن بين الرهائن والأسرى أولاد الأمير حنا الأربعة، وسبعين فارساً، أودعوا في سجون جنوا وجزيرة خيوس، إحتفِظ ببعضهم كرهائن، وبالبعض الآخر لإطلاق سراحهم لاحقاً مقابل الفدية. كما حاول الجنويون تطبيع بعض الفرسان القبارصة بتزويجهم من فتيات الطبقة المرموقة في جنوا.
غادر الأسطول الجنوي الموانئ القبرصية في نهاية شهر نيسان، لكن عديد قواته انحسر إلى الثلث بسبب الخسارة الهائلة في الأرواح التي منيت بها القوة الجنوية. كما أن السفن التي حملت الأسلاب والغنائم من قبل، في كانون أول عام 1373م/ 776هـ، واجهت عاصفة بحرية قوية أدت إلى تحطمها وغرق بحارتها والغنائم[3].
وفي رودس انقلب دور القوة الجنوية التي كانت ترافق جاك دو لوزينيان[4] إلى منفاه، فقامت باعتقاله وسوقه سجيناً، مع زوجته الحامل، إلى جنوا لعدة سنوات، وذلك على الرغم من تعهدات الأسبتارية ومواثيق الشرف الجنوية[5]. بينما أعدم شقيقه حنا أمام أعين ابن أخيه الملك والملكة الأم بتهمة الإيعاز بقتل الملك بطرس الأول[6].
لكن الخسائر في مملكة قبرص اللاتينية كانت أكثر فداحة في الأرواح كما في الممتلكات حيث حل الدمار في كافة المدن القبرصية، وأتلِفت المزارع في الضواحي، وخرِّبت القلاع وأحرِقت الغلال والمستودعات، ولم يكن بمقدور أحد إحصاء عدد القتلى من سكان قبرص الأصليين أو اللاتينيين وحتى المرتزقة. أما خسائر التجار فقد كانت هي الأكبر بين كل الخسائر فهي التي كانت الأكثر تعرضاً

---

[1] الفلورين عملة نقدية ذهبية فلورنسية اعتمدت كذلك في جنوا وتزن 3،51 غراماً.
[2] EDBURY Op.Cit. P: 208.
[3] MACHERAS, Op.Cit. P: 317.
[4] عم الملك الذي سيتسلم العرش تحت إسم جاك الأول بعد وفاة إبن أخيه بطرس الثاني.
[5] Bustron, Op.Cit, P :336.- Edbury , Op.Cit. P:209.
[6] STRAMBALDI, Op.Cit. P: 233.

للسلب والنهب والحرق والتدمير، فشهدت نهاية هذه الحرب بداية النهاية لإندثار مدينة فماغوستا لمئات السنين.

ويعتبر فيليب ميزيير مستشار الملك بطرس الأول، أن العمليات العسكرية التي قام بها بطرس الأول على سواحل مصر والشام وآسية الصغرى كانت ستعطي ثمارها الاقتصادية الإيجابية لمملكة قبرص اللاتينية، لولا سيطرة الجنوية على فماغوستا، مما أفسد كل الخطط، وأعاد الازدهار إلى مرفأي بيروت والاسكندرية. ويتهم ميزيير القوات الجنوية بأنها نهبت كل ثروات القبارصة وحوّلت الأثرياء إلى فقراء، وأنها لم تتورع عن نهب الكنائس وسجن النبلاء واغتصاب النساء في قبرص، بينما استمر التجار الجنويون يزوّدون سلطان المماليك بكل أنواع الأسلحة، ضاربين عرض الحائط بأوامر الكرسي الرسولي. ومن آثار هذه الحرب المدمرة، يقول ميزيير، أن الأتراك تجرأوا بعد ذلك على عبور البحر القرماني إلى قبرص وصاروا يرتادون مرفأ فماغوستا ومدينتها ويتاجرون بالعبيد وحتى بالمسيحيين منهم[1].

وقد أصدرت جمهورية البندقية تعميماً إلى سفنها وتجارها بعدم الإقتراب من الموانئ القبرصية منذ العام777هـ/ 1374م ، ولم يتوقف العمل بهذا القرار إلا تدريجياً وإعتباراً من العام780هـ/ 1378م[2].

وعجز القبارصة لأسباب مادية عن إعادة إعمار فماغوستا حتى نهاية القرن الرابع عشر بحيث بقي قسم كبير منها كالأطلال، ونبتت الأشواك في طرقاتها، ولم تعد تضج بالحياة كما كانت، وانخفض عدد سكانها من ثلاثين ألفاً إلى حوالي الألفين، وفقد المرفأ والمدينة بريقهما منذ أن سيطر الجنويون عليهما ، وهجرهما باقي التجار الأجانب، بعد أن عجزوا عن منافسة تجار جنوى الذين أعفتهم السلطات الجنوية في فماغوستا من عدد من الضرائب[3].

حاول الملك بطرس الثاني بعد الهدنة، إنقاذ ما يمكنه بقدر المستطاع، بعد أن قضى معظم الفرسان الذين ناصروا عمه الأمير القتيل حنا، ما بين قتيل وأسير. وما لبث الملك أن تحرر من سيطرة والدته فأرسلها إلى موطنها الأصلي في أراغون عام782هـ/ 1380م، بعد أن باءت كل محاولات خاله بطرس الرابع ملك أراغون بالفشل في إصلاح ذات البين بين الملك القبرصي وبين والدته[4].

وبمعاونة من تبقى من المجلس الأعلى للنبلاء، حاول أن يتملص من سطوة الجنوية شيئاً فشيئاً. لكن الجنوية كانوا بالمرصاد وضغطوا على الملك القبرصي لتوقيع

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL II P:390.
[2] Ibid. VOL II P:363.
[3] Ibid. P:383,384, 390.
[4] Ibid. VOL III, P:761-763.

معاهدة تورين عام 1381م/783هـ، كرّسوا بموجبها الاتفاقات السابقة، وتوقفت محاولات التحرر بوفاة الملك بطرس الثاني عام 1382م/784هـ [1].

لم يعد بالإمكان إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، فقد أخذت المملكة اللاتينية تحتضر بلا أمل بقيامها مجدداً. وصار حضورها صورياً على امتداد السنوات المائة القادمة، أمضى الملوك القبارصة خمسين منها، في محاولات للإفلات من قبضة الجنوية، بالقوة تارةً وبالدبلوماسية طوراً لكن دون جدوى. وتغير كل شيء في المملكة حتى مستوى النبلاء والطبقة الأرستقراطية في قبرص، إذ انقرضت حوالي 18 عائلة عريقة في المملكة من أصل 44 عائلة من بينها عائلة "إيبلان"، التي كان آخرها فيليب دو إيبلان صاحب أرسوف بعدما قطع الجنوية رأسه لاشتراكه في قتل بطرس الأول، ونيقولا دو إيبلان الذي أخذه الجنوية بين الرهائن وانقطعت أخباره منذ ذلك الحين. وظهرت بين اللاتين بعد ذلك عائلات جديدة مختلفة التقاليد والأعراف[2].

اختصر فيليب ميزيير مستشار الملك بطرس الأول، في وصاياه (Le vieil pèlerin)، عهد بطرس الثاني وسوء تصرف أركانه، بالقول بأن آراء ضعاف المستشارين تحني رأس الملك أمام السلطات الأجنبية الأخرى، وتحول أصدقاءه إلى أعداء، وتعطي الذريعة عن غير قصد لإعلان الحرب على بلده[3].

توفي بطرس الثاني عام784هـ/ 1382م، بينما كان لا يزال يحاول تحرير مرفأ فماغوستا من الإحتلال الجنوي دون جدوى، ويحول دون حصول النبلاء الجنويين على المزيد من الإقطاعات والأراضي للحد من نفوذهم في بقية أنحاء المملكة[4] .

وانتقل المُلك نظرياً إلى عمه الأسير في جنوا "جاك دو لوزينيان"، القائد السابق للجيش، الذي بقي يرسف في قيود الحديد والخشب داخل قفص حديدي، وهو الذي ناضل من قبل مع شقيقه الوصي حنا وإبن أخيه الملك بطرس الثاني ضد الجنوية لفترة طويلة[5].

عاث الأسطول الجنوي في شرق البحر المتوسط فساداً، مستفيداً من ضعف الحكم في قبرص ومعتمداً على موانيء الجزيرة، كقواعد ينطلق منها في أعمال القرصنة البحرية ولمهاجمة الثغور الإسلامية. ففي العام 784هـ/1382م، غزا الجنويون صيدا، وعادوا إلى فماغوستا فأفرغوا حمولة سفنهم من الغنائم. ثم عادوا إلى بيروت " بأسطول قوامه 12 غراباً كبيراً ودخلوا ميناء بيروت واستولوا على

---

[1] STRAMBALDI, Op.Cit .P: 247-248.- De Mas Latrie, Op.Cit. VOL II P:378, 379.
[2] Edbury,Op.Cit. P: 210.
[3] De Mas Latrie,Op.Cit. VOL II, P:385.
[4] Ibid. P:781.
[5] AMADI, Op.Cit .P:490-492.

قرقورتين للبنادقة "، كانتا ترسوان فيه، واستعانوا بهما لشحن المقاتلين وإنزالهم إلى البر. واستولوا على القسم المحاذي للميناء قبل أن يتمكن يحيى أمير الغرب ووالد المؤرخ صالح بن يحيى من رد الغزاة بمعاونة "أصحاب النخوات" من أهل بيروت.[1]

إستمرت الأوضاع صعبة في قبرص، ولم يكن انتقال الملك سهلاً ولا مباشراً، فقد استغرق ما يقارب ثلاث سنوات من العذاب على المملكة وعلى الملك السجين جاك، فتوافق كبار الضباط على أحقيته في وراثة ملك ابن اخيه، وقاموا بتكليف التوركوبلييه جان دو بري (Jean De Brie)، بحكم البلاد يعاونه 12 من النبلاء ريثما يعود الملك الجديد من سجنه.

أخرج الجنويون جاك وزوجته من السجن، وأبقوا فيه ولدهما جانوس، الذي ولد سجينا، كرهينة، وانطلق الأسطول الجنوي بهما من جنوا في 19 شباط 1383م/ 785هـ، ليحط في مرفأ الملاحات، وأرسلوا يخبرون الضباط القبارصة ليعدوا العدة لاستقباله بمن معه.

اجتمع الضباط على الأثر وتباحثوا في خطورة استقبال الملك الموعود ومعه مرافقين جنويين دائمين بعد أن فسروا ذلك على أنه فقدان نهائي للسيادة القبرصية على الجزيرة وشروطاً مالية جنوية مرهقة، وارتأى بيرو دو مونتوليف (Perrot De Montolif)، عشيق الملكة الأم، أن يتم تزويج شقيقة الملك الراحل بطرس الثاني وابنة الملك بطرس الأول، لأحد كبار البارونات القبارصة ويتوّجان بالتالي ملكاً وملكةً على قبرص أسوة ببعض الحالات التي سبق أن عمِل بها في مملكة بيت المقدس. واتفق الجميع على أن يتم استقبال جاك دو لوزينيان إذا ترجل وحده دون مرافقيه الجنويين، أو يرفض القبارصة استلامه[2].

وذهب دو مونتوليف إلى مرفأ الملاحات ليبلغ الجنويين في الأسطول رسالة القبارصة فصاح بهم: "نقبله إذا ترجل وحده أما إذا كنتم سترافقونه فخذوه وارحلوا". وهكذا كان وعاد به الجنويون من حيث أتوا[3].

اجتمع النبلاء بعد ذلك مراراً دون التوصل إلى قرار حاسم، سمح الجنويون خلالها لجاك الأسير أن يرسل إلى ضباطه رسائل تشجيع، يعد فيها كل من يعمل على استعادته للملك بتخصيصه بالمزيد من الإقطاعات، مما زاد في أعداد مناصريه وخذّل في همة معارضي عودته. وفي الاجتماع الأخير استدعى البارونات "ستافرينوس ماخياراس"، والد المؤرخ ليونس ماخياراس، وكان مسموع الكلمة

---

[1] صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص54و229.

[2] STRAMBALDI, Op.Cit. P: 252-253.

[3] Macheras, Op.Cit. P: 347.

محترم الرأي، على حد قول ابنه، فأشار بضرورة أن يكون للجزيرة ملك قبل فوات الأوان، واستحسنت الأكثرية الرأي وصاحوا " ليحيا الملك جاك" وانسحب المعارضون من الجلسة[1].

أرسل الضباط القبارصة بالخبر إلى الجنوية وإلى الملك الأسير، وصار الأخير عرضة للابتزاز وهو في سجنه وقبل أن يطلق سراحه، فوافق مضطراً على شروط مهينة ومرهقة لقاء إطلاق سراحه وإعادته إلى قبرص، بينما أبقى الجنويون على ابنه جانوس معتقلاً في جنوا بهدف ليّ ذراع المِلك في أي وقت من الأوقات. ووصلت سفينة الملك جاك وزوجته إلى كيرينيا في 24 نيسان سنة 1385م/ 788هـ، واعتقل أنصاره الأخوين المعارضين بيرو وجليمو دو مونتوليف وأمر الملك بقطع رأسيهما على مرأى من الناس[2].

كان من الشروط الجنوية الأساسية[3]:

-توسيع رقعة السيطرة الجنوية على فماغوستا لتشمل المرفأ والمدينة وضواحيها بقطر ميلين من كل ناحية.

-وضع مرفأ كيرينيا تحت السيطرة الجنوية أيضاً.

-منع الاستيراد والتصدير من وإلى الجزيرة إلا عبر المرفأين الواقعين تحت السيطرة الجنوية.

-منع السفن التجارية من ارتياد بقية المرافيء القبرصية إلا بإذن من الحاكم الجنوي في فماغوستا.

-تتعهد قبرص بتسديد الديون المترتبة عليها لجنوا وقدرها 952 ألف فلورين ذهبية، تدفع على أقساط بمعدل 50 ألف فلورين ذهب سنوياً.

بعد أن اقتطع الجنويون فماغوستا وكيرينيا من قبرص، صارت عائدات الجزيرة تكاد لا تكفي لدفع الرواتب والنفقات المترتبة على المملكة اللاتينية الفقيرة، ولم يعد بإمكان الملك جاك الأول أن يفي بتعهداته والتزاماته المادية وفقاً للشروط الجائرة للمعاهدة الجنوية القبرصية.

ففرض الملك ضرائب جديدة في كل اتجاه وعلى كل الرقاب، وصار لزاماً على جميع سكان المملكة أن يدفع كل منهم نسبة واحد بالألف من موارده حتى ولو كان من الأفنان أو من النبلاء، إضافة إلى ضرائب أخرى على العبور وعلى الملح وعلى كل مرفق، كما فرض ضريبة العشر على كافة البضائع اعتباراً من سنة788هـ/ 1385م، ولمدة عشر سنوات[4].

---

[1] Macheras, Op.Cit, P:348.- Strambaldi. Op.Cit P:254.

[2] Macheras, Op.Cit P: 350.

[3] De Mas Latrie, Op. Cit. VOL.II P:395-412.

[4] Macheras, Op.Cit. P: 353 ; De Mas Latrie, VOL.II, P:414.

وعمد الملك جاك الأول إلى إرسال السفراء إلى جنوى لإقناع حاكمها بضرورة إعادة النظر بجدولة الديون المترتبة على قبرص، فأرسل الحاكم الجنوي في 17 أيلول 1386م/ 789هـ، تعليماته إلى سفرائه في الجزيرة لتخمين عائدات الجزيرة قبل النظر في جدولة ديونها. وعين الملك 12 ضابطاً لتقييم العائدات والموارد في 12 مقاطعة، وعينت جنوا 12 مراقباً من قبلها للتحقق من صحة التقييم القبرصي[1].

أمضى جاك الأول خمس سنوات في الحكم بينما كان ابنه جانوس لا يزال في الأسر، وكرر عام793هـ/ 1390م، إرسال موفدين إلى جنوا لإعادة النظر في جدولة الديون مرة أخرى، ولمناقشة شروط إطلاق ابنه جانوس من الأسر، ونجح الموفد القبرصي الأميرال "بيار دو كافران" (Amiral Pierre De Caffran) في مهمته، فعاد في أيار سنة 1391م/794هـ، ومعه الأمير جانوس بعد أن توصل إلى النتائج التالية:

-تدفع المملكة القبرصية اللاتينية مبلغ 952 ألف فلورين ذهبية لمؤسسة الماهون الجنوية

-تدفع المملكة مبلغ 100 ألف فلورين تعويضاً للمتضررين الجنويين في قبرص.

-يخلى سبيل الأمير جانوس لقاء دفع مبلغ 125 ألف فلورين ويحسم هذا المبلغ من أصل الديون المترتبة على قبرص.

-يدفع مبلغ ال 125 ألف فلورين خلال مهلة 40 يوماً من وصول جانوس إلى الجزيرة، وتدفع قبرص غرامة قدرها 10 آلاف فلورين في حال تأخرت عن تسديد المبلغ بالمهلة المحددة.

-يحتجز الموفد بيار كافران وزوجته وأولاده كرهينة لدى ضباط مؤسسة الماهون في فماغوستا لحين تسديد المبلغ المذكور.

-بسبب الأوضاع الاقتصادية والصحية المتردية في الجزيرة، تعاد جدولة الديون القبرصية المستحقة لجنوا، بمعدل 30 ألف فلورين سنوياً.

-يتم تسفير الأمير جانوس إلى قبرص على مسؤوليته ولا تتحمل حكومة جنوا أية مسؤولية في حال تعرضه لأي خطر خلال رحلته إلى قبرص[2].

أمضى جاك الأول عهداً مضنياً لم يكن سهلاً عليه ولا على رعيته، فقد ضرب وباء الطاعون الجزيرة مجدداً بين عام795 و 796هـ/ 1392 و1393م، مما

---

[1] Macheras, Op.Cit. P: 354.-De Mas Latrie, Op. Cit. VOL.II, P:405.

[2] STRAMBALDI, Op.Cit. P: 259
De Mas Latrie, Op. Cit. VOL.II, P:422-423.

خفض من القدرات البشرية العاملة في الجزيرة، وقلل من عدد روادها. وبذل الملك جهوداً لكي تسترد قبرص عافيتها وسيادتها واستقلالها، فأرسل موفديه إلى السلطان المملوكي، وفتح مكتباً تجارياً للقبارصة في الإسكندرية سنة799هـ/ 1396م[1]، وطلب من البندقية أن تبني عدداً من السفن الكبيرة لصالح الأسطول القبرصي، كما لم يدخر وسعاً لتحرير فماغوستا بالحيلة عبر رشوة حاكمها الجنوي زينوس سنة799هـ/ 1396م، لكن عيون جنوا كانت ساهرة فأحبطت محاولة تسليم المدينة للملك، واعتقلت زينوس ومساعديه وقطعتهم إربا [2].

يستنتج من مرحلة ما بعد بطرس الأول أن حملة الإسكندرية عادت على الجزيرة القبرصية بغير المأمول منها ، بحيث أبقت على الأحقاد الدفينة بين القبارصة والعرب ولم تعالج شيئاً منها، كما لم تستطع أن تؤثر سلباً على الوضع الاقتصادي للمدن الساحلية المملوكية، كما أدت رعونة ضباط الجيش القبرصي وترفهم الزائد وغطرستهم إلى قصر نظر وسوء تقدير لما قد ينتج عن الصدام مع قوة كبرى مثل جنوا ، ولم يتبصر هؤلاء في معرفة الموقع الحقيقي لجنوا ومثيلاتها من المدن التجارية الإيطالية بالنسبة للفاتيكان سياسياً وجغرافياً.

وأثبتت الأحداث السابقة أن وضع التاج القبرصي بقي عرضة للإغواء داخل الجزيرة وخارجها مما شتت الصف الداخلي وعزز محاولات السيطرة الخارجية على الملك والمملكة. دون أن يغيب عن البال أن نظرة الغرب بأجمعه إلى الحروب الصليبية كانت قد تغيرت، وأن الهمم قد فترت، وأن الاهتمامات قد توجهت إلى الصراعات داخل الدول والمدن الأوروبية، خاصة بين إنكلترا وفرنسا في حرب المائة عام، وبين جنوا والبندقية في حرب شيوغيا (Chioggia) الدامية[3].

ثالثاً– أفول مملكة قبرص اللاتينية

1–حملة السلطان برسباي

مع أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، خرجت قبرص من معاركها مع الجنوية منهكة القوى وخائرة العزيمة، بعد أن استنفدت كافة مواردها وخربت قراها ودمرت تحصيناتها وصارت الموانئ الرئيسية فيها قاعاً صفصفاً يلتجئ إليها القراصنة ولا ترتادها سوى القلة القليلة من تجار المدن والممالك الأوروبية.

وتشاء التقادير أن يضربها وباء الموت الأسود مرة تلو المرة عام795هـ/ 1392م، ثم عام812هـ/ 1409م، حين انتشر الطاعون والجراد، ليأكل ما تبقى من المحاصيل الزراعية، وتكرر إنتشار الطاعون مرة ثالثة أواخر عام

---

[1] De Mas Latrie, Op. Cit. VOL.II, P: 349.

[2] Ibid. Op.Cit.. P: 357-404.

[3] STRAMBALDI. Op.Cit P:248.

1419م/823هـ ، مما تسبب بنقص هائل في قدرات الجزيرة البشرية وبعجز إقتصادي كبير، جعل المملكة اللاتينية القبرصية تنطوي على نفسها وتنهمك بمعالجة أوضاعها الداخلية[1].

وتصادف تاريخ تربع جاك الأول على العرش مع وصول الظاهر سيف الدين برقوق (784 – 801 هـ/1382–1398م)،[2] سلطاناً على مصر معلناً بدء مرحلة المماليك البرجية. وتشاء التقادير أيضاً أن يتوفى الملكان في السنة ذاتها عام (801 هجري/1398م)، ليتسلم ولداهما جانوس (801–836هـ/1398– 1432م) وفرج بن برقوق (801–808هـ/1398 – 1405م)، المُلك من بعدهما.

استمر جانوس دو لوزينيان في الملك طوال 34 عاماً في وقت كانت مصر تعاني من أزمات مختلفة ومتتالية فقد عاد المغول بقيادة تيمورلنك (ت 17 شعبان808 هـ/ 1405م)، يطرقون أبواب بلاد الشام وآسيا الصغرى مع حلول القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي، واستمر الطاعون يقتل المئات يومياً، لكن الأزمات التي لم تنته أبداً كانت تلك الصراعات المستمرة على الحكم والمناصب الهامة فيما بين أمراء المماليك، مما أبقى السلطنة المملوكية في حالة من القلق وعدم الإستقرار، فقد أمضى السلطان عبد العزيز بن برقوق شقيق الناصر فرج بن برقوق(808–808هـ/1405–1405م) أقل من سنة عقب أخيه ليعود الناصر فرج إلى السلطنة مرة ثانية (808–815هـ/1405 – 1412م)، ثم تلاه السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي (815–825هـ/1412 – 1421م)، ثم المظفر أحمد بن شيخ عام825هـ/ 1421م، وبعده الظاهر ططر في العام ذاته وبعدهما الصالح محمد بن ططر (825–826هـ/1421 – 1422م)، فيعجز الثلاثة متتالين أن يتمّا مجتمعين مدة سنتين في الحكم.

وفي الوقت الذي افتقرت فيه الجزيرة بسبب النفوذ الجنوي وبسبب القرصنة وانعدام الأمن، اغتنى الفرسان القبارصة الذين يتعاملون مع القراصنة، وصار من الصعب على الملك الفتى جانوس إبن الملك جاك الأول دو لوزينيان أن يكافح القرصنة وأن يعيد الأمن إلى نصابه، وقادت المراكب الجنوية أعمال القرصنة ومهاجمة الثغور الإسلامية من جديد، وتوجه أسطول جنوي لغزو العلايا على الساحل التركي،

---

[1] STRAMBALDI. Op.Cit. P:260-265.

[2] الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجركسي، سلطان المماليك الخامس والعشرون والسلطان الأول من سلاطين الجراكسة البرجية، تسلطن مرتين(784-791هـ) و(792-801هـ)، اشتراه بمصر الأمير يلبغا الخاصكيسنة 764هـ/1362م أي قبل غزوة الاسكندرية بثلاث سنوات، فأعتقه. صار أتابكاً لعدد من صغار السلاطين أحفاد الناصر محمد بن قلاوون، خلع آخرهم السلطان حاجي الذي كان في الحادية عشر من عمره وتسلطن مكانه. واجه عهده صعوبات عديدة منها العصيان وتفشي الأوبئة والقحط والجفاف وتهديد المغول.(الموسوعة العربية، الجمهورية العربية السورية، رئاسة الجمهورية، دمشق طبعة أولى، المجلد الرابع، 2001م).

فعجز عن ذلك ثم قصد طرابلس، " وبها الأمير دمرداش(المحمودي) نائباً، فنزل الفرنج البر لكن المسلمين منعوهم الوصول إلى المدينة، ثم توجهوا إلى بيروت في المحرم من سنة 806هـ(آب 1403)، ولم يكن في بيروت متول ولا عسكر مجرد للحرب سوى أمراء الغرب وبعض جماعة.... ونزل الفرنج إلى البر في مكان يدعى الصنبطية غربي البلد...وأحرقوا الدور والسوق القريبة من الميناء، ثم تمالك أصحاب النخوة وجعلوا يهاجمون من تفرد من الفرنج في الأزقة، فقتلوا منهم جماعة واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر...وأقام الفرنج في بيروت إلى العصر ثم رجعوا إلى مراكبهم وتتبع المسلمون بقيتهم".[1]

تحلى المماليك بالصبر، ولم يبادروا إلى أي عمل عسكري، واكتفوا بإيفاد الرسائل والرسل. لكن الفرسان القبارصة ظنوا أن ذلك من قبيل ضعف المماليك[2] ، فقد كان من عادات هؤلاء، أن لا يردوا على الاعتداء قبل أن يوجهوا إنذارين أو ثلاثة. وأرسل الملك القبرصي موفده (SIR THOMAS PROVOST)، إلى مصر وعاد برفقة سفير السلطان فرج (801–815هـ/1398 – 1412م)، عام 811هـ/ 1408م، بمهمة شراء كافة الأسرى المسلمين في الجزيرة، باستثناء الذين تنصروا منهم، وتعهد الملك بعدم إيواء القراصنة أو التعامل معهم[3]. وقد وجد السفير المذكور خمسمائة وثلاثين أسيراً في الجزيرة تم فداؤهم واسترجاعهم لقاء مبالغ من المال، دفعت للملك القبرصي ولمن كان الأسرى بحوزتهم، وأرسِل الأسرى كلٌ إلى بلده[4].

لكن الملك كان أضعف من أن يفي بوعده، وصار القبارصة يقلدون القراصنة، فأرسل المماليك مفرزة أشعلت النيران في كل أحراج الجزيرة، ولم يسلم منها إلا جبل واحد دعي جبل "أكاماس"، ومعناه الجبل الذي لم يحترق. تبادل الطرفان الموفدين وعقد الصلح في4 رمضان 818هـ/ 24تشرين الثاني 1414م، لكن الفرسان، بدلاً من أن يلتزموا بالاتفاق، طمعوا في ما تحقق ظناً منهم بأن المماليك يخافون القبارصة[5].

إلى أن تسلم الأشرف برسباي[6] (826–841هـ/1422 – 1437م)، السلطنة وكان عمره يناهز الأربعين، فاستقرت له الأحوال، وتفرّغ لحكم البلاد ولإدارة شؤونها،

---

[1] صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص56-57.

[2] STRAMBALDI, OP.Cit. P:267.

[3] MACHERAS, Op.Cit .P: 361-363.

[4] المقريزي، السلوك، ج6 ص 376. أحداث سنة 818 هجري- إبن حجر العسقلاني ، أنباء الغمر بأنباء العمر ج1 ص419.

[5] MACHERAS, Op.Cit. P: 364- 365.

[6] الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي بن عبد الله الدقماقي الظاهري، السطان المملوكي الثاني والثلاثون، والثامن بين سلاطين الجراكسة البرجية، ولد في القفقاس وبيع صغيراً في القرم، واشتراه الأمير

كما عرف كيف يسيطر على أمراء المماليك ويشغلهم بالمفيد وهو الثأر لمصر من مملكة قبرص اللاتينية.

وقد عزز الشعور بالثأر لدى الخاصة والعامة في السلطنة المملوكية ما كان القراصنة يصرون على فعله مراراً وتكراراً بالإعتداء على الثغور المملوكية على طول سواحل مصر والشام[1] وفي تصديهم للمراكب التجارية الإسلامية التي تجوب البحر المتوسط وخاصة تلك التي تتجرّأ على الإبتعاد عن السواحل إلى المياه العميقة.

وفي عهد الأشرف برسباي، نشطت عمارة السفن والمراكب التجارية والحربية، وصار قطع الأشجار الضخمة لصناعة السفن ميسورا، منذ سقوط مملكة أرمينية الصغرى بيد المماليك عام 776 هـ/1374م، كما تخلخل الحصار البحري الذي فرضه الإفرنج على السلطنة المملوكية بمساعدة القراصنة الأوروبيين، وأصبح نقل الحديد والأخشاب إلى الموانئ ممكناً بعد أن كان خلال السنوات الستين الأولى من القرن السابق متعذراً[2].

أما قبرص، فقد خرجت من الطاعون الذي ضربها عام 815هـ/ 1412م، منهكة إقتصادياً وبشرياً، ووجدت نفسها مضطرة لتشجيع القرصنة، وإيواء القراصنة الإفرنج القادمين من غرب أوروبا، وخاصة الكاتلان والباسك، وذلك للإفادة من عائداتهم ومن المبالغ التي كانوا ينفقونها في الجزيرة ومن البضائع التي كانوا يستولون عليها ويبيعونها للقبارصة بأسعار مغرية[3]. ولم يكن القبارصة أقل شأناً من بقية الإفرنج في أعمال القرصنة أيضاً[4].

أدت هذه التجاوزات إلى إستفزاز العالم الإسلامي وخاصة السلطان المملوكي الرمز الأساسي لهذا العالم[5]. وبقيت معظم ردود فعل السلطان برسباي في البداية، فردية،

دقماق من الشام وأهداه إلى الملك الظاهر برقوق، تدرج في الخدمة بالشام والقاهرة وصار نائب طرابلس لفترة وجيزة، سجن بعدها لتقصيره في تأديب عصابات التركمان، وسجن مرة أخرى في دمشق بسبب ولائه للأمير ططر الذي ما أن أصبح سلطاناً سنة 824هـ، حتى خلع عليه رتبة "دوادار" وعيّنه "لالا" لابنه الملك الصالح محمد. بعد وفاة السلطان ططر دب الخلاف بين برسباي وجان بك الصوفي أتابك العسكر ومدبر المملكة، إلى أن تمكن من سجنه والتخلص من الأخصام وخلع الملك محمد وتسلطن مكانه في 8 ربيع الآخر سنة 825هـ وتلقب بالملك الأشرف. (عن الموسوعة العربية، الجمهورية العربية السورية،المجلد:4، ص860. باختصار وتصرف).

[1] المقريزي ، السلوك ، ج5 أحداث سنة 780 هجري ص 50 وأحداث سنة 785 هجري ص 148 حتى 155.

[2] المقريزي ، السلوك ، ج 4 ص 288.

[3] إبن حجر العسقلاني ، المصدر ذاته، ج 2 ص 17.

[4] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته، ج4 ، ص105.-Bustron, ,Op.Cit. P:356 -

[5] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ، ج 14 ص 287 – 288.

فكان يأمر باعتقال التجار أو الفرنج المشتبه بأنهم متنكرون بثياب الحجاج إلى بيت المقدس أو بإغلاق كنيسة القيامة مؤقتاً[1].

وتكررت أعمال القرصنة واستفحلت بعد زوال الطاعون 824هـ/ 1420م ، ويروي المقريزي أن سفينتين قبرصيتين تجرأتا، في شعبان سنة 825 هجري /1422م، على السطو على مركب تجاري بالقرب من ميناء الإسكندرية ثم اتجهتا لغزو برقة ومن ثم العودة إلى الإسكندرية[2]، مما أغضب السلطان برسباي وجعله يفكر بالإنتقام من قبرص[3].

كما قام قراصنة من الإفرنج سنة 827 هجري/1423م، بأسر مركبين قرب دمياط وأسروا ركابهما المئة[4]، في وقت استولى القبارصة على سفينة للسلطان برسباي، كان قد أرسلها محملة بالهدايا، إلى السلطان العثماني مراد [5]. وفي ربيع الأول من سنة 827 هـ/شباط 1423م، أرسل أحد وجهاء المسلمين، ويدعى الشيخ محمد بن قديدار، ولده في وساطة بين السلطان وبين ملك قبرص، يسأله إطلاق من لديه من أسرى المسلمين في مقابل فتح كنيسة القيامة أمام زائريها، فكان الجواب القبرصي سلبياً[6].

ويذكر ماخيراس، أن الفرسان كانوا يشترون المسروقات من القراصنة ويتاجرون بها، إلى أن فرّ أحد الأسرى المسلمين وذهب إلى السلطان ليخبره بما رأى من بضائع سرقت من المسلمين وبما يعانيه الأسرى من تعذيب[7].

ضاق السلطان ذرعاً بحركة الفرنج على الثغور، فندب عدة أمراء إلى السواحل والثغور، وكان من بينهم أمراء من مقدمي الألوف[8]. وكان لا بد من قيام السلطان بالإنتقام لكرامته ولهيبة السلطنة ، فبدأ بتجهيز الحملة الأولى لجس الدفاعات الساحلية القبرصية، واختبار ميزان القوى بين القبارصة والمماليك. وانطلقت الحملة في رجب من سنة 827هـ/أيلول 1423م، من بولاق بسفينتين، تقلان ثمانين مقاتلاً ثم انضمت إليهما سفينة ثالثة من ميناء دمياط، وسفينة رابعة من بيروت، وخامسة من طرابلس، مما جعل عديد المقاتلين يزيد على الأربعمائة[9]. الأربعمائة[9].

---

[1] المقريزي ، السلوك ، ج 7 ص 79 ، وص 87 و 94 - إبن تغري بردي المصدر ذاته ج 14 ص 16.

[2] AMADI, Op.Cit.P:492.

[3] المقريزي ، السلوك ، ج7 ص 63.

[4] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته، ج4، ص112.

[5] خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، ص 138. المقريزي، السلوك ، ج7 ص 99.

[6] إبن حجر، المصدر ذاته، ج2 ص29.

[7] MACHERAS. Op.Cit.P: 366.

[8] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته، ج4، ص107.

[9] المقريزي، السلوك، ج 7 ، ص117.

اتجهت الحملة إلى قبرص ففرقتها الريح لبعض الوقت، لكنها استأنفت رحلتها ودخلت "الماغوصة " (فماغوستا) بسلام حيث تعاون معهم صاحبها (الجنوي)، و "دلهم على عورات صاحب جزيرة قبرس"[1] ثم توجهوا إلى جزيرة في البحر للتزود للتزود بماء الشرب واصطدموا ببعض قراصنة الفرنج، كانوا في ثلاث سفن فنهبوها وأحرقوها، وكان جند المماليك يقيمون في السفن أكثر من إقامتهم في البر، للحفاظ على وسيلة العودة إلى الديار.

ثم توجهوا إلى " اللمسون" (ليماسول)، بعد أن استعد العسكر القبرصي للمواجهة، وبعد أن أبعدوا الأهالي إلى الأرياف خوفاً عليهم، وتصدى القبارصة للمماليك في 70 فارساً و300 راجلاً فكان النصر للمماليك، وقتلوا قائد الفرسان، ثم تمكنوا من إحراق عدة سفن في ميناء المدينة وغنموا كثيراً من الجوخ والسمن والعسل.

ولما بلغهم أن الملك القبرصي يعد العدة لقتالهم في جمع غفير لا قِبَل للمماليك به، إنسحبوا من الجزيرة واتجهوا إلى طرابلس ومنها إلى دمياط فدخلوها في شهر شوال 827 هـ/ تشرين أول 1424م، من السنة ذاتها، ومعهم ثلاثة وعشرين أسيرا[2].

ثبت للسلطان برسباي أن قبرص متورطة بأعمال القرصنة، بعد أن وجد رجاله أن البضائع المنهوبة من سفن المسلمين، تباع في أسواقها، وتبين له ضعف المملكة القبرصية اللاتينية وعجزها عن صد أصغر الحملات مما شجعه على القيام بحملة أكبر لغزو الجزيرة وتأديبها. فنشطت دار الصناعة ببولاق وببقية الثغور، وأهمها طرابلس، في بناء سفن جديدة، واستعان السلطان بحاكم تونس الذي أرسل إليه عدداً من السفن، ولم يتنبه الفرنج والقبارصة للخطر المملوكي القادم، معتبرين الحملة السابقة بمثابة قرصنة رداً على قرصنة، فاستمروا بغيّهم في البحر، وزاد من حنق السلطان وغضبه، أن أربعاً من السفن القبرصية طاردت مركباً مصرياً محملاً بالمجاذيف كان متوجهاً إلى مصر فاستولت على حمولته وقتلت بحارته وقامت بإحراقه[3].

على الأثر أعلن السلطان برسباي الجهاد، وفتح للعامة باب التطوع، وجهّز ستمائة مقاتل على نفقته، وقام الأمراء بتجهيز ثلاثمائة آخرين، وعين الأمير جرباش الكريمي لقيادة الحملة، فركب الرجالة في السفن، وانطلق ثلاثمائة من الخيالة براً إلى طرابلس حيث انتظرتهم سفن أخرى، لتحملهم مع المزيد من مقاتلي الشام من هناك إلى قبرص.

---

[1] إبن حجر العسقلاني ، إنباء الغمر ج 2 ص 31.

[2] المقريزي ، السلوك ج7 ص 100 و 103.- إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج 14 ص 268.
- إبن سباط، صدق الأخبار، عناية وتحقيق عمر تدمري، جروس برس، 1993م ج2 ص 783.

[3] المقريزي، المصدر ذاته، ج 7 ص 117.

لم يقدر القبارصة خطورة الموقف ، فاستمروا في أعمال القرصنة وفي التعدي على المراكب وعلى الثغور، ورأى الملك جانوس أن يجهض الحملة على قبرص باستباقها والتصدي لها في البحر، وفي إشغال المماليك بحماية الثغور بدلاً من التجمع والتوجه إلى الجزيرة، كما أرسل المراكب لمراقبة الموانئ المصرية ومعالجة المراكب الخارجة منها قبل أن تبلغ الجزيرة[1].

وكان برسباي حذراً من نوايا الملك القبرصي فأمر بحماية الثغور واليقظة من تحركات الإفرنج. ولما نفد ماء الشرب من المركبين الفرنجين المكلفين بمراقبة الشواطيء المملوكية ونهب ما يستطاع، اضطرا لإيفاد المركب الأصغر للدخول في نهر الكلب، بينما رست السفينة الكبيرة قبالة المصب، فكمن حرس الشاطيء حتى دخلت "السلورة" في النهر، وخرج عليها الكمين وأحرقها وأسر من كان فيها بينما فر "الغراب" إلى قبرس[2]. وأما السفن المكلفة بمراقبة الموانئ المصرية فقد كان عددها تسعاً أرسلها صاحب قبرص تحت أمرة "بايلي" المملكة، وما أن بلغت مصب النيل عند دمياط حتى خرج لها الأسطول المصري فتراجع القبارصة فارين دون قتال[3].

كما أمر برسباي ببناء برج للحراسة في منطقة الطينة، قرب مصب نهر النيل، أقام فيه جند المماليك وأسكن جماعة من العرب بالقرب منه ، مما أعاق حركة النهب والسلب التي كانت مراكب الفرنج تقوم بها في تلك المنطقة[4].

رسم السلطان برسباي بإعداد الحملة الثانية على أن تنطلق من مصر بثماني سفن كبيرة، على رأسها الأمير جرباش الكريمي، ومعه أربعة أمراء كبار وعدد آخر من الأمراء دونهم مرتبة. على أن ينضم إليهم أمراء وعسكر من الشام وطرابلس وصفد، فرسم لعسكر الشام، وعلى رأسهم الأمير بلبان المحمودي مقدم ألف ومعه عدة أمراء من الشام وأربعين مملوكاً، بالانطلاق من بيروت وأمر لهم "بعمارة حمالة وغراب صغير بالإضافة إلى الغراب الكبير العتيق الذي ببيروت. ورسم لنايب طرابلس أن يخرج الأمير الكبير" ومعه حاجب حجاب حلب وأمراء طرابلسية وحلبية"، بعمارة حمالة مع الغراب الذي عنده، ورسم لنايب صفد، "ومعه مماليك نائبها" بتعميرة الغراب الثاني، وحضر نايب الشام إلى بيروت بسبب

---

[1] MACHERAS. Op.Cit.P: 633 – 635.

[2] خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك، ص117.

[3] إبن حجر ، المصدر ذاته، ج 2، ص 32 ، أخبار سنة 828 هجري.- المقريزي ، المصدر ذاته ج 7 ص 136 -137.

[4] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ج 14 ص 272.

العساكر لتجهيزهم". كما رسم السلطان أن يتوجه أمراء الغرب (بيروت وضواحيها)، صحبة التعميرة المذكورة في بيروت.[1]

إنطلقت الحملة الثانية من القاهرة في رجب سنة 828 هـ/تموز 1425 م، في ثماني سفن كبيرة إنحدرت في النيل إلى "البحر الملح" عبر دمياط ثم انضم إليها أمير بيروت صالح بن يحيى "مقدماً على الغراب الكبير العتيق الذي ببيروت وتوجه صحبته نحو ماية رجل مقاتل بحرية" [2]، ومن بيروت أرسل قائد الحملة الأمير جرباش إلى جانوس ملك قبرص، يعرض عليه الصلح، ثم تابعت الحملة إلى طرابلس حيث انضم إليها المزيد من السفن والمراكب والمقاتلة من جند الشام ومن المتطوعين والعشائر حتى فاق عدد المراكب الأربعين[3].

تأخر الملك القبرصي بالرد، مما اضطر الأمير جرباش إلى الإنطلاق باتجاه الجزيرة، حيث بلغه رفض الملك القبرصي للصلح، فوصلت السفن يوم الجمعة في 3 آب إلى شالونيس (Chelones) قرب أكروتيكي ثم توجهت يوم السبت إلى ميناء فماغوستا حيث استقبلهم حاكمها الجنوي طالباً الأمان، وأمضى المسلمون ليلتهم الأولى في أواخر شعبان سنة 828هـ/1425 م، وأفادوا من حاكم فماغوستا الجنوي، الذي كان دليلهم في الجزيرة وأبلغهم عن استعدادات ملك قبرص لقتالهم[4].

ثم بدأت الحملة بالسير براً وبحراً على سواحل الجزيرة وشواطئها، وقامت بأعمال النهب والأسر، وحاولت سفن الإفرنج العشرة إستدراج سفن المماليك للخروج إلى المياه العميقة، لكن المماليك الذين كانوا يحسنون قتال البر أكثر من قتال البحر، نزلوا إلى البر وانتظروا الفرنج ليلحقوا بهم فالتقى الطرفان وانهزم الفرنج وكانوا بقيادة إبن أخِ الملك في ألف خيال وثلاثة آلاف راجل [5].

وفي طريقهم على الساحل القبرصي، تصدى لهم أمير قبرصي ورجاله في مكان يقال له "رأس العجوز"، فقتلوه وأسروا رجاله. ويروي إبن حجر الخبر بأن المماليك وفقوا بالقبض على أمير الملاحة الفرنجي ويدعى "عين الغزال" (بايل مدينة ليماسول حسب ماخياراس)، والذي كان شديد الأذى على المسلمين في البحر، وكان في طريقه إلى ليماسول فانتقموا منه[6].

---

[1] إبن سباط، المصدر ذاته، ج2 ص785.

[2] المصدر السابق، ج2 ص786.

[3] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته، ج 14 ص 278- البطريرك أسطفان الدويهي، تاريخ الأزمنة، تحقيق الأباتي بطرس فهد، طبعة 1976، ص346.

[4] AMADI, Op.Cit.P:504.

[5] خليل بن شاهين ، زبدة كشف الممالك ص118. يقول ماخيراس أن عدد القبارصة كان 500 فارساً و2000 راجل وأن فيهم سوريون وأرمن وفلاحون. وأن سرعة حركة المماليك جعلت المعلومات عنهم تصل إلى الملك القبرصي متأخرة.(MACHERAS, OP. CIT. P:367)

[6] إبن حجر ، المصدر ذاته ج 2 ص 32 ، أخبار سنة 828 هجري :MACHERAS, OP. CIT. P. 368.أشكل الأمر على دو ماس لاتري ورجح أن يكون إما دومينيك دو لا بالو أو فيايب بروفوست

حاول الملك القبرصي أن يقسم الحملة المملوكية إلى شطرين، ليسهل عليه القضاء عليها، فأرسل أخاه على رأس قوة من الخيالة لاستدراج المماليك وفشلت محاولته وانهزم قبل الصدام.

وكانت المواجهة الأخيرة بين الطرفين عند مشارف ليماسول[1]، حيث حاصر المماليك القلعة واحتلوها بعد معركة شديدة قتل فيها الكثير من القبارصة، وأقدم المماليك في نهاية الأمر على إحراق الحصن. وعلموا أن الملك قد تحصن في العاصمة نيقوسيا (الأفقسية)، ففضل الأمير جرباش قائد الحملة ألا يدخلها لأن "الأمر أخذ حده وأن السلامة غنيمة"[2]. فقد ناهز عدد القتلى من القبارصة والإفرنج الآلاف بينما لم يقتل من أفراد الحملة سوى ثلاثة عشر.

كتب قائد الحملة كتاباً بالنصر، أرسله إلى السلطان عبر النائب في طرابلس، ثم أمر بالإستراحة سبعة أيام في الجزيرة قبل أن يصدر الأمر للحملة بالعودة من حيث أتت، وكانت السفن مكتظة بالأسرى (1060 أسيراً) وبالغنائم من كل الأصناف، تم تحميلها عند تفريغها في القاهرة على 170 حمالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال. ولما رأى السلطان ذلك، أمر أن لا يفرّق عند بيع الأسرى، بين الآباء والأولاد والأقارب رحمةً بهم[3].

كان من نتائج الحملة الثانية على قبرص أن ارتفعت الروح المعنوية للمماليك، وأحسن السلطان برسباي استقبال الأمراء وفيهم صالح بن يحيى وأنعم عليهم بالذهب والخلع، وتحركت نفوس العامة للجهاد [4]، وتدخل في تلك الأثناء أحد أغنياء المسلمين بمبادرة شخصية، وهو تاجر دمشقي كبير مشهود له بالصدق والطيبة، أجمعت المصادر الغربية على تسميته بـــ "سيث" (Sith) ، وهو معروف من قبل الملك القبرصي وتربطه صداقة بإثنين من النبلاء القبارصة المقربين من الملك جانوس، هما السفير القبرصي لدى السلطنة المملوكية ويدعى "توماس بروفوست" (Sire Thomas Provost) والآخر هو المحاور بإسم الملك "جان ابودوكاتورو" (Sire Jean apodochatoro) .

أرسل الدمشقي ابنه إلى قبرص، وحمّله رسالة خطية، ينصح فيها الملك جانوس أن يجنح إلى السلم ، فاجتهد الفرسان القبارصة المتغطرسين في منع الرسول من مقابلة السلطان، لكن المقابلة تمت في النهاية، وتسلّم الملك الرسالة التي يحاول

Etienne De Vicence :وأما القتيل فهو .De Mas Latrie,Op.Cit. VOL II, P: 509.-

[1] Bustron, Op.Cit., P:358.

[2] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ، ج 14 ص 280.

[3] المقريزي ، المصدر ذاته ج 7 ص 120 – 121 – 122 – 137.

[4] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ، ج 14 ص 287.

الثري الدمشقي فيها إقناعه بضرورة عقد الصلح قبل فوات الأوان، ويشرح فيها أن السلطان قوي جداً، وسلطانه يمتد إلى أصقاع شاسعة، وأن: " تحت سيطرته خمسين مقاطعة كل واحدة أكبر من جزيرتك واطلب خريطة العالم وانظر فيها صدق قولي، وإن في صدر مستشاريك من الحقد ما سيسبب تدمير جزيرتك وإحراقها، ولأن القبارصة هم الذين نكثوا العهد فإن النصر يكون إلى جانب المعتدى عليهم...". وان السلطان قد عيل صبره، ويوشك على مهاجمة الجزيرة، لكن الرسالة ذهبت هباء، أمام تعنت الضباط القبارصة، الذين لفرط جهلهم، اعتقدوا أنها مناورة من سلطان المماليك الضعيف. ولما أتى الجواب إلى الثري المسلم بالنفي قال :"لقد استحق الملك وأتباعه أن يساقوا عبيداً بين يدي السلطان"[1].

أخذ التوتر يتصاعد بين الطرفين، فكاتب الملك القبرصي جانوس دول الغرب ومدنه، يعلمهم فيها بما فعله المماليك بالجزيرة، ويطلب منهم المعونة، "فأرسل كل منهم له نجدة وأرسل ملك الكاتيلان أبن أخيه بمركب وفرسان، وجدّ جابوش (جانوس) في عمارة المراكب وعزم على قصد الإسكندرية..."[2]. لكن المساعدات إلى قبرص لم تعد أبداً بالحجم الذي كان يأتيها من قبل في عهد بطرس الأول أو من سبقه من ملوك أسرة دو لوزينيان.

لم يكن الفرنج الآخرون أقل جسارة من الملك القبرصي، فقد تحارب الكاتلان والبنادقة في ميناء الإسكندرية في شوال سنة 829 هجري/1426 م، وتغلب الكاتلان بعد أن قتل لهم جماعة وصادروا مركباً للبنادقة بما فيه، كما استغلوا الفوضى فأسروا مجموعة من المسلمين كانت في الميناء ومضوا بهم في البحر.

اشتد عزم السلطان برسباي على غزو قبرص واحتلالها نهائياً هذه المرة ولم يكن الأمر خافياً على أحد فقد كانت الإستعدادات ظاهرة للعيان حتى أن إمبراطور القسطنطينية تدخل مستشفعاً " في أهل قبرس حتى لا يغزوها السلطان ، فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته"[3].

وكان السلطان قد نادى بالجهاد في كل الأمصار وزاد في تعمير المراكب، وكان من حصة بيروت تعمير حمالتين جديدتين، تعطلت إحداها، وفيها الأمير صالح بن يحيى، لدى وصولها إلى رشيد في ساحل مصر،[4] وأخذت العساكر تصل من بلاد الشام ومعهم طوائف من العشائر فأنزلهم السلطان في الميدان الكبير بانتظار

---

[1] Machéras. op.cit. P:370-375.- Strambaldi,Op.Cit. P:273. AMADI, op.cit. P:502. Bustron, , op.cit. P:359.

[2] إبن حجر ، المصدر ذاته ، ج 2 ص 40- .De Mas Latrie, Op.Cit. Vol II, P:510

[3] المقريزي ، المصدر ذاته ، ج 7 ص 135.

[4] إبن سباط، المصدر ذاته، ج2، ص790.

إنطلاق الحملة الكبرى[1]. وما أن أنجز صناع السفن مهمتهم حتى أطلق السلطان برسباي حملته الثالثة والأكبر على قبرص، وعيّن للحملة أميراً للبحر من مقدمي الألوف هو الأمير اينال الجكمي أمير مجلس، وبأمرته عدد من الأمراء والمماليك السلطانية، كما عين لحملة البر الأمير تغري بردي المحمودي الذي كان الفرنج يدعونه (TAKRIVER MOHAMED)، على أن لا يعارض أحد القائدين الآخر.

خرجت سفن الحملة من نهر النيل إلى بحر الملح في شعبان سنة 829 هجري /صيف 1426 م، بعد أن انضمت إليها السفن القادمة من بيروت ومن بقية الثغور الشامية، تراوح عددها بين 180 و200 من مختلف الأشرعة، واتجه الأسطول من الإسكندرية مباشرة إلى قبرص، وعلى متنه خمسة آلاف من الجند المقاتلة والمتطوعة. (قدرتها المصادر القبرصية ب500 مملوك و2000 مقاتل و600 من العربان في 150 سفينة)[2].

وصلت الحملة إلى ميناء ليماسول، فتبين أن القبارصة قد أعادوا عمارة القلعة وشحنوها بالرجال والعتاد وقدور الزفت. فهاجمها المماليك وتمكنوا من إحتلالها، وفر منها الفرنج إلى داخل الجزيرة. وتبين أن الملك القبرصي جانوس يستعد في "الأفقسية" (نيقوسيا) العاصمة للقاء المماليك على رأس جيش قوامه خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل، فأرسل المماليك إليه رسولاً يدعوه إلى الصلح لكن شقيق الملك جانوس قتل الرسول وأحرق جثته[3].

وسارت الحملة بشقيها البحري والبري على طول الشاطئ القبرصي مسيرة ستة أيام. وإذ بالملك القبرصي يبادرهم بجيش ضخم بلغ عدد الفرسان فيه 23 ألفاً، سوى المشاة، نصفهم من غير القبارصة، في يوم حار صائف من أيام تموز[4].

دارت بين الطرفين معركة حامية، في كيروكيتيا،(CHEROKITIA) صباح الأحد في الأول من رمضان 829هـ/ 7 تموز 1426م ، ثبت فيها المماليك واستبسل فيها القبارصة بدايةً، وعلى الرغم من شدة الحر.

ناور فرسان المماليك بفرقة من الخيالة هاجمت مجنبة الجيش اليمنى من الشرق، حيث الأرمن والعتقاء فتزعزعت الصفوف وفقد الجيش القبرصي انتظامه، ثم دارت الدائرة على القبارصة فقتل منهم 1500، ووقع الملك عن فرسه عدة مرات، وكاد يقتل بسيوف المماليك بعد أن جرح في وجهه، لولا أن صاح "أنا الملك" (MELEK!) باللفظة العربية، فأمسكه المماليك أسيراً ومعه إبن شقيق "صاحب الكيتلان". وتبين للمماليك أن في جيش القبارصة مجموعة من تركمان إمارة "تكة"،

---

[1] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ، ج 14 ص 287.

[2] MACHERAS, Op.Cit.P:378.

[3] De Mas Latrie, Op. Cit. Vol.II , P:511

[4] Bustron, Op.Cit.P363.

أرسلهم علي بك بن قرمان بقيادة إبنه فقتل ابنه وآخرون أثناء المعارك خطأً على يد القبارصة ظناً منهم أنهم من المماليك[1].

تابع المماليك تقدمهم بحذر خوفاً من الكمائن، ولم يتعرضوا لفلول الجيش القبرصي المتقهقر، حتى وصلوا إلى قصر الملك في كيروكيتيا فوجدوا سفيرهم مقتولاً وممثلاً بجثته، فاستشاطوا غضباً وأعملوا السيف في الرقاب وقاموا بإعدام شقيق الملك بسبب إقدامه على قتل سفير المماليك[2].

ولما عزم المماليك على قصد نيقوسيا لاحتلالها، حاول أسطول من 14 مركباً من الإفرنج والقبارصة مشاغلة الجيش عن مهمته[3]، فهاجموا سفن المماليك، وهرع جيش البر للنجدة وركبوا للقاء الإفرنج في البحر. وتراصت سفن المماليك فصار قتال البحر أشبه بقتال البر، وتمكنت سفن الإفرنج من الإفلات إلا مركباً سيطر عليه المماليك وقتلوا وأسروا من كان فيه.

ثم عادت الحملة البرية تتابع التقدم باتجاه نيقوسيا حتى بلغتها، فدخلوا قصر الملك ونهبوا جانباً من المدينة[4] بعد أن أمضوا فيها يومين وليلة[5] ، ثم أتمت العامة والمرتزقة عمليات السلب والنهب في العاصمة بعد أن غادرها أهلها [6]. وعمت الفوضى البلاد وكثرت العصابات المسلحة، مما دفع الملكة والبارونات إلى إعلان الكاردينال هوغ دو لوزينيان، كبير أساقفة قبرص وشقيق الملك جانوس، حاكماً على الجزيرة، وكان هذا الرجل يتمتع بالحكمة والحزم فأمر بمطاردة المخلين بالأمن وضرب أعناق زعمائهم إلى أن استتب الوضع الداخلي وعاد إلى الهدوء والاستقرار[7].

قرر قادة الحملة العودة إلى الوطن بعد الذي جرى من النصر والأسر والغنيمة فبدأ الغزاة العودة في أواخر رمضان سنة 830 هجري/1426م، وأحصوا من الأسرى عند الركوب من الجزيرة 3700 أسيراً.

---

[1] المقريزي ، المصدر ذاته ، ج 7 ص 138. وفي ذلك إجابة على تساؤل المؤرخ جفري جورج، حول سبب تسمية ناحية في نيقوسيا: "حي ابن قرمان"

JEFFERY, GEORGE: A Description of the Historic Monuments of Cyprus. George Jeffery,: Studies in the Archaeology and Architecture of the Island, Nicosia, 1918 (Zeno, London, 1983), . Paragraph 11.Karamanzathe Quarter. " The son of the Karaman

[2] إبن حجر ، المصدر ذاته، ج 2 ص 41.- MACHERAS, Op.Cit.P: 382-385.

[3] STRAMBALDI, Op.Cit. P: 282.

[4] Bustron, Op.Cit., P:367.

[5] المقريزي ،المصدر ذاته، ج 7 ص 138.

[6] AMADI, Op.Cit.P: 513-Strambaldi,Op.Cit.P: 284.

[7] Bustron, Op.Cit., P:369.

وصلت الحملة إلى ساحل بولاق في السابع من شوال، وسارت في موكب مهيب لم يسبق له مثيل، إجتمع له الناس من كل مكان، فسارالغزاة في المقدمة فرساناً ثم رجالاً ثم العشائر من بلاد الشام، ثم المتطوعون، ثم سار الحمالون بالغنائم على رؤوسهم وعلى ظهور الجمال والبغال والحمير، ثم تاج الملك القبرصي وأعلامه منكسة ثم السبي والأسرى، وأركِب الملك الأسير جانوس بن جاك دو لوزينيان في نهاية الموكب على بغل مقيداً بالحديد يرافقه إثنان من خاصته، وركب قائدا الحملة عن يمينه وشماله، حتى وصلوا إلى باب القلعة، حيث أنزله الأميران وأدخلاه إلى بلاط السلطان بقيوده، فقبّل الأرض، وكاد يغمى عليه بين يدي السلطان الذي كان جالساً والأمراء في خدمته وذلك في حضور أمير مكة ورسل ابن عثمان ملك الروم ورسل ملك تونس ورسل أمراء التركمان، ورسل أمير العرب إلخ... وأمر السلطان بإنزال الملك القبرصي في منزل أعِد له في حوش القلعة[1].

صار السلطان يرسل إلى الملك الأسير مبعوثين يطالبونه بدفع المال والتعويض عما جرى، فأظهر الملك في البداية تمنعاً وافتقاراً، لكن الأمراء عرفوا كيف يحضونه على بذل المال من غير تهديد، فجلس السلطان في حوش القلعة وإلى جانبه تجار الإفرنج وقناصلهم ثم أحضِر الأسرى القبارصة إلى الحوش، وأخرِج ملكهم الأسير مقيداً بالسلاسل، فتعالى صراخهم "وحثوا التراب بأكفهم على وجوههم... فالتزم قناصل الإفرنج بفدائه من المال من غير تعيين"[2] ودخل إليه المفاوضون لتقرير المبالغ المترتبة عليه.

وبعد المفاوضات أدخِل إلى السلطان وتقرر الصلح على مئتي ألف دينار، تُحمَل منها مئة ألف إلى السلطان، قبل أن يغادر جانوس مصر، على أن يتكفل بدفع المائة ألف الثانية بعد عودته إلى قبرص، وعلى أن يحمل القبارصة سنوياً إلى القاهرة عشرين ألف دينار، واشترط جانوس على السلطان أن يكف عنه إبتزاز البنادقة والكاتلان.

وقد ساهم تجار من الإفرنج بالإسكندرية في جمع المال المطلوب، وخاصة البنادقة، ويروي إبن حجر العسقلاني أن السلطان رق لحال الملك جانوس فوافق على استبدال الخراج السنوي بألفي ثوب صوف ملون تقدر قيمتها بحوالي عشرين ألف دينار[3].

على الأثر، أمر السلطان بإطلاق سراح الملك، وأنزله بمسكن لائق، وسمح له بالنزول إلى القاهرة والنزهة فيها، فصار يتفقد كنائسها وقد لبث الثياب الموشاة

---

[1] إبن حجر ، المصدر ذاته، ج 2 ص 42 ، المقريزي المصدر ذاته ج 7 ص 140.

[2] المقريزي ، المصدر ذاته ، ج 7 ص 140.

[3] إبن حجر ، المصدر ذاته ، ج 2 ص 42.

بالذهب وركب فرسه وأجريت الرواتب له ولمن معه[1]. ولعل هذه الحرية النسبية كانت وسيلة للتأثير بالملك القبرصي، فيرى سعة البلاد المصرية وكثرة مواردها وعظيم قدراتها البشرية والإقتصادية.

أمضى الملك القبرصي في مصر، حوالي سنة، حتى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة 831 هـ/19 نيسان 1427م،[2] ثم ركب عائداً عبر نهرالنيل إلى الإسكندرية بعد أن أذن له السلطان بالسفر، وتقرر أن يكون نائباً عن السلطان في قبرص.

وعرض أمير الإسكندرية آقبغا التمرازي في وداع الملك من كان بها من الجند وعددهم 2500 بأبهى الملابس، وحشد له من الرعية ما لم يره من قبل، في محاولة للتأثير فيه ولثنيه عن عزمه بمهاجمة المدينة بعد ذلك أبداً. ووصل إلى بافوس في10 رجب 831م/ 12 أيار 1427م.

خلع السلطان برسباي على أمرائه الخلع السنية والمكافآت الثمينة، ووزع على المجاهدين عشرات الدنانير، لكنه ما لبث أن نكّل ببعض قادة الحملة، ولما يمض على النصر ثلاث سنوات[3].

واظب الملك جانوس على ولائه للسلطان بقية حياته، وكان يرسل سنوياً الحمل المقرر على الجزيرة في مطلع كل سنة، كما كان يقوم بتسديد المائة ألف دينار المقسطة تباعاً حتى بلغ ما سدده منها حين وفاته 75 ألف دينار[4]. ولما وصل الحمل الأول في المحرم من سنة 832هـ/تشرين الثاني 1427م، وقدره خمسون ألف دينار أمر السلطان بضربها دنانير أشرفية وأشرف شخصياً على عملية ضربها[5].

وأخلص جانوس(جينوس)، في تعامله مع المماليك، فقد كان يزودهم بما يتناهى إليه من أخبار عن نوايا الفرنج بغزو السواحل المملوكية[6]. إذ أن عبث الفرنج في البحار لم يتوقف، واستؤنفت أعمال القرصنة على المراكب الإسلامية بعد فتح قبرص مباشرة. فتعرض ما مجموعه 8 مراكب للسلب والنهب، منها مركبان بالقرب من ميناء الإسكندرية قادمان من بلاد العلايا[7].

---

[1] المقريزي ، المصدر ذاته ، ج 7 ص 148.

[2] Bustron, Op.Cit. , P:370.

[3] المقريزي، المصدر ذاته ، ج 7 ص 140 – 168 – 178.

[4] إبن حجر ، المصدر ذاته ، ج 2 ص 42 – 51 – 79.

[5] المصدر السابق، ج 2 ص 51- أبو المحاسن، المصدر ذاته، ج 14 ص 311. المقريزي، المصدر ذاته، ج 7 ص 168. والدينار الأشرفي المصري، نقد ذهبي، وزنه 4،25 غ. قريب جداً من وزن البيزنت البيزنطي 4،245 غراماً، وقطر كل منهما 20 ملم، أما البيزنت التجاري القبرصي فكان من الفضة. ولم يثبت على وزنه ونوعيته وقيمته، في ذلك العصر إلا الدينار الإسلامي. (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج 4 / ص 131).

[6] إبن حجر،المصدر ذاته ،ج 2 ص 56.- المقريزي ، المصدر ذاته ، ج 7 ص 178.

[7] المصدر ذاته ، ص 152.

واستمر تحدي الفرنج للموانئ المملوكية، ففي الخامس من شعبان سنة 832هـ/1428م، إقتربت من ميناء الإسكندرية خمس سفن مشحونة بالفرنج فتصدت لهم حاميتها واستمر النزال ستة أيام حتى ردت على أعقابها[1].

توفي الملك جانوس في سنة 836 هجري/1432 م، بعد أن أصيب بشلل في يديه ورجليه، وأشيع في قبرص، أنه بسبب سمّ دسه له المماليك أثناء الأسر[2]، وتولى الملك من بعده ولده جان (حنا الثاني)، الذي أعلن ولاءه للسلطان، واستمر في دفع الحمل السنوي المقرر كما وفّى ما بقي من المبالغ المقررة على أبيه للسلطان برسباي.

واستقبل الوفد السلطاني في قبرص، بعد تنصيب حنا الثاني دو لوزينيان ملكاً، بالحفاوة والتكريم، وحلف الملك بالولاء للسلطان أمام رجال الدين القبارصة وكبار قومه، وتقرر بناء لطلب القبارصة، أن يقيم في الجزيرة نائب من جهة السلطان، فأرسل الأخير إليهم أميراً ومعه أربعين مملوكاً [3].

كان مستشارو الملك بلا شك هم الذين أساؤوا تقدير الموقف العسكري، فتصرفوا برعونة وغطرسة بدلاً من إعمال العقل والتصرف بحكمة ، فهم الذين اختاروا الحل العسكري، وهم الذين دفعوا الملك إلى إرهاق الناس بالضرائب طمعاً في المال، حتى أنهم أقدموا على شراء شملات الصوف التي كانت تنسج لتقديمها للسلطان تعطيلاً للصلح[4].

وقد بقي ملوك دو لوزينيان منذ ذلك الحين على ولائهم للسلطان المملوكي إلى أن زال ملكهم. مما يشير إلى حالة الضعف التي انتهت إليها مملكة قبرص اللاتينية.

وبالمقارنة بين حملة بطرس الأول على الإسكندرية وحملة برسباي على قبرص يمكن الخروج بالإستنتاجات التالية:

-يمكن إعتبار حملة برسباي فتحاً أو إحتلالاً نهائياً بينما لم تتعدَّ حملة بطرس الأول كونها غزوة أو إغارة إستغرقت ثمانية أيام، لكن آثارها السلبية بقيت ردحاً طويلاً من الزمن، وخلّفت ثأراً وخراباً ودماراً متبادلاً.

-على الرغم من دعم البنادقة لبطرس الأول في حملته، فقد تخلوا عنه بعد ذلك وعادوا إلى الإصغاء لمصالحهم التجارية وقدموها على الشعور والوعود والإلتزامات الدينية. كذلك لم يقاتل البنادقة والكاتلان ضد المماليك في قبرص إلا عند الصدمة الأولى ثم عادوا بعد ذلك إلى لغة المصالح من جديد.

---

[1] إبن حجر،المصدر ذاته ، ص 192.

[2] MACHERAS, Op.Cit. P: 393.

[3] إبن حجر ، المصدر ذاته ، ج 2 ص 86.- أبو المحاسن ، المصدر ذاته ، ج 14 ص 362.-المقريزي، المصدر ذاته ، ج7 ص 245.

[4] MACHERAS, Op.Cit. P:393.

–تفوق المماليك كالعادة في قتالهم في البر خاصة بمناورات الخيالة السريعة وكذلك في إختراق القلاع والحصون. لكنهم عرفوا أيضاً كيف يحولون الإشتباك في البحر إلى ما يشبه القتال البري عبر رصف المراكب والسفن وعبر الإنقضاض على سفن أعدائهم كأنها القلاع والحصون. وبدا ولأول مرة أن المماليك أخذوا يشعرون بضرورة تخصيص قائد للقتال البري وآخر لقتال البحر، كما أنهم أولوا في نهاية المطاف العناية اللازمة بالأسطول بعد أن أهملوه لأكثر من 150 سنة.

–لم تُجْدِ كل الجهود التي بذلها المماليك نفعاً في مكافحة قرصنة الإفرنج، فقد استمرت واستفحلت حتى بعد غزو قبرص. مما دفع المماليك إلى التفكير بغزو رودس لكن دون جدوى أيضا[1].

2–زوال مملكة قبرص اللاتينية

عجزت المملكة اللاتينية في قبرص عن الوصول إلى الإزدهار التجاري والنمو الإقتصادي الذي كان يتوخاه القبارصة اللاتينيون منذ انتهاء حملة بطرس الأول (761–771هـ/1359 – 1369م)، على الإسكندرية.

وبعيد مقتل الملك عقدت قبرص الصلح مع المماليك (1370م/772هـ)، لكن أوضاعها الداخلية لم تعرف استقراراً ولا ازدهاراً بسبب الصراع الطويل والمدمر ضد الجنوية. وإذا بمدينة فماغوستا تحتضر على أيدي هؤلاء ولتصبح أشبه بمدينة الأشباح حتى أن ملوك اللوزينيان عجزوا عن إخراجها من السيطرة الجنوية بمختلف الوسائل حتى العام869هـ/ 1464م.

وخرج القبارصة اللاتينيون نهائياً من الصراع بين الشرق والغرب، بسبب ضعف إمكانياتهم وقدراتهم، فكانوا أعجز من أن يشاركوا في أية حملة على المماليك أو الترك بعد ذلك، وجل ما أمكنهم فعله، هو تقديم التسهيلات لأعمال القرصنة التي كان بعض الإفرنج يقومون بها وغالبيتهم من الكاتالونيين.

توفي الملك جانوس في 24 آب سنة 1432م/ذي الحجة 836هـ، وحلّ ابنه حنا الثاني مكانه قبل أن يتم الثامنة عشر من عمره، وفي العام ذاته انتشر الجراد في الجزيرة وقضى على قسم كبير من محاصيلها. وفي سنة 1438م/ 842هـ، ضرب الطاعون نيقوسيا والقرى المجاورة، استمر سبعة عشر شهراً، مما دفع الملك حنا الثاني إلى تشجيع الهجرة إلى قبرص وحتى إلى فماغوستا المهجورة والمحتلة.

اتسم عهد حنا الثاني ومن بعده بالولاء للمماليك وبالمهادنة للترك في آسية الصغرى، فقد كانت الجزيرة أضعف من أن تتزعم أو تشارك في أي عمل عسكري ضد المسلمين وكانت مشاكلها الداخلية تشغلها عن أي نشاط خارجي،

[1] المقريزي ، المصدر ذاته ، ج 7 ص 244 – 246 – 261 – 272.

واضطرت قبرص لاستقبال الأسطول المصري أثناء استعداداته لغزو رودس سنة 1444م/ 848هـ، مما أساء إلى العلاقات القبرصية البابوية لفترة من الزمن[1].

ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزي في السلوك أن ملك قبرص زوّد أسطول المماليك بالمؤن عندما مرّ بقبرص قاصداً غزو رودس في جمادى الأولى سنة 844هـ/1440م، بينما أمدهم أمير العلايا القرماني بمجموعة من المقاتلة في سفينتين كبيرتين، لكن الهجوم فشل فقد كان الروادسة الأسبتارية على علم بالهجوم، ونجحوا في التصدي له على الرغم من خسارتهم الكبيرة بالرجال مقابل اثني عشر قتيلاً من المماليك[2].

توفي الكاردينال الحكيم هوغ دو لوزينيان سنة 1442م/846هـ ، وهو الذي أنقذ المملكة بحسن تصرفه من أزمات عدة، منذ أسر الملك جانوس، وبفقده فقد الملك حنا مستشاراً عاقلاً رشيداً مما جعله أسير قرارات بعض الفرسان المتهورين، وشدة مراس زوجته الثانية هيلينا باليولوج وحاشيتها التي أحضرتها معها من القسطنطينية[3].

عانى حنا الثاني من الأعباء المالية المتراكمة على المملكة، سوى المبلغ المقرر عليه للمماليك، فقد كان البنادقة يطالبونه بتسديد قيمة الفدية التي دفعوها للسلطان لإخلاء سبيل والده الملك جانوس، وطالبه الأسبتارية بتسديد حقهم من الفدية ذاتها التي اشتركوا في دفعها مع البنادقة، وقدرها خمسة عشر ألف دوكا[4]، فأعطاهم حنا الثاني بالمقابل، حق استثمار مزارع واسعة لقصب السكر بالقرب من بافوس ولمدة خمس سنوات[5].

واضطر الملك القبرصي إلى مهادنة الترك القرمان بعد ان هددوا بمهاجمة الجزيرة فتدخلت الأسبتارية للتوسط بين الطرفين وعقدوا صلحاً مع لطفي باي أمير القرمان لقاء مبلغ خمسة آلاف دوكا دفعها له الملك القبرصي سنة 1444م/ 848هـ[6].

وفي العام 1449م/854هـ، ناور أمير القرمان الكبير إبراهيم باي بحيث أطلق تهديداته لمهاجمة جزيرة قبرص فيما كان يستعد لاحتلال مدينة قرياقوس ومرفئها بصورة مفاجئة، وذهبت محاولات الروادسة والقبارصة سدىً مع مصر كي توافق على الاشتراك في أية حملة لطرد القرمان من قرياقوس[7].

---

[1] Hill,Op.Cit. P:504.

[2] المقريزي ، السلوك، ج3، ص462 حوادث سنة 844هـ.

[3] Bustron,F.Op.Cit.P: 371.

[4] الدوكا هي العملة النقدية الذهبية لجمهورية البندقية، ويبلغ وزن القطعة منها 3،4909 غراماً، أي أقل بقليل من الفلورين الذهبي:3،51 غ. الذي كان معتمداً في فلورنسا وجنوا.

[5] Hill,Op.Cit. P:525.

[6] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:48-61. -Hill, Op. Cit. P:518.

[7] Ibid, Op.Cit. VOL III, P55,-Hill, Op.Cit.. P:521.

لكن حنا الثاني كان يدرك تماماً أن أحوال المملكة الاقتصادية لن تستقيم إلا باستعادة فماغوستا المرفأ والمدينة، فحاول أولاً مفاوضة جنوا لإعادة جدولة الديون بعد حالة التردي التي عانت منها المملكة، لكن فشل المفاوضات دفعه إلى محاولة استرداد فماغوستا بالقوة، مستغلاً حالة الضعف التي مرت بجنوا، فحاصرها براً وبحراً سنة 1441م/ 845هـ، وهاجمها ثلاث مرات بمساعدة الكاتالان، نجح الجنويون في صدها جميعاً، مما اضطره إلى التفاوض ورفع الحصار[1].

بدأت جنوا بعد ذلك، تظهر المزيد من بوادر الضعف والتخلي عن فماغوستا ومستعمراتها الأخرى، فبعد أن ضمّنت عائداتها الجمركية في فماغوستا للمواطن الجنوي كونراد سيغالا (Conrad Cigala) لمدة سنة اعتباراً من مطلع عام 1395م/ 798هـ، مقابل مبلغ مقطوع قدره 37700 بيزنت ذهبية[2]، قامت حكومة جنوا عام 1447م/ 879هـ، بتفويض وكالة سان جورج الجنوية للقيام بإدارة فماغوستا، وذلك على أثر النزاعات التي نشبت داخل جنوا [3]. لكن لا الحكام الجنويين الحكوميين ولا موظفي وكالة سان جورج باتوا قادرين على إدارة المدينة والمرفأ بشكل منتج ومربح لأسباب عدة كان من أهمها، المصاريف المرتفعة لإدارة المدينة، وعدد السكان المتدني فيها، وكذلك عدد العابرين والتجار الذي انخفض بنسبة كبيرة، والضرائب والرسوم العالية التي أصر الجنويون على فرضها على التجار والسفن، رغم قلة الوافدين، وكان السبب الأهم ازدهار التجارة المباشرة مع المرافيء الإسلامية، التي قدمت المزيد من التسهيلات وخفضت الأسعار مما جعل التجار الإيطاليين وحتى الجنويين منهم، يفضلون الإتجار مباشرة مع المسلمين وتجنب فماغوستا.

ومن آثار هذا التدهور أن بعض الجنوية صاروا يرفضون منصب الحاكم في فماغوستا بعدما كانوا يتهافتون عليه، وصار العصيان في المدينة مألوفاً، ولم تعد للجنويين الهيبة التي كانت لهم من قبل[4]. لكن الجنوية كانوا لا يزالون يحتفظون بشيء من القوة والسطوة في فماغوستا، وكان على القبارصة ان يصبروا حتى الستينات ويتحينوا فرصاً أنسب لتحرير المدينة.

واعتباراً من أواخر الأربعينات صارت الانتصارات العثمانية في شرقي أوروبا تقض مضاجع الأوروبيين والبابوية على السواء، وأخذ الضغط التركي يشتد على الجزر الأساسية في الأرخبيل اليوناني وعلى قبرص ورودس. وخلال تلك الفترة تعرضت مزارع قصب السكر، التي يشرف البنادقة على استثمارها في جنوبي

---

[1] Strambaldi , Op.Cit. P:287. - Hill, Op. Cit. P:504.
[2] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:784.
[3] Ibid. VOL III, P:34.
[4] Hill, Op. Cit. P:507-508.

الجزيرة القبرصية، لثلاث هجمات متتالية، سيق عمالها وفلاحوها أسرى، وأحرقت المزروعات ودمرت المنشآت، لعله بقصد التأثير على اقتصاد البندقية التي كانت تنقل الدعم للجيوش المتصدية للعثمانيين في أوروبا[1].

استشعر البابا نقولا الخامس (851–860هـ/ 1447–1455م)، الخطر التركي المحتم على قبرص ورودس وخيوس وغيرها، وأطلق النداء في كافة الأصقاع الأوروبية لوقف الزحف العثماني، وشارك في تحمل نفقات أسطول الملك الأراغوني ألفونسو الخامس للتواجد في مياه قبرص ورودس بصورة مستمرة اعتباراً من العام 1450م/854هـ.

وفي العام 1451م/855هـ، ناشد البابا العالم المسيحي لإمداد قبرص بالمال والرجال، وأرسل إلى الملك حنا الثاني معونات مالية لإقامة التحصينات حول نيقوسيا اعتباراً من العام 1452م/856هـ[2]. وفي العام 1453م/857هـ، أرسل الملك حنا الثاني موفديه إلى فلورنسا للتوسط لدى البابا للضغط على المدن التجارية الإيطالية، كي تنعم قبرص بشيء من الاستقرار وتتمكن من مواجهة الخطر العثماني[3].

وبسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين عام 857هـ/ 1453م، ازداد الخطر على قبرص ورودس وازدادت المهام المترتبة على كل منهما، فقد قامت الملكة هيلينا باستقبال المهجرين من بني جلدتها من القسطنطينية، وفتحت الأديرة والكنائس لإيوائهم، وأنفقت عليهم بسخاء، بينما أصدر البابا صكوك الغفران لكل من يقدم السلاح والذخيرة والرجال إلى قبرص[4].

كانت السنتان الأخيرتان من عمر الملك حنا من أصعب سنوات عهده عليه وعلى المملكة، فقد بدأ الجميع يفكر في وراثته والتحضير لمن سيملك بعده، ولم يكن له سوى إبنة شرعية واحدة هي شارلوت ابنة الملكة هيلينا، وابن غير شرعي هو جاك الذي لقبه المؤرخون وأخصامه بـــ"جاك الدعي"(Jacques le batard)، والذي يكبر شقيقته بحوالي سنتين، وأمه تدعى "ماريتا دو باتراس" (Marietta de Patras)، التي ربته حتى صار مراهقاً وألحقته بوالده الملك. وفيما تربت شارلوت على يد والدتها لتكون مثالاً إغريقياً للملوك تتكلم الإغريقية بطلاقة وتنطق باللاتينية بصعوبة وتحتاج لقراءتها إلى مترجم، نشأ جاك فارساً ومغامراً جريئاً لا يهاب أحداً مما جعل والده الملك يزداد تعلقاً به، ولولا خوفه من زوجته والنبلاء لأعلنه ولياً للعهد، لكنه رضي بتسميته أسقفاً على نيقوسيا، ريثما ينال موافقة الكرسي

---

[1] Hill, Op. Cit. P: 513.
[2] Ibid, Op. Cit. P:523.
[3] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:71.
[4] MACHERAS, Op. Cit. P:395. -Hill, Op. Cit. P:525.

الرسولي، علّه يقوم بدور حامي المملكة، كما فعل الكاردينال الراحل هوغ دو لوزينيان من قبل، وبانتظار الموافقة جعل له مقر إقامته في الأسقفية ليشرف على أملاكها وعلى إدارة شؤونها، وليستفيد من عائداتها، لكن موافقة البابا لا يمكن ان تصدر لولد غير شرعي لتولي مثل هذا المنصب[1].

وجرى السباق على تزويج شارلوت إبنة الأربعة عشر ربيعاً، وعلى تحضيرها لتكون وزوجها العتيد ملكين على قبرص، في الوقت الذي لم يظهر شقيقها جاك بدايةً أي رغبة بمنافسة شقيقته. واستقر الأمر على تزويجها من الأمير حنا دو كويمبرا (Jean De Coimbra) حفيد ملك البرتغال حنا الأول وابن الدوق بيار، وما أن حط المذكور في قبرص عام 860هـ /1455م، حتى أعطي لقب أمير أنطاكية، وخصص بقطاعات من الأرض لتغطية نفقاته، وبرزت مواهبه لدى تفويضه ببعض الصلاحيات، مما لم يرق للشامبرلين توماس دو مورة (Thomas De Morea) شقيق الملكة هيلينة من الرضاع، وإذ بالمؤامرات تحاك حول الأمير العريس لأنه يريد إعادة اللاتين إلى عافيتهم في المملكة، بحيث قام بعض الرعاع باقتحام قصره وقتلوا بعض أعوانه، ثم لقي العريس المسكين حتفه مسموماً سنة 1457م/862هـ، فيما انكفأ توماس شقيق الملكة، واختفى عن الأنظار واحتمى بالجنوية في فماغوستا ريثما تهدأ الأمور[2].

سنحت لجاك الدعي فرصة إظهار مواهبه حين استغاثت به شقيقته الأرملة الصغيرة شارلوت ، فدخل على توماس ومعه اثنين من رجاله وطلب منه الخلوة وقتله على الفور وفر على الأثر إلى رودس ليمضي فيها ستة أشهر، عاد بعدها إلى قبرص مع فرقة من المرتزقة وبعض النبلاء المضطهدين، وانضمت إليه الفرقة الأرمنية مرغمة. ولكي يفقِد جاك توازن أخصامه سارع إلى قتل الفيكونت المعارض جاك غوري وطارد شقيقه توماس الذي فر من وجهه[3].

اجتمعت المحكمة العليا للنظر فيما جرى، بينما كان جاك الدعي يقيم في أسقفية نيقوسيا بكل جسارة، وبعدما أرسل إلى والده يستعطفه ويعلن له ولاءه التام، واستجابت المحكمة الضعيفة لتمنّي الملك الوالد عليها، بأن تصفح عن جاك مقابل خروج المرتزقة على الفور من الجزيرة تحت طائلة ملاحقتهم وإعدامهم[4].

أما مشروع الزواج التالي الذي كان يجري تحضيره في أروقة الفاتيكان، فكان تزويج الملكة المقبلة شارلوت إلى بيار لويس ابن شقيقة البابا كاليستوس الثالث (Calixtus III) (860–863هـ/1455–1458م)، وابن جوفر دو بورجا (Jofre

---

[1] Bustron,F.Op.Cit.P:373.
[2] Ibid., Op.Cit.,P: 373.-Hill. Op.Cit.P:530.
[3] Bustron,F, Op.Cit., P375-376.-Hill, Op. Cit.P: 539.
[4] Ibid.Op.Cit.P:377.

(De Borja ، على ان يتم الإعداد بعد ذلك لحملة صليبية واسعة النطاق تسترد القسطنطينية من العثمانيين، ويعلن ابن اخت البابا بعد ذلك إمبراطوراً عليها، لكن المشروع برمته انتهى بالموت المفاجيء للبابا المذكور[1].

وما أن توفيت الملكة هيلينة، حتى سارع الملك حنا الثاني إلى ترتيب عقد تزويج ابنته شارلوت من كونت جنيف، لويس، إبن عمتها حنة وابن دوق سافوا، وتعاهد النبلاء على تعيينه ولياً للعهد، وملكاً إلى جانب شارلوت بعد أبيها، وملكاً أيضاً في حال وفاة شارلوت قبله. وما لبث الملك حنا الثاني أن توفي في 26 تموز من العام ذاته[2].

مُنِع جاك الدعي من المشاركة في إعداد مراسم دفن الملك، وسمِح له بحضور الدفن وحده بدون مرافقيه، كما مُنِع بعد ذلك من حضور مراسم زواج وتنصيب شقيقته الملكة شارلوت، مما أغاظه ودفعه إلى مهاجمة القصر ومحاولة الانقلاب على الحكم، لكن العيون كانت متيقظة مما قد يرتكبه جاك، ففشل الهجوم وفر ثانية من الجزيرة وأوهم القبارصة أنه متوجه إلى أوروبا بينما يمم سفينته شطر الساحل المصري لاجئاً إلى السلطان إينال مطالباً بالعرش القبرصي[3].

اصطحب جاك الدعي معه بعض المغامرين الأوروبيين، راجياً من السلطان دعمه لاسترداد مملكة أبيه من شقيقته شارلوت، التي لقيت في الجزيرة دعم الصقالبة والسكان المحليين[4]. قدم جاك (جاكم) إلى القاهرة ليشرح للسلطان الأشرف إينال (857–865هـ/1453 – 1460م)، راجياً إنصافه وتوليته مكان أخته الملكة شارلوت.

وفيما كان جاك ومستشاره وليم غنيم، الذي يجيد اللغة العربية، يتحاوران مع أمراء المماليك، ويقدمان لهم الهدايا والأعطيات ويطلبان منهم التوسط لدى السلطان لتأييد جاك ملكاً على قبرص، كانت شارلوت ومن معها منشغلين بمراسم زفافها على ابن عمتها لويس دو سافوا في 7 تشرين الأول عام 1459م/ 864هـ.

أحسن السلطان إستقبال جاك الدعي، وأظهر ميلاً لتوليته مكان شقيقته وأوعز ببناء المزيد من السفن الحربية لمرافقة جاك إلى قبرص. وأرسل الأمير تغري بردي الطياري الخاصكي في نهاية العام 863 هجري/1458م، إلى قبرص يلوم وجهائها لتقديمهم شارلوت الأنثى على شقيقها جاك في الحكم ويحاول إقناعهم بقبول جاك ملكاً عليهم[5].

---

[1] Hill, Op.Cit., P:543.

[2] De Mas Latrie, Op. Cit. VOL:III, P:12.

[3] Hill. Op.Cit. P: 550.

[4] Bustron, Op.Cit., P:384.

[5] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ج 16 ص 133 – 134.

واذا بالأمير الرسول يعود من قبرص بعد حوالي أربعة أشهر وبصحبته جمع من النبلاء والأعيان القبارصة والفرنج وهم منقسمون إلى فريقين أحدهما يدعم جاك الدعي والآخر يدعم الملكة شارلوت ممثلة بموفدها بيار بودوكاتارو (Pierre Podocataro)، يرافقه حنا دلفين(Gean Delfin) موفد أسبتارية رودس.

وتأخر السلطان في حسم الأمر بسبب وباء الطاعون الذي ضرب مصر وتسبب بألوف الوفيات، إلى أن دخل شهر شعبان سنة 863 هجري/تموز 1458م، وفي تلك الأثناء سرّب موفدو الملكة شارلوت للسلطان عرضاً بمضاعفة الحمل السنوي المقرر على قبرص من خمسة إلى عشرة آلاف دوكا، وأن ينال شقيقها جاك مثله إذا تخلى عن الملك، كما تقدم شارلوت فوراً للسلطان مبلغاً مقطوعاً ولمرة واحدة قدره ثلاثين ألف دوكا. مما جعل السلطان يميل لتثبيت شارلوت في الملك، بينما أمضى وليم غنيم مستشار جاك، ليلة القرار وهو يتنقل بين أمراء المماليك ليرتبوا مشهد اللقاء عند السلطان غداة اليوم التالي.

مال أمراء المماليك إلى جاك أكثر من ميلهم لشارلوت وزوجها لويس، فالأخير بارد ويغلب عليه الحزن والجبن وعمره 28 سنة أما جاك فكان في الثالثة والعشرين يمتليء حيوية ويشع ذكاءً، ولا تخلو إطلالته من جاذبية، والحكام بالطبع ميالون لتولية الحكم للذكر، كما أن البنادقة لم يعارضوا تولية جاك بينما أظهرت البابوية وجنوا ومعظم دول الغرب تاييداً لوصول شارلوت وزوجها إلى الحكم، مما جعل أمراء المماليك يتوجسون خيفة من أن يمهد عهد شارلوت ولويس لحملة صليبية جديدة في الشرق تستهدف مصر والشام، وتؤدي إلى ما لا تحمد عقباه[1].

استدعى السلطان إينال الطرفين ليس إلى بلاطه كالعادة بل إلى الحوش السلطاني، حيث يجتمع مماليك الأجلاب، وقرر تثبيت الملكة شارلوت في منصبها وخلع الخِلَع على أنصارها من أمراء الفرنج، فانتصب جاك واستغاث وحاول استرداد عطف السلطان ورحمته، لكن السلطان أصر على تولية شقيقته، فخرج جاك إلى الناس قبل خروج أنصار شقيقته ليخبر مماليك الأجلاب بقرار السلطان، فاستثار غضبهم وما أن خرج أنصار الملكة شارلوت بالخلع السلطانية حتى امتدت أيدي الأجلاب عليهم بالضرب والإعتداء والصراخ والإعتراض ومزقوا الخلع السلطانية التي ارتدوها وارتفعت أصواتهم تطالب بتولية جاك، وتتّهم أحد أمراء المماليك الحاضرين بأنه يقف وراء تولية شارلوت، وأنه إفرنجي الأصل، "وعظمت الغوغاء" فخشي السلطان على نفسه، وأذعن لطلب الأجلاب، فأمر بعزل شارلوت

[1] Hill. Op.Cit. P: 554-555.

عن الملك وتولية شقيقها جاك في الحال، كما أمر بخروج حملة على الفور من مصر إلى قبرص لدعم وصول جاك إلى السلطة[1].

ويظهر من تصرف السلطان أنه كان يميل إلى تولية جاك منذ البداية بإيعاز من حلفائه البنادقة لكن يبدو من خلال تصرفاته أنه ناور ليحفظ خط الرجعة مع الملكة شارلوت وأنصارها والجنوية في حال فشل جاك في تولي السلطة. فأظهر للجميع أن ليس له حيلة وأنه اضطر للإستجابة لرأي المماليك العام. وقرر السلطان دعم جاك بفرقة من المماليك ترافقه إلى قبرص لكي يتمكن من تسلم سلطاته. وتقرر جمع المراكب وانطلاقها من ميناء دمياط.

وما أن بلغ خبر قرار السلطان بتأييد جاك وتجريد حملة لدعمه، حتى خلت نيقوسيا من السكان، وانتقلت العائلة المالكة إلى قلعة كيرينيا، حيث تحصنت وأخذت تجمع الذخائر والمؤن.

كما سرت إشاعات وصلت إلى روما مفادها أن جاك قد أعلن إسلامه أمام السلطان، مما جعل البابا يرسل إلى جاك رسالة يستوضحه فيها عن صحة الخبر[2].

لكن أحداً لا يمكنه أن يصدق مثل هذا الخبر، لأن جاك يعلم انه إذا أسلم فسيفقد حقه الشرعي في ملك أهم دولة مسيحية في الشرق، ولم تؤكد المصادر العربية ولا الغربية شيئاً من هذا القبيل، فالمؤرخين العرب المعاصرين للأحداث ما كانوا ليمروا على مثل هذا الأمر، لو حصل، دون أن يهللوا له ويدونوه بوقائعه وتفاصيله.

ولعل سبب الشائعة هي أن بعض مناصري الملكة شارلوت علموا بحضور الملك جاك لاحتفال المولد النبوي الذي أقامه السلطان إينال في الحوش السلطاني، حين أكرم الملك القبرصي وأجلسه بين كبار أعيان الدولة[3].

وما أن حاز جاك الثاني على تأييد السلطان، حتى بدأ بمكافأة مناصريه وبترفيع مرافقيه المرتزقة إلى مرتبة النبلاء قبل أن يغادر القاهرة، وعيّن مرافقه الصقلي ريزو دي مارتينو (Rizzo di Martino) ، شامبلان على قبرص، ومستشاره الداهية "وليم غنيم" كبيراً للأساقفة في نيقوسيا، وسارع إلى سجن موفدي الملكة شارلوت بعد أن تسلمهم من السلطان إينال.

ضمت الحملة إلى قبرص ثلاثة من مقدمي الألوف، " ومقدم العساكر يوم ذاك في البر الأمير يونس الإقبائي الدوادار الكبير، وفي البحر الأمير " قانم من صفر خجا المؤيدي التاجر"، أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية، ومعهما بقية الأمراء، ومنهم

---

[1] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ج 16 ص 148..- Bustron, Op.Cit., P:393 -

[2] Hill, Op. Cit. P:557.

[3] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ج 16 ص 136.

الأمير سودون الإينالي المؤيدي، المعروف بقرقاش حاجب الحجاب"[1]. وعشرات أمراء المماليك، وفيهم خمسمائة من المماليك السلطانية عدا المتطوعين والبحارة، في ثمانين سفينة من مختلف الأحجام ومعها تعزيز من المدفعية، وانطلقت الحملة في شوال سنة 865 هجري/آب 1460م، ووصلت في 18 أيلول 1460م ، فانضم إليها مناصرو الملك جاك، واحتلوا على الفور العاصمة نيقوسيا دون مقاومة تذكر، ولما حاول الملك لويس زوج شارلوت استمالة الدوادار الكبير بالهدايا الثمينة يحملها موفدوه، تسلم الدوادار الهدايا وأحال الموفدين إلى جاك فاعتقلهم وألقاهم في السجن[2].

تجنب جاك الثاني الاحتكاك بالجنوية في فماغوستا، وقرر تركيز جهوده على انتزاع الحكم من شارلوت، فوجه فرقة إلى قلعة كيرينيا وضرب حولها حصاراً، بدأ في 30 أيلول سنة 1461م/866هـ، دام إلى سنة 1464م/ 869هـ، ولم يعد من معبر لإدخال المؤن والتعزيزات إلا عبر البحر بواسطة سفن الروادسة من الأسبتارية [3].

وقبل حلول فصل الشتاء حاول الدوادار الكبير، إيجاد تسوية بين الطرفين، أصرت شارلوت خلالها على الاحتفاظ بالملك، وعرضت على أخيها منصب الأسقفية ومخصصات مالية مغرية، لكن فات الأوان بعد أن أصبحت معظم أنحاء الجزيرة تحت سيطرة جاك وأنصاره. وما أن حل الشتاء حتى تنفست شارلوت الصعداء، فقد أعلم قائد الأسطول المملوكي أمير البر، الدوادار الكبير، أن العواصف حطمت له سفينتين وأنه مضطر للعودة بالأسطول إلى مصر.

ومع مطلع العام 865 هجري/1460م، عاد عظيم القوى الذي أرسله السلطان من قبرص وبقي في الجزيرة بعض الأمراء وجمع من العسكر، بحجة حلول الشتاء وبسبب الطاعون الذي ضرب الجزيرة، لكن حقيقة الأمر أن الحسم السريع لم يعد ممكناً لصالح الملك جاك الثاني المطالب بالعرش، فقد أدى النزاع بين الملك وشقيقته الملكة إلى حرب أهلية شاقة ومكلفة لجميع الأطراف.

شارك الأمير جانبك الأبلق الظاهري الخاصكي في هذه الحرب إلى جانب الملك جاك الثاني، وحاصر المماليك قلعة كيرينيا فقاومه الإفرنج فيها وبدعم من الأهالي في ضواحيها. وتمكنت الملكة من الفرار من كيرنيا وتوجهت إلى رودس لطلب النجدة من الأسبتارية وسارع الأمير المملوكي إلى مكاتبة السلطان، وطلب النجدة قبل أن يتكاثر الإفرنج عليه وعلى جاك الثاني[4].

---

[1] إبن تغري بردي المصدر السابق ، ح 16 ص 150.

[2] Hill, Op. Cit. P:561.

[3] Bustron, Op.Cit., P:396.- De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:126.

[4] Ibid, Op.Cit. , P:396-409.

فأنجدهما السلطان في أواخر سنة 865 هجري/1460م، ولشدة المعارك كان عدد من الأمراء يفرون من قبرص ويعودون إلى مصر بدون إذن السلطان فيُقبَض عليهم، وتكرر هذا الأمر بُعَيْد إرسال كل نجدة من مصر إلى قبرص، طوال الأعوام 866 هجري و867 هجري و868 هجري/1463م، أي طوال الحرب الأهلية في الجزيرة [1]، فقد كان فرسان شارلوت يقاتلونهم بكل ضراوة، بينما كان ريزو مارينو الموالي لجاك الثاني يقتل المماليك غدراً وغيلة[2].

خرجت الملكة من كيرينيا وقصدت رودس وعادت على رأس حملة صغيرة إلى بافوس لتحريرها، لكن جاك الثاني استرد المدينة والحصن بمجرد مغادرة شارلوت لها، كما حاول الحاكم الجنوي في فماغوستا أن يمد سلطته شمالاً باتجاه رأس اندرياس، فتصدى له فرسان الملك الدعي، وكانت تلك آخر المحاولات لتحرير الأجزاء التي سيطر عليها الملك جاك الثاني من الجزيرة[3]، واحتلت فرقة من جيش جاك قلعة مشرفة على فماغوستا، وأخذت تضيق الحصار حولها. مما دفع جنوا إلى تقديم موعد دفع المساعدات المالية للجنويين في فماغوستا كي يسرعوا في اتخاذ إجراءات الدفاع والتحصين[4].

سعى فرسان الملكة شارلوت لجلب الدعم بالرجال والسلاح بكل الوسائل، وتحايل قائد حامية كيرينيا، الفارس سور دو ناف (Sor De Naves)، على جاك الثاني متظاهراً بالانضمام إليه، فتلقى منه مبالغ ضخمة بحجة استقدام التعزيزات من طرابلس، وإذ به يعود ومعه الرجال والمرتزقة والبنادق ومدفعين من طرابلس إلى فماغوستا، فيسلّم المدفعين إلى الحاكم الجنوي في فماغوستا، وينتقل بالرجال لتعزيز حامية شارلوت في كيرينيا. وإزاء الولاء المطلق الذي أظهره معظم الفرسان القبارصة للملكة، والتضحيات الجسام التي أخلصوا في تقديمها، وجد جاك الثاني نفسه مضطراً لطلب المرتزقة من كل مكان، وصار ينعم على أنصاره الغرباء بالألقاب والأراضي، حتى صار له فريقه الخاص من النبلاء الأجانب وخاصة من الكاتلان والصقالبة[5].

لم ييأس جاك من العمل على استرضاء البابا الغاضب لاغتصابه الملك من شقيقته، وكرر إرسال الموفدين إلى روما، على الرغم من اعتذار البندقية عن تقديمهم للبابا بصفة سفراء، وعن ترتيب موعد لهم مع الكرسي الرسولي، وكذلك على الرغم من

---

[1] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ، ح 16 ص 269 – 275 – 283.

[2] الصيرفي، المصدر ذاته، ص437-.De Mas Latrie. OP.Cit. VOL III, P: 492

[3] Bustron, Op.Cit., P:410.

[4] De Mas Latrie Op.Cit.VOL III; P166.

[5] Bustron, Op.Cit., P:405-407.

سوء استقبالهم في الفاتيكان[1]. ولم يخرج جاك من الجزيرة خلال الحرب الأهلية إلا مرة واحدة، نوى فيها زيارة البندقية وطلب الدعم، لكنه خشي أن يؤدي طول غيابه إلى انقلاب الوضع عليه، وإذا به يغير وجهة سفره ويقصد الاسكندرية بزيارة خاصة، أوجس السلطان إينال خيفةً منها ، فمنعه من السفر قبل أن يأتي إلى القاهرة ويبرر وجوده في مصر، ولعلها كانت لشراء المزيد من المرتزقة، وما لبث جاك ان أزال شكوك السلطان فعاد ومعه المزيد من المماليك[2].

وكان السلطان العثماني محمد الثاني قد عزز موقع جاك الثاني لدى السلطان إينال، بعدما تمنى على الأخير أن يدعمه ضد منافسه الملك لويس سافوا، لأن جاك ليس لديه طموح لقتال المسلمين، ولا يلقى دعماً ولا تأييداً من الغرب، بينما يعلق الغرب آماله على الملك لويس لاسترداد القسطنطينية.

توفي السلطان إينال في 15 جمادى الآخرة سنة 865هـ/1460 م، وتزعزعت الأوضاع في القاهرة، ففوجيء الملك جاك بمغادرة معظم المماليك من قبرص إلى القاهرة، ليأمنوا شر العهد المقبل، وليطمئنوا إلى أوضاعهم مع السلطان الجديد، ولم يستطع جاك الثاني أن يغري سوى مئتين منهم للبقاء إلى جانبه في قبرص[3].

في تلك الأثناء خرجت شارلوت مجدداً إلى رودس، وكان من الأجدر بزوجها الملك لويس دو سافوا أن يقوم هو بذلك، لكن كانت تنقصه البداهة والحنكة. وعلقت شارلوت آمالاً على وساطة كبير الأسبتارية في رودس، لكنها تبخرت بوفاة الأخير ووجدت الملكة نفسها مضطرة للسفر إلى أوروبا طلباً للنجدة والمؤازرة، وفي طريقها إلى البندقية قام عبيد سفينتها بعصيان كاد يودي بحياتها مما تسبب بسلبها أموالها، ولولا تدخل إحدى سفن البنادقة لقضي عليها ولقذفت في البحر[4].

وقبيل وصولها إلى روما أرسل البابا إليها من يثنيها عن عزمها على زيارته، بعد أن قرر عدم التدخل في الشأن القبرصي الداخلي لكنها أصرت على مقابلة البابا، فاستحصلت منه على الدعم المعنوي وبعض الدعم المادي، وأعطاها رسائل توصية إلى فرنسا وفلورنسا، ومن فلورنسا وبولونيا قصدت شارلوت فرنسا، لكن الملك الفرنسي نجح في جمعها بممثليه دون اللقاء بها. ثم توجهت إلى موطن زوجها في السافوا لتقابل والده الدوق وعمتها الدوقة، وأمضت العام 1462م/867هـ كله، تتنقل بين المناطق الأوروبية وتجمع المال والمساعدات لإنقاذ حكمها[5].

---

1 De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:153.
2 Hill, Op. Cit. P: 576.
3 Bustron, Op.Cit., P:398.
4 Hill, Op. Cit. P: 581.
5 Ibid, P: 584.

وفي 18 حزيران 1462م/867هـ، غادرت شارلوت السافوا بعد ان تلقت من والدَيْ زوجها وعداً بمساعدة سنوية قدرها عشرة آلاف دوكا لمدة ست إلى ثماني سنوات يضاف إليها دوطة عمتها الدوقة حنة، بما يصل إلى حوالي مئة ألف دوكا، وذلك مقابل تعهد شارلوت أن يؤول الملك في قبرص من بعدها لعائلة زوجها تحت طائلة مطالبتها بكل المستحقات، إلا في حال آل الملك إلى عمتها وورثتها من أسرة دوق السافوا.

حاولت شارلوت ان تستقطب التأييد من كل مكان حتى من السلطان العثماني محمد الثاني فأرسلت إليه كونت يافا جاك دو فلوري (Jacques De Flory)، تطلب المساعدة، وتعد السلطان بمنحه المدينة التي يختارها في الجزيرة، وأن تدفع له القطيعة السنوية التي يحددها، لكن المهمة فشلت، وأوكل السلطان أمر الموفد القبرصي إلى أحد أعدائه من الباشوات، فقتله بسبب ثأر قديم بينهما[1].

وفي مطلع العام 1463م/ 868هـ، خرج الملك لويس أخيراً من قلعة كيرينيا لأول وآخر مرة، وغادر إلى رودس ثم البندقية طالباً المساعدة، ثم وصل إلى موطنه الأصلي في السافوا ولم يعد إلى قبرص بعد ذلك، فيما عهد بحماية القلعة إلى قائدها الفارس سور دو ناف.

ولكي يحسم جاك الأمر بينه وبين شقيقته قرر استعمال ورقة فماغوستا[2]، فتحريرها من الجنوية يجعله في نظر القبارصة جميعاً بطلاً قومياً ورمزاً تاريخياً، فأمر بتشديد الحصار على المدينة والمرفأ، وبدأ بمفاوضة حاكمها الجنوي، واستقر الاتفاق أمام المحكمة العليا، أن يستفيد الحاكم من مهلة خمسة عشر يوماً حتى يصله الإمداد من حكومة جنوا، وإلا فإن حامية المدينة ستستسلم، وبالفعل فقد تأخرت النجدة الجنوية يوماً أو بعض يوم، وانتهت المهلة في 6 كانون الثاني سنة 1464م/ 869هـ، بينما كانت سفينة الإمداد تقترب من الميناء فهاجمها جاك بعدة سفن صغيرة واستولى على حمولتها واستسلمت حامية فماغوستا[3].

استرد جاك الثاني مدينة فماغوستا (الماغوصة) ومرفأها من الجنوية وأوكل قلعة المرفأ إلى أمراء المماليك، وبعد ان استتب له الأمر في معظم أنحاء الجزيرة، لم يعد أمامه من عائق سوى قلعة كيرينيا التي ترمز إلى مقر الملك، وصار عليه أن يظهر إخلاصه لبني قومه، وأنه ليس خائناً ولا حليفاً للسلطان المملوكي على

---

[1] Bustron, Op.Cit., P:410.

[2] تتناقض المصادر التاريخية الغربية فيما بينها حول أيهما سقط اولاً بيد جاك الثاني: كيرينيا أو فماغوستا فالوثائق الإيطالية تؤكد أن كيرينيا استسلمت أولاً، بينما ثبت العكس في بعض التدوينات القبرصية، راجع : Bustron, Op.Cit., P:411 وراجع أيضاً:-De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:128,129,130.- Hill, Op. Cit. P: 594.

[3] Hill, Op. Cit. P: 590

حساب البابوية والغرب، وحانت الفرصة، حين حاول أمير المماليك جانبك الأبلق الدخول إلى قلعة فماغوستا ليلاً، فمنعه حراسها، وأغضبوه وفي الصباح، أبلغوا الملك جاك الثاني بالأمر، فأجرى تحقيقاً بالحادث وتبين له أن جانبك كان يدبر مؤامرة لاغتياله، ولإعلان نفسه ملكاً على الجزيرة، فقرر الملك جاك الثاني مباغتته وكلّف بهذه المهمة مرافقه الصقلي ريزو دي مارتينو (Rizzo di Martino)، فأوعز الأخير إلى الإفرنج والإغريق، بمهاجمة مخيم أمير المماليك ليلاً ليبدو الأمر وكأنه ثورة غضب من العامة، وقاد ريزو الهجوم بنفسه، فذبحوا الأمير جانبك والمماليك عن آخرهم حتى أولئك الذين كانوا يرافقون الملك جاك الثاني لحمايته[1].

غضب السلطان الظاهر خشقدم عندما علم بالأمر، وأمر بتجريد حملة إنتقامية إلى قبرص، لكن جاك الثاني استعان بأمراء المماليك المناصرين له، ليهدئوا من روعه وليثنوه عن عزمه، وأرسل له رسوله "يعقوب الفرنجي" ، وأكدوا جميعاً للسلطان أن اغتيال جانبك كان بسبب سوء سلوكه مع بعض صبيان الماغوصة، حيث تبادل الأمير الضرب مع ذوي أحد الصبية، ثم عمد الأمير إلى ضرب موفدي الملك جاك، ثم ضرب الملك نفسه بعد ذلك وأوقعه مغشياً عليه، فهجمت عليه العامة وانتهى الأمر بمقتل الأمير وخمسة وعشرين من مماليكه[2].

لكن شقيقة الأمير المغدور لم تقتنع بالرواية وأرادت الانتقام فأرسلت من يقتل الملك جاك الثاني متخفياً بصفة تاجر، فتحايل عليه ووثب ليقتله، فأصابه إصابة غير قاتلة ثم هب حراس الملك فقضوا عليه ونجا الملك[3].

لم يبق أمام جاك سوى احتلال كيرينيا، لكن فرسان الملكة شارلوت كانوا شديدي المراس، وكانوا يعتمدون على تحركها الدبلوماسي في الغرب، لإنقاذ القلعة والجزيرة من خطر جاك الثاني. فارسلت شارلوت موفدها الجديد توماس باردو (Thomas Pardo)، الذي تمكن من إقناع السلطان بأحقيتها في الملك، كما أظهرت من الكياسة والفطنة ما جعلها تتوسط في خلاف نشب بين البنادقة والأسبتارية في 20 أيلول 1464م/ 869هـ [4]. كما أدى حسن صلتها بالكرسي الرسولي إلى استمرار البابا في مكاتبة كبير الأسبتارية لشكره على دعم صمود شارلوت ولويس، والتمني عليه القيام بوساطة أخيرة بين جاك وشقيقته، فاستجاب كبير الأسبتارية وأرسل موفده إلى الجزيرة لمقابلة جاك وعرض الصلح، فأبدى جاك تفهماً ظاهرياً، لكنه اشترط أن تجري المفاوضات بوجود شارلوت شخصياً،

---

[1] De Mas Latrie. OP.Cit. VOL III, P: 128-129-130-392.- Hill, Op. Cit. P: 591.

[2] إبن تغري بردي ، المصدر ذاته ، ح 16 ص 285-286-333.

[3] Bustron, Op.Cit., P:416-417- Hill, Op. Cit. P: 592.

[4] Hill, Op. Cit. P: 593.

مما كان سيعرض حياتها للخطر في حال انتقالها من رودس إلى قبرص، وبذلك باءت آخر محاولات الصلح والتفاوض بالفشل.
كانت مواقف الأطراف جميعاً واضحة، إلا موقف البندقية، فقد أعانوا الشقيقين الخصمين بالحد الأدنى، واستمهلوا الطرفين لتنفيذ الوعود، واعتذروا عن إرسال الذخيرة إلى قبرص لصالح الملك لويس والملكة شارلوت، بحجة عدم إغضاب السلطان في مصر[1]. وكان جلّ همهم هو التعاون مع من سيسطر على الجزيرة أخيراً، لأن حسابات البندقية تختلف عن بقية الحسابات، فقد أقفلت تجارتهم في البحر الأسود وخسروا عدداً كبيراً من مستعمراتهم في بحر إيجه، وصار همهم الأوحد إيجاد البدائل في قبرص ورودس وأمثالهما .
وجاء موعد حسم مسألة كيرينيا مع حلول خريف العام 1464م/ 870هـ، حيث كان المعتصمون قد استنفدوا المؤن وأكلوا الجياد والدواب والقطط والكلاب وحتى الفئران، وكان صمودهم فوق درجات الاحتمال، ولم يفقد جاك الثاني صبره ولا حيلته، فأرسل إلى "سور دو ناف" قائد الحامية يعده بالزواج من ابنته غير الشرعية التي تدعى شارلوت ايضاً، ووعده أن يصبح من أغنى أغنياء قبرص، مما دفع "سور" إلى التخلي عن مهمته اليائسة واستسلمت الحامية[2].
إستغرقت الحرب الأهلية 4 سنوات، إنتهت بإسقاط الحكم الشرعي للملكة شارلوت وبتنصيب جاك الثاني ملكاً على الجزيرة في سنة 869 هجري/1464م، وبتحرير فماغوستا من السيطرة الجنوية. وبقي جاك الثاني يعيش هاجس خلعه وانتزاع الحكم منه طيلة حياته. وبقيت شارلوت وزوجها يطالبان بالحكم ويسعيان للعودة إلى السلطة.
كانت مساعدة ذوي الملك لويس سافوا ضئيلة بالنسبة للجهد المطلوب، مقارنة مع ما كان يغدقه جاك الثاني على أنصاره، ولو وصلت الأموال التي جمعتها أسرة سافوا والتي قدرت بستماية ألف فلورين ذهبي إلى حيث ينبغي ، لتمكن لويس وشارلوت من قلب الصفحة في قبرص.
توفي والد الملك المخلوع لويس سافوا في وطنه الأم سنة 1465م/ 870هـ، وتوفي ابنه الملك لويس في نيسان سنة 1482م/ 888هـ، وواصلت شارلوت اتصالاتها بدول الغرب، مما دفع بالبندقية التي أخذت تسيطر على الجزيرة القبرصية إلى الحؤول دون اتصالات شارلوت بجنوا ودون إتمام زواج شارلوت من إبن فرديناند ملك نابولي. ووصل البنادقة معها لدرجة تهديدها بالقتل، إذا وطئت قدماها أرض قبرص في يوم من الأيام. ثم أصيبت بطرف شلل فتخلت عن

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:103.
[2] Bustron, Op.Cit., P:411-Hill, Op. Cit. P: 594.

الملك عام891هـ/ 1485م، لصالح قريبها دوق سافوا شارل الأول [1]. وما أن توفيت في 16 تموز 1487م/ 893هـ، حتى سارع آل سافوا إلى وضع شعار مملكة قبرص على دروعهم، لكنهم لم يطالبوا بالعرش إلا بعد فوات الأوان عام1043هـ/ 1633م[2].

ومع أن الملك قد استتب لجاك الثاني بعد سقوط كيرينيا، فإن الظروف المحيطة بقبرص في ذلك الوقت كانت متأججة ومتقلبة، وحاول جاك الثاني خلالها المحافظة على الجزيرة بقدر الإمكان، فاستثمر علاقاته مع الأسبتارية في رودس لترطيب العلاقات مع القرمان، الذين هددوا الجزيرة مراراً، وكان العداء للدولة العثمانية يجمع ما بين القرمان والأسبتارية.

كما استعملت البندقية بعض المرافيء القبرصية كمرفأ عبور للأسلحة المرسلة إلى صاحب فارس الجديد، أوزون حسن، من مدافع وذخائر ومعدات لكي يتمكن من التصدي لجيش محمد الثاني العثماني في بر آسية الصغرى[3].

وشارك الأسطول القبرصي مع أسطول البندقية في عمليات الدعم البحري للجيش الفارسي في الحملة المذكورة، إلى أن اصطدم الجيشان في معركتي تارجان وأرزنجان سنة878هـ/ 1473م، وانهزم الفرس، ودانت آسية الصغرى بعد ذلك برمتها للدولة العثمانية[4].

وحافظ جاك الثاني على التحالفات المسيحية التي كان يتعهدها ملوك لوزينيان من قبل، ففيما كان البنادقة يقومون بتجهيز أسطولهم للتصدي لحملات العثمانيين البحرية على جزر المتوسط، كان جاك الثاني يقوم هو أيضاً بتجهيز الأسطول القبرصي للمشاركة في إعداد أسطول غربي ضخم قوامه أساطيل البندقية وصقلية وقبرص ورودس. كما كان يراوغ في المفاوضات مع السلطنة العثمانية، بإيعاز من البنادقة، كسباً للوقت حتى تتم الأساطيل الغربية استعداداتها[5].

أدت الحرب الأهلية إلى تردي الأوضاع الاقتصادية في المملكة، وإلى قلة موارد الدولة القبرصية بعد أن وزع جاك الثاني معظم أراضي الجزيرة على الضباط المناصرين، مما أعجزه عن تغطية نفقات الملك، كما فاقت ديونه كل وصف. وازداد الأمر سوءاً حين ضرب الجوع الجزيرة بشكل سافر، مات من جرائه العديد

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:151.

[2] Hill. Op. Cit. P:614.

[3] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P: 387.

[4] بروكلمان، المرجع ذاته، ص439.

[5] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:335. -Hill,Op.Cit. P:625.

من السكان سنة874هـ/ 1469م، ثم تفشى الطاعون فيها سنة875هـ/ 1470م، واستمر لمدة سنتين ونصف هلك من جرائه ثلاثة أرباع السكان[1].

ازداد اهتمام البنادقة بالجزيرة إعتباراً من عام875هـ/ 1470م، بعد سقوط بعض مستعمراتهم وأهمها نيغروبونتي (Negroponte) بأيدي الترك. فقاموا بتحريض الدولة الفارسية على احتلال آسية الصغرى ووعدوا صاحبها أوزون حسن بدعمه بحراً وبإمداده بالمدافع وبالخبراء في صراعه مع العثمانيين، كما أسلفنا، وبدأوا يستعدون لتحضير الجزيرة القبرصية كمركز أساسي سياسي وإقتصادي هام يتوسط مناطق إهتمامهم وتجارتهم. وأخذت الجزيرة في عهدهم تعرف شيئاً من الإزدهار وأخذ النمو السكاني بالاضطراد.

جعلت الظروف الداخلية والخارجية لجزيرة قبرص، جاك الثاني يعيش قلقاً متواصلاً خوفاً على المملكة، وكان يصفها بأنها "تعيش بين فكي زوج من الذئاب المملوكي والعثماني"، والملفت أن السلطان قايتباي استقبل عام 876هـ/1471م، رسولاً إفرنجياً من ملك قبرص لتقديم الضريبة المقررة من صوف وغيره، وتبين له أنه الرسول ذاته الذي أوفده الملك القبرصي إلى "متملك الروم" يسأله أيضاً أن يكون القبرصي "تحت نظره" . وكان جاك الثاني رغم تحالفه مع البندقية يخشى من سيطرة البندقية على فماغوستا، مما دفعه إلى رفض دخول سفن البندقية إلى فماغوستا عام878هـ/ 1473م، لأنها محملة بالمدافع والذخائر والجند لدعم أوزون حسن في معركته ضد السطان محمد الثاني، مخافة انتقام الأخير منه، كما منع أياً من جنود الحملة أن تطأ قدماه البر في فماغوستا خشية سيطرة البنادقة عليها كما فعل الجنوية من قبل[2].

واجتهد جاك الثاني للحصول على إعتراف بعض دول الغرب بشرعية حكمه، وأكثر من إرسال الموفدين إلى الدول الإيطالية مطالباً بذلك، وكان أكثر ما يقلقه هو تجاهل الغرب المستمر في عدم إيراد قبرص ضمن التحالفات التي كانت تعقد بين دول المواجهة ضد الترك[3].

استفاد الملك القبرصي من حسن علاقته بالبنادقة، ليتقدم لخطبة فتاة نبيلة من البندقية تدعى كاترين كورونارو (Catherina Coronaro) عام877هـ/ 1472م[4]، وصارت البندقية تسعى بكل قواها لتنفيذ هذا الزواج بعدما تبين لها أن ملك نابولي يسعى لإفشاله ولتزويج جاك من فتاة أخرى[5]. وكانت البندقية تراوغ

---

[1] Hill,Op.Cit. P:645.

[2] الصيرفي، إنباء الهصر بأنباء العصر، ص441.- Hill.Op.Cit. P:626 -

[3] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:320.

[4] Ibid. P:182.

[5] Ibid. P:307.

بالطرق الدبلومسية وباللياقات مع ملك نابولي ورجاله الموفدين إلى قبرص، لتتمكن من تنفيذ مخططاتها[1].

وفي فترة حكمه الأخيرة أخذت موارد قبرص التجارية ومواردها الأولية تنضب تدريجياً مما أدى إلى هجرة اليد العاملة منها تباعاً، ولم يعد بالإمكان أن تبقى قبرص العين الفرنجية الساهرة في مواجهة السلطنة المملوكية[2]. وأخذ الملك يفقد أعصابه ويكثر من توجيه التهديد والشتائم مما تسبب له بجو من الكراهية حوله لدرجة تآمر البارونات لقتله، فلما اكتشف المؤامرة وقام بتصفية المتآمرين ازداد تمسكه بطلب الحماية من البندقية حفاظاً على المملكة والملك وعلى زوجته الحامل بابنه المنتظر وووريثه من بعده[3].

ولما شعر بالخطر المحتم من الداخل والخارج، لم يجد بداً من أن يلتجيء للاختباء في فم الأسد، فطلب من جمهورية البندقية رسمياً وضع مملكة قبرص والعائلة المالكة القبرصية تحت حماية الجمهورية، التي رحبت بالطلب وسارعت إلى التلبية.

رزقت كاترين كورنارو من جاك الثاني بطفل سمّي "جاك الثالث"(ت879 هـ/ 1473 – 1474م)، كان والده الملك قد توفي في منتصف سنة878هـ/ 1473م، قبل أن يرى ولده النور، وأشيع أنه قضى مسموماً على يد أهل زوجته للتخلص منه ولإتمام سيطرة البندقية على الجزيرة. ثم لحق الطفل جاك الثالث بأبيه، قبل أن يتم السنة الأولى من عمره ، في ظروف تخللتها شوائب كثيرة لأن وفاتي الملك الأب والوريث الإبن لم تكونا طبيعيتين[4].

وعلى أثر وفاة الملك جاك الثاني، أرسل بارونات قبرص الموفدين إلى مصر وروما والبندقية لنعي الملك المتوفي وإعلام الدول الأساسية بتسلم الملكة كاترين زمام الملك بانتظار ولادتها لولي العهد.

كان رصيد البنادقة في الجزيرة سلبياً، وكان النفوذ الأقوى للنبلاء الغرباء الجدد الذين آزروا الملك الراحل في الحرب الأهلية ضد شقيقته شارلوت، ولم يكن أنصار الملكة المنفية ليستهان بهم، فقد كانت لا تزال على قيد الحياة، وكانوا يأملون بإعادتها إلى السلطة من جديد.

وجد البنادقة أن الظروف تقضي بمهادنة الأطراف جميعاً والعمل على تقوية وجودهم من خلال الملكة الفتية كاترين، فوقف عمها أندريه إلى جانبها ومعه لفيف من البنادقة النافذين، مما دفع فريق النبلاء الأجانب من صقالبة وكاتلان وعلى

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III P:411.
[2] Edbury , Op.Cit. P: 211.
[3] Bustron, Op.Cit., P:426-428.
[4] Ibid. P:433.- Hill,Op.Cit. P:651.

رأسهم أسقف نيقوسيا لويس فابريغيز (Louis Perez Fabregues) وشقيقه حنا وريزو دي مارتينو (Rizzo di Martino) وقائد الجيش جاك زابلانا (Jacques Zaplana) ولويس ألبيريك (Louis Alberic)، إلى تدبير مؤامرة لتصفية كبار النافذين البنادقة، بما يمهد لتعزيز نفوذ فرديناند ملك نابولي، عبر زيجات بعض أسرته مع أفراد من أسرة دو لوزينيان المالكة، فتحولت المؤامرة إلى مذبحة حقيقية في 13 تشرين الثاني 1473م/ 879هـ، في فماغوستا، ذهب ضحيتها أندريه كورنارو عم الملكة وابن خالتها مارك بمبو (Marc Bembo)، ونبلاء مقربون آخرون، طارت رؤوس بعضهم على مرأى من الملكة المرتعشة[1].

وبكل وقاحة، أجبرت الملكة كاترين على توقيع رسالة إلى البندقية، تعزو فيها أسباب مقتل عمها والآخرين، إلى أعمال شغب قام بها الجنود الذين تأخرت السلطات في دفع رواتبهم.

كما أرسل المتآمرون أسقف ليماسول مع الفارس "حنا مستاهل" (Sire Jean Mistahel) إلى البندقية، لشرح الأمر، لكن دوج البندقية أمهل هؤلاء بضع ساعات لمغادرة الجمهورية، إذ لم تنطو تلك الادعاءات على أحد. فقد بلغ وضع الملكة من السوء أنها فقدت كافة صلاحياتها وثروتها ومقتنياتها الثمينة وتحولت إلى شبه خادمة في قصرها[2].

تصرفت البندقية ببطء وحذر تجاه الأزمة في قبرص، خوفاً من خوض حرب أهلية كما أخطأت جنوا من قبل، بحيث لا يتكاتف المعارضون ضدها، وفضلت اتباع سياسة قضم الأرض والسلطات والسعي لاهتراء الخصوم. وفي 31 كانون الأول 1473م/879هـ، أنزل البنادقة في فماغوستا قوة من 700 رجلاً، مع تعليمات بوجوب حماية الملكة والمملكة ومنع اي تدخل أجنبي على أرض الجزيرة[3]. وجعلوا المدينة والمرفأ تحت سيطرتهم الفعلية وصار الكتالان يتجنبون ارتياد تلك المنطقة، وبدأ كبار المتورطين في المذبحة يفرون من الجزيرة، ومعهم كميات ضخمة من الأموال والمجوهرات، تاركين رجالهم خلفهم ليدلوا بحقائق تفصيلية مثيرة، بعد أن ألقي القبض عليهم. ومن بين تلك المعلومات نوايا المتآمرين لقصد السلطان في القاهرة وتأليبهم ضد كاترين وإعادة الملكة شارلوت إلى الحكم[4].

---

[1] Bustron, Op.Cit.,., P:438-439- Hill,Op.Cit. P:673.
[2] Hill, Op.Cit..P:684-691.
[3] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:362.
[4] Bustron, Op.Cit., P:445-Hill, Op.Cit..P:685-687-688-696.

ومن علامات ضعف الحكم في المملكة، أن أسقف نيقوسيا الهارب، بقي يتلقى بعد المؤامرة ومن منفاه، عائدات أملاك الأسقفية، ويرسل قسماً منها بدوره إلى الفاتيكان، بينما قامت العامة باختراق قصور الهاربين ونهب محتوياتها[1].

وفي منتصف كانون الثاني 1475م/880هـ، اجتمع مجلس الشيوخ في البندقية وأصدر تعليماته لموفديه في قبرص ولأميرال البحر بيار موسينيغو (Pierre Mocenigo)، باتخاذ كافة الإجراءات التي يرونها ضرورية للمحافظة على الملكة وعلى الحكم وعلى تأمين انتقال الحكم إلى الطفل الوريث ما دام حياً، مع الإذن باستعمال القوة عند الضرورة للحفاظ على حياة الملكة وابنها. وشدد المجلس على منع أية قوة اجنبية من أن تطأ الجزيرة والحؤول دون حصول أي عملية زواج بين أسرة دو لوزينيان وأسرة ملك نابولي مهما كلف الأمر. وأن توضع القلاع والحصون في الجزيرة تحت سلطة وإشراف البنادقة مباشرة، وخاصة فماغوستا وكيرينيا ولو باستعمال القوة [2]. وأن جمهورية البندقية قد ضربت صفحاً عن مرتكبي جريمة قتل اندريه كورنارو عم الملكة، وأنها قبلت العذر الذي ادعاه الجناة بأنه قتل بسبب بخله، وخصصت مبلغ عشرين ألف دوكا لدعم تنفيذ هذه الإجراءات، أوصلِت عبر "أسطول بيروت"، التابع للبندقية. كما سارعت البندقية إلى مكاتبة فرديناند ملك نابولي بلياقة وبتهديد مبطن، بوجوب سهر البلدين على حسن العلاقات السلمية بينهما[3].

وخلال أقل من شهر، أتم البنادقة في قبرص المهمة الموكولة إليهم إنطلاقاً من فماغوستا وصولاً إلى نيقوسيا، وأحكموا القبضة على القلاع والحصون في الجزيرة، ووضعوها تحت الحراسة المباشرة لقواتهم. وفي 3 شباط 1475م /880هـ، دخلت سفن أميرال البحر موسينيغو إلى مرفأ فماغوستا، وقام بزيارة الملكة ثم عرض بحضورها قواته العسكرية الضخمة.

ولكي تتمكن قوات البندقية من تنفيذ المهمة الموكولة إليها، سمح لها مجلس الشيوخ باستعمال الأسلحة والمدافع والذخائر التي كانت البندقية قد أعدتها لنجدة أوزون حسن في معركته ضد العثمانيين، خاصة بعد أن بلغها نبأ هزيمته[4].

وعلى أثر موت الملك الرضيع جاك الثالث، وبانقراض سلالة دو لوزينيان صارت حياة الملكة كاترين في خطر محقق وكذلك مصير العرش القبرصي ومصالح البندقية التي قررت السيطرة التامة على الجزيرة، فأعطى مجلس الشيوخ في

---

[1] Hill, Op.Cit..P:698.
[2] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:371.
[3] Bustron, Op.Cit., P:446-Hill, Op.Cit.P: 690-691.
[4] Hill,Op.Cit.,P:709.

البندقية تعليماته، بتوقيف بعض النبلاء القبارصة والتحقيق معهم ولو اضطر الأمر إلى تعذيبهم[1].

ولم يكتف البنادقة بالتحقيق مع المشتبه بهم، بل سعوا إلى التخلص من كل البارونات القبارصة النافذين تحت مختلف الذرائع، فأمروا أبرز البارونات المخلصين للمملكة وحتى للبنادقة بالتوجه إلى البندقية، بحجة مكافأتهم وشكرهم على أعمالهم الوطنية، ومن بينهم بيار دافيلا (Pierre Davila) الذي رسمه جاك الثاني من قبل فارساً، وكونت دو روشا (comte De Roucha)، والبارون حنا دو راس (Jean De Ras). ولم يعد إلى قبرص أحد منهم بعد ذلك[2].

ومن الذين وصفوا وضع مملكة قبرص في حينه وصفاً صحيحاً كان الأباتي سيمون دو سانت أندريه، رئيس دير الصليب المقدس في ستافروفوني (Stavrovouni)، إذ يقول في رسالة سببت له السجن والاضطهاد: "أضحت الجزيرة اليوم بين أيدي البنادقة، فبعد أن فررنا من قبضة الكلب وقعنا في قبضة الأسد"[3].

كما ورد على لسان مارك كورنارو، والد الملكة كاترين والذي أرسله البنادقة لمواساتها بعد وفاة رضيعها، أنه أنّب مستشاريْها البندقيّيْن بوجود عدد من القبارصة قائلاً: "أنتما تتمنيان أن تسيطرا على كل شيء، وأن تجعلا من كاترين عبدة لا ملكة، وتودان لو تضعا القيود في يديها". مما جعله يرفض معاونة ابنته في إدارة شؤون المملكة، والعمل على وقف الهدر والنهب، كي لا يصطدم بهم، وقد أوشك أن يلقى حتفه مسموماً لهذا السبب.

ومع ذلك فقد مضى المستشاران في تنفيذ خطط البندقية بلا وجل، فمنعا الملكة من مقابلة كبار موظفيها، ومنعاهم كذلك من الاتصال بها مباشرة، قبل أن يعالجوا المشاكل العالقة معهما أولاً وليس مع الملكة. إضافة إلى اطلاعهما بالقوة على كافة الرسائل التي كانت ترد إليها دون استثناء، ناهيك عن رفضهما تخصيصها بنفقات الملك الشخصية البالغة ثمانية آلاف دوكا على الأقل سنوياً [4].

تصرف البنادقة بحنكة ودهاء خلال المرحلة الأولى من سيطرتهم على الجزيرة كي لا يثيروا ريبة الدول، فأبقوا على كافة مظاهر المملكة التي تحكمها ملكة، من حيث المظهر والشكل، وحافظوا على علاقات قبرص مع السلطان كي لا يستثيروا حفيظته.

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOLIII, P:394.
[2] Ibid. P:412.
[3] Hill,Op.Cit..P: 697.
[4] Ibid.P:716-717-719.

وراسل البنادقة البابا ومعظم دول الغرب، ليطمئنوا الجميع بأنهم يقومون بتنفيذ وصية الملك القبرصي الراحل بالمحافظة على ملكته ومملكته. لكن حقيقة الأمر أن الملكة لم تعد تحكم أبداً بل صارت توقع على القرارات التي تؤمر بتوقيعها، بحيث تظهر الأوامر للآخرين بأنها أوامر الملكة شخصياً.

كان قلق البندقية من خسارة قبرص حقيقياً وله أسبابه، فقد كان السلطان قايتباي يتعامل بحذق مع المسألة القبرصية، بحيث يرد بدبلوماسية على رسائل كاترين وموفديها مطالباً بتسديد المتوجبات عليها، بينما يستقبل موفدي الملكة المنفية شارلوت، ويؤوي المبعدين عن قبرص منهم، ويعدهم بمؤازرة شارلوت، حين تسنح الفرصة، بينما كان الأسبتارية في رودس ينظرون بعين الريبة والحذر من أن تؤدي سيطرة البندقية على قبرص إلى امتداد النفوذ البندقي إلى رودس نفسها، مما جعل الروادسة يميلون إلى دعم المعارضين لحكم كاترين في قبرص[1].

وصل العجز بالملكة كاترين إلى درجة عدم القدرة على إعطاء الأوامر بصرف الحمل السنوي المتوجب على قبرص لسلطان المماليك، مما جعل السلطان الأشرف قايتباي يقدم سنة 1476م/ 881هـ، على سجن السفير القبرصي "توماس فيكارد" (Thomaso Ficardo)، ولمدة سنتين، إلى أن أدرك المستشاران البندقيان للملكة خطورة الأمر، وأثره السياسي على انحياز السلطان لتأييد عودة شارلوت إلى الحكم، فأرسلا المبلغ المطلوب وأطلق السلطان سراح السفير القبرصي مع الاعتذارات واللياقات المناسبة للملكة كاترين[2].

ولم تكن شارلوت فقط هي التي تحلم بالعرش القبرصي، فقد كان فرديناند ملك نابولي يسعى لذلك وكذلك الملك فرديناند ملك أراغون هو الآخر، دون أن نغفل عن مطاردة الترك للبنادقة في كل مكان وعن طمعهم في احتلال قبرص ورودس، فقد طلب السلطان العثماني بايزيد في ربيع سنة 1488م/ 894هـ، إذناً بدخول سفنه إلى الموانيء القبرصية استعداداً لغزو المماليك في مصر، لكن البنادقة خافوا من أن يكون القصد احتلال الجزيرة، فاستنفروا أسطولهم للتصدي للأسطول العثماني إذا حاول الدخول بالقوة[3].

يضاف إلى ذلك القلق الداخلي في قبرص، جراء اعتراض عموم القبارصة على الوجود الأجنبي بصورة عامة، وعلى وجود قوات البندقية بصورة خاصة، يضاف إلى ذلك الخلاف بين المسؤولين البنادقة أنفسهم داخل الجزيرة على الصلاحيات وعلى اقتسام المصالح[4].

---

[1] De Mas Latrie, Op.Cit. VOLIII, P:398.
[2] Ibid, OP.Cit.VOL III; P:405.
[3] Hill,Op.Cit...P: 736.
[4] Ibid. P:732-735.

تردد حكام البندقية في اتخاذ قرار السيطرة المباشرة على قبرص والقيام بنفي الملكة كاترين ، كونها كانت تتمتع برصيد جيد في الأوساط الشعبية فخافوا من النقمة والثورة وأعمال الشغب لكن القرار بنفيها أبلغ إلى الحاكم البندقي في قبرص في مطلع تشرين الأول 1488م/894هـ، مع وقف التنفيذ. كما خافوا من إثارة شكوك سلطان المماليك في مصر، ومع أن خبر وفاة الملكة شارلوت سنة 1487م/ 893هـ، أراح البنادقة من منافسة طالت زمناً طويلاً، فإن خبر رغبة الملكة كاترين بالزواج من "دون ألونزو" أعاد الخطر الصقلي إلى الواجهة وبجدية على جزيرة قبرص من قبل ملك نابولي وأسرته. فأصدر مجلس شيوخ البندقية تعليماته في 28 تشرين الأول 1488م/894هـ، بإحضار كاترين إلى البندقية والحؤول دون فرارها أو زواجها بأي ثمن، وأعطي شقيقها تعليمات بالسفر من البندقية إلى قبرص لمرافقة شقيقته[1].

بعدما أبلغت الملكة كاترين بقرار البندقية توفرت لديها نية الفرار إلى رودس، حيث سبقتها إحدى نسيباتها، فأوعز مجلس الشيوخ إلى قائد السفينة التي كلفت بإحضار كاترين، بوجوب التوقف في رودس والسعي لدى كبير الأسبتارية لمنع تقديم المساعدة للملكة، ثم أمر بمتابعة السفر إلى قبرص للقيام بمهمة إعادة كاترين إلى وطنها الأم[2].

وبوصول الملكة إلى البندقية في 6 حزيران 1489م/ 895هـ، طوى الزمن آخر ملوك قبرص اللاتينية. حيث استقبلت بحفاوة رسمية بالغة، ثم وقعت في منفاها مراسيم تخليها عن الملك لصالح جمهورية البندقية، مقابل امتلاك بعض القرى في إيطاليا حيث أمضت بقية عمرها وتوفيت في10 تموز سنة 1510م/917هـ[3].

وبعدها بدأ البنادقة بتوزيع الإقطاعات على النبلاء البنادقة بدلاً من القبارصة، واستقدموا إلى قبرص عائلات من البندقية ووطنوها في الجزيرة. واستمروا يحكمون قبرص بنظمها الفيودالية التي أخذت تضمحل شيئاً فشيئاً حتى تجرأوا على الإطاحة بما تبقى من النظام الملكي والأعراف الملكية فأداروا الجزيرة مباشرة وعلى طريقتهم في إدارة حكم مستعمراتهم المنتشرة في البحار.

كما حافظوا في الوقت نفسه على إرسال الحمل السنوي المقرر على جزيرة قبرص إلى السلطان في القاهرة، دون إبطاء أو تغيير حتى 21 ربيع الأول 923 هجري

---

[1] Bustron, Op.Cit., P:454.- De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:420.

[2] De Mas Latrie, Op.Cit. VOL III, P:429.

[3] Bustron, Op.Cit., P:458.

/13 نيسان 1517م، حين إنتهت الدولة المملوكية بشنق سلطانها الأخير طومان باي عند باب زويلة في القاهرة، على أيدي العثمانيين[1].

واتفق أن الدولة العثمانية كانت في ذلك الوقت منشغلة بحروب شتى وعلى كافة الجبهات فوافقت على عرض البندقية بدفع الحمل السنوي ذاته الذي كان مقرراً من مصرعلى قبرص ولكن إلى السلطان العثماني في الآستانة هذه المرة. وصارت جزيرة قبرص بعد أن فتحها المماليك محطة آمنة يقصدها التجار المسلمون وتمر بها سفن المماليك بسلام[2]. وفي أول محرم سنة 928 هجري/1521م وقّعت الدولة العثمانية وجمهورية البندقية معاهدة تجارية تؤكد المعاهدات السابقة، ومن ضمن بنودها أن تدفع البندقية إلى الدولة العثمانية نظير احتلالها جزيرة قبرص، مبلغ عشرة آلاف دوكا سنوياً[3]. وافقت البندقية وتمسكت بالاتفاق ليس طمعاً بثروات الجزيرة القبرصية بل بسبب موقعها الستراتيجي الذي يحمي للبندقية ما تبقى من خطوط مواصلاتها البحرية على السواحل المصرية والسورية ومع بلاد فارس[4].

وقام البنادقة بتدعيم أسوار الجزيرة وقلاعها بشكل لم يسبق له مثيل، حتى أنهم اضطروا لهدم بعض الأبنية الهامة والأثرية لإستخدام حجارتها الضخمة في أعمال التحصين، ووصل بهم الأمر إلى هدم كنيسة الدومينيكان، التي تحتضن مقابر ملوك اللوزينيان في نيقوسيا. لكن الهجوم العثماني بادر الجزيرة قبل انتهاء أعمال التحصين، فسقطت نيقوسيا في أيلول 1570م/978هـ، بعد 6 أسابيع من القتال واستسلمت كيرينيا دون مقاومة تذكر. أما الحامية التابعة للبندقية في فماغوستا فقد إستمرت تقاوم الحصار العثماني من أيلول 1570م وحتى آب 1571م/979هـ، حين استنفدت المؤن وفقدت الأمل بالنجدة من الغرب[5].

وبعد مغادرة البنادقة للجزيرة جرت مفاوضات طويلة بين الدولة العثمانية وبين جمهورية البندقية إنتهت بتوقيع معاهدة الصلح تنازلت فيها البندقية عن جزيرة قبرص وتعهدت بدفع غرامة حربية للدولة العثمانية قدرها 300 ألف دوكا.

لكن الملفت في هذا التاريخ الطويل أن القرصنة استمرت من كافة الأطراف نهبت خلالها مئات السفن واستعبِد خلالها آلاف الرجال والنساء، بحيث كانت الرحلات

---

[1] سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية ، بيروت ص282.

[2] إبن حجر، المصدر ذاته ج2 ص 197 – 198.- أبو المحاسن ، المصدر ذاته، ج 15 ص 360 أحداث سنة 847.-- Riley Smith , Op.Cit. P: 295

[3] فريد بك المحامي، محمد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس بيروت 1403هجري الطبعة 2، تحقيق د.إحسان حقي ص 202- 203 –204.

[4] George Jeffery, A Description of the Historic Monuments of Cyprus:,p:96.

[5] Riley Smith Op.Cit. P:297.

البحرية من أقل الرحلات أمناً وأكثرها خطورة، وكل ذلك تحت ذرائع دينية ووفق قرارات سياسية مشروعة [1].

ويتبين من عرض المرحلة الأخيرة من عمر مملكة قبرص اللاتينية أن عائلة دو لوزينيان اللاتينية المالكة صارت تكابد لتتمكن من الصمود والاستمرار، وذلك إعتباراً من الغزو المصري للجزيرة في العشرينيات من القرن الخامس عشر، وبعد ذلك خلال الحرب الأهلية فيها في الستينات، لتقع ضحية استعمار البنادقة لها خلال صراع على السلطة على أثر وفاة الملك جاك الثاني عام 1473م/ 878هـ. ولئن كانت المئة سنة الأخيرة من عمر المملكة اللاتينية قد شهدت صعوبات لا يمكن تذليلها، أحدثت تقهقراً وانحطاطاً، فإن المئتي سنة التي سبقتها أثبتت أن المملكة اللاتينية في قبرص كانت أنجح الممالك اللاتينية في الشرق على الإطلاق وأدومها وأكثرها ازدهاراً وتماسكاً، مباشرةً بعد العهود الزاهرة للإمبراطورية البيزنطية قبل بدء الحملات الصليبية إلى الشرق.

[1] فريد بك المحامي، المرجع ذاته، ص 258 – 261.

إستنتاجات أولية

يتبين من خلال ما سبق أن الموقع الجغرافي لقبرص كجزيرة تدين بالمسيحية وسط طوق إسلامي، عرّضها لضغوط كثيرة وأجبرها على القيام بأدوار عسكرية مميزة، فهي منذ الفتح العربي، أخذت تضطلع بمهام الدعم والتموين والنقل البحري وحتى المشاركة بالأعمال الحربية التي قام بها البيزنطيون والإفرنج من بعدهم.

ويبدو واضحاً أن الثمن الذي كانت هذه الجزيرة "الناعمة" تدفعه بعد كل عمل عسكري كان باهظاً ومحزناً، لما ينجم عنه من ردود فعل عنيفة تسبب الأسى والقتل والتدمير والتهجير.

وكلما كانت قبرص تنعم بشيء من الأمن والهدوء، كانت تسترد عافيتها بسرعة فتزدهر تجارتها وتتمتع بثروات وافرة نتيجة تلاقي تجارتي الشرق والغرب في أرجائها، خاصة عندما تكون الأوضاع غير مستقرة في المناطق المملوكية والتركية.

لكن الثروات والامكانات قد تنقلب من نعمة إلى نقمة، عندما تستخدم لتعزيز القوة وإعداد الجيوش وبناء الأساطيل، وتمويل الحملات العسكرية. وحينما يصاب ضباط الجيش بالغرور، يدفع حكام الجزيرة إلى الحرب دفعاً، فيخوضوا غمارها ليقطفوا ثمارها، لكن ثمار الحرب غالباً ما يكون مذاقها مرّاً.

فالدرس الذي تعلمناه من الحملات المتكررة التي قامت بها مملكة قبرص اللاتينية أو شاركت فيها، على دمياط وعلى الاسكندرية، وحتى على طرابلس واللاذقية، أن مناطق الشرق الإسلامي مترامية الأطراف، وإذا اعتراها ضعف في تلقي الضربة الأولى، فهي كانت تمتع بعمق طبيعي ومد بشري يتيح لها استيعاب الهجمة واحتوائها. بينما كان المهاجم يحتاج إلى مئات السفن لنقل الجند والعتاد في الشوط الأول، ثم عليها أن تمخر عباب البحر جيئةً وذهاباً لعشرات المرات، لتأمين المزيد من المؤن والذخائر دون توقف. وهذا ما لم تكن تقدر عليه كبريات الممالك الأوروبية لا متفرقة ولا مجتمعة.

ولا بد من ملاحظة العلاقة السلبية التي سادت بين الامبراطورية البيزنطية وبين الغرب الأوروبي، خلال الحروب الصليبية قاطبة، فقد عجز الطرفان عن توحيد أهدافهما وعن تنسيق أعمالهما الحربية. وسواء كانت أسباب الخلاف دينية مذهبية أو نجاح الدبلوماسية الإسلامية في تحييد البيزنطين عن الصراع الدائر في الشرق، فقد كانت النتيجة واحدة وهي عدم تضافر الجهود المسيحية، إن صح التعبير، في عمل عسكري منظم واحد، يهدف بإخلاص إلى استعادة بيت المقدس.

أما على مستوى الأداء في الحكم، فلا بد من التنويه بكفاءات بعض ملوك لوزينيان الذين ثبّتوا الملك لمن أتى بعدهم من ورثتهم، مثل عموري أول ملك لقبرص

اللاتينية، أو بعض الملوك الذين تفادوا سطوة المماليك، ليتسنى لهم ترتيب أوضاع الملك والمملكة وليتفرغوا لمعالجة مسألة التقدم التركي في آسية الصغرى وترويضه، مثل الملك هوغ الرابع والد بطرس الأول. ولعل أغلبية ملوك هذه الأسرة تمكنوا من الصمود على عروشهم مستفيدين مما بناه أمثال هذين الملكين الجديرين.

كما لا يمكن تجاهل هذا الثقل الذي ثبّت النظام الفيودالي في قبرص، في كل مرة اهتز فيها هذا النظام، وهو الدور الداعم الذي قامت به أسرة إيبلان، فحفظوا الملك والمملكة في عهود الملوك الصبية، وقاتلوا نيابة عنهم، وتعهدوا النظام الفيودالي بالتذكير بالقوانين وبضرورة احترام تطبيقها.

وبالنظر إلى الدور الهام الذي اضطلعت به هذه الجزيرة اللاتينية الصغيرة، المتقدمة في محيط إسلامي ضخم، لا بد من التساؤل عن النتائج العملية للدعم النظري والمعنوي الذي قدمته الدول الأوروبية، وعلى رأسها فرنسا، وكأن أسرة بوربون الملكية الفرنسية لا تميل إلى وجود أسرة فرنسية أخرى تحمل الألقاب الملكية، وقد تشكل لها منافسة حقيقية في يوم من الأيام.

ونجد في بقية الممالك والمدن الأوروبية الغربية أداءً أكثر وضوحاً لنوايا مبيتة، فالكل متربص، مثل ملكي أراغون وصقلية، الطامحين إلى الحلول مكان أسرة دو لوزينيان، وثمة من يريد أن يأخذ من قبرص أكثر مما يريد أن يعطيها، ولا شيء يعطى بالمجان تبدأ بطلب الامتيازات وتنتهي بالسيطرة إما على الشطر المنتج من الجزيرة كما فعلت جنوا بفماغوستا، أو السيطرة على الجزيرة بأكملها كما فعلت جمهورية البندقية لاحقاً.

حتى أن معظم المؤرخين الغربيين لم يترددوا في السؤال المحرج عمن وقف وراء زوال مملكة قبرص اللاتينية، أهم المماليك والعثمانيون، أم الجنويون والبنادقة؟

ولئن أطلنا في استعراض التاريخ السياسي للمملكة القبرصية اللاتينية، فلا بد أن نوجز العوامل السياسية التي تسببت بالقضاء على هذه الظاهرة الفريدة في التاريخ الوسيط، مما دفع إلى محو مجدها التليد ولم يبق منها سوى بضعة آثار عمرانية.

فمن هذه العوامل:

–المغامرة القبرصية الأوروبية لغزو الاسكندرية والتي أعطت دفعاً معنوياً مؤقتاً، في مقابل خسائر فادحة لاحقة، على المستويات الاقتصادية والسياسية الداخلية والخارجية.

–الضربات الجنوية المتتالية للمدن القبرصية وخاصة لمدينة فماغوستا التي كانت تتهيأ للحلول مكان مدينة الاسكندرية في الشرق.

–إحتلال المماليك لأجزاء من الجزيرة وإخضاع ملوكها لهم بصورة نهائية.

–إستيلاء البنادقة على الجزيرة وإلغاء النظام الملكي فيها وتطبيق النظام الاستبدادي الاستغلالي في قبرص مثلها مثل سائر مستعمرات البنادقة الأخرى، فقضي على النظام الفيودالي الضامن لاستمرار النظام الملكي اللاتيني.
–العداء المستحكم للملوك اللاتين ضد الدولة الإسلامية في الشرق واعتبار قبرص ممثلة لكل الغرب خلال فترات الحرب والسلم على السواء، فكانت متحمسة للصراع الديني السياسي بين الشرق والغرب أكثر من الدول والمدن الغربية الرئيسية والتي لم تقفل قنوات الحوار مع المسلمين في أغلب الظروف ورغم كل الحملات والمعارك.
–ضعف الحكم الداخلي وسوء إدارة البلاد من قبل معظم ملوك لوزينيان مما أفسح في المجال أمام التدخل الأوروبي في الشؤون الداخلية القبرصية، فصار لكل مدينة تجارية جماعتها من النبلاء القبارصة، يلوذون بحماها ويستعينون بجاهها مقابل حظوات ومكافآت وحتى جنسيات شرف تهدى إليهم.
–فقدان بعض ملوك قبرص اللاتينية للنظرة الستراتيجية، بحيث ناصبوا العداء لكل المناطق الإسلامية مجتمعة وبدون استثناء بدلاً من مهادنة البعض ومقاتلة البعض الآخر. وفي هذا المجال تبدو براعة المماليك في فتح قنوات الحوار مع الغرب الأوروبي ويظهر تفوقهم السياسي بحيث يجعلوا الحل العسكري في أسفل قائمة الحلول .

وللإنصاف فإن من ينظر إلى تاريخ الجزيرة القبرصية، الذي سبق المرحلة اللاتينية وإلى تاريخها الحديث كذلك، يرى بوضوح وبموضوعية أن هذه الجزيرة تفتقر إلى الموارد الداخلية والامكانات الذاتية، وأنها لا تشهد ازدهاراً إلا حين يصبح لها دور سياسي فريد في المنطقة، أي عندما يطلب منها أن تكون عيناً ويداً للغرب على الشرق، وهي الحالة الغالبة لأسباب جغرافية وديموغرافية، ودينية وسياسية، أو عيناً ويداً للشرق على الغرب وذلك من النادر، مثلما أصبحت بعد احتلالها قاعدة مملوكية لانطلاق الحملات المملوكية إلى رودس.
في مثل تلك الظروف، نلاحظ ان الخارج يغدق على الجزيرة خيراته المشروطة، والتي تعود عليها بالنفع المؤقت، ثم بانتكاسات وبمشاعر النقمة من محيطها الخارجي، وبمشاعر الأسى والأسف من سكانها، لكونهم فقدوا الأمن والسلام والازدهار، فيعودون إلى العزلة عن محيطهم وإلى التبعية الحتمية للغرب طلباً للحماية والدعم من جديد.

Mohamad Farshoukh
Bdier. Gen. P.H.D.

THE LATIN KINGDOM OF CYPRUS

Relations between
The Islamic Orient & Europian Occident

(The Extension of Medieval Crusades)

(1192 - 1489 A.C.)

BEIRUT
2012